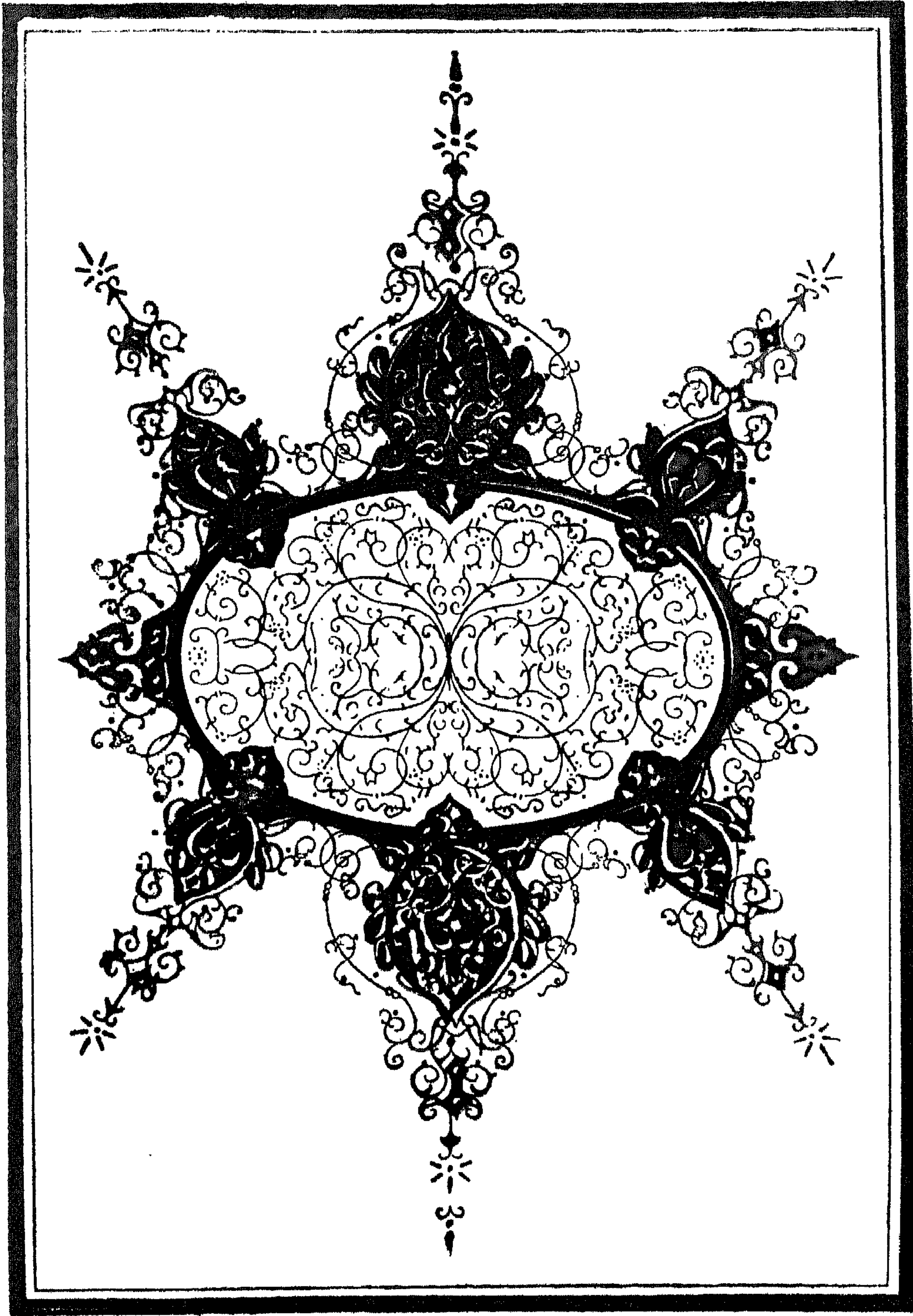


مجلة مجمع اللغة العربية



الجزء الثالث والثلاثون

ربيع الثاني ١٣٩٤ هـ

مايو ١٩٧٤ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٢٦ شارع مراد بالجيزة

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الثالث والثلاثون
ربيع الثاني ١٣٩٤هـ - مايو ١٩٧٤م

المشرف على المجلة:

د. إبراهيم أنيس

رئيس التحرير:

إبراهيم التري

الفهرس

تصدير :

- دفرسوار
للدكتور ابراهيم انيس
ص ٧
- معنى « كاد » في الاثبات والنفي
للدكتور أحمد الحوفي
ص ٥٨

بحوث ومقالات :

- العربية لغة العلم والتكنولوجيا
للدكتور ابراهيم مذكور
ص ١٤
- ثلاث قصائد تاريخية
للدكتور اسحاق موسى الحسيني
ص ٦٦
- من الدراسات اللغوية
في بعض الآيات القرآنية
للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج
ص ٢٣
- كتاب « الجيم » لأبي عمرو الشيباني
للدكتور مراد كامل
ص ٧٢
- اللغة العربية :
هل هي لغة عصرية للعلم الحديث ؟
للأستاذ محمد شوقي أمين
ص ٨٠
- الفارسي في الاغفال
للأستاذ علي النجدي ناصف
ص ٣٥
- ثراء اللغة العربية بأصول المصطلحات
الجيولوجية
للدكتور محمد يوسف حسن
ص ٩٣
- خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي
للدكتور عبد الحليم منتصر
ص ٤١



شخصيات مجمية :

استقبال :

● كلمة الأستاذ زكى المهندس فى استقبال:

الأستاذ مصطفى مرعى

ص ١٧٨

● كلمة الأستاذ عبد العزيز محمد

ص ١٧٩

● كلمة المرحوم الأستاذ عزيز أباطة

ص ١٨٢

● كلمة الأستاذ مصطفى مرعى

ص ١٨٩

تأبين :

● كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين :

المرحوم الأستاذ على الجندى

ص ١٩٦

● كلمة الأستاذ عباس حسن

ص ١٩٧

● التطور اللغوى بين القوانين الصوتية والقياس

للدكتور رمضان عبد التواب

ص ١٠٩

● ملاحظات حول أنواع الألفاظ العربية فى اللغة العربية المعاصرة

للأستاذ نيقولا دوبريشان

ص ١٢٧

● فى القرآن والعربية :

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

ص ١٣٥

تعريف ونقد :

● خريدة القصر وجريدة العصر للعماد

الأصبهاني (الجزء الرابع) حققه

وشرحه الأستاذ محمد بهجة الأثرى

تعريف ونقد :

الأستاذ محمد عبد الفنى حسن

ص ١٦٢

- كلمة الأسرة للأستاذ أحمد فؤاد تيمور
ص ٢٤٧
- كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين :
المرحوم الدكتور طه حسين
ص ٢٤٩
- كلمة الدكتور ابراهيم مذكور
ص ٢٥١
- كلمة الدكتور حسنى سبيع
ص ٢٥٧
- قصيدة الدكتور عبد الرازق
محيى الدين
ص ٢٦١
- كلمة الأستاذ محمد رفعت
ص ٢٦٣
- كلمة الدكتور محمد كامل حسين
ص ٢٦٨
- كلمة الأسرة للأستاذ عبد المجيد حسين
ص ٢٧٣

من أنباء المجمع :

- قصيدة الأستاذ محمد عبد الفنى
حسن
ص ٢٠١
- كلمة الأسرة للأستاذ محمد الفساح
الجندى
ص ٢٠٣
- كلمة الدكتور أحمد الحوفى فى تأبين
المرحوم الأستاذ عزيز أباطة
ص ٢٠٥
- قصيدة الأستاذ العوضى الوكيل
ص ٢٢٢
- كلمة الأسرة للأستاذ ثروت أباطة
ص ٢٢٣
- كلمة الأستاذ زكى المهندس فى تأبين
المرحوم الأستاذ محمود تيمور
ص ٢٢٥
- كلمة الأستاذ محمد خلف الله أحمد
ص ٢٢٦
- قصيدة الدكتور ابراهيم الدمرداش
ص ٢٤٦

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

تَطْطِير

دَفْرَسُوَار

للدكتور إبراهيم أنيس

الاسم « دفرسوار » فجأة في أثناء معركة رمضان ، وأصبح على كل لسان في تلك الأيام المريرة ، مرتبطا - ويا السخرية القدر - باسم البحيرات المرة !!



وجذبني الاسم بوصفي لغويا جذبا قويا ، لغرابته أولا ، ولما يوحى به جرسه من صلة وثيقة باللغة الفرنسية ، لغة « ديليسيس » المهندس الفرنسي الذي خطط لمشروع قناة السويس ، وتولى تنفيذها مستغلا في ذلك عرق العمال المصريين ودماهم !!

وشرعت أتساءل عن تأصيل الاسم « دفرسوار » الذي ظل وحده بين أسماء منطقة القنال ، يحتفظ بتلك المسحة أو السحنة الأجنبية عنا !!

وبرغم ما كنت أعرفه عن الطريق الشائك الذي تحفّ به كل دراسة تعرض تفاصيل الأسماء أو الأعلام ، فهي دراسة جذابة جدا ، شائقة جدا ، تشد نحوها كثيرا من الباحثين في اللغة شدا عنيفا فكأنها قوة مغناطيسية لا يستطيع معها فكاكأ ، ولكنها مع ذلك محفوفة بالمزلق وموضع الزلل .

وتذكرت ما قام به أحد علماء العربية في أوائل القرن الرابع من الهجزة هو ابن دريد في كتاب له مشهور سماه « الاشتقاق » ، وحاول فيه تأصيل الأعلام في شبه الجزيرة العربية من أسماء القبائل والأمكنة ، فأسرف على نفسه وعلينا ، وجاءنا بقدر كبير من الحدس والتخمين ، وبأصول ما أنزل الله بها من سلطان ، أصول لا يملك الباحث الحديث إزاعتها إلا أن يبتسم أو يسخر لسذاجتها وما فيها من تكلف وتعنت !!

وتذكرت كذلك تجربة سرت أممي في أثناء دراستي بلندن ، حين وفد إلى أستاذنا هناك طالب ياباني ، وقد بلغ به الحماس مبلغه إلى البحث فيما أسماه : الكشف عن الكلمات الإنجليزية التي دخلت اللغة اليابانية !!

وظل يعمل شهورا عسى أن يعود بتلك الكلمات إلى أصولها من حيث الأصوات أي « فوناتيكيا » ، ومن حيث الدلالة أي « سيمانتيكيا » ، ثم ظهر بعد الجهد المضني أن الكلمات التي حسبها إنجليزية الأصل ليست إلا كلمات يابانية التقطها بعض البحارة الإنجليز في سنين طويلة من شواطئ اليابان ، ثم « جلنزوها » أي خلعوا عليها صبغة إنجليزية أفقدتها كثيرا من معالمها الأصلية ، فلما عادت تلك الكلمات إلى اليابان في أفواه البحارة الإنجليز ، وفي صورتها الجديدة ، أنكرها أهلها ، ولم يتعرفوا عليها ، وظنها الطالب الياباني إنجليزية الأصل . وهكذا ردت إلى اليابان بضاعتها . وكان أستاذنا حينئذ يحذرنا من عملية تأصيل الأعلام ، وينصحننا بأن نلتزم طريقنا معها على مهل ، ومع قدر كبير من الحيطة والتريث ، وطول التأمل والتفكير . أقول : برغم كل ذلك وجدتني لا أستطيع الفكك من اسم « دفر سوار » وسحره ، وبدأت أفكر في محاولة لتأصيله .

وكان عليّ في هذه المحاولة أن ألجأ إلى بعض المشهور من المعاجم التاريخية للغة الفرنسية ، وإلى وثائق التاريخ الحديث ، ثم ربما فوق هذا وذاك ، إلى بعض من كتبوا عن جغرافيه هذه المنطقة . فشهدت عجبا !!

فقد ظهر أولاً من الخرائط التي رسمها « ديليسبس » للمنطقة قبل حفر القناة ،
وهي الخرائط المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، والمنشورة تحت عنوان :
Per cement de l'isthme de Suez

أن « ديليسبس » نفسه قد كتب في مكان جنوبي « السرابيوم » ، الكلمة
الفرنسية Réservoir ، وهو المكان المعروف الآن بالاسم « دفرسوار » !!

وظهر كذلك من كتاب ألفه المهندس فؤاد فرج عن منطقة القنال ومدنها^(١)
ما نصه :

« وكانت البحيرات المرة قبل حفر القناة عبارة عن مستنقع منخفض حول قاعه
غابة كثيفة من شجر الأثل اسمها العميق » .

أما وبالرجوع إلى المعجم العربي المشهور لسان العرب ، اتضح لنا مع الدهشة
والاستغراب أن « العميق » في أغلب الظن من الكلمة العربية « العنيقة » بمعنى
مجتمع الماء والطين !! ولا حاجة بنا هنا إلى التذكير بأن النون الساكنة التي بعدها
« باء » تسمع في آذاننا نحن أبناء العربية « ميا » .

نحن إذن إزاء منطقة عرفت قبل حفر القنال ، بأنها منطقة مستنقعات وبرك ،
واستغلت في فتح القتال كمستودع يملأ بالمياه وقت المد فيساعد على الملاحة ،
أو كما يعبر المهندس فؤاد فرج في كتابه بما نصه^(٢) :

«وجود البحيرات المرة في طريق المشروع يجعل منها حوضاً طبيعياً مساحته
٢٨٠ مليون متر مربع اتسع عند ارتفاع المد بمقدار مترين في البحر الأحمر ،
٥٦٠ مليون متر مكعب من الماء . وهذه تساعد الملاحة بشكل واضح لارتفاعها فوق
منسوب مياه البحر الأبيض المتوسط » .

(١) المجلد الثاني ص ٢٥ (٢) ص ٢٠٦ .

ثم رجعنا إلى المعجم التاريخي الفرنسي (معجم روبير) للبحث عن دلالة كلمتين هما :

(١) Réservoir وهي التي وجدت في خرائط « ديليسبس » .

(٢) Déversoir وهي الكلمة التي قفزت إلى الذهن لأول وهلة ، وتبين لنا أن هذا المعجم يذكر بين معاني الكلمة الأولى معنى « بركة أو مستنقع » ، ويذكر أن من معاني الكلمة الأخرى « منفذ تنصب من كمية ضخمة من المياه التي في قناة أو بركة » .

ويشير المعجم إلى أن بدء استعمال الأولى في اللغة الفرنسية هو منتصف القرن السادس عشر ، وأما الكلمة الأخرى فلم تعرف في الفرنسية إلا في منتصف القرن الثامن عشر !!

ووقفنا إزاء كل هذه المعلومات حائرين نتساءل : أي الكلمتين هو الأصل الأصيل للاسم دفرسوار ؟ ! ولم نجد مناصبا من أن نفترض أحد فرضيين :

أولهما : أن نختصر طريق البحث فنقول إن الكلمة Déversoir هي الأصل ، ولم يتغير منها إلا حرف ال (V) الذي لا تعرفه العربية ، فأصبح فاءً ، وإلا تعديل طفيف في نظام المقاطع ، لأن المقطع (Vers) لا يقع أبداً في وسط الكلمة العربية . فلما عدلت المقاطع إلى ما يتفق مع مقاطع لغتنا العربية أصبح المقطع الأول « دِفْ » ، والثاني « رِسْ » !! غير أننا ترددنا قليلاً في قبول هذا الفرض ، لما شاهدناه في الخرائط من أن موقع مدينة الإسماعيلية يشبه تمام الشبه موقع المكان المعروف باسم « دفرسوار » ، فالأولى في الطرف الشمالي الغربي من بحيرة التمساح ، والدفرسوار في الطرف الشمالي الغربي من البحيرات المرة . ومع ذلك لم يطلق الاسم « دفرسوار » إلا على المكان الخالي !! هذا إلى أن المعجم الفرنسي لم يشر بين أمثاله - على غير ما كان متوقعا - إلى الكلمة Déversoir كمكان محدد في القنال ، مع أن الكلمة قد عرفت في اللغة الفرنسية قبل فتح القنال بنحو قرن من الزمان !!

ثانيهما : وأما الفرض الثاني ففي رأي أنه أكثر احتمالا ، لأنه يعتمد أساساً على ما يشاهد في خرائط «ديليسبس» ، ثم على ما وصفت به الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة قبل فتح القنال وبعد فتحها من أنها منطقة مستنقعات وبرك .

ويتحتم لذلك أن نقول إن الموضع الذي كتب عليه في خرائط ديليسبس كلمة Réservoir قد ظهر لمهندسيه ومساعديه في أثناء الحفر أنه موقع فيه بعض البرك والمستنقعات ، فاتخذوها بمثابة مستودعات للمياه ، وأطلقوا عليها التعبير الفرنسي Des Réservoirs (دِرِسْرِفُوار) !! ومن هنا جاء الاسم المألوف لنا الآن !!

وعلى أساس هذا الفرض يمكن أن نوضح كيف أن « دِرِسْرِفُوار » قد صارت « دِفْرِسُوار » . وهنا أقرر مطمئناً أن الناطق العربي يعتمد عادة إلى اختزال بعض مقاطع الكلمات المسرفة الطول ، فيسقط منها ما لا يخلّ بالمعالم الأصلية ، وكان ذلك يحذف المقطع الرائي الأول . فأصبحت الكلمة (دِسْرِفُوار) ثم حدث تعديل طفيف في المقاطع وأصبح لدينا جذر رباعي في أول الكلمة و « دِسْرِفُ » . وعن طريق تلك الظاهرة التي عرفت قديماً باسم القلب المكاني ، ولدى الأوربيين باسم metathesis تغير ترتيب الحروف وأصبح الجذر الرباعي « دِسْرِفُ » على صورة « دِفْرِسُ » وبقي المقطع الأخير للكلمة الأصلية وهو « وَاَرْ » كما هو في كل الحالات!

وأما السرّ في حدوث ذلك القلب المكاني في ترتيب الحروف فنعرّوه في دراستنا الحديثة إلى اختلاف نسبة الشيوخ بين السلاسل الصوتية في جذور لغتنا العربية . وقد دلتنا على ذلك إحصاءات الحاسب الإلكتروني في دراسة إحصائية حديثة لجذور لغتنا العربية مؤسّسة على أشهر المعاجم العربية القديمة . ونتخذ نحن اللغويين هذه الإحصاءات الآن بمثابة المسطرة الحاسبة للمهندسين !!

وبالرجوع إلى هذه الإحصاءات تبين لنا أن السلسلة الصوتية « دِسْرِفُ » أقل شيوعاً ، وبشكل واضح من السلسلة الصوتية (دِفْرِسُ) .

ولا عجب إذن أن السلسلة الصوتية الثابتة تسبق إلى اللسان العربي حين يحاول
النطق بالسلسلة الأولى ، ومن هنا جاء الاسم « دِفْرِسوار » !!

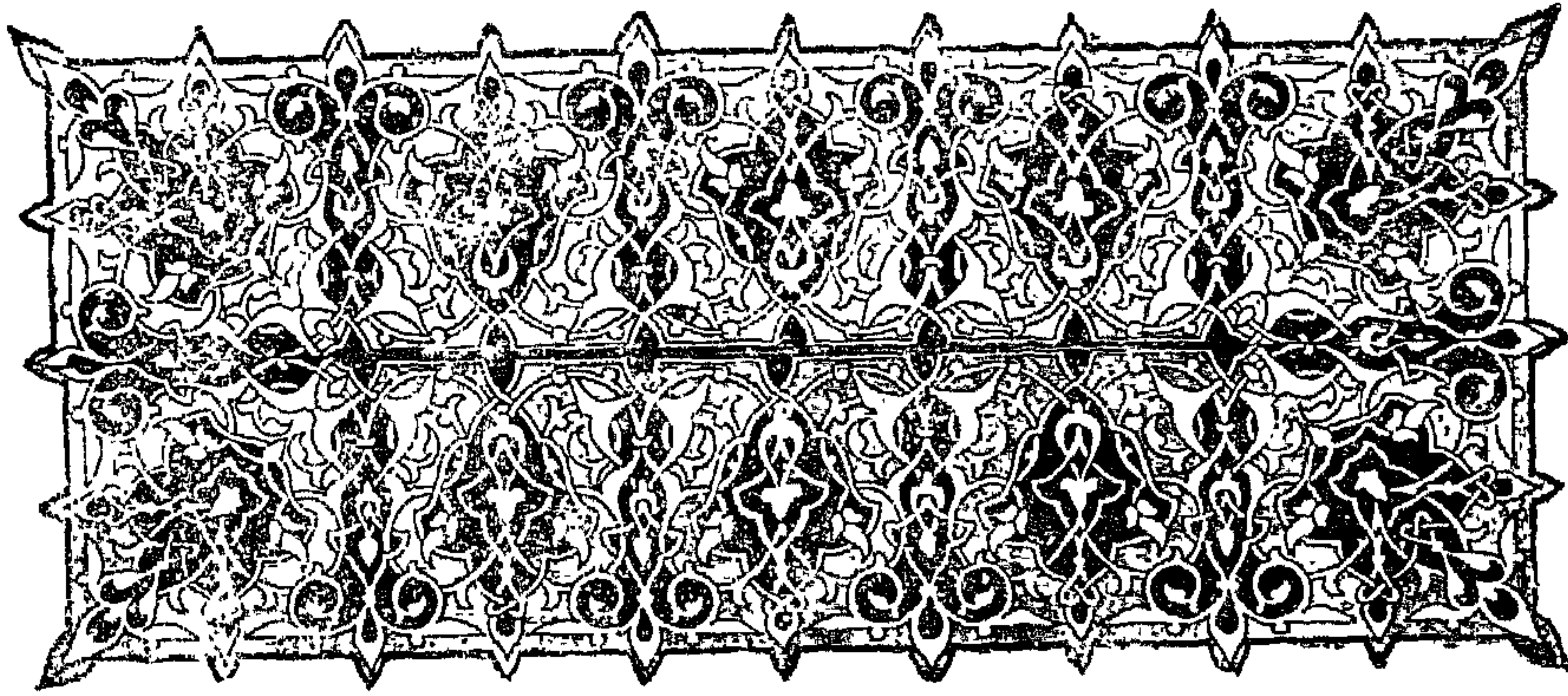
وليس مثل هذا الفرض بأكثر غرابة حين يقارن بما نعرفه عن المراحل المعقدة
التي مرت بها بعض الأسماء والأعلام على ألسنة الجماهير فيما مضى . ويكفي هنا أن
نتذكر أن مدينة « حلب » قد أصبحت في ألسنة الأوربيين « ألبو » !! وأنا
كنا في عهد قريب نسمع القاهريين يتحدثون عن « الأورنُس » في العباسية ويريدون
به الكلمة الإنجليزية ordnanc !! وربما من ذلك أيضا أن التعبير الإنجليزي
Work - shop قد أصبح في ألسنة المصريين « ورشة » .

وبعد : فلست أهدف من وراء هذا التأميل إلا إلى تفجير المشكلة لعلّ هناك
من يهديننا إلى ما لم يكن قد اهتمدنا إليه ،

وبالله التوفيق

مايو ١٩٧٤

المشرف على المجلة
ابراهيم أنيس





بحوث ومقالات

العربية لغة العلم والتكنولوجيا

للدكتور ابراهيم مدكور

فلم نتردد في ذلك ، كما صنعت جامعات عربية أخرى ، بين العربية وبعض اللغات الأجنبية من فرنسية أو إنجليزية ، وأقامت الدليل العملي على أن لغتنا كفيلة بذلك على خير وجه . وقدر لها أن تحظى بزمرة صالحة من الأساتذة الأجلاء ذوى الخبرة الطويلة ، فحملوا الرسالة وأدوا الأمانة أصدق أداء . وليس في هذه الجامعة إلا كلية واحدة تدرس موادها باللغة الإنجليزية وهي : كلية العلوم . وتعد العدة لإنشاء كليتين إحداهما للطب والأخرى للهندسة ، وأتوقع أن يوضع سؤال لغة التدريس موضع البحث . ويقينى أن هذه الكليات الثلاث سائرة نحو ما انتهت إليه الدراسات الإنسانية :

وكم تذكرنى قضية تعريب التعليم بمشكلة أخرى أثرت في العشرينات الأولى من هذا القرن ، وهى مشكلة الثنائية بين العامية والفصحى ، والرغبة في التخلص منها . فذهب فريق إلى الأخذ بالعامية ليسرها وانتشارها ، ويظهر أنه نظر إلى

ظن لأول وهلة أن هذا العنوان دعوى ، وكل دعوى لم يقم عليها دليل



فأهلها أذعياء . والواقع أن هذا الدليل قد قام في الماضى والحاضر ، فكانت العربية قديما لغة العلم يوم أن لم تكن له لغة سواها ، وهى ذى تؤدى اليوم الرسالة نفسها ، وإن بدا فيها قصور ما ، فذلك عيب الناطقين بها ، ولا تسأل هى عنه فى شىء . وتعريب التعليم الجامعى من القضايا المثارة ، والمثارة بعنف فى العشرينات الأخيرة . ونحطى إن زعمنا أننا لم نخط فى هذا السبيل خطوات وأستطيع أن أقرر أنها خطوات فسيحة ، إذا ماقيست بالزمن الذى قطعت فيه .

ويكفى أن أشير إلى جامعة الكويت الحديثة النشأة ، فقد أفادت من تجربة الجامعات العربية ودرست العلوم الإنسانية كلها بلسان عربى مبين ، من تاريخ وجغرافيا ، وتجارة واقتصاد ، وحقوق وتشريع ، وعلم نفس وتربية ، واجتماع وفلسفة .

(*) كلمة ألفت بجامعة الكويت فى الربيع الماضى .

الموضوع من زاويته الخاصة ، ونسى أن هناك عاميات لاعامية واحدة ، فكيف يجمعها ويؤلف بينها ؟ ورأى فريق آخر ألا بد من الاستمسك بالفصحى ، تقديسا للماضي ، وحرصا على جمع العروبة على بساط واحد ، وإبقاء على تراث من الحرق تبيده دون التأكد من بديل يحل محله . وعندى أن هذا الحوار وهذه الخصومة لم تخل من خير وبركة ، فقد قادت إلى فصحي جديدة هيئة لينة ، تعنى بالجلال والوضوح . وتنفر من الشاذ والغريب ، وتمقت الصنعة اللفظية ، وتأخذ عن العامية كما كان اللفظ عربي الأصل . وبذا ضاقت مسافة الخلاف بين الطرفين ، وأصبحنا لا نحس بتلك الثنائية إحساسنا بها بالأمس . وتوفرت لدينا فصحي جديدة كتبت بلغة العصر وروحه ، وسلمت من العبارات الضخمة والحمل الطنانة التي شاعت في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن . ويقينى أن نشر التعليم والثقافة الشعبية ، والنهوض بوسائل الإعلام من صحافة وإذاعة سيقضى ذلك كله بتاتا على هذه المشكلة . وسبق أن لاحظت أن صوت أم كلثوم وغناها قربا المسافة بين لغة تونس ولغة القاهرة ، وألاحظ اليوم أن الإذاعة الكويتية قربت كثيرا لهجة أهل الكويت من لهجة القاهريين . ومن العيب أن نعود مرة أخرى إلى الحديث عن هذه الثنائية ، فقد انقضى زمنها ، أصبحت غير ذات موضوع .

وهناك عيب آخر شبيه بهذا ، ويحمل رأيه بعض إخواننا اللبنانيين الذين يتحدثون عما سموه اللغة الأساسية ، وهي في تقديرهم مزيج من العامية والفصحى ، ولست أدري في أى معمل أو صيدلية يتم هذا التركيب . وهل من سبيل لأن تصنع لغة ما صنعا ، وأن تفرض على الناس فرضا؟ إن الواقع والتاريخ يشهدان باستحالة ذلك ، وإن قوانين المجتمع تعارض هذا وترفضه . وهل فات أصحاب هذه « الروشتة » أن هذا المزج يتم عفوا وبطريقة طبيعية وفي لغتنا الدارجة عامية وعربية ، بل ألقاها وتعبيرات أجنبية أيضا . والذي لاشك فيه أن هذه اللغة الدارجة أصبحت اليوم أسمى مما كانت عليه في أوائل هذا القرن ، وتضيق مسافة الخلاف بينها وبين الفصحى باطراد ، وتلك سنة التطور اللغوي في كل المجتمعات . وأملى كبير في أن يقطع تعريب التعليم الجامعي الطريق على هذا النحو ، وقد قطع فيه شوطا غير قصير . والمهم أن يتمكن العلماء من لغتهم القومية ، وإذا ما أجادوها ، ففي وسعهم أن يؤدوا بها كل ما يصادفون من معنى ، وكل ما يجول في أذهانهم من فكرة .

للعلم لغة يؤدى بها ، ولأحياة له بدونها ، بها يشرح ويعلم ، وبها يكتب وينشر بين الناس . وتحيا اللغة العلمية بحياة العلم نفسه ، وتسير بسيره ، ولاسبيل لأن توجد في

وتستقر ، وأخرى ثموث في مهدها ولا يقدر لها حياة .

ومن اليسير توضيح هذه القضايا في ضوء الماضي والحاضر ، فلم تنشأ لغة العلم في الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت على مر الزمن . بذرت بذورها في القرن الأول الهجري ، وفيه ظهرت مصطلحات في الفقه والتشريع ، والتفسير والحديث ، والفرق وعلم الكلام . وتلتها في القرن الثاني مصطلحات في الأدب واللغة ، في التاريخ والسياسة ، في الأخلاق والاجتماع . في الطب والكيمياء ، في الفلك والهندسة . ولم تر هذه العلوم غضاضة في أن يأخذ بعضها عن بعض ، وأن يستعين لاحقها بسابقتها ، وهناك ألفاظ استعملت في عدة علوم ، ولكن بمدلولات مختلفة . وفي القرن الثالث الهجري استعملت العلوم الإسلامية لغتها وانتشرت هذه اللغة في العالم الإسلامي بأسره ، فرددت في قرطبة والقيروان ، كما رددت في الفسطاط ودمشق ، وأخذ بها في البصرة والكوفة ، كما أخذ بها في الري وأصبهان ، وفي القرن الرابع الهجري أصبحنا أمام علم إسلامي مكتمل له آراؤه ونظرياته ، وله لغته ومصطلحاته . وقد سجلت هذه المصطلحات في مفردات ومعاجم مختلفة ، مثل : « كتاب الحروف للغرابي » ، « ومفاتيح العلوم للخوارزمي » منذ عهد مبكر ، وتلاهما

مجتمع لا يغنيها ولا ينميها : والنهوض العلمي مقترن دائماً بالنهوض الحضاري ، هكذا كان ، وهكذا يكون . فالعلم اليوناني وليد نهضة أثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، والعلم الإسلامي ثمرة من ثمار العصر العباسي الأول ، وهو قمة الحضارة الإسلامية . والعلوم الأوروبية امتداد للنهضة الحديثة ، وصدى لما قام به الأوروبيون من كشف ورحلات . وحركاتنا العلمية المعاصرة أثر من آثار يقظة القرن الماضي ، ونتيجة من نتائج ذلك الوعي الذي ينشد النهوض والتقدم .

ولغة العلم صنيع أهله ، فالعالم الذي يكشف الظاهرة أو يخترع الفكرة هو وحده الذي يحس بها ، ويحسن التعبير عنها ، ويحكم أداءها ، ومن الخطأ أن نفرض عليه لفظاً ، أو نلزمه بصيغة معينة . وكلما كان متمكناً من لغته القومية ، استطاع أن يختار منها اللفظ الملائم والصيغة الدقيقة . ولغة العلم في تطور مستمر شبيه بتطور اللغة الوطنية نفسها ، تتقدم بتقدم البحث ، وتنمو بنمو المادة العلمية . وتاريخ علم يكاد يتلخص في تاريخ مصطلحاته ، ولكل عالم قدر من الألفاظ ابتكره والتزم به ، وكثيراً ما يرجع خلاف العلماء إلى اختلاف على مدلول ألفاظ تباينوا في فهمها وشرح المقصود منها . وهناك مصطلحات تبدو قلقة عند نشأتها ، ثم لاتلبث أن تركز

كتاب التعريفات للجرجاني ، « وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوي » . واستطاعت هذه المصطلحات أن تغذي لغات أخرى ، فانتقل قدر منها إلى الفارسية والتركية ، واستمسك ببعضها من ترجموا عن العربية إلى اللاتينية ، وامتد صداها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة .

واستعان المسلمون على وضع هذه المصطلحات بوسيلتين هامتين : أولاهما النقل ، وهو منهج مألوف في اللغات جميعها ، فتنقل الكلمة من مدلولها الأصلي إلى مدلول جديد له به صلة ، وتستقر فيه . بحيث تصبح حقيقة عرفية ، وقد ينسى المدلول القديم ، ويحل محله المدلول الجديد وحده . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر من بينها الصلاة والصيام والزكاة في الفقه ، والتمميز والاستثناء في النحو ، والجامد والمشتق في علم الصرف . والفرق بين الدلالة اللفظية والدلالة الاصطلاحية لهذه الكلمات واضح ومعروف . والوسيلة الثانية من وسائل تكوين المصطلح العلمي هي الوضع ، ويراد به خلق لفظ جديد لأداء معنى خاص بالبحث والاختراع أو التركيب والجمع ، وأوضح صورته الاشتقاق . والعربية ولاشك لغة اشتقاقية ، يمكن أن يؤخذ فيها من مادة واحدة عدة ألفاظ لدلالات مختلفة ، كالفاعلية والمفعولية والصفة المشبهة وصيغة المبالغة ، واسم الزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الصناعي . واستطاعت

الصيغة الأخيرة أن تسعفنا في مواقف متعددة ، وبخاصة فيما يتعلق بالدلالة على المذاهب والنظريات ، كالتقديرية والخبيرية ، والمادية والمثالية .

لم يقف علماء العربية عند النقل والوضع ، بل سلكوا سبيل التعريب عند الحاجة ، فعربوا عن الفارسية والهندية ، كما عربوا عن السريانية واليونانية . والأمثلة على ذلك كثيرة أيضا ، واستطاع الخوارزمي أن يقدم منها في كتابه « مفاتيح العلوم » نماذج لا بأس بها . ويمكن أن يلاحظ بوجه عام أن الفارسية كثيرة الورد في المستحدثات الحضارية والنظم الإدارية ، مثل « الرزمانية » وهي مسك حساب الخراج ، والدفتري والفهرستي من مستلزمات الديوان ، والبريد الذي كان في الأصل دابة تحمل الرسائل ثم أصبح الآن قطارا أو طائرة ، والدستور الذي نسي معناه القديم وأصبح لا يراد به إلا دلالاته القانونية الخاصة . ويلاحظ أيضا أن الألفاظ اليونانية والسريانية كثيرة الورد في العلوم والفلسفة . فعن اليونانية أخذ لفظ « الناموس » و « السفسطة » في الفلسفة ، و « الأثرثماتيقي » و « الأسطراب » في الرياضة والفلك ، و « القولون » وهو المعنى الغليظ ، و « الترياق » وهو دواء السم في الطب . وعن السريانية أخذ « الكيان » وهو الطبيعة في الفلسفة ، و « البحران » في الطب

وللعالم الإسلامي تاريخ طويل يشرح
شأنها وتطورها ، ويبين مناهجها ونظرياتها
ويشير إلى كبار رجالها وما وضعوا فيها من
بحوث وهؤلقات . ولا سبيل لأن نستعرضها
هنا ، ونكتفي بأن نقف قليلا عند علمين منها
كان لهما شأنهما في القرون الوسطى لدى العرب
واللاتين على السواء ، وهما : الكيمياء والفلك .

وقد عني المسلمون بالكيمياء عناية خاصة
منذ عهد مبكر ، فشغل بها في أخريات القرن
الأول الهجري خالد بن يزيد ، وهو من
بيت الملك . وتفرغ لها في القرن الثاني جابر
ابن حيان ، وكون مدرسة خاصة عرفت في
الشرق والغرب . وقامت بتجارب عالجت
فيها بعض الفلزات والقوايات ، وفرقت
بين الترشيح والتقطير ، ووصلت إلى البلورة
والتصعيد ، واستخدمت بعض الآلات كالكور
والأنبيق ، والميزان ، وسمى علم الكيمياء
جملة « علم الميزان » . وكان لهذه المدرسة شأن
وتأثير على البحث الكيميائي لدى المسيحيين
في القرون الوسطى والتاريخ الحديث .

وفي أخريات القرن الثالث وأوائل القرن
الرابع الهجري توسع أبو بكر الرازي في
الدراسات الكيميائية ، وصيغها بصيغة علمية
دقيقة وهو دون نزاع أكبر كيميائي في الإسلام ،
عرف كيف يربط الكيمياء بالطب ، واستطاع
أن يجعلها علما تجريبيا دقيقا ، فسبق بذلك التاريخ
الحديث . عني بتحليل العقاقير وهي عنده
متنوعة : نباتية وحيوانية ، أحجار وأهلاج
غازية ومعدينية ، وصف الآلات المستخدمة

في الكيمياء وصفا دقيقا ، كالمفخ ، والبوتقة
والقدح والقنينة . وقام بتجارب شبيهة بالتجارب
الحديثة في التقطير والتصعيد ، في التكليس
والاحتراق ، وحضر بعض الأحماض بالتسخين
كما حضر الكبريت وبعض الكحول بالتقطير ؛
ثم تلاه كيميائيون إسلاميون آخرون ،
ويطول بنا الحديث إن وقفنا عندهم . والمهم
أن هؤلاء الكيميائيين كانت لهم مصطلحاتهم
الكيميائية ، فعرفوا الكبريت والزرنيخ ،
والزئبق والنوشادر ، والراتنج والمغنيسيا ،
والمغناطيس والأسفيداج . ولم يجدوا غضاضة
مطلقا في أن يستعملوا بعض الكلمات الأجنبية
المأخوذة عن الفارسية ، أو عن السريانية
واليونانية . ولا تزال هذه مستعملة بيننا ،
وأخذ اللاتين والأوربيون منها قدرا أقروه
واحتفظوا به .

أما الفلك فهو أحد علوم ثلاثة عني بها
المسلمون عناية خاصة ، وهي : الطب ،
والكيمياء ، والفلك . ولا شك في أنه كان
للرب في الجاهلية بعض ملاحظات فلكية ،
تتصل بالأنواء والعواصف ، وتقيس الزمن
بطلوع الشمس وغروبها . ونرجح أنهم أفادوا
شيئا من فلك البابليين والكلدانيين . وقد بدأت
دراسة الفلك الإسلامي في أوائل العهد العباسي ،
ولعلها كانت مرتبطة بالعرفاء والتنجم . وأولع
بها خاصة رجلا من كبار الخلفاء العباسيين
أولهما : المنصور الذي اتجه نحو الفلك الهندي
ودعا إلى ترجمة كتاب « السندهند » وكلف بذلك
إبراهيم الفزاري أكبر الفلكيين في عصره .

وثانيهما: المأمون الذي اثنج نحو الفلك اليوناني ،
وشجع على ترجمة كتبه ، وله أبحاث فلكية
متعددة ، من أهمها : محاولته قياس محيط الأرض
وقد وصل فيه إلى نتائج مذهشة بالنسبة لعصره .

وفي الإسلام فلكيون كثيرون ، تغاصروا
وتنافسوا ، وتلاحقوا جيلا بعد جيل ، وكانت
لهم أعمال فلكية عرفت بهم . فظهر منهم في
القرن الثالث الهجري : الكندي وأبو معشر
الباخعي ، وفي القرن الرابع : البتاني وابن يونس
المصري ، وفي القرن الخامس ابن الهيثم ،
والبيروني : وفي القرن السادس ابن ماجة
والبيروني ، وفي القرن السابع الطوسي والقزويني .

وأقام المسلمون ما أقاموا من مراصد ،
ومن أشهرها : مرصد بغداد ، ومرصد الحاكم
بالمقطم ومرصد المراغة وزودوها بآلات
رصد خاصة ، فاستخدموا الأسطرلاب
وذاات الأوتار ، ودورة الرياح والبوصلة .
واستطاعوا أن يتنبأوا في دقة بالكسوف
والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي
والخريفي ، وضبطوا حساب السنة الشمسية
نما لا يقل عما انتهى إليه العلم اليوم إلا بنحو
دقيقة وثلاث وعشرين ثانية ، وقدروا محيط
الأرض عن طريق قياس مساحة كبيرة بما
لا يبعد عن الواقع كثيرا . وهنا أيضا عولوا
في لغتهم الفلكية على الألفاظ العربية أولا ،
فإن لم تف بمحاجتهم استعاروا بعض المصطلحات
والألفاظ الأجنبية . وكان للفلك العربي شأن
في العالم اللاتيني ، قدره اللاتين حق قدره

وأعجبوا برجاله ، ورغبوا فيه وترجموا معظم
كتبه .

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقرر أنه كان
للعرب علوم أولعوا بها ، وأنه ازدهرت
لديهم حركة علمية لها منزلتها بين الحركات
العلمية العالمية الكبرى ، ومما يؤسف له أن هذه
الحركة لم تدرس بعد الدرس اللائق بها ، ولم
تجمع مصادرهما ، ولم تخرج إلى النور في صورة
مقبولة . فكان في القرون الوسطى علم عربي
مزدهر ، تعهده المسلمون ، وغدوه طوال
عدة قرون . وأنشأوا له لغة خاصة به ، وقامت
هذه اللغة على أساس متين من العربية ، وما
أخذته عن اللغات الأخرى تبنته ، وأصبح
جزءا منها . ويمكننا أن نقرر أن هذه اللغة
كانت في ذلك التاريخ لغة العلم الوحيدة في
العالم بأسره ، فيما بين القرنين الثامن والثالث
عشر الميلادي . ثم انضمت إليها اللاتينية بعد
ذلك ، أخذت عن العربية ، وأفادت منها .
فترجم اللاتين قدرا من كيمياء جابر بن حيان
وأبي بكر الرازي ، وعنوا برياضيات الخوارزمي
وبصريات ابن الهيثم ، وفلك الميتماني والبيروني
وطب ابن زهر ، وعلى بن رضوان . شغلوا
بالترجمة عن العربية نحو قرنين ، الثاني عشر
والثالث عشر الميلادي ، واستعاروا بعض
الألفاظ العربية كما استعار المسلمون من قبل
بعض الألفاظ الأجنبية . ولا تزال الألفاظ
العربية المستعارة باقية إلى اليوم في اللاتينية
وهي بعدها في بعض اللغات الأوروبية المعاصرة

تأدت العربية رسالتها نحو العلم في الماضي ،
ولا يعز عليها أن تؤديها في الحاضر ، وهي
متهيئة لذلك تهو اللغات العالمية الكبرى .

* * *

و شاء القدر أن تركد حركة البحث العلمي
في العالم العربي فيما بعد القرن الثالث عشر
الميلادي ، وبقيت على ذلك نحو خمسة قرون
ولم تستيقظ إلا في أخريات القرن الثامن عشر
وأوائل القرن الذي تلاه ، استيقظت في مصر
أولا بدافع من الحملة الفرنسية ، وبغداد لم
يستمر طويلا في عهد محمد علي ومن جاء بعده
من خلفائه الأقربين . فأنشئت في عهده مدارس
للطب والصيدلة والهندسة ، ودرست فيها هذه
العلوم بالفرنسية ومعها ترجمتها العربية ، ولا
تزال بين أيدينا صور من هذه الترجمات التي
حاولت أن تحل العربية محل الفرنسية . ولو
قدر لهذه المدارس أن تبقى وتستمر في أداء
رسالتها لسكان لتاريخ الحركة العلمية المصرية
الحديثة شأن آخر . ولا يكاد يختلف الأمر
في الأقطار العربية الأخرى عن ذلك كثيراً
اللهم إلا في لبنان الذي أنشئ فيه منذ أكثر
من مائة سنة جامعتان ، إحداهما أمريكية
والأخرى يسوعية ، وكانت لها معاً شبه رسالة
دينية ، وحملتا باطراد الطابع العربي ، ولم يعبرا
في الحقيقة عن علم عربي .

ولم تبدأ الحركة العلمية في العالم العربي إلا
في القرن العشرين . فأنشئت الجامعة المصرية
القديمة في أوله ، وهي مدينة بنصيب ملحوظ
لحركة الاشراف . وتلتها في مصر جامعات

متعددة ، يبلغ عددها الآن سبعة ، وازديادها
مطرد . وتدرس فيها العلوم المختلفة ، من طب
وصيدلة ، وكيمياء ، وفسولوجيا ، نبات
وحيوان ، جيولوجيا وزراعة ، رياضة وفلك :
ويقدم قدر من هذه المواد حالياً باللغة العربية
ولا يزال قدر آخر يدرس باللغة الإنجليزية .
وعلى غرار مصر سارت الأقطار العربية الأخرى .
ولكل بلد عربي تقريباً جامعته أو جامعاته
الخاصة ، وتدرس العلوم فيها على نحو
ما جرى في مصر ، فيعطي في الأغلب بالإنجليزية
أو الفرنسية ، اللهم إلا جامعة دمشق التي أخذت
نفسها منذ عهد بعيد بتدريس الطب باللغة
العربية .

ومن هنا نشأت مشكلة تعريب التعليم
الجامعي ، ولها ما يحمل عليها ، لأنه لا سبيل
لقيام حركة علمية حقيقية في بلد إلا إن
اعتمدت على اللغة الوطنية ، وبودنا أن يعرب
العلم والتكنولوجيا في الدرس والمحاضرة ،
في قاعة البحث والمعمل ، في المصنع والمزرعة .
وقد خطونا في ذلك خطوات ملحوظة أسهم
فيها الجامعيون بما ألفوا من كتب ، وبما
ألقوا من دروس ، وقد عربت بالفعل بعض
المواد في كليات العلوم والهندسة ، وربما كان
الأمر أيسر في كليات الزراعة والطب
البيطري . وتبذل جهود في سبيل تعريب
التعليم في كليات الطب والصيدلة ، والموقف
هنا دون نزاع أدق وأعسر :

وإلى جانب هذه الجهود الجامعية لتعريب
التعليم ، ينبغي أن نشير إلى ما تضطلع به

وتتمكن ، وأن تنتشر وتتداول ، وأن يتلاقى
عندها الباحثون العرب أجمعون. لهذا أخذت
الهيئات العلمية نفسها بنشر صحف ومجلات
تقدم بحوثها في لغة عربية سهلة ، ونظمت
ما استطاعت الندوات والمؤتمرات التي
تجمع المتخصصين في صعيد واحد ، وتربط
جهودهم بعضها ببعض ، إن في البحث
والدرس ، أو في تكوين لغة العلم ومصطلحاته.
وأصبح لدينا من هذا كله زاد كفيلاً بأن يسد
الحاجة ، وبأن يسمح بمتابعة السير :

* * *

فرهنت العربية إذن في الماضي والحاضر
على أنها ليست أقل استعداداً من اللغات
العالمية الكبرى لمواجهة متطلبات العلوم
والتكنولوجيا . أدت هذه الرسالة بالأمس
في أمانة ، يوم أن كان أبناؤها حريصين على
أدائها . وعجزت عن أدائها حيناً يوم أن
انصرف العرب عن ذلك . ولا شك في أنهم
راغبون اليوم كل الرغبة في استعادة مجدهم ،
والإسهام بنصيبهم في نهضة العلم وتقديمه ؛
ومتى تمكن الباحث والعالم من لغته وجد فيها
وفاء لأداء كل ما يجول بخاطره . وتعريب
التعليم الجامعي يستلزم لا محالة أن يعرّب
الباحثون والعلماء أولاً ، فيدرسوا لغتهم
درساً كافياً يمكنهم من أن يكتبوا فيها ويتحدثوا
بها في يسر وطلاقة . ومنهم من يؤثر التأليف
بالإنجليزية أو الفرنسية ، لأن عربيته لا تطاوعه
على أن يكتب على نحو ما يحب ويهوى ؛
ويوم أن تتوفر في اللغة الوطنية مكتبة شاملة

هيئات أخرى في هذا المضمار . فأنشئت
الجامع اللغوية والعلمية منذ نصف قرن أو
يزيد ، ورأت ضرورة مساندة العربية
لمقتضيات العلم ومتطلبات الحضارة ، وأسهمت
في ذلك ما وسعها . ويبدو أن مجمع القاهرة
لقد منح مشكلة اللغة العلمية عناية خاصة ،
وشغل بها إلى درجة لعلها لم تتوفر الذي مجمع
آخر ، فوقف عليها عدة بلجان ، وتوسع في
النقل والوضع . ويسر قواعدهما . وأقر
التعريب كما أقره الأقدمون ، ونظمه وأحاطه
بشيء من القيود والضوابط ، فاستساغ
بوجه خاص في المصطلحات ذات الطابع
الدولي ، وفي أسماء أعلام الجنس ، وفي
الألفاظ التي تعبر عن فصائل من النبات أو
الحيوان . وأقر عشرات الآلاف من المصطلحات
وأخرجها في مجموعات معينة ، أو في بعض
المعجمات المتخصصة . ويسعدنا أن يلاحظ
أن العلماء والمتخصصين يقبلون على مقرراته ،
ويستعينون بها فيما يكتبون ويؤلفون .

وفي العالم العربي أيضاً هيئات علمية
متعددة ، من جمعيات واتحادات ، ومراكز
بحث ومجالس علمية ، بل عمدت بلاد إلى
إنشاء وزارات للبحث العلمي والتكنولوجيا .
وتعنى هذه الهيئات كلها بالشكل والموضوع ،
فتحاول أن تدفع البحث العلمي العربي دفعة
قوية ، وترى أن من أهم وسائل هذا الدفع
أن تطاوع اللغة العربية الباحثين والدارسين ،
وأن تمكنهم من أن يعبروا عن كل ما يدرسون
ويكشفون . ولا بد للغة العلمية من أن تستقر

في مادة من المواد ، يحس أهلها بأنهم ملكوا
هذه المادة وأحسنوا التصرف فيها ، وهذا
شرط آخر من شرائط تعريب التعليم الجامعي؟

على أننا أصبحنا نعيش في عصر لا يستطيع
باحث أو دارس أن يقنع فيه باللغة الوطنية
وحدها ، بل لا بد له أن يضيف إليها لغة
أو أكثر من اللغات الأجنبية . وتتمسك
الجامعات الكبرى بذلك ، وتطبقه في دقة .
وقد كان العلم ولا يزال لا وطن له ، والحكمة
ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها . ويعول
العلماء في لقاءاتهم الدورية على أن يتبادلوا
فيما بينهم ما كشفوه وما اهتموا إليه ، وأن

يربطوا خيوط البحث العلمي بعضها ببعض ؟
وبين العرب علماء يبدون لغتين أجنبيتين أو
أكثر ، وعلى أمثال هؤلاء يعول في دعم
حركة التعريب والنهوض بها . بيد أنه يجدر بنا
أن نصارح أنفسنا بما نحس به من نقص ، إن
كنا نريد تداركه . ولا أظننا نختلف في أننا
نزلج في منحدر بغيض في تعليم اللغات
وتعلمها ، وأصبحت الغالبية العظمى من
الشباب لا تجيد العربية ولا أية لغة أجنبية .
لنبدأ من هنا إذن إن كنا نريد إصلاحاً على
أساس متين ، ولا سبيل بدونه ، لا إلى تعليم
ولا إلى تعريب .

ابراهيم مذكور

رئيس المجمع



من الدراسات اللغوية في بعض الآيات القرآنية

للدكتور الشيخ عبد الرحمن تاج

أقضت حكمة الله تعالى أن يقيم عليه آيات
كتابه العزيز .

فهذا القارئ المتبصر يقف عند ذلك
ليبحث ويفكر ، ويتأمل ويتفهم ،
يجمع لذلك وعيه ، ويعمل فيه فكره ،
كأن يقف على شيء من السر في تصريف
القول على الوجه الذي وردت به الآية
الكريمة .

ولعله في ذلك تدركه عناية الله
تعالى ؛ فيدرك الغاية أو يقع قريباً منها .
هذه الآية هي التي جعلناها موضوع
الدراسة في هذا البحث وهي قوله تعالى :
« لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ
أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ،
وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى . وَفَضَّلَ اللَّهُ

بسم الله الرحمن الرحيم :

آية من القرآن الكريم قد يقنع الإنسان
في التلاوة العابرة بما يلوح له فيها من
معنى إجمالي ، يمكن أن يجرى سهلاً مع
بعض الأحكام العامة ، التي رسخت في
النفوس ، واستقرت في الأذهان ، وكانت
من القضايا البديهية التي يعرفها الخاصة
والثقفون ، ولا يجهلها العامة ولا الأديون ،
من مثل أنه لا يستوى العالم والجاهل ،
والعامل والخامل ، كما لا يستوى الطيب
والخبيث ، والجيد والردئ ، وكما
لا يستوى المؤمن والكافر ، ولا البر والفاجر
لكن القارئ المتبصر ، الذي يقرأ
هذه الآية بتمهل وتدبر ، لا بد - في غالب
الأمر - أن يستوقفه منها ما اشتملت عليه
عباراتها وجملها من إجمال وتفصيل
وإطلاق وتقييد وما إلى ذلك ، مما

المجاهدين عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ؛
دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمُنْفِرَةً وَرَحْمَةً ، وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا . « النساء ٩٥ » .

قد ذكر المجاهدون في هذه الآية ثلاث
مرات بعبارات ثلاث متفاوتة ، بعضها
أطول من بعض .

١- في العبارة الأولى قيل: « والمجاهدون
في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » .

٢- وفي العبارة الثانية قيل: « فضل
الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة » من غير كلمة في
سبيل الله .

٣- وفي العبارة الثالثة قيل: « وفضل
الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما »
مقتصرًا فيها على كلمة « المجاهدين »
فلم تذكر معها صلة « في سبيل الله » ولا
صلة « الأموال والأنفس » .

فهذه المغايرة في التعبير لها تأثير
في المراد بالمجاهدين في تلك العبارات
الثلاث ؟

والجواب : أنه لا تأثير لها في ذلك ،
فإن المراد بالمجاهدون في سبيل الله بالأموال

والأنفس في كل من العبارات الثلاث ؛
غير أنه لكرامة التكرار مع العلم بالمحذوف
والتصريح به أولاً ، اقتضت العبارة في
المرتين : الثانية والثالثة على الوجه الذي
وردت به الآية .

وقد ذكر « القاعدون » في الآية ثلاث
مرات أيضا : ففي المرة الأولى قد وصفوا
بأنهم غير أولى الضرر . أما في المرتين
الأخريين فلم يذكر هذا الوصف ، فهل
الأمر فيهم على نحو ما قلنا في المجاهدين ،
فيكون المراد بهم شيئا واحدا في العبارات
الثلاث ؟

والجواب : أن جمهور المفسرين على
أن الأمر في « القاعدين » ليس كذلك ،
فإنه لا يمكن أن يكون المراد بهم في كل
من العبارتين « الثانية والثالثة » نفس
القاعدين غير أولى الضرر ، كما أريد بهم
ذلك وصرح به في العبارة الأولى .

نعم لا يمكن أن يكونوا هم الذين
فضل الله المجاهدين عليهم درجة واحدة
وأن يكونوا هم أنفسهم الذين فضل
المجاهدين عليهم درجات كثيرة .

ومن هنا اختلف العلماء في تبويب
هذه الآية :

فقال « الجلال السيوطي » - كما قال « ابن جرير الطبري » - إن كلمة « القاعدون » في الجملة الأولى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » مراد بها المعنى الظاهر من اللفظ ، أي الذين لم يخرجوا للجهاد وليسوا من أولى الضرر ، فتكون الآية قد ذكرت هؤلاء بهذه الصفة الخاصة وأرشدت إجمالاً إلى حكمهم وأنهم ليسوا مساوين للمجاهدين بأموالهم وأنفسهم !

إن حمل الكلمة في الجملة الأولى من الآية على ما يعطيه ظاهر اللفظ من غير تقييده بشيء غير ما ورد في الآية من أنهم غير أولى الضرر هو تفسير مقبول ومعقول .

لكنه قد يقال : إن عدم مساواة القاعدین الذين لا يشتركون في الجهاد بنفس أو مال للمجاهدين الذين يبذلون في ذلك أنفسهم وأموالهم أمر ضروري ومعلوم لا يحتاج إلى نص عليه .

والجواب : أن النص على عدم المساواة بين فريقى القاعدین والمجاهدين ليس المقصود به أصل الإخبار بعدم هذه

المساواة بينهما ، وإنما المقصود به استنهاض القاعدین ورفع هممتهم عن الركون إلى تلك المنزلة الضعيفة التي ليس فيها صلاح دنيا ولا عزة دين .

ثم إن كلام « الطبري » و « السيوطي » يفسر كلمة « القاعدین » الواردة في الجملة الثانية من الآية - وهي قوله تعالى : « فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى » - بأن المراد بها القاعدون أولو الضرر ، فهم الذين فضلَّ اللهُ المجاهدين عليهم درجة واحدة ، كما روى ذلك عن ابن عباس والبراء وغيرهما .

أما في الجملة الأخيرة - وهي قوله سبحانه (وفضل اللهُ المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً) فإنه المراد هؤلاء القاعدین هم غير أولى الضرر ، وهم الذين صرحت الجملة الأولى إجمالاً بعدم مساواتهم للمجاهدين ، فهؤلاء قد شرحت الآية في الجملة الأخيرة حكمهم بطريق البيان التفصيلي ، وقررت مبلغ التفاوت بينهم وبين المجاهدين في الأجر والثواب .

هذه طريقة « ابن جرير والطبري والجلال السيوطي » في تفسير الآية .

وقد يقال : إن تفسير القاعدين في الجملة الثانية بأنهم القاعدون أولو الضرر؛ تفسير غريب يؤدي إلى أن تنحرف الجملة عما هو الشأن الذي عهد في نظائرها ، وهو الذي يقضى به الأسلوب الجيد في فصيح اللغة العربية .

ذلك أن الشأن في مثل الأسلوب الذي وردت به الآية الكريمة من نفي المساواة إجمالاً بين أمرين ثم إتباع ذلك بتفصيل يرتبط بذلك النفي - أن يكون هذا التفصيل بياناً لحكم التفاوت بين الأمرين وإرشاداً إلى سرّ عدم التساوى بينهما؛ كما أنه لا بد أن يكون الأمران اللذان قد بين حالهما في التفصيل هما بعينهما الأمرين اللذين قد نفي التساوى بينهما أولاً في الإجمال .

١- وذلك كما في قوله تعالى :

(لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) (الحشر- ٢٠)

فالجملة الأولى من هذه الآية قد نفي بها إجمالاً الاستواء بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، والجملة الثانية بيّن بها تفصيلاً حال الفريقين وأن الفوز في

الآخرة مقصور على أصحاب الجنة وليس لأصحاب النار حظ فيه .

٢- وكذلك قوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أوائك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى » (الحديد (١٠) .

فإن الجملة الأولى من الآية قد نفي بها الاستواء بين من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل ، ومن أنفق وقاتل بعد الفتح . وقد أضمر في الآية هذا المقابل الثاني وهم من أنفق وقاتل بعد الفتح . للعلم به والدلالة عليه في البيان التالي .

وهذا البيان التالي هو التفصيل المرتبط بالجملة الأولى ؛ التي نفيت فيها المساواة بين الفريقين . وقد أرشد هذا التفصيل إلى مبلغ التفاوت بينهما في الأجر والثواب .

٣- ومثل ذلك أيضاً قوله تعالى : « أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لا يستوون » (السجدة ١٨) فقد نفيت المساواة بهذه الآية إجمالاً بين المؤمن والفاسق ثم أتبع ذلك بالتفصيل الذي بين به حالة كل منهما وما آل إليه أمرهما بسبب اختلافهما بالفسق والإيمان ، وذلك في قوله تعالى : « أمّا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نُزُلًا
بما كانوا يعملون « وأما الذين فسقوا
فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها
أُعيدوا فيها وقيلَ لَهُمْ ذوقوا عذاب النار
الذي كنتم به تكذبون ، . (١٩ ، ٢٠
السجدة) .

هذا هو الشأن في استعمالات اللغة
العربية الفصيحة وأساليبها الجيدة :
إنه إذا حكم بنفي المساواة بين أمرين ،
ثم أتبع ذلك بتفصيل يبين سرَّ عدم
المساواة بينهما ، ويرشد إلى أصل ذلك
وما يؤول إليه أمر عد القبيلين المختلفين
غير المتساويين ، فإنه لا بد أن يكون الأمران
المتقابلان في ذلك البيان التفصيلي هما
عين المتقابلين في الحكم الذي قرر عد
المساواة بينهما بطريق الإجمال .

ومن هذا يعلم أن تفسير الآية على
الوجه الذي اختاره « الطبري » و « الجلال »
لا يتمشى مع الاستعمالات الجيدة في
فصيح اللغة ، ولا يحقق ما يقضى به
الأسلوب الذي أشرنا إليه آنفا .

ذلك أنه يجعل « القاعدين » في
الجملة الثانية من الآية مراداً بهم « القاعدون

أولو الضرر » ، على خلاف ما أُريد بهم في
الجملة الأولى ، وعلى خلاف ما يفيد
نظام الجملتين اللتين رتبت فيهما الثانية
على الأولى بغير العطف ، ذلك الترتيب
الذي هو ظاهر في أن الجملة الثانية قد
وردت بيانا تفصيليا لما أُجمل في الجملة
الأولى على نحو ما جاءت به الآيات الكريمة
التي قد مناها .

وخلاصة القول أن طريقة « الجلال »
و « الطبري » في تفسير هذه الآية قد
جعلتها مخالفة للمعهود في نظائرها ،
ولما هو الشأن الذي يقضى به الأسلوب
القويم في فصيح اللغة العربية وفقاً
للأصول البلاغية المقررة في باب الفصل
والوصل ، من علم المعاني .

رأى الزمخشري صاحب الكشاف

ج ١ ص ٣٨٢

وقال الزمخشري في تفسير الآية مانصه :
« فضل الله المجاهدين » جملة موضحة
لما نفي من استواء القاعدين والمجاهدين ،
كأنه قيل : ما لهم لا يستوون ؟ فأجيب
بذلك ، والمعنى : « على القاعدين غير
أولي الضرر » لكون الجملة بيانا للجملة

الأولى المتضمنة هذا الوصف . « وكلا » كل فريق من القاعدين والمجاهدين (وعد الله انحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة ، وإن كان المجاهدون مفضلين على القاعدين درجة .

ثم قال : وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « لقد خلقتم بالمدينة أقواما ماسرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صححت نياتهم ونصحت جيوبهم^(١) وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعهم من المسير من ضرر أو غيره » .

ثم أتبع ذلك بقوله : « فإن قلت » قد ذكر الله تعالى مفضلين درجة ، ومفضلين درجات فمن هم ؟ قلت . أما المفضلون درجة واحدة فهم الذين فضلوا عن القاعدين الأضراء . وأما المفضلون درجات فالذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى التخلف اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو فرض كفاية « اهـ .

ومن هذا يعلم مبلغ ما فى رأى الزمخشري من الاضطراب :

(أ) فهو يقرر أولا : أن المراد بالقاعدين فى الجملة الثانية من الآية - وهى قوله تعالى : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة » - هم القاعدون المذكورون فى الجملة الأولى ، وهم القاعدون غير أولى الضرر ، لأن الثانية جاءت بيانا للجملة الأولى المتضمنة هذا الوصف .

هذا صريح كلامه عن الجملتين الأولى والثانية .

(ب) ثم يقرر صراحة أيضاً فى موضوع التفضيل درجة والتفضيل درجات ، أن المفضلين درجة واحدة . هم المفضلون على القاعدين الأضراء ، أما المفضلون درجات فهم الذين فضلوا على القاعدين الذين أذن لهم فى القعود اكتفاءً بغيرهم ، لأن الغزو لم يكن حينئذ فرض عين ، وإنما هو فرض كفاية .

فهو يقرر فى آخر كلامه أن المفضل عليهم درجة واحدة هم

(١) نصحت جيوبهم ، أى صفت صدورهم وطهرت قلوبهم من الفسق والحداع . والجيوب جمع جيب وهو فتحة القميص على النحر ، وذلك كناية عن نقاء السريرة وطيب القلب .

تفسير النسفي ج ١ ص ١٩٠، ١٩١

وقد وقع النسفي « في الاضطراب والتضارب مثل ما وقع « الزمخشري »
نقد تابعه في طريقته وكبا كبوته إذ قال
في تفسير قوله تعالى : « فَضَّلَ اللَّهُ
المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين
درجة » مانصه : « ذكر هذه الجملة بيانا
للجملة الأولى موضحة لما نفي من استواء
القاعدين والمجاهدين ، كأنه قيل ما لهم
لا يستوون ؟ فأجيب بذلك » ، ثم قال :
« وفضل الله المجاهدين على القاعدين
بغير عذر أجرا عظيما » درجات منه
ومغفرة ورحمة ، ثم ختم المفسر كلامه
بقوله : « وحاصله أن الله تعالى فضل
المجاهدين على القاعدين بعذر درجة واحدة ،
وعلى القاعدين بغير عذر - بأمر النبي عليه
السلام... اكتفاء بغيرهم درجات ، لأن
الجهاد فرض كفاية » . ا هـ .

فهو يقرر أولا أن القاعدين الذين فضل
الله عليهم المجاهدين درجة واحدة هم
القاعدون غير أولى الضرر ، وهم الذين
ورد ذكرهم في الجملة الأولى التي نفي
فيها الاستواء بين القاعدين والمجاهدين ،

القاعدون أصحاب الأضرار على
حين أنه في أول الكلام - يقول إن
المراد بالقاعدين في الجملة الثانية
التي جاءت بيانا للجملة الأولى هم
القاعدون غير أولى الضرر . وهذا
تضارب فاحش لاندري كيف صدر
من العلامة الزمخشري .

(ج) ثم يلاحظ أخيرا أنه فيما بين
الكلامين : الأول والأخير قد أورد
الزمخشري حديث : « لقد خلفتم
بالمدينة أقواما . » إلى آخره ، وظاهر
أن هذا الحديث إنما يحسن إيراده
حيث يكون الكلام عن القعود عن
الجهاد بسبب الأضرار والأعداء ،
ولكن المفسر قد أورده عقب قوله :
إن المراد بالقاعدين هم القاعدون
غير أولى الضرر ، وليس هناك
ذكر لقاعدين أولى أضرار أو أصحاب
أعداء .

وهذا شيء يضاعف حالة الاضطراب
والتضارب التي وقعت في كلام العلامة
« الزمخشري » .

لأن الجملة الثانية جاءت بيانا للأولى ،
موضحه لما أجمل فيها من عدم الاستواء
ثم يقرر أخيرا أن القاعدين الذين
فضل الله عليهم المجاهدين درجة واحدة
هم القاعدون أولو الضرر . أما الذين فضل
الله المجاهدين عليهم درجات فهم القاعدون ،
بغير عذر بأمر النبي صلى الله عليه وسلم
اكتفاءً بغيرهم . وهذا هو التضارب
والاضطراب .

طريقة أبي السعود في تفسير الآية

أُقد أراد العلامة أبو السعود أن يتفادى
من ذلك الاضطراب وينجو بكلامه مما
وقع فيه « الزمخشري والنسفي » فقال
أما خلاصته إن المراد بالقاعدين في الجمل
الثلاث فريق واحد هم القاعدون غير أولى
الضرر وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه
وسلم في القعود اكتفاءً بغيرهم :

فهم في الجملة الأولى قد حكم بأنهم
لايساؤون المجاهدين وجاءت الجملة
الثانية بحكم تفصيلي لما أجمل في الجملة
الأولى من عدم المساواة ؛ فبينت أن
المجاهدين مفضلون على القاعدين درجة
وأن هؤلاء القاعدين غير محرومين من

الأجر والثواب ، إذ أن الله تعالى قد وعد
كلا من الفريقين الحسنی وهی الجنة .
« قال أبو السعود » وليس المراد بالدرجة
التي فضل الله بها المجاهدين على أولئك
القاعدين أنها درجة واحدة بالشخص
ولكنها جنس واسع يشتمل على درجات
ومراتب كثيرة من الأجر والثواب .
وبذلك لايتعارض ماتضمنته هذه الجملة
الثانية من التفضيل درجة وماجاءت به
الجملة الأخيرة التي تقول : « وفضل
الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .
وقد بين ذلك الأجر العظيم بقوله تعالى
« درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وعلى هذا يكون التفضيل درجة هو
التفضيل درجات ، وتكون الدرجة
والدرجات شيئاً واحداً في الحقيقة ،
ولكنه يختلف بالإجمال والتفصيل .
هذا ماخص ماقاله أبو السعود في تفسير
الآية (١) .

ونحن نرى أن هذا تأويل بعيد
لا يتبادر إلى الذهن ، ولا يستقيم جيداً في
الفهم ، ولا ينبغي أن يسار عليه في
تفسير الآية الكريمة .

(١) يراجع في ذلك تفسير أبي السعود المطبوع على هامش تفسير الفخر الرازي ج ٣ ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

ثم يقول أبو السعود : « إنه يحتمل أن يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات أمرين مختلفين بالحقيقة ، وأن المراد بالدرجة درجة واحدة هي ما يرجع إلى النعم الدنيوية ، أما الدرجات الكثيرة فهي أنواع نعم الآخرة وثوابها .

وهذا أيضاً تأويل بعيد ، ومحاولة للتوصل إلى جعل التفضيلين : تفضيل الدرجة وتفضيل الدرجات جميعاً على فريق واحد هم القاعدون الذين ذكروا في الجمل الثلاث ، وهم الذين يقول « أبو السعود » : إن المراد بهم جميعاً القاعدون غير أولى الضرر ، وقد أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود اكتفاءً بغيرهم .

إن ذلك تكلف غير مقبول ، ولا سيما إذا لوحظ ما في الجملة الثانية التي تقرر التفضيل درجة ، وهي قوله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى » فإن المراد « بالحسنى » المثوبة الجميلة وهي نعم الجنة . وبذلك يكون التفضيل درجة والتفضيل درجات جميعه في الآخرة ونعيمها .

وبعد ؛ فإنه إذا كان أبو السعود قد استطاع أن يتفادى ما وقع فيه « الزمخشري والنسفي » من الاضطراب والتضارب ، فإنه اضطر في سبيل ذلك أن يلجأ إلى تلك المحاولات والتكلفات غير المقبولة .

أما ما جاء في تفسير الفخر الرازي والتهذيب وتفسير الألوسي ؛ فإنه لا يبعد عما أوردناه من تفسير أبي السعود ، وإذا لا داعي إلى الإطالة بذكر ما قالوه في ذلك .

وهناك رأى آخر في تفسير الآية يشبهه إلى حد ما ما قاله أبو السعود : يشبهه في أصله وأساس مبناه ، ولكنه يخالفه في حقيقته وجوهر معناه ، ولعله يكون أحق منه بالقبول .

وحاصله أن يحمل « القاعدون » في الجمل الثلاث على غير أولى الضرر لكنهم فريقان :

فريق أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم في القعود وعدم الخروج مع المجاهدين في تلك « الغزوة » ، غزوة بدر ، لأن الخروج إليها كان فرض

كفاية ، وقد رأى عليه الصلاة والسلام
فيمن خرج إليها الكفاية ، ثم أنه صلى الله
عليه وسلم ، لا بد أن يكون قدر رأى الحكمة
في عدم خروج هؤلاء الذين أذن لهم
في القعود ، لأنهم - وإن لم يكونوا
أولى ضرر في أنفسهم - قد تكون
هناك حاجات مهمة تدعوهم إلى القعود .

وذلك كما تخلف « عثمان بن عفان »
رضي الله عنه بإذنه عليه الصلاة والسلام ،
لقيامه بتمريض زوجته السيدة « رقية »
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد
بقي معها حتى توفيت رضي الله عنها .

وكذلك رد عليه الصلاة والسلام « أبا
لبابة بشير بن عبد المنذر » من الروحاء
لما بلغه خروج النفيير من « مكة »
واستعمله على المدينة .

والفريق الآخر من القاعدين غير أولى
الضرر هم الذين لم يسبق لهم إذن من
الرسول صلى الله عليه وسلم بالقعود ،
ولكنهم قعدوا لعلمهم بأن الخروج ليس
فرض عين . وهم مع ذلك مخلصون
صادق الإيمان ، ويتمنون في قرارة

أفئدتهم أن ينصر الله المسلمين على
أعدائهم الكافرين .

وعلى هذا يكون نظم الآية في جملها
الثلاث متمسقا هكذا غاية الاتساق :

فالجمل الأولى نعت المساواة بين
القاعدين غير أولى الضرر والمجاهدين
في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وهذا
الحكم بعدم المساواة يشمل فريقى القاعدين ؛
أى الذين أذن لهم في القعود والذين
لم يسبق لهم مثل هذا الإذن .

ثم جاءت الجملة الثانية بطريق الفصل
من غير أن تعطف على ما قبلها ، لأنها
بيان تفصيلي لما أجمل في الجملة الأولى
من الحكم بعدم المساواة ؛ وهذا هو ما تقضى
به البلاغة في شأن الجملة التي تقع بيانا
لما تضمنته جملة قبلها .

هذه الجملة الثانية : « فضل الله
المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على
القاعدين درجة » قد بينت فضل
المجاهدين على الفريق الأول من القاعدين
غير أولى ، وهم الذين قعدوا بإذن من
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأفادت

(١) يراجع في ذلك كتاب البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢٧ .

أن المجاهدين مفضلون عليهم درجة واحدة ، إذ أن حال هؤلاء القاعدين قريب جدا من حال أولئك المجاهدين حيث إنهم كانوا يودون الخروج معهم للجهاد بأنفسهم ، ولكن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من الحكمة أن يبقوا في المدينة للحاجات المهمة التي تقتضى هذا البقاء كما قدمنا الإشارة إلى ذلك .

ومع أن المجاهدين فضلوا عليهم درجة قد وعدهم الله الحسنى وهى الجنة ، كما وعد المجاهدين بقوله سبحانه : « وكلا وعد الله الحسنى » .

أما الذين لم يسبق لهم إذن من الرسول صلى الله عليه وسلم فى القعود ، فهم الذين بنيت الجملة الأخيرة حالهم وإن المجاهدين مفضلون عليهم درجات كثيرة ، وذلك قوله تعالى :

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة » .

وبذلك علم حال القاعدين غير أولى الضرر : المأذون لهم والآخرين .

أما أولو الضرر فى أنفسهم كالكهز والزمنى والمرضى وذوى العاهات التى تعجز بها أصحابها عن إمكان الخروج مع المجاهدين ، وكذلك من ليس لهم من المدة ما يمكنهم من الاشتراك فى الجهاد ؛ فإن الآية لم تصرح فى جانبهم بحكم ، ولم تبين حالهم بالنسبة إلى المجاهدين كما صنعت فى جانب غير أولى الضرر فما هو حكمهم ؟ وما جزاؤهم ؟ وهل يمكن أن يقال بوجه ما من القول : إنهم يساؤون فى الأجر والثواب أولئك المجاهدين ؟

إن جواب هذا هو من المواطن التى اختلفت فيها أنظار المجتهدين ، وذلك أن الآية التى حكمت بنى المساواة بين المجاهدين والقاعدين ، قد وصفت هؤلاء القاعدين بأنهم غير أولى الضرر ، فهل لهذه الصفة مفهوم مخالفة يقتضى ثبوت نقيض الحكم المنطوق الذى هو عدم المساواة فى حال زوال تلك الصفة ، وحينئذ تثبت المساواة ؟ أو أن ذلك المفهوم مسكوت عنه ، فهو فى مقام الاحتمال ؟ يجوز أن يثبت له نقيض

الحكم المنطوق ويجوز أن يكون الثابت له خلافه ؟

من المجتهدين من سار على الطريقة الأولى، وحكم بأن القاعدين أولى الضرر يساؤون في الأجر والثواب أولئك المجاهدين .

وقد يستند هذا الفريق من المجتهدين في ذلك أيضا إلى ما ورد من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد خلفتم بالمدينة أقواما ، ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، وهم الذين صحت نياتهم ونصحت جيوبهم وكانت أفئدتهم تهوى إلى الجهاد ، وبهم ما يمنعم من المسير من ضرر أو غيره » .

أما الفريق الآخر من المجتهدين فإنه يرى أنه ليس في الآية ولا في الحديث ما يفيد الجزم بمساواة القاعدين أولى

الضرر للذين خرجوا بالفعل مجاهدين في إخلاص وصدق إيمان ، فإنه لا يستوى العاملون وغير العاملين ، وإن كان هؤلاء الذين لم يعملوا لم تتوافر لهم وسائل العمل وضروراته ، أي أنهم غير مفرطين . فحكم أولى الضرر عند هذا الفريق من المجتهدين أنهم بالنظر إلى النصوص التي ذكرناها آنفا - في محل الاحتمال : يجوز أن يكونوا مساوين للمجاهدين في الأجر والثواب .

ويجوز أن يكونوا أقل منهم في هذا الجزاء . . .

ورأينا أن وجهة نظر هذا الفريق من المجتهدين أدق وأحكم وأولى بالاتباع . والله أعلم .

عبد الرحمن تاج
عضوالمجمع

الفارسي في الإغفال

للأستاذ علي النجدي ناصف

« هذه مسائل من كتاب أبي إسحاق إبراهيم بن السري في إعراب القرآن ، ذكرناها لما اقتضت عندنا من الإيضاح منها للإغفال الواقع فيها . ونحن ننقل كلامه في كل مسألة من هذه المسائل بالفظه على وجهته من النسخة التي سمعناها منه فيها ثم تتبعه بما عندنا ، وبالله التوفيق . »

وهمزة « الإغفال » يحتمل أن تكون للتعدي ، وأن تكون للمصادفة ، كالتي في قوله تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) ، على بعض التفاسير^(١) ، أي من وجدناه غافلا عن ذكرنا . والتسمية بالإغفال على الحالين - ملحوظ فيها مضاف محذوف وتأويلها على التعدي : تدارك إغفال الزجاج وعلى المصادفة : تدارك ما وجدنا عند الزجاج من إغفال :

والفرق بين التأويلين يسير ، وهو يتعلق بوصف الوقوع على الإغفال كيف كان ؟ فعلى التعدي كان الإغفال ميسرا قريبا المتناول ، لا يكلف مثونة ، ولا يحمل على طلب ، وعلى المصادفة يتطلب الوقوع عليه تعقبا واقتفاء .

أبو إسحاق الزجاج



- فيما ألف -

كتابا في معاني القرآن ، يعرض فيه بالبيان والإعراب لآيات الكتاب العزيز التي يتطلب فهم معانيها وإعراب أساليبها فضلا من التأمل وإنعام النظر ، ثم جاء أبو علي الفارسي أبعد تلاميذ الزجاج شهرة ، وأعمقهم في العربية فلسفة ، فألف كتابا يعرف بالإغفال ، ينقد فيه كتاب شيخه في معاني القرآن ، ويستدرك عليه من شاء الله أن يستدرك من فوت .

ويبين أبو علي في مقدمة الإغفال سبب تأليفه ، ويذكر منهجه فيه على العهد به من الإيجاز في مقدمة كتابه الحججة في علل القراءات السبع ، فيقول :

(١) انظر كشف الزنجري : ١ : ٥٦٧ ، والمختص : ٢ : ٢٨ .

والافتراضات : والرواية عمل مشترك بين اللغويين ، لكل منهم نصيبه المقسوم منه . ومهما اتسعت رواية أحدهم فلن تكون محيطية شاملة ، لاتند عنها صغيرة ولا كبيرة . واختلاف الفهم سمة من سمات العقول في تعددها وتفاوت أصحابها في الخصائص والمزايا . والظنون والافتراضات كثيرا ما تبطلها قرائن غير القرائن وملايسات غير الملايسات .

فليس عجيبا أن نرى لغويات عدت خطأ ، فأزرى بها ، ونهت عن غيرها ، وأن نرى أخرى وصفت بالاطراد والعموم الذي لاستثناء منه ولاخروج عليه . ثم قويض الله للخطأ المزعوم من صوبه ورد اعتباره إليه ، وقويض للعام المطرد من قيده وحد من شموله الموصوف .

فهذا ثعلب - يرحمه الله - يقول عن (ولاسيا) : من استعماله على خلاف ما جاء في قوله : ولاسيا يوم فهو مخطيء ، يريد أن من الخطأ ألا تذكر الواو ولاقبل سها ، لتكون كما وردت في قول امرئ القيس :

ألارب يوم كان منهن صالح

ولاسيا يوم بدارة جاججل

ثم جاء الرضى فتوسع في أوجه استعمالها ماشاء^(١) ، ولم يسلم كتاب (ليس في كلام

ولا على الفارسي أن ينقد شيخه ، ويلببه على الإغفال الذي رآه في كتاب معاني القرآن وفي كل كتاب من كتبه إذا بدا ذلك له ، ووجد السبيل إليه : بل إن الأمانة العلمية ، والغيرة على الحقيقة أن يتحيفها نقص ، أو تشوبها شائبة غموض لتوجبان عليه أن ينبرى للنقد والإيضاح والاستدراك وجوبا لا هوادة فيه ولا توقف دونه . وفي ذلك من بعد خير للعلم وتمحيص لمعدنه . ولكن الذي كنا نود لو أن أبا علي نزه عنه نقده ، ومنع منه قلمه ألا يأخذ شيخه هكذا أخذ شديدا لارفق فيسه ، ولا بقيا معه ، فهو لا يتحرج أن يرميه بالخطأ الصراح ، وبالتحامل وتناقض الأقوال :

وإذا أمكن أن يغضى مغض عن هذا العنف إذا كان من عدو يناكر الزجاج ويحقد عليه ، أو من قرن يطاوله ويحاول في زحام الحياة وتدافعها أن يؤخره ليتقدم هو عليه - فما أظن أن أحدا يمكن أن يغضى عنه بل عن شيء منه إذا كان من تلميذ له جلس إليه وسمع منه .

وإذا ساغت التخطئة فيما يناقض القوانين الرياضية ، أو البرهانات المنطقية - فإنها غير سائغة ، ولا هي من الحكمة في شيء إذا كانت في المسائل اللغوية ، فإن هذه المسائل إنما تقوم أصلا على رواية النص وفهم معناه ، إلى قرائن وملايسات من الظنون

(١) انظر شرح الأشموني وحاشية الصبان في آخر باب الاستثناء .

العرب (لابن خالويه ، ولا كتاب درة
الغواص للحريري من النقد والتعقيب
بما ينقض بعض ما جاء فيهما من قضايا
وأحكام .

وينطلق أبو علي هنا على العهد به في
الحجة ، فلا يتابع القول على وتيرة واحدة
ولا يأخذ بالقارئ إلى الغاية التي يريد من
وجه واحد ولا من طريق قاصدة ، ولكنه
ينهج به إليها مناهج شتى ، ويعبر له عنها
بأساليب متنوعة ، فبينما هو ماض به قدما -
إذا هو يميل به ذات اليمين مرة وذات
الشمال أخرى ، وبينما هو معه في سهل
مؤنس إذا هو ينحو به إلى صعب موحش
أو يعاو به شرفا ثم يهبط غورا .

ولا يزال في أثناء ذلك ينتقل به من علة
فلسفية ، إلى قياس منطقي ، إلى سرمكنون
من أسرار العربية ، إلى طرفة نادرة من
النحو أو الصرف أو الأصوات حتى يدركه
البهر ، ويمسه اللغوب ، ولا يجد بدا من
الإسك عن المتابعة والانقياد ، إما إلى
عودة قريبة أو بعيدة ، وإما لتعجل النهاية
والنظر إلى مكانه منها ، وسيتبين في كثير
من الأحيان أنه لا يزال بعرض المزيد من
الصبر والاحتمال .

وهو يستكثر من الاستشهاد بالقرآن
ملا يستكثر من غيره إلا كتاب سيبويه ،
حتى ما يكاد القارئ يرتاب في أنه كان

يحفظه كما يحفظ القرآن : وأبو علي إذا
يحفظ الكتاب لا يكون بدعا من العلماء
ولا آتيا بما لم يسبقه إليه أو يشاركه أحد
فيه ، فقد مر بالناس زمان كاد كثير
من طلاب العلم يجمعون فيه بين حفظ
القرآن وحفظ الكتاب ، وخاصة في بلاد
الأندلس (١) ، ولكن الذي يثير العجب
حقا أن يكون الرجل على هذه الدرجة من
الاستحضار له ، وإحكام الاستشهاد به
على هذا النحو النادر المثال . ويزيد من
العجب والاستغراب أن كثيرا مما ينقله
عن كتاب سيبويه ليس مما يذكر في بابه
الذي عقد له ، ولكن مما يذكر عرضا فيه
أو استطرادا إليه .

وبعد ، فسأورد هنا فقارا متفرقة من
المسألة الثامنة والأربعين من الإغفال ،
وأرجو أن تكون كافية في تصوير شخصية
الفارسي وتبيين منهجه في الكتاب على نحو
إلا يكن كاملا فمقارب ، إن شاء الله .

يستهل الفارسي المسألة الثامنة والأربعين
على عادته بنقل كلام شيخه فيها ، فيقول :

« قال في قوله عز وجل : (وقالت
اليهود يد الله مغلولة ^{مُغَلَّتْ} أيديهم ولعنوا
بما قالوا) : أي يده ممسكة عن الإنفاق ،
ومثل ذلك قوله تعالى : (ولا تجعل يدك
مغلولة إلى عنقك) أي لا تمسكها عن

(١) انظر سيبويه إمام النحاة لكاتب المقال : ١٨٨ .

الإتفاق . وقال بعضهم : يد الله مغلوطة :
نعمة مقبوضة عنا ، وهذا القول خطأ .
ينقضه (بل يدها مبسوطتان) ، فيكون
المعنى : بل نعمته مبسوطتان ، ونعم
الله أكثر من أن تحصى . . . »

وقال أبو علي بعد كلام له : وقوله -
عز وجل (بل يدها مبسوطتان)
لا يدل على تقليل النعمة ، وعلى أن نعمته
نعمتان ثنتان ليس غيرهما ، ولكنه يدل
على الكثرة والمبالغة ، وقد جاءت
الثنية يراد بها الكثرة والمبالغة ، وتعداد
المثنى ، لا المعنى الذى يشفع الواحد المفرد .

ألا ترى أن قولهم : لبيك إنما هو إقامة
على طاعتك بعد إقامة ، وكذلك سعديك ،
إنما هو مساعدة بعد مساعدة ، وليس
المراد بذلك طاعتين ثنتين ، ولا مساعدتين
فكذلك الآية ، المعنى فيها أن نعمه ظاهرة
[متابعة] ، ليست كما ادعى من أنها مقبوضة [
ممتنعة] . وهذا الذى ذكرناه فى لبيك وسعديك
وأن المراد به الكثرة - قول الخليل وسيبويه
ومن وراءهما ، فهذا وجه :

وإن شئت حملت الآية على وجه آخر
قريب من هذا فى أن الثنية يرادها الكثرة
وهو أن تجعل المثنى ثنية جنس لا واحد
مفرد ، ويكون أحد جنسى النعمة نعمة
الدنيا ، والآخرة نعمة الآخرة ، أو نعمة الدين ،
فلا تكون الثنية على هذا مرادا بها اثنتين .

فإن قلت : كيف جاز أن يثنى اسم
الجنس ، وهل جاء لهذا نظير فى كلامهم ؟
قيل : نعم قد جاء هذا فى كلامهم مطردا
ألا ترى أن النحويين لا يميزون أعمال
نعم وبئس فى فاعل مخصوص ، ولا
يسندونها إلا إلى أسماء الأجناس المعرفة
بالألّف واللام ، أو المضافة إلى الألف
واللام ، وأجازوا نعم الرجال أنحوك ونعم
الفتيان صاحبك ، فثنوا اسم الجنس ؟
فكذلك يثنى هذا الاسم فى الآية ثنية الجنس
وإن لم تكن فيه لام التعريف . ألا ترى
أنهم قالوا : هما خير اثنين فى الناس ،
وأوقعوا الثنية على العموم ، وعلى غير
ضم مفرد إلى مفرد ؟ وعلى هذا قول
الفرزدق :

وكل رفيقى كل رحل وإن هما
تعاطى القنا قوماهما أخوان

فتأويل الرفيقين فى البيت العموم والإشاعة
ألا ترى . أنه لا يجوز أن يكون رفيقان اثنان
لكل رجل ؟

ثم قال : فأما كون اليد بمعنى النعمة فليس
بمنكر ولا مدفوع ، ومما يدل على ذلك
ما أنشده أبو زيد :

فإن أذكر النعمان إلا بصالح
فإن له عندى يدياً وأنعماً (١)
جمع يد اعلى يدي كالكلب . . والعبيد .
فقوله : « يديا وأنعماً » ، فاليدى هى الأنعم

(١) نسبة فى اللسان (يدى) إلى الأعشى وذكر

في المعنى ، وحسن التكرير لاختلاف اللفظتين
كقوله :

أقوى وأفقر بعد أم الهيثم^(١)

وكقوله - تعالى - : (شديد القوى ذو مرة) ،
ونحو ذلك . واليد قد تستعمل في القوة ،
وتعنى بها . وعلى هذا ما أنشده الأصمعي
لعلى بن الغدير الغنوي :

اعمد لما تعلقوا فما لك بالذي

لا تستطيع من الأملوا يدان

يريد : ليس لك قوة . ألا ترى أنه لا يذهب

للجراحة ولا للنعمة هنا ؟ وعلى هذا ما ذكره

سيبويه من قوله : لا يدين لك ، فعنى هذه

التثنية عندي المبالغة أيضا في نفى الاقتدار

والقوة على الشيء ، كأنه يصف الشيء الذي

قد اعتاص عليه واشتد امتناعه بأنه يباليغ في

انتفاء اقتداره عليه . فليس المراد بالتثنية

الاثنين الناقص عن ثلاثة ، إنما هو الكثرة

وتجمع يد النعمة على أيدي في العدد القليل !

وفي الكثير أياد ، مثل كلب وأكلب وأكالب .

ثم قال : واعلم أن يدا كلمة نادرة وزنها

فَعَمَل ، يدل على ذلك قولهم : أيدي ، وجمعهم

لما عى أفعل ، فدل ذلك على أنه فعل ، كما

دل آباء وآباء على أن وزن أب وأخ : فَعَمَل

واللام منه ياء ، فهو من باب ساس وقاق^(٢) ،

ولا نعلم لذلك في الكلام نظيرا . والذي يدل

على ذلك قولهم : يدبت إليه يدا ، وهو ينبغي

أن يكون مثل : شعر^(٣) الجنين ، واستحجر

الطين . . . ألا ترى أنه لم يجئ مثل وعوت

وقد جاء عندي في الأسماء ذلك ، وهو قولهم

واو ثم قال : وقول ذي الرمة :

فيا لك من دار تحمل أهلها

أيادي سبا بعدي فطال احتياها^(٤)

فقال أبو العباس : من قال : أيادي سبا ،

فأضاف أيادي إلى سبا كان واضعا الكامة

في غير موضعها . والقول في ذلك كما قال ،

لأنه في موضع حال . ألا ترى أن قولك :

ذهبوا أيادي سبا كقولك : ذهبوا متفرقين ؟

فاذا كان كذلك لم تصاح إضافته ، لأنك إذا

أضفت إلى سبا - وهو معرفة - كان المضاف

معرفة ، وإذا كان المضاف معرفة وجب ألا

يكون حالا :

(١) البيت بتمامه : حيث من ضلل تقادم عهده أقوى وأفقر بعد أم الهيثم . وهو من معلقة عنتره .

(٢) كل من سلس وقلق فأوه ولامه من جنس واحد ، ويد مثلهما ، إلا أن القاء واللام ياءان ، ولا نظير لهما

لذلك فيما يعلم من الأفعال .

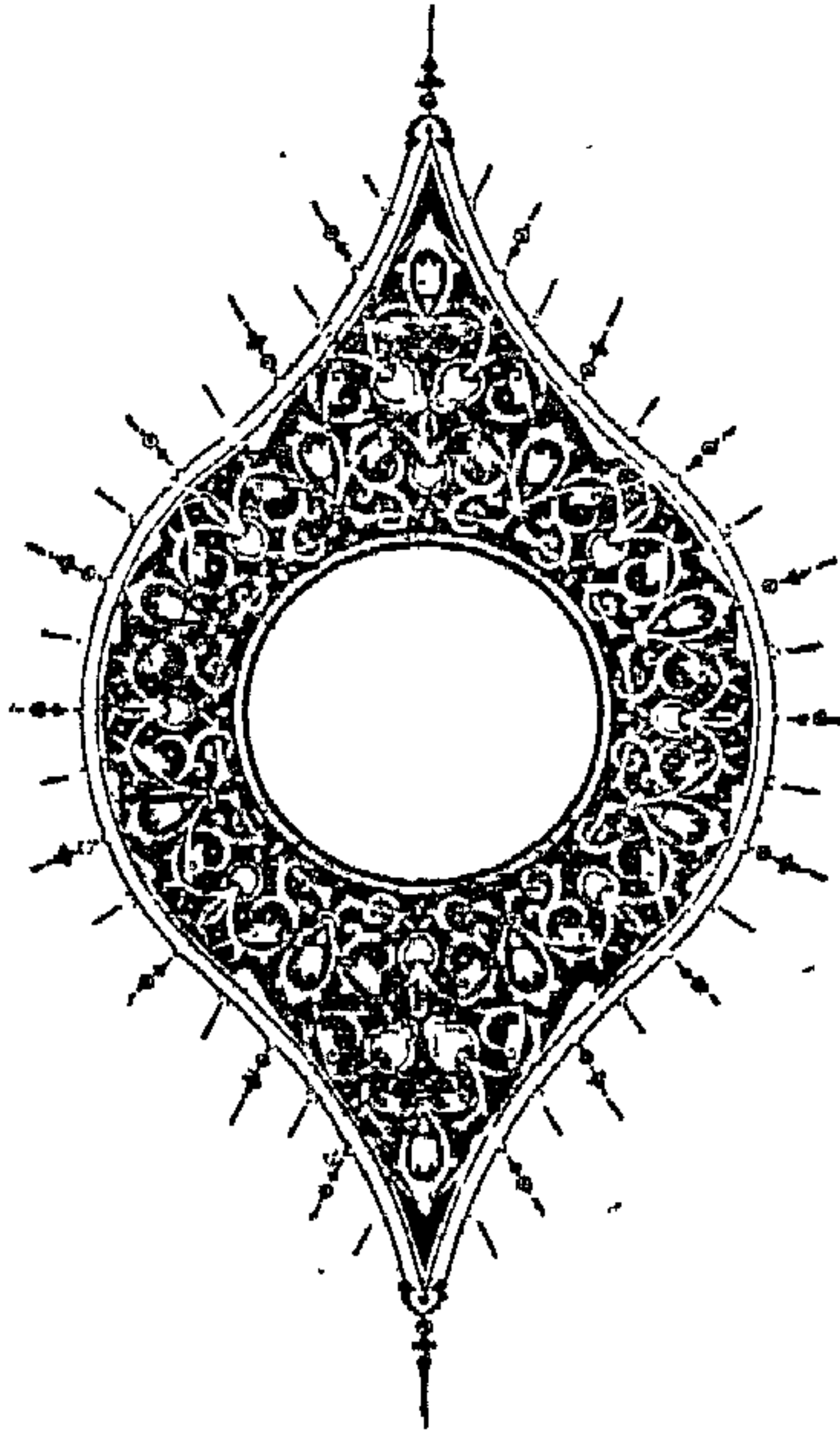
(٣) شعر الجنين كثر شعره ، يريد أن يدبت من اليد ، وهي اسم ذات كسعر من الشعر ، واستحجر من الحجر

(٤) احتياها : خلوها من أهلها حولا ، وأنها لم يصعبها المطر . يقال : أرض محتالة : إذا لم يصعبها المطر .

فإن قلت : فلم لا تجعل سببا معرفة وتقدر
فيه الانفصال كما تقدر فيما ، فتتصب على
الحال إذا كان مضافا إلى معرفة ، كقيد الأوابد
وعبر^(١) الهواجر، وضارب زيد ونحوه؟ فإن
هذا التقدير لا يصح في أيادي. ألا ترى أنه
ليس بصفة كما ذكرت من الصفات، فيسوغ
تقدير الانفصال فيه كما جاز في الصفة؟ .

على النجدي ناصف
عضو المجمع

وحكم الكلمة في قول من أضافه ، فجعل
أيادي مضافا إلى سببا - أن يكون سببا قد زال
عن تعريفه ، فصارت الكلمة لكثرة استعمالها
جارية مجرى ما ذكرنا من النكرة ، فيكون
بمثلة علم نكّر بعد تعريفه : والوجه
فيها عندي ألا تقدر فيها الإضافة ، ولكن
تجعل اسمين بمنزلة اسم واحد ، مثل حضر
مت فيمن لم يصف وجعل نكرة .



(١) يقال : هو عبر أسنار : أى قوى عليها مطبق لها .

خصائص اللغة العربية في التعبير العلمي

للدكتور عبد الحلیم منتصر

وزين ملكة نقلوا روايت أبقراط وفيثاغورس
وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس
وديسقوريدوس وإقليدس وأ. شميديس وغيرهم
من علماء أثينا والإسكندرية .

وعرفت الأمة العربية طب أبقراط وفلك
بطليموس وهندسة إقليدس وقرأوا مجسطي
بطليموس، وأصول إقليدس وجامع أوريباسوس
ومئات بل ألوف من كتب أرسطو وجالينوس
وثاون وهيرون وغيرهم من رواد العلم
العصرين الإغريقي والإسكندري ووسعت
العربية الجومطريا والاسطرونوميا والميتافيزيقا
والأريثماتيكا والمائماطيقا ومصطلحات التشريح
والهندسة والفلك والطب والرياضيات وما
إليها، واستمرت الحركة العلمية في النمو والازدهار
وشمات الحواضر العربية كلها من بغداد إلى
دمشق إلى القاهرة إلى مراكش إلى الأندلس
في الجامع المنصور والجامع الأموي والجامع
الأزهرى وجامع القيروان وجامع قرطبة
وفي بيت الحكمة ودار الحكمة ودار العلم فكانت
هذه، وتلك تؤدي ما تؤديه الجامعات ومعاهد
العلم في الوقت الحاضرة وكانت منازل العلماء

أكثر من أحد عشر
قرنا من الزمان وفي
عهد الخليفة المأمون
على التحديد تقاطر



الترجمون على بيت الحكمة في بغداد ، يتقاون
الذخائر العلمية التي تركها الإغريق والفرس
والهنود والسريان والقبط وغيرهم إلى اللغة
العربية وشجع الخليفة العالم هذه الحركة العلمية
العارمة ، فكان يولى العلماء عطفه ورعايته كما
فتح لهم خزائن المال ، يصدق عليهم منها ،
استحثاثا منه لهم على نقل هذا التراث إلى
اللغة العربية. وكذلك تم نقل هذا التراث
في الطب والفلسفة والمنطق والأخلاق والسياسة
والفلك والرياضيات والتشريح والنبات والحيوان
وما إليها من علوم لم يكن للعرب بها عهد .

وليس من شك في أن تلك كانت نقطة
بدء رائعة للانطلاق وغدت بغداد مركز
إشعاع علمي حضارى تاهت به على حواضر
ذلك العصر ودانت الحضارة الانسانية لبغداد
المأمون وغدا الخليفة المأمون رمزا للملك العالم
وجمع حوله جمهرة من العلماء علمي بهم بلاطه

وقصور الخلفاء والأمر أعوام المساجد ودور الكتب
تزدان بمجالس العلم والأدب . وامتدت
الامبراطورية العربية الإسلامية من حدود
الصين شرقا إلى حدود فرنسا غربا وأكب
علماء المسلمين على التأليف بلغة عربية سليمة
حتى كانت أعمال العالم منهم تعد لا بالأحاديث
ولا بالعشرات ولكن بالآلاف ، وتاه هذا
العصر بعشرات ومئات من العلماء العرب
يقرنون إلى أعظم العلماء في كل عصر وآن .
وهاهي ذى تأليفهم ومخطوطاتهم تزدان بها
دور الكتب والمتاحف ، مما يعد بمئات الألوف
مما يحتاج تحقيقه وعرضه إلى جهود عصبية
من أولى العزم من العلماء يعكفون على دراستها
وتحقيقها وعرضها ملخصة ومختصرة . وقد
أنصفنا بعض مؤرخي العلم حين قالوا : إن
الحضارة الانسانية مدينة للعلماء العرب في
كل فروع المعرفة وأنه كان لا بد من ظهور
ابن الهيثم والصوفي والبيروني والكندي لكي
يتسنى ظهور جاليليو وكبلر وكوبرنيك ، وأنه
لولا أعمال العلماء العرب لا ضطر علماء النهضة
الأوروبية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر
سير المدنية عدة قرون ، وأنه لو لم يعوقنا المغول
والتتار والترك والاستعمار لكانت هذه النهضة
التي تفماخر بها أوروبا تكون من نصيب الأمة
العربية وتكون لغتها هي العربية وتتقدم عليها
في التاريخ عدة قرون .

ولاشك أن القارئ لمؤلفات ابن سينا وابن
الهيثم والبيروني وجابر والحوارزمي والرازي
وابن النفيس والزهرراوى والصوفي وابن يونس

وابن العوام وغيرهم ليتهاك الإعجاب والإكبار
بأسلوبهم العلمى الأخاذ ولغتهم العربية السليمة
التي كتبوا بها في الفلك والرياضات والضوء
والهندسة والخبر والطب والكيمياء . لقد طوعوا
العربية لمصطاحات هذه العلوم الطبيعية المختلفة
حتى قال المنصفون إن ينبوع الأول للعلوم
الطبيعية إنما تفجر في العصر العربى الإسلامى
الذى ازدان بأمثال من ذكرنا .

ولكن الأيام دول كما يقولون ، فضعف أمر
الأمة العربية بعد أن قدمت لأوروبا زاد نهضتها
العلمية عن طريق الأندلس التي سطعت فيها
الحضارة العربية الإسلامية عدة قرون ، وعن
طريق صقلية التي دانت لحكم العرب بضعة
قرون وعن طريق الحروب الصليبية ثم عن
طريق الامبراطورية العثمانية في شرق أوروبا .
وظلت كتب من ذكرنا من العلماء العرب هي
المراجع المعتمدة في جامعات أوروبا طيلة
قرون وأنشئت الجامعات الأوروبية على غرار
جامعة الأزهر العتيقة وترجمت الكتب العربية
إلى اللغة اللاتينية واللغات الأجنبية الأخرى
وسطعت شمس الحضارة العلمية على أوروبا
في حين انحسرت عن الأمة العربية .

وفي أوائل القرن الماضى بسدت
الاتصالات بين بعض الدول الأوروبية
وبعض البلدان العربية كان هدفها الأول
حربيا استعماريا لم يكتب لها فيها نصر ولم
تتحقق أغراضها منه ، ولكنها تحققت اتصالات

علمية كان من نتائجها نقل العلوم الحديثة إلى البلدان العربية، وإنشاء بعض المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا. وعاد هؤلاء المبعوثون ليقودوا نهضة علمية حديثة. ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أنشئت في مصر مدارس الطب والهندسة والمعلمين وغيرها من مدارس. وشارك علماء من أساتذة هذه المدارس من الأجانب والمصريين في ترجمة الكتب العلمية إلى اللغة العربية، إن في الطب أو الهندسة أو الزراعة أو الصيدلة أو الكيمياء وما إليها من علوم وفنون. وكان الحكام يلزمون طلاب البعثات بنقل هذه العلوم إلى اللغة العربية وأن تكون اللغة العربية لغة التدريس في هذه المعاهد.

وفي أخريات القرن الماضي عاد الاحتلال ينشر ظله الثقيل مرة أخرى، وشيئا فشيئا جعل لغة التدريس هي الأجنبية ولم يكتف بأن يكون ذلك في المعاهد العليا وحدها ولكن عمم ذلك في المدارس الابتدائية والثانوية فاستقر في أذهان الكثيرين أن هذه العلوم مستوردة هي الأخرى من- الخارج وأنه لم يكن لنا بها عهد، وتناسى الكثيرون أنها بضاعتنا ترد إلينا، وأن العلماء العرب هم واضعو أسس هذه العلوم وهم مبتكرو كثير من أجهزتها وأدواتها بل ومصطلحاتها أيضا.

الابتدائية والثانوية، كما أنشئت في مصر الجامعة الأهلية وكانت مقصورة على كلية الآداب، كما أنشئت معاهد عليا كبيرة: وفي أواسط عشرينيات هذا القرن أنشئت الجامعة المصرية الأميرية، وكانت تتكون آنئذ من أربع كليات هي الآداب والحقوق والطب والعلوم، وكانت العلوم هي وحدها التي أنشئت إنشاء في ذلك التاريخ ولم تكن متحولة عن معهد أو مدرسة أخرى، وضمت إليها بعد ذلك كليات أخرى: ثم أنشئت في أوائل الأربعينيات جامعة الإسكندرية ثم جامعة عين شمس في سنة ١٩٥٠ وتتابعت الجامعات في مصر بعد ذلك في أسيوط وطنطا والمنصورة والزقازيق، كما تتابع إنشاء الجامعات في كثير من البلدان العربية في العراق في بغداد والموصل وفي سوريا وفي دمشق-ق وحلب وفي الأردن وعمان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب والكويت والرياض وغيرها، كما أنشئت المجامع اللغوية في القاهرة وبغداد ودمشق للمحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها مساندة للنهضة العلمية.

ومن أسف أن اللغة العربية ماتزال وثيدة الخطو لتكون لغة التدريس في الكليات العملية خاصة باستثناء جامعة دمشق.

وقد آمن الكثيرون أن التدريس إنما كان بلغة أجنبية ضرورة مؤقتة لم يكن معدى عنها، وإنهم ليرقبون اليوم الذي يعم

ومنذ أوائل القرن العشرين عادت لغة العربية مكانتها في التدريس في المدارس

فيه اتخذ العربية لغة العلم : فالعربية لم
تقصر عن اللحاق بركب العلم وإنما قصر
أبناؤها .

وطنا كريما يشعر أبناؤه ويشرفون
بالانتساب إليه :

وهاهم العلماء العرب يتزايد عددهم يوما
بعد يوم يحاولون أن يعيدوا مجد أسلافهم
من أمثال من ذكرنا ، وهاهم أولاء يعقدون
المؤتمرات الطبية والصيدلية والهندسية
والعلمية العربية في كل رجا من أرجاء
الوطن العربي من أقصى شرقه إلى أقصى
غربه تحت راية لغة الضاد - ليعلن عن حيويته
الكامنة وليقود الإنسانية مرة أخرى إلى
رحاب العلم والرفاهية والسلام ، وأنه على
ذلك لتقدير ما اتخذ من العلم هاديا وإماما
ومارفع راية الضاد بجعلها من مقومات
ثقافته وحضارته بل وكيانه . ولا مرأ في
أن أولى مراتب الثقافة الرفيعة علم المرء بلغته
وقدرته على التعبير والإبداع العلمى فيها
في كل مرفق من مرافق الحياة .

وفي أوائل الثلاثينيات صدرت في مصر
مجلة علمية باللغة العربية وفيها دعوة صريحة
لتحقيق هذا الهدف ، وكان العدد الأول
يحمل استفتاء بين كبار أعضاء هيئة التدريس
وكلهم يجمع على تحقيق ذلك الهدف ،
وتكونت جماعة أطلقت على نفسها اسم
جماعة أنصار اللغة العربية كان هدفها
تحقيق هذا العلم وتدريب أعضاء هيئة التدريس
والطلاب على معالجة الموضوعات العلمية
بلغة عربية سليمة . يتناولون في محاضراتهم
ومقالاتهم أحدث الموضوعات العلمية من
كيميائية وبيولوجية وطبية وصيدلية ونباتية
وحيوانية ورياضية وهندسية وطبيعية بلغة
عربية لاعجمة فيها . لقد حدث كل ذلك
آنئذ في كلية العلوم بالجامعة المصرية ، وكان
للإنجليز في ذلك الوقت سلطان ودولة
لأى السياسة فحسب بل في العلم والتعليم
كذلك ومع ذلك فقد توافر لدى الكثيرين
من أبناء العربية من القوة والشجاعة ما جعلهم
ينادون بتعريب العلم : وإني لأسجد لله
شكرا أن عشت حتى أرى فجر هذا اليوم
يبزع وما أشك في أن ضحاه قريب مادمننا
نحمل هذه القلوب القوية والعزمات الفتية
ومادام أبناء العربية في أرجاء الوطن العربي
يستهدفون وحلته ورقبه وقوته ومنعته ليكون

ولا مرأ في أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة
وقد عاصرت زهاء ثلاثين عاما ، قد أدى هذا
المجمع أعظم خدمة لتعريب العلم إذ خصص
جانبا غير يسير من وقته وجهده لترجمة
المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية بعد أن جند
لها الخبراء من الأساتذة المتخصصين كان
يجتمع بهم أعضاء المجمع في لجان واجتماعات
تتعقد بصفة منتظمة لهذا الغرض ثم يعرض
ما تقرره اللجان على أعضاء المجمع مجتمعين
في صورة مجلس ، ثم تعرض مرة أخرى على

هيئة المجمع في صورة مؤتمر حين يعقد المجمع مؤتمر السنوي ليناقدش ويقر ما انجزه المجلس من أعمال طيلة العام، فكان مرور المصطلح والتعبير العلمى بهذه الخطوات جميعا كفيلا بصقله وحسن صوغه .

وقد أقر مجمع اللغة العربية ألوفا المصطلحات والتعبيرات العلمية فى مختلف فروع العلم نشر منها حتى الآن خمس عشرة مجموعة تضم بضع عشرات من ألوفا المصطلحات فضلا عن عدد غير قليل منها يتضمنه المعجم اللذان يصدرهما المجمع وهما الوسيط والكبير.

وقد ذهب فريق من المشتغلين بهذه المسألة إلى أنه لا بد من إيجاد جذور عربية للكلمات والمصطلحات المراد ترجمتها والتعبير عنها، وأنه لا ينبغي أن تدنس العربية بعجمة أو لكنة وإنما تبقى مصفاة مطهرة وقد يبدو هذا رأى وجيها لولا أن - هناك استحالة فى تنفيذه أو الأخذ به على أية صورة. فالمصطلحات العلمية فى تزايد مستمر بل إنها لتتكاثر كما يتكاثر الإنسان والنبات والحيوان، فيزيد عددها يوما بعد يوم وسنة بعد أخرى حتى أصبح مجرد حصرها مشكالة تعترض الفنين والمتخصصين - وأضحت دور النشر تخرج علينا بين حين وآخر بمعجم تتفاوت حجوما وأشكالا وتختلف فى لغاتها وطرائقها، فمنها ما يصور بلغة واحدة ومنها ما يصور بلغتين ومنها ما يجمع بين ست لغات أو أكثر. فلاحقة هذا التكاثر بلغة عربية أصيلة يبدو ومستحيلا لأسباب ليس أقلها شأننا أن العرب لم تكن

تعرف هذه الموضوعات وأن هذه العلوم جديدة حتى على الغربيين، وأن الكثير منها إنما رأى النور وعرفته الإنسانية فى مطالع هذا القرن بل وبعد أن تنصف، فمن أين تأتى الجذور العربية لهذه المستحدثات والمستعدنات والنظريات التى لم يكن للعرب بها علم؟ إننا نكلف العربية شططا ونكلف أنفسنا جهدا لا طائل تحته إن نحن صممنا على التنقيب فى بطون المعاجم عن أصول عربية للميكروسكوب والترمومتر والالكترون والنيوترون والميزون وما إليها مما يعد بعشرات الألوفا، وإذا نحن وجدنا جذرا عربيا لهذه الكلمة أو تلك علينا أن نجد لعشرات الألوفا، فما علينا إلا أن نبحث وندقق فإن أسعفتنا. المراجع ببغيتنا، فيها ونعمت، وإلا فى التعريب متسع لهذه الألوفا المؤلفة من المصطلحات والتعبيرات العلمية فى كل علم وفن. ويسعنا ماوسع الأقدمين من استعمال أريثماطيقا وميتافيزيقا وجو مطريا وأسطرو نومييا وغيرها.

وإذا نحن اتفقنا على الترجمة العربية لكلمة فلعله من الواجب توحيدها وتعميم استعمالها فى الأقطار العربية بل التزام هذا الاستعمال، وإذا ترجمنا ميكروسكوب فهل نستعمل مجهر بصيغة اسم الفاعل أو مجهر بصيغة اسم الآلة أو نقول مجهر على وزن مفعال؟

وإذا نحن ترجمنا كلمة ترمومتر فهل نقول ميزان الحرارة أو نستعمل اسم الآلة فنقول محرار على وزن مفعال أو نبقى

على ترمومتر تقريبا؟ فهذا كما نرى أمر
مثير يختلف فيه الآراء وتباين فيه الأذواق :

توحيد الترجمة العربية للمصطلحات :

وهناك أوجه خلاف بين الدول العربية
والمتقنين العرب بشأن هذه المصطلحات
فالعراق والأردن ومصر لوتهتم الثقافة
الإنجليزية حينما فتأثروا بها، وسوريا ولبنان
وتونس والجزائر ثقافتها فرنسية فتأثرت
مصطلحاتهم العلمية بالأصول الفرنسية
للكلمات ، فلا بد لنا اذن من الترجمة ثم
توحيد هذه الترجمة: ولنضرب بعض الأمثلة
لهذا التباين في التعبير العلمى في بعض البلاد
فعلم الطبيعة كما نعرفه في مصر يسمى في
سوريا والعراق والأردن ولبنان «فيزياء»
والأولى ترجمة والثانية تعريب ، على أن
التعريب ليس كاملا فالصحيح هو «فيزيقا»
كذلك استعمله العلماء الأقدمون كما استعملوا
أرثما طيقا للحساب ، وماثيا طيقا للرياضيات
وجو مطريا للهندسة، وهكذا، فكلمة فيزياء
لم تلتزم فيها العربية الفصحى ولا التعريب
السليم ولا عيب في كلمة طبيعة الا احتمال
الشبهة مع (nature) التي تترجم بنفس
الكلمة « طبيعة » :

ونحن نقول في مصر كما يقول أهل
العراق بؤرة العدسة، ولكن الأقطار الأخرى
تقول « المحرقة » ونحن في مصر نقول
بندول الساعة تعريبا لكلمة pendulum وفي
العراق يقولون رقاص وفي سوريا « نواس »

وفي الأردن «خطار»، فينبغي أن تختار الدول
العربية ترجمة واحدة للمصطلح الواحد :
أ وفي مصر والعراق تطلق كلمة « طحلب »
لتدل على alga على حين أنهم في سوريا
ولبنان يقولون « أشنة » أما اشنة فنستعملها
في مصر لكلمة lichen، على حين تقول
الأقطار الأخرى طحلب .

وكلمة endosperm عربت في مصر
إلى اندوسبرم وترجمت في بعض البلاد
العربية الأخرى إلى سويداء .

وكلمة ecology ترجمت في مصر إلى
علم البيئة وفي أقطار أخرى إلى « علم المحيط
» وفصيلة Rutaceae ترجمت في مصر
إلى سدبية نسبة إلى اسم النبات الذي اشتق منه
اسم الفصيلة واستعملت الأقطار الأخرى
ليمونية نسبة إلى أشهر نباتاتها :

وكلمة nucellus ترجمت إلى
« جويزة » في البلاد العربية وعربت في مصر
إلى « لويصلة » .

وكلمة micropyle ترجمت إلى نفير
في مصر وفي البلاد العربية العربية إلى
« بويب » :

ونحن في مصر نقول « جرام » تعريبا
لكلمة gram الإفرنجية وغيرنا يقول غرام :
ونقول مغنطيسية تعريبا الكلمة magnetism
فعرينا الحاف بالجم حينما وبالغين حينما آخر
ونحن نقول ابجروسكوبى وآخرون يقولون
ابغيروسكوبى . . . وهكذا :

والمعاوقة ، والمقاومة ، قريبة في معناها
ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

الممانعة ترجمة ال Reluctance

والمقاومة « ال Resistance

والمعاوقة « ال Impedance

ثم تجاوزه والمهاودة والمسايرة قريبة في
في معناها ولكن مدلولاتها متفاوتة فوضعت :

التجاوزة ترجمة ال Permittance

المهاودة « ال Susceptance

والمسايرة « ال admittance

ثم المفاعلة ، والمنافذة ، والمواصلة ،
والمحاثة قريبة في معناها ولكن مدلولاتها
متباينة فوضعت :

المفاعلة ترجمة ال Reactance

والمنافذة « ال Permeance

والمواصلة « ال Conductance

والمحاثة « ال Inductance

ثم ابتكرت صيغ جديدة لم تكن تستعمل
كثيرا كالمصدر الصناعي فنقول :

الممانعية ترجمة ال Reluctivity

وهي مقدار قابلية المادة المغنطيسية
لتوصيل الفيض المغنطيسي وهي مقلوب
المنفذية

والمنفذية ترجمة ال Permeability

وليست الترجمة العربية للمصطلح جامدة
أبدا، فما أيسر أن تبين ان هناك ترجمة أو
تعبيرا أفضل أن نعدل عن الأول إليه. فلم
تكن الترجمة جامدة أبدا، فقد كانت
الترجمة تعرض في المقالات والبحوث
والدراسات فيصقلها ويصححها الذوق العام
والاستعمال ومن أمثلة ذلك ترجمة المصطلح
الذي يدل على درجة تركيز ايون الأيدروجين
ويرمز له بالإفرنجية بالرمز pH ، فقد سمي
أولا « الجهد الأيدروجيني ثم الأس
الأيدروجيني ثم عدل أخيرا إلى « الرقم
الأيدروجيني » .

وكذلك تلك الظاهرة التي سميت حينها
« ادمصاص » ثم عدل عنها إلى التجمع
السطحي، وهاهي ذى يقرها الجمع اللغوي
والذوق العام بين المشتغلين بالعلم إلى
« امتزاز » ترجمة لكلمة adsorption .

ومصطلح غروي اتخذ ترجمة لكلمة
colloid ثم عدل عنها إلى شبه غروي ثم إلى
غراواني :

وكذلك كلمة alkaloid عربت حينها إلى
قلويد ثم ترجمت إلى شبه قلوي ثم إلى
« قلواني » وهكذا .

مصطلحات في علم الطبيعة :

وهناك مصطلحات متقاربة المعنى متفاوتة
المدلول لا بد من تعريفها تعريفا دقيقا ولا بد
من وضع الترجمة الصحيحة لكل مصطلح
يتميز بها عن المصطلح الأخر فالممانعة ،

مصطلحات طبية :

وابتكرت صيغ قياسية كثيرة في
المصطلحات الطبية

كأن نقول عصاب ترجمة للمصطلح
Neurosis وهو مرض عصبي وظيفي لا تصحبه
علامات عضوية ومن أنواعه :

- (أ) عصاب القلق anxiety neurosis
(ب) عصاب أصابي Teumatic neurosis
(ج) عصاب قلبي Cardiac neurosis
(د) عصاب كلالي Fatigue neurosis
(هـ) عصاب متأخر Neurosis tarda
(و) عصاب انحصارى قسرى
Obsessive compulsive
(ز) عصاب مهني Occupational neurosis

وكذلك نقول عن المرض الجلدي - جلاد
Dermatosis

وعن مرض الصدفية، صدف Psoriasis

ونقول بواغ الشعر Sporotrichosis

والوزام الدهمي Stratomatosis

وفطار الشعر Trichomyris

وعقاد الشعر Trichonosdis

والعراق المصن Asmidiosis

والعراق الفسفورى Phospheriodrosis

والطعام Cehunosis

وترجم إلى العمه الحسى مصطلح Agnesis

وهو القصور عن تمييز الاشياء وانواعه

(أ) عمه سمعى Auditory agnesis

(ب) عمه بصرى Optic agnesis

(ج) عمه لمسى Tactile agnesis

وهى النسبة بين كثافة الفيض المغنطيسى المنتج
في وسط ما إلى القوة الممغنطة المنتجة له :

والمجاوزية ترجمة ل Permittivity

وهى النسبة بين الإزاحة الكهربائية لوسط ما
إلى القوة الكهربائية المنتجة له

والمقاومية ترجمة ل Resistivity

وتعنى المقاومة الحجمية للمادة ، ويقصد
بذلك مقاومة جرم من تلك المادة طوله
الوحدة ومساحة مقطعه الوحدة تسمى أيضا
المقاومة النوعية

والتأثرية ترجمة ل Susceptibility

وهى النسبة بين شدة التمغنط إلى شدة المجال
المغنطيسى في الدائرة المغنطيسية

والمفاعلية ترجمة ل Reactivity

والمعاوقية ترجمة ل Impedivity

والموصلية ترجمة ل Conductiunity

وهى خاصية للمادة بفضلها تسمح للتيار الكهربائى
بالمرور خلالها إذا كان هناك فرق جهد وهى
مقلوب المقاومة .

وكذلك تتقارب معانى الانحلال والتدهور
والفساد والتفتت والتخلل وقد ترجمت على
هذا النحو :

انحلال - Degeneration

تدهور - Deterioration

هدم - Destruction

تفتت - Disintegration

تحلل - analysis

فساد - Decay

وترجم إلى العمه الحرثي المصطلح Apratia وهو عدم القدرة على الاتيان بحركة ذات قصد .

وهناك عشرات من الأمثلة لهذه المجاميع من الكلمات أو المصطلحات التي تتقارب في معانيها وتفاوت في دلالتها ومن أسف أن المراجع الأجنبية كثيرا ما تستعمل الكلمة الواحدة لأكثر من معنى ومدلول . فكان على المترجم أن يحتاط كذلك. ومن حسن حظ العربية أنها غنية جدا بالترادفات، وأن فقهاها من أغنى لغات الأرض بالمدلولات والألفاظ والأقبيسة، وكانت الطريقة الوحيدة هي جمع هذه الأشياء وتسليط الأضراء عليها واستنباط المدلولات الحقيقية لها، والغوص في المعاجم لاستخراج الكلمة الملائمة، وتعميم الاستعمال والتزامه .

الوحدات والرموز والثوابت :

وهناك صعوبة الوحدات والمواصفات والمقاييس واستعمال الرموز المناسبة لكل وحدة. وتميزت اللغات الأجنبية بالخطوط المتغيرة فالروماني والإغريقي والإيطالي والخفيف والثقيل والكبير والصغير لكل صورة مما جعلنا نحصل على مئات الصور - للحروف الأجنبية ومن حسن الحظ ان الخط العربي هو أيضا متعدد الصور فهناك النسخ والرقعة والثلاث وما إلى ذلك فنجده مثلا هذه الصور :

الكاف - ك لك ،

الميم - م م م

النون - ن ن ن ن

الجيم - ج ج ج ج

السين - س س س س

القاف - ق ق ق ق

الياء - ي ي ي ي

الراء - ر ر ر ر

فكان علينا أن نؤلف بين هذه الحروف لنجد الرموز الكافية لمئات الوحدات والمقاييس والعناصر. فهناك رموز للثوابت مثل ثابت سرعة الضوء ثابت افوجادرو ، ثابت فراداي ، ثابت شحنة الإلكترونات ، ثابت الجاذبية وثابت لكتلة الإلكترون .

وهناك وحدات المقاييس من طول وعرض وارتفاع ونصف القطر والزاوية والمساحة والحجم .

ووحدات الوقت والزمن والتردد والسرعة وطول الموجة والتسارع والكثافة والعزم والشغل والقوة والوزن والضغط والطاقة والقدرة والكفاءة والشد والثني والانحراف والالتواء والاحتكاك واللزوجة والولاء والتوتر والتيار والمقاومة والحث والسعة والفيض والجهد والمقاومة والممانعة والمجازة والمواصلة والإضاءة .

ثم معاملات الانكسار والانحراف ودرجات الحرارة والتمدد والموصلية والعدد الذري والوزن الذري والتكافؤ والتحلل والتأين :

ثم المتر والمليمتر والسنتيمتر والميكرون
والميلتر والثانية والدقيقة والساعة والسيكل
والكيلو سيكل والجرام والمليجرام والكيلو
جرام .

والسعر والكيلو سعر والواط والفولط
والأمبير والجول والقنديلة والكولومب
والفولط كولومب والفولط أمبير والهنري
والفاراد والكورى والميكروكورى ، والبوصة
والقدم والياردة والخالون والحبة والأوقية
والباوند والباوندال والحصان : الخ .

هذه أمثلة لوحدات لا تتجاوز المائة وهناك
ثوابت غيرها لا يتسع المقام لذكرها عدا أن
من مائة من العناصر الكيميائية ينبغى أن
يتفق على رموز من حروف عربية لها وقد
قال قوم بالإبقاء على الوحدات والرموز
الأجنبية إلا أن هذا رأى قد رفض وروى
التزام العربية والمعادلات الكيميائية روى
تعريبها هي الأخرى مادامت الرموز قد عربت
بجميعها .

وتبين الصعوبة إذا عرفنا أن القدرة والقطر
وقوة المجال المغنطيسى والقوة الدافعة الكهربائية
والطاقة والدقيقة كل هذا وغيره كثير يرمز
إليه بالحرف ق ولا بد من التمييز بينها فقد
يقع اثنان أو أكثر في معادلة واحدة . كذلك
المساحة والسعة وستوكس وغيرها يرمز لها
بالحرف س . والشدة والشغل والشحنة ومعامل
الانتشار وغيرها يرمز لها بالحرف ش والتردد
والتيار والتورك (عزم الدوران) والوقت

ومعامل الانتقال وثابت سرعة التفاعل يرمز
لها بالحرف ت :

وعدد أفوجا درو والزمن وثابت الدوران
وعدد اللغات وعدد الجزيئات والسعة الحرارية
للجزيء وعدد الانتقال ووحدة نيوتن كل
ذلك يرمز له بالحرف ن ،

وهكذا من عشرات الأمثلة التي يرمز
فيها الحرف الواحد لعدد كبير من الأحداث
والثوابت والمعاملات وما إليها من وحدات
ومقاييس علمية مغيرة ينبغى أن توجد لها
مقابلات بالأحرف العربية فضلاً عن أن
الحرف الواحد قد يرمز إلى أكثر من عنصر
كيميائى واحد فالزئبق والأزوت والزرنيخ
قد يكون رمزها جميعاً فضلاً عن أن حرف
ز نفسه يرمز به لعدد آخر من الوحدات
مثل وحدة إزاحة التيار ومعامل الاسموز
وما أشبهه .

لذلك كان لا بد من اختيار صور
مختلفة للحرف الواحد فضلاً عن ضرورة
الجمع بين حرفين أو أكثر منعاً للبس
وكذلك الإبقاء في بعض الحالات على الحروف
الإغريقية كرموز بعض الوحدات العلمية
المعبرة أو الرموز الرياضية حيث بدأ صعباً
أحياناً إيجاد رموز من حروف عربية موحدة
ولا بد أن يمضى بعض الوقت حتى تتكامل
طريقة سوية مبرأة من المأخذ بعد أن يصقلها
ويصححها ويسبغها الرأى العلمى العام
والذوق العام وبعد أن تعيننا المطابع والمسالك

Sub-Family	فصيلة	على إيجاد الصور المطلوبة للحروف وقد
Tribe	قبيلة	جربت صور مختلفة لخطوط النسخ والرقعة
Sub-Tribe	قبيلة	والثلث والفارسي والكوفي بل وحروف
Genus	جنس	التاج التي ابتدعت حيناً ثم عدل عنها .
Sub Genus	جنيس	وعلى الذين يقولون بالإبقاء على الرموز
Species	نوع	والمعادلات والحروف الافرنجية ويضربون
Sub-Species	نوع	أمثلة على ذلك باللغات الأوروبية المختلفة
Variety	ضرب	التي اتفقت على الرموز نفسها في هذه اللغات
Race	سلالة	فاتهم أن الحروف في هذه اللغات جميعاً متشابهة
Strain	عرة	إلى حد كبير، فضلاً عن أنها تكتب جميعاً
Individual	فرد	من اليسار إلى اليمين فإذا فرضناها في كتاباتنا
		وبين سطورنا العربية جاءت نشازا .

وفي علوم الحياة أقر مجمع اللغة العربية قاعدة موحدة للتصنيف كما وضع قواعد لترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان من نبات وحيوان فأقر حلقات التصنيف الآتية :

Kingdom	عالم
Sub-Kingdom	عويلم
Phylum	شعبة
Sub Phylum	شعبية
Class	طائفة
Sub-Class	طويئفة
Order	رتبة
Sub-Order	رتيبة
Family	فصيلة

وقد أزلت هذه الأسماء التي اتفق عليها، وأقرها مجمعنا الموقر أزلت حيرة كانت شائعة لدى مؤلفي كتب المواليد، وأصبح اليوم كل اسم عربي يدل اصطلاحياً على حلقة واحدة من حلقات التصنيف على غرار الأسماء الأعجمية المقابلة لها، وأوضح أن أسماء حلقات التصنيف هذه تعد من أسماء المعاني، وأنها ترحمت إلى العربية ولم تكن الصعوبة في الترجمة، ولكن في تخصيص كل حلقة باسم عربي واحد راجح وهذا ما أقره المجمع، وهو قرار خلاق بان يتبع مهما يكن للبعض من آراء أخرى في هذه المسميات وذلك لأن فيه خلاصاً من فوضى تعدد الأسماء لكل حلقة واحدة من حلقات تصنيف المواليد :

وقد أقر المجتمع القواعد الآتية في ترجمة وتعريب أسماء المواليد والأعيان :

الأولى: ترجمة الألفاظ العلمية بمعانيها هو المجال الأوسع في حلقات التصنيف العليا وهي الشعب والطوائف والرتب :

الثانية: أسماء القبائل والفصائل النباتية أو الحيوانية تكون عربية أو معربة على حسب اسم النبات أو الحيوان الذي تنسب إليه :

الثالثة: اجناس المواليد التي ليس لها أسماء عربية تعرب أسماءها العلمية إذا كانت منسوبة إلى الأعلام وترجم بمعانيها إذا أمكن ترجمتها في كلمة عربية واحدة سائغة وإن لم يكن ذلك ممكنا رجع تعريبها .

الرابعة: لا مجال للتعريب في الألفاظ العلمية الدالة على أنواع النبات لأن جميع ألفاظها أو معظمها نعوت أو صفات تترجم ترجمة في جميع اللغات الحية :

الخامسة: يوجد مجال للترجمة أو التعريب جميعا في الألفاظ الدالة على السلالات والأصناف أو الضروب :

السادسة : لا مجال للذبح وللتركيب المزجي في تصنيف المواليد ولا حاجة إليهما وفي اللجوء إليهما تشويه للغة العربية :

ومع ذلك فقد رأى المجتمع ضرورة الازدواج أي ذكر الأسماء العلمية اللاتينية في الدراسات العليا وفي حالة احتمال أي لبس .

فمثلا لا مجال للتعريب في الفقاريات والأسماك والبرمائيات والزواحف والطيور

والثدييات في رتب الحيوان : كذلك لا مجال للتعريب في غشائية الأجنحة وحرشفيات الأجنحة وذوات الجناحين ونصفيات الأجنحة وما إليها من رتب الحشرات وكذلك للنباتات الزهرية واللازهرية وذوات الفلقتين وذوات الفلقة الواحدة وكاسيات البذور وعاريات البذور وما إليها :

فهذه جميعا ترجمات معقولة مقبولة مستساغة فلا معنى للتعريب هنا مطلقا، وكذلك نقول في الفصائل النباتية النخيلية والنجيلية والزنبقية والرجسية والسحلبية والحبازية ، وكذلك أسماء الأجناس كالقمح والشعير والجردل والقطن والورد وما إليها .

أما النوع ، فينبغي إن دل على صفة بعينها أن نردف الاسم المتفق عليه باللغة العربية بالاسم العلمي كاملا، ويتعين ذلك خاصة في الحالات التي تختلف فيها المسميات. فالبطاطس في مصر هي البطاطا في سوريا والحوخ هو الدراق والكمثرى هي الإجاص . بل إن اللديس والبوط والبردى أسماء مختلفة لنبات واحد، ولكنه يعرف بأسماء مختلفة في الجهات المختلفة ففي كل هذه الحالات وفي مجال البحث العلمي والكتابات العلمية يتعين الازدواج وذكر الاسم العلمي باللغة اللاتينية .

في الجيولوجيا :

وفي المصطلحات الجيولوجية تسعفنا العربية بألفاظ تحدد الفروق الدقيقة بين درجات متفاوتة من النور والظلمة والعمق والضخالة والملوحة والعدوبة والبرى والتفتت والتشق

	وفي باب ما يشبهه :	والانفصال والانفصام وما إلى ذلك، فإذا بها معطاء كأجزل ما يكون العطاء :
Colloid	غراواتي	فنجند النور والغسق والدغش والغبق والإظلام
Crystalloid	بلوراني	كما نجد الضحل والغائر والعميق والسحيق
Metalloid	فلزاني	وفي مدى استجابة الصخور ورد الفعل
Saccharoid	سكراني	فيها بالنسبة للحركات الأرضية :
Spheroid	كرواني	فاصل وتفصل Joint, jointing
Deltoid	دلتاني	صدع وتصدع Fault, faulting
	وفي موضوع البري والسحج والتحات والتآكل نقول :	شق ، تشقق Fracture, fracturing
Abrasion	البري أو السحج	دسرة ، ودسر Thrust, thrusting
Erosion	التحات	تفلق Cleavage
Corrosion	التآكل	إنزلاق Slipping
	ونقول	تزحلق Sliding
Stalagmites	صواعد	زحف Creeping
	وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم ترسبت في أرضية الكهف بسبب بخار الماء متجهة إلى أعلى :	وفي باب الطي
	وهو ابط Stalactites	طية وطي Fold, folding
	وهي أعمدة من كربونات الكالسيوم مدلاة من سقف الكهف بسبب بخار الماء متجهة إلى أسفل، وهي صيغ عربية سليمة ما أظن أن الأقدمين قد استعملوها :	ثنية وثني Pliating
	وفي مراتب ومراحل الزمن الجيولوجي نقول ؛ الدهر والحين والحقب والعصر والبرهة واللحظة	تعرج Corrugation
		قبة ، تقبب Dome, doming
		وفي درجات ملوحة الماء نقول ،
		ماء عذب Fresh water
		ماء مسوس Brackish water
		ماء ملح Saline
		ماء زعاق Hypersaline water
		ماء أجاج Brine

Moment

٦ - اللحظة

أقصر مراحل الزمن الجيولوجي وأصغر وحداته ولا يتجاوز مداها بضع عشرات من آلاف السنين، ويتميز بسيادة نوع معين من الكائنات خلالها أو بمرحلة معينة من تاريخ هذا النوع .

ولم تسمح وسائل تقسيم الأحقاب إلى عصور إلا في الأحقاب الثلاثة الأخيرة فقط التي تتبع دهر الحياة الظاهرة .

جهود مجمع اللغة العربية :

وإذا نحن عرضنا للهيئات التي كان لها الفضل في هذه الحركة المباركة من تطويع اللغة العربية للاستعمال في التعبيرات والمصطلحات العلمية فإننا لنضع على رأسها مجمع اللغة العربية . فهو الذي يسر الأمر بجهود أعضائه وخبرائه من أساتذة الجامعات المتخصصين، فهم جميعاً قوم عاكفون على صون اللغة وسلامتها وهي الضمان الوحيد للتفاهم الصحيح بين قطان الوطن العربي إذ أن العامية واللهجات المختلفة لا يستقيم بها تخاطب ولا تفاهم وإنما يكون ذلك باللغة العربية السليمة التي يحافظ عليها وينمىها مجمع اللغة العربية بأعضائه ولحانه وخبرائه، وكانت حصيلة جهوده في هذا المجال خمس عشرة مجموعة تضم عشرات الألوف من المصطلحات في العاوم المختلفة .

المجمع المصري للثقافة العالمية :

وأذكر بالتقدير المجمع المصري للثقافة العلمية وقد عاصرت منذ إنشائه منذ نيف

Eon

١ - الدهر

أطول مرحلة من مراحل الزمن الجيولوجي لا يقل مداها عن عدة مئات قد تصل إلى ألف أو أكثر من ملايين السنين .

Era

٢ - الحين

أطول مراحل العصر في الزمن الجيولوجي ويقاس مداها ببضعة ملايين من السنين (لا يتجاوز العشرة عادة)، ويتميز كل حين من الأحيان الجيولوجية بفصائل أجناس حيوانية ونباتية مميزة يبيد معظمها مع نهايته .

Period

٣ - الحقب

المدة من الزمن ترسبت أثناءها صخور المجموعة ، وتقدر بمئات الملايين من السنين

Age

٤ - العصر

أطول مرحلة من مراحل الحقب ويقاس مداها بعدد قليل من عشرات الملايين من السنين . ويتميز كل حقب برتب وفصائل حيوانية ونباتية تنقرض أغلبها أو تقل أهميتها الجيولوجية مع نهاية الحقب .

Hemera

٥ - البرهة

مرحلة من الزمن الجيولوجي يقاس مداها بمئات الآلاف من السنين ويندر أن يباغ مداها أكثر من مليون سنة . وهي أطول مرحلة ينقسم إليها حين من الأحيان الجيولوجية ويتميز بازدهار نوع معين أو عدة أنواع معينة من الحيوانات أو النباتات تنقرض أو تقل في الأهمية الجيولوجية كثيرا مع نهايتها .

وأربعين عاما لا أذكر أني تخلفت عن محاضرة من محاضراته أو مؤتمرا من مؤتمراته الا لعذر قاهر طارئ، لقد جعل من أهم أغراضه تعريب العلم ونشر الثقافة العلمية باللغة العربية، وقد حقق هذا الغرض كاملا بما نشر وأذاع من كتب ومحاضرات، وبما ترجم وعرب وناقش من موضوعات هي من صميم الموضوعات العلمية نشرها على الناس بلغة عربية سليمة. لقد استحق أعضاؤه ومؤسسه كل تقدير أن أسهموا بأوفى نصيب في خدمة اللغة العربية وتطويعها للتعبير العلمي .

ولا ننسى المؤتمرات العلمية العربية التي نظمها الاتحاد العلمي العربي والمؤتمرات العلمية العربية والمؤتمرات الطبية العربية التي عقدت في العواصم العربية منذ عشرين عاما فقد عقد المؤتمر الأول في الإسكندرية سنة ٥٣ وكان الثاني في القاهرة سنة ٥٥ والثالث في بيروت سنة ٥٧ والرابع في القاهرة سنة ٦١ والخامس في بغداد سنة ٦٦ والسادس في دمشق سنة ٦٩ والسابع في القاهرة سنة ١٩٧٣. لقد عرضت من بين ما عرضت لموضوعات المصطلحات وأوصت من بين ما أوصت بضرورة الإسراع في وضع معجم علمي عربي موحد أعد له نحو مائة ألف مصطلح روجعت جزازات نحو ثلثها ومن أسف أن توقف العمل فيه، وكان ذلك في كنف وزارة البحث العلمي ثم أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا .

وكذلك عقدت مؤتمرات طبية عربية كثيرة كونت هيئة لترجمة المصطلحات كانت نواة لتأليف لجنة المصطلحات الطبية بمجمع اللغة العربية .

وينبغي أن نذكر بالشكر جهود أخرى بذلتها جامعة الدول العربية حين جمعت الإدارة الثقافية بها - جمعت المصطلحات العلمية التي تستعمل في المدارس الثانوية وعمات على توحيد ترجمتها في الأقطار العربية، فجمعت مئات المصطلحات مما يستعمل في الرياضيات والكيمياء والطبيعة والنبات والحيوان وعرضتها على المختصين في البلاد العربية، وقد أقرت الترجمة العربية الموحدة في المؤتمرات العلمية .

خير أجنبي :

ولعلنا أن نذكر في هذا الصدد جهود خير أجنبي هو السيد « جيبالت » الذي استقدم بمعرفة اليونسكو إبان انعقاد المؤتمر العلمي العربي الثاني سنة ١٩٥٥ وأهضى بمصر ستة أشهر عكف فيها على جمع نحو ألف وأربعمائة مصطلح في علم الطبيعة جميعها وتعريفها من المعاجم المعيرة وفرقها في جذا ذات وزعت على المختصين لترجمتها ثم جمعت في كتاب يقع في جزأين عرضت بعد ذلك في المؤتمر العلمي العربي الثالث في بيروت، وقد أشار الخبير بمعالجة المصطلحات خلة حسب الموضوعات لا فرادى حسب الترتيب الأبجدي، كما أشار بإنشاء مكتب خاص للمصطلحات وباستعمال النظام العشري العالمي في تنسيقها وتبويبها .

مكتب تنسيق التعريب :

وها هو ذا مكتب التعريب يقوم بدوره في هذا المجال وقد أخرج حتى الآن عددا من المجموعات التي تضم ألوف المصطلحات

ولعلنا أن نذكر كذلك عددا من المعاجم كان لها أثرها في تذليل الصعاب مثل معجم شرف للمصطلحات الطبية والعلمية ومعجم الملوف للحيوان ومعجم عيسى للنبات ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابي ثم معجم المصطلحات الفنية الذي يضم نحواً من خمسة وثلاثين ألف مصطلح في العلوم الميكانيكية والهندسة والرياضة والطيران والبحرية وما إليها :

وهناك المعجم العسكري الموحد الذي أشرفت على إصداره جامعة الدول العربية ويضم نحو ثمانين ألف مصطلح .

ولعله قد آن الأوان لتنسيق هذه الجهود جميعاً والعمل على إصدار معجم علمي عربي موحد، وهو ما أوصت به المؤتمرات العلمية العربية المختلفة، وكذلك العمل على إصدار دورية علمية عربية تكون مدرسة لكبار المتخصصين لنشر الثقافة العلمية الرفيعة والموضوعات العلمية المتخصصة الدقيقة :

خاتمة :

وخلاصة القول أن اللغة العربية قد أثبتت قدرتها على التعبير العلمي وعلى نقل المصطلحات العلمية الدقيقة إليها، وأنها قادرة على ملاحقة

التقدم العلمي في مختلف مجالاته، لولا هذا التعويق الذي يأتي عن طريق نفر من أبنائها لا يصبرون على لأوائها، يستسهلون استعمال اللغات الأجنبية فيظن شبابنا أن هذه العلوم مستوردة من الخارج مع أنها بضاعتنا ترد إلينا، ومع أننا نحن العرب أهل أصالة وأثالة فيها :

ومن الحق أن نقول إن التعليم في كل بلاد العالم باللغات القومية لتلك البلاد ، فيما عدا قلة ضئيلة تلك التي تعددت فيها اللغات الإقليمية أو التي خضعت للاستعمار الأجنبي ردحا طويلا ، فاضطرت لاتخاذ لغة المستعمر لغة رسمية وتعليمية لها .

ونحن في وطننا العربي لانستطيع أن نحقق ديمقراطية التعليم مالم يكن باللغة القومية، ولست أدري إذا لم تكن العربية هي لغة التدريس في الجامعات العربية، فلماذا يتعين أن تكون الإنجليزية أو الفرنسية إن استعمال اللغة العربية في التعليم الجامعي إنما هو وسيلة أكيدة للإبداع العلمي وربط الجامعة بالمجتمع ورفع المستوى الثقافي والعلمي للأمة العربية ومنع الانفصال بين التفكير والتعبير . ولا مرأى في أن الدعوة إلى بناء المجتمع العربي تبقى ناقصة إذا أغفلت التركيز على اللغة العربية باعتبارها المقوم الرئيسي للوجود العربي. وليس معنى اتخاذ العربية لغة للتدريس في الجامعات والمعاهد عدم العناية باللغات الأجنبية بل على النقيض ان ذلك ادعى لمضاعفة الجهد في سبيل تقوية الطلاب في اللغات الأجنبية

وذلك لتابعة الاطلاع على المنجزات العلمية بلغاتها الأصلية .

وإذا كان قد غدا من العسير ملاحقة التقدم العلمي الهائل حيث ينشر أكثر من مليونين من البحوث العلمية المبتكرة سنويا في أربعين لغة، فلا أقل من ملاحقة ما ينشر باللغات الأجنبية الأكثر شيوعا كالإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية إلى جانب أوف الكتب العلمية التي تنشر بهذه اللغات وإنما يكون ذلك بتقليد ما فعله الرشيد والمأمون من إنشاء ديوان لترجمة في بيت الحكمة في العصر الذهبي للحركة العلمية [في العصر الإسلامي :

والآن وقد ثبتت قدرة اللغة العربية على التعبير العلمي، فحسبنا أن يوصى مؤتمرا بالآتي :

١- أن تكون العربية لغة التدريس في جميع الجامعات والمعاهد العربية .

٢- الإسراع في إصدار معجم علمي عربي موحد .

٣- إنشاء ديوان لترجمة تحشد له أرقى الكفايات العلمية لنقل البحوث والكتب العلمية إلى اللغة العربية :

٤- تأكيد العناية بتدريس اللغة العربية واللغات الأجنبية في المدارس والجامعات والمعاهد .

وبعد ، فإنه مما يشرف جيلنا أن ننفي عن العربية تهمة الحمود والقصور، وأن نجعلها لغة العلم كما فعل أسلافنا في الزمن الماضي ، حين جعلوا منها لغة للنشر العلمي العالمي، وعنها نقل أهل أوروبا علوم العرب وفنونهم . . ولولا هذه الإغفاء التي طالت بضعة قرون لكان الحال غير الحال ، ولاستمر قصب السبق في أيدينا ، ندل به على من نشاء ، وهانحن ننضوئوب الحمول ونركض نحو المجد وثبا نريد أن نستعيد مجد السلف وأن نلحق بالركب ونشارك في بناء صرح المدنية والحضارة ونحن الألى أسسنا بناءه وأقمنا دعائمه في سالف الأزمان ونمد نهر المعرفة برافد من أعذب روافده وأغزرها مادة وأسلسها أسلوبا وأفصحها بيانا ، إنها معرفة علمية صيغت بلغة الضاد يقرؤها مائة مليون من الأنفس هم قطان الوطن العربي نريد لهم وحدة قوية عزيزة ، محاطة بسياج من العلم ، سداها العلم ولحمتها العلم ولغتها العربية الفصحى والله ولي التوفيق والسلام ، ، ،

عبد الحلیم منتصر
عضو الجمع

معنى (كاد)

في الإثبات والنفي

للدكتور أحمد الحوفي



الفعل (كاد)

مشبهاً بتارة

فإذا قال قائل : كاد زيد يبكي ،
فمعناه قارب زيد البكاء ، أي أن مقاربة
البكاء ثابتة ، ولكن البكاء نفسه منتف .

وقد عبّر الفراء والأزهري عن هذا
بأن إثبات كاد نفي ، أي نفي لوقوع
الخبر ، لأنك إذا قلت : كدت أبلغ
إليك ، فمعناه أنك قاربت البلوغ
ولم تبلغ .

٢- أما كاد المنفية تحو قولنا :
لم يكد الثمر ينضج ، فمعناه عند
الجمهور أنه لم يقارب النضج ، أي أن
المقاربة منفية ، والنضج نفسه منتف
انتفاءً أبعد من قولنا : كاد الثمر
ينضج ، وبهذا فسر الأنخفش قوله
تعالى : « إذا أخرج يده لم يكد يراها »
بأنه لا يراها .

على حين أن الفراء والأزهري يذهبان إلى
أن نفيها إثبات ، فإذا قلت : ما كدت
أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد بلغت (١) .

ومنفياً تارة ، فما معنى كاد في الحالين ؟
أوثر ألا نتعجل الجواب ، بل نستأنس
أولاً بآراء النحاة ، ثم نعتمد على القرآن
الكريم وعلى الشعر القديم في تعرف
الدلالة الحقيقية للفعل كاد في الإثبات
وفي النفي .

أولاً (في النحو) :

١- قال جمهور النحاة إن كاد
وكرب وأوشك وضعت للدلالة على قرب
الخبر ، وإن كان قربه لا يستلزم
وقوعه ، بل قد يستحيل وقوعه كما في
قوله تعالى : « يكاد زيتها يضيء ولو لم
تمسه نار » .

(١) شرح الأشموني ٢/٩١-١٠٣ وشرح ابن يعيش ٧/١٢٤ ولسان العرب مادة "كيد" .

ثانيا (كاد في الاثبات) :

(١) في القرآن الكريم

١- قال تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسفاً قال : بئس ما خلقتُموني منْ بَعْدِي ، أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَا حَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ : ابْنَ لِمَ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي . وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(١) » .
[فما معنى كاد هنا ؟]

المعنى أنني لم آل جهداً في معارضتهم ووعظهم وإنذارهم ، لكنهم غلبوني على أمري ، ولم يبق إلا أن يقتلوني ، وقد قاربوا ذلك .

٢- وقال سبحانه : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقي منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ^(٢) » .

فقد كان المسلمون في غزوة تبوك في ضيق شديد ، لأن رواحلهم قليلة ،

وأزوادهم ضئيلة ، وكان ماؤهم نزرًا ، حتى إنهم نحروا الإبل واعتصروا فروشها ، وكان الحر شديداً ، ولهذا كادت قلوب بعضهم تنصرف عن ثباتها على الإيمان ، أو تنصرف عن اتباع رسول الله في الخروج معه في تلك الغزوة .

ومعنى هذا أن قلوب هذا الفريق لم تنزع ، بل قاربت أن تزيغ .

٣- وقال تعالى : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتريَ علينا غيره ، وإذا لا تتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلاً ^(٣) » .

وذلك أن ثقيفاً أو قريشياً عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلموا لكنهم اشترطوا شروطاً ، ولولا أن الله تعالى ثبت النبي وعصمه لقارب أن يميل إلى الرضا بشروطهم ، لشدة رغبته في إسلامهم .

٤- وقال سبحانه : « وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ ^(٤) » .

(٢) سورة التوبة ١١٧

(١) سورة الأعراف ١٥٠

(٣) سورة الإسراء ٧٣-٧٤

الأرضُ ، وتَخْرُجُ الجبالُ هُدًى ، أَنْ دَعَوْا
للرحمن ولدا « (١) .

أى أن نسبتهم ولدا إلى الله تعالى كلمة
شنيعة فظيعة ينكرها العقل السليم ،
وتبرأ منها الجمادات ، وتوشك أن
تنفطر وتنشق وتخر من هول هذه
القرية وبطلانها .

٥- وقال تعالى : « الله نورُ السماوات
والأرض ، مثلُ نوره كمشكاة فيها
مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجَةُ
كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شجرةٍ
مباركةٍ زيتونَةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ
يكاد زيتها يضيءُ ، ولو لم تمسسه نار ،
نورٌ على نور ، يَهْدِي اللهُ لنوره من يشاءُ ،
ويَضْرِبُ اللهُ الأمثالَ للناس ، والله بكلِّ
شئٍ عليمٌ » (٢) .

أى أن الزيت بسبب صفائه وبريقه
ولعانه يقارب أن يضيء من غير نار .

٦- وقال سبحانه : « ألم تر أن
الله يُزجى سحابا ، ثم يُؤلّفُ بينه ،
ثم يجعله ركاماً ، فترى الودقَ يخرجُ
من خلاله ، ويُنزلُ من السماء من جبالٍ

فيها من بردٍ ، فيصيب به من يشاءُ ،
ويصرفه عن من يشاءُ ، يكاد سنا
برقه يذهبُ بالأبصار » (٣) .

ومعنى هذا أن ضوء البرق يقرب من
أن يخطف الأبصار ، ولا يخطفها .

٧- وقال تعالى : « وإذا رأوك إن
يتخذونك إلا هزواً . أهذا الذي بعث
الله رسولا ؟ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا
لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون
حين يرون العذابَ من أضلُّ سبيلاً » (٤) .

ويتبين من الآية أن النبي عليه الصلاة
والسلام بذل أقصى جهده في دعوتهم إلى
الإسلام ، مع عرض المعجزات عليهم
حتى شارفوا أن يتركوا دينهم ويسلموا ،
لولا فرط لجاجهم واستمسكهم بعبادة
آلهتهم .

٨- وقال سبحانه : « وأصبح فؤادُ
أم موسى فارغاً ، إن كادت لتبدي به ،
لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من
المؤمنين » (٥) .

(٣) سورة النور ٤٣

(٢) سورة النور ٣٥

(١) سورة مريم ٨٨-٩١

(٥) سورة القصص ١٠

(٤) سورة الفرقان ٤١-٤٢

أى أن أم موسى لما سمعت بوقوع موسى في يد فرعون طار صوابها من شدة الجزع حتى قاربت أن تجهر بآن موسى ابنها ، لولا أن الله تعالى ألهمها الصبر لتكتم الخبر ، ولتكون من المصدقين بوعد الله لها في قوله « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » .

أو أنها حينما سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه كادت من شدة فرحها تبوح بآنه ابنها ، لولا أن الله ثبتها وألهمها الصبر .

(٢) في الشعر :

١ - قال أبو صخر الهذلي :

تكاد يدي تَنَدَى إذا ما لمستها
وينبت في أطرافها الورق النَّضْرُ (١)
فهو يصور مساعده إذا لمستها يده
بهذه الصورة ، وهي أن يده تقرب من الإبراق الجميل .

٢ - وقال قيس بن ذريح :

وَعَذْبَهُ الْهُوى حتى براه
كَبْرِي الْقَيْنِ بالسَّفْنِ القِداحا
وكاد يذيقه جُرْعَ المنايا
ولو سَقَاهُ ذلك لا ستراحا (٢)

أى أن الحب هزله وقارب أن يسقيه أجرع الموت ، وهو لم يسقه إياها ، لأنه لو شربها لاستراح ، وما قال ولو سقاه ذلك لاستراح .

٣ - وقال رجل من بني جعدة :

إذا دعا باسمها داعٍ لِيَحْزُنُنِي
كادت له شُعْبَةٌ من مهجتي تَقَعُ (٣)

أى أوشكت وقربت أن تقع .

٤ - وقال رجل من قيس :

وفيهن من بَخَّتِ النساءِ رِبْحَلَةً
تكاد على غرِّ النساءِ تَرُوقُ (٤)

فهى في نظره لم تفق النساء الحسنان ، بل قاربت أن تفوقهن ، وهو بهذا التعبير صادق ، لأنه يعلم أنها لم تفق النسوة الحسنان جميعا .

ثالثا (كاد في النفي) :

(١) في القرآن الكريم

١ - قال تعالى : « قالوا الآن جئت

بالحق . فذبوها ، وما كادوا يفعلون » (٥)

أى أن قوم موسى تباطأوا في ذبح

البقرة ، وتلكأوا ، وأطالوا في أسئلتهم

(١) الأماك ١/١٤٩

(٢) الأماك ١/١٦٢ القين : الحداد . السفن جلد أو حجر ينحت به الشيء ويسحج القلح .

(٣) الأماك ٢/٢٧٣ . (٤) الأماك ١/١١٨ بخت وربحلة : المراد ضخمة بمتلثة . (٥) سورة البقرة ٧١

عن صفاتها ، وهم يقصدون التهرب من ذبيحتها ، حتى إن حالتهم كانت تدل على أنهم لم يقاربوا الاستجابة والطاعة ، ثم بعد هذا كله اضطروا إلى ذبيحتها .
ففي الآية الكريمة معنيان ، لكل منهما حاله وزمانه .

وأغلب الظن أن الذين ذهبوا إلى أن نفي كاد إثبات فهموا أن قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » تصوير لحالة واحدة في زمان واحد ، أي أنهم ذبحوا البقرة فعلا ولكن بعسر ومشقة .

والحق أن الإثبات لم يفهم من قوله تعالى « وما كادوا يفعلون » بل فهم من قوله سبحانه « فذبحوها » فالنفي الداخِل على الفعل كاد ما زال نفيا ، ويحسن أن استأنس هنا بما قاله الطبري والزمخشري .

أما الطبري فإنه قال : وما كادوا يفعلون ، أي أنهم كادوا لا يفعلون ، لأنهم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة ، لغلاء ثمنها ،

ولخوف الفضيحة على أنفسهم حينما يظهر قاتل القتيل الذي اختصموا فيه^(١)

وأما الزمخشري فقال : وما كادوا يفعلون ، استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها ، وما كادت تنتهي أسئلتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم^(٢) .
٢ - وقال تعالى : « قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا^(٣) » .

وذلك أنهم زعموا أن ما أصابهم من خير ونعمة منسوب إلى الله ، وما أصابهم من قحط وشر منسوب إلى رسول الله ، وهم مبطلون في زعمهم ، لأن الله تعالى هو الفعال ، وهو الذي يبسط الأرزاق ويقبضها ، فما بالهم لا يقاربون أن يفهموا فيعلموا هذه الحقيقة ؟ وليس المراد أنهم فهموها بعسر .

٣ - وقال سبحانه : « واستفتحوا ونجاب كلُّ جبارة عنيدي ، من وراءه

(١) تفسير الطبري ١/ ٢٨١

(٢) سورة النساء ٧٨

(٣) تفسير الزمخشري ١/ ٧٥

جهنم ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ
وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ^(١) .

أى أنه يتجرع الصديد ولا يقارب
أن يسيغه ، فكيف تكون إساغته إذن ؟
ويفهم من الآية أن الإساغة لم تقع
مهما يكن عسرها .

٤ - وقال تعالى : « حتى إذا بلغ
السَّيِّئِينَ وَجَدَ مَنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا^(٢) » .

أى أن ذا القرنين لما بلغ ما بين
السدين وجد من دونهما قوما لا يقاربون
أن يفهموا الكلام ، ولهذا يتم التفاهم
معهم بالإشارة ونحوها ، فهم مثل
البيكم ، لأن لغتهم غريبة على ذى
القرنين ، ولأن لغته مجهولة لهم .

٥ - وقال سبحانه : « والذين كفروا
أعمالهم كسراب بقيعة ، يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ
مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ،
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ، وَاللَّهُ

سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كظلمات فى بحر
لجج يغشاها موج من فوقه موج من
فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق
بعض ، إذا أخرج يده لم يكذبها ،
ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور^(٣) .

فى هاتين الآيتين وصف لظلمات
متراكمة ، إذا أحاطت بإنسان وأخرج
فيها يده لم يقارب أن يراها .

وهذا هو الذى يتناسب والظلمات
الموصوفة ، وهو أبعد فى نفي الرؤية ،
لأن الذى لا يرى قد يقارب أن يرى ،
أو يرى رؤية ضعيفة ، ولكن الذى
لا يقارب أن يرى لا يرى شيئا ما ،
وهذا هو المراد من الآية الكريمة ، ويعززه
تشبيه أعمال الكفار بالسراب ، فإن
السراب لا حقيقة له ، ثم شبهت أعمالهم
بالظلمات المتراكمة التى لا تهدى إلى
شيء ولا يمكن أن يرى فيها شيء .

٦ - وقال سبحانه على لسان فرعون :
« أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ،
ولا يَكَادُ يُبِينُ^(٤) » .

(٢) سورة الكهف ٩٣

(٤) سورة الزخرف ٥٢

(١) سورة إبراهيم ١٥-١٧

(٣) سورة النور ٣٩-٤٠

فقد زعم فرعون لقومه أنه خير من
موسى عليه السلام ، ووصفه بالضعف
والحقارة وبالعجز عن الإبانة .

(٢) في الشعر :

١ - قال ذو الرمة :

إذا غيّر النأى المحبين لم يكذ
رئيس الهوى من حب مية يبرح^(١)

يريد أنه إذا أضعف الفراق الحب
في قلوب المحبين فإن حبي لم يقارب
الضعف والتغير .

[وهذا أدل على ثبات حبه من أن يقول
لم يبرح حبها قلبي ، فقد يكون حبها
باقيا في قلبه وهو ضعيف أو قريب
من الزوال ، ولا يطاوعنا الأسلوب إذا
أردنا أن نفهم البيت على أن النفي
[إثبات ، لأن المعنى يصير حينئذ إذا
تغير المحبون جميعا تغيرت ، وهذا غير
ما قصده الشاعر .

٢ - وقال قيس بن ذريح أو قيس
المجنون :

وما كاد قلبي بعد أيام جاوزت
إلى بأجراع الثدي يريع^(٢)

أي أن عقله بعد رحيل محبوبته
لم يقارب العودة إليه ، وليس المراد
أنه عاد ، لأن عودته مهما تكن عسيرة
لا تتفق والصورة الغزلية التي يقصدها .

٣ - وقرأ أبو علي القالي على أبي بكر
بن دريد :

وقد لان أيام اللوى ثم لم يكذ
من العيش شئ بعدهن يلين^(٣)

فهو يصف الحياة في أيام اللوى
باللين ، ويصفها بعد أيام اللوى بالقسوة
والجفاف وبأنها لم تقارب اللين ،
ولا يريد أنها لانت مهما يكن لينها
ضعيفا ، وهذا هو الذي يلائم ضيقه
بالحياة بعد أيام اللوى .

٤ - وقال المرار بن منقذ :

وإذا تمشى إلى جاراتها
لم تكذ تبليغ حتى تنبه^(٤)

(٢) الأماك ١ / ١٣٦

(١) ريس الهوى : ثابتة .

(٢) الأماك ١ / ١٦١

(٤) المفضليات ١ / ٨٩

أى أنها ذات جسد ممتلئ ، وذات
نعيم ، فإذا مشت من دارها إلى دارجارتها
تلاحق نفسها سريعا ، وأدركها الإعياء
قبل أن تصل .

رابعا (النتائج) :

تبين من الآيات القرآنية الكريمة
ومن النصوص الشعرية ما يأتى :

١- (كاد) فعل يدل فى حالة
الإثبات على مقاربة الخبر ، ولا يدل
على وقوعه فى أية صورة من الصور .

٢- أما (كاد) الفعل المنفى فإنه يبنى
مقاربة الخبر ، ولهذا كان الخبر المنفى
بعده أبعد من المنفى بدونه ، فقولنا :
لا أكاد أصدق هذا الخبر أوغل فى نفي
التصديق من قولنا : أكاد أصدق هذا الخبر .

وهذا يخالف ما ذهب إليه الفراء
والأزهري فى قولهما إنك إذا قلت :
ما كدت أبلغ إليك ، فمعناه أنك قد
بلغت ، ويؤكد ما ذهب إليه الأنخفش
وغيره فى فهم ما بعد نفي كاد على أنه
أوغل فى نفي الخبر منه بغيرها .

٣- أما دخول النفي على خبر كاد
نحو قضيت أياما فى بلد كاد فيه المطر
لا ينقطع ، فإننى لم أجده فى نص موثوق
به ، ولكن النحاة أجازوه ، والقياس
لا يمنع ، والمعنى حينئذ أن المطر قارب
ألا ينقطع ، فالنفي منصب على الانقطاع
لا على مقاربة الانقطاع .

وقد روى بيت زهير بن أبى سلمى :
صحا القلب عن سلمى وقد كان لايسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالتفل
بوضع كاد بدلا من كان .

وجاء فى تفسير الطبرى قوله :
عن ابن عباس فذبحوها وما كادوا
يفعلون ، يقول كادوا لا يفعلون^(١) .
والفرق بين قولنا : ما كاد المطر
ينقطع وقولنا : كاد المطر لا ينقطع ،
أن النفي فى الجملة الأولى منصب على
مقاربة الانقطاع ، أما النفي فى الجملة
الثانية فهو منصب على الانقطاع نفسه ،
ولهذا كان النفي فى الأولى أوغل من
النفي فى الثانية .

ومعنى هذا أن الخبر المنفى بنفى يسبق
كاد أبعد من الخبر المنفى بنفى .يجب بعدها .

أحمد الحوفى
عضو المجمع

(١) تفسير الطبرى ١ / ٢٨١

ثلاث قصائد تاريخية

للدكتور إسحاق موسى الحسيني



تخوض الرماح والسيوف . وقتال
الأسنة لا يقلّ خطرا عن قتال السيوف ،
لأنها كانت تزيد نيران البغضاء اضطرابا ،
فيشتدّ الصراع عنفا .

وقد نشرت أخيرا ثلاث قصائد
تاريخية ذات لون خاص فريد . فهي
تصور المعركة التي احتدمت بين المسلمين
والروم في القرن الرابع الهجري ، وتكشف
النقاب عن أثر الدين في المعركة ، ومبلغ
ما وصل إليه الخلاف الديني من استحكام .

أولى القصائد ، وبداية الشرّ ، قصيدة
أرسلها نقفور بن الفقاس ، الملقب
بالدمستق ، المتوفى سنة ٣٥٢ هـ -
٩٦٣ م والذي تولى قتال المسلمين باسم
رومانوس بن قسطنطين ، ملك الروم ،
أرسلها إلى الخليفة العباسي المطيع لله
المتوفى سنة ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م . وفي أيامه

العالم الإسلامي ، في
القرن الرابع الهجري ،
أحداثا جساما ضعفت كيانه ، وأذوت
البراعم التي تكوّنت في القرنين الثاني
والثالث . من هذه الأحداث اشتداد
نفوذ الأعاجم في الدولة العباسية ،
وعبثهم بالخلفاء ، والافتتات على سلطانهم ،
حتى أضحوا كالدمى لا تضرّ ولا تنفع .
ومنها الانشقاق في المجتمع الإسلامي
بسبب تصارع النزعتين السنيّة والشيعية .
ومنها القتال الذي استعر أواره بين
الروم والمسلمين على الثغور ولا سيما
إمارة حلب .

ومن الطبيعي في مثل هذه الأحوال
أن ينعكس الصراع في الأدب العربي .
فقد كانت أسنة القوم أشبه بسيوف
لا تقع معركة إلا خاضت فيها ، كما

ثوئي الديلم زمام الحكم ، ولم يكن له من
رسم الملك سوى الخطبة .

والقصيدة تقع في اثنين وخمسين
بيتا ، مطلعها :

من الملك الطهر المسيحي رسالة

إلى قائم بالملك من آل هاشم

وبعد المقدمة القصيرة يعبر نقفور
المسلمين بضعفهم وانكشاف ثغورهم .
ثم يعدد الثغور التي فتحها الروم مثل : جند
قنرين ، وملطة ، وسميساط ومرعش
والرها . . . إلخ . ثم ينتهي عند فتح
حلب ، وهنا يقف وقفة طويلة فيصف
سبيهم الحرائر من النساء المسلمات ،
وفتكهم بالمسلمين وسوقهم الأسرى سوق
البهائم . ثم يهدد بفتح أنطاك (أنطاكية)
ودمشق ومصر وبغداد والقدس ومكة
واليمن . وفي أثناء ذلك يعيرهم
باستسلامهم للحاكم الديلمي ووقوفهم
منه موقف العبيد ، ويأمرهم بالعودة
إلى منبت عودهم - بلاد الحجاز .

فعودوا إلى أهل الحجاز أذلة

وتخاو بلاد الروم أهل المكارم

ثم يُبين أسباب هزيمتهم ، فيذكر :

(١) جور السلطان .

(٢) التعامل بالمنكرات .

(٣) بيع القضاة القضاء .

(٤) شهادة الشيوخ بالزور .

(٥) شيوع البرطيل .

ثم يختم قصيدته بالتعهد بنشر دين
الصلب وذم الرسول صلوات الله عليه .

سأفتح أرض الشرق طرا ومغربا

وأنشر دين الصلب نشر العمائم

ومن البديهي أن القصيدة ليست
من نظم نقفور الأرمني ، ولا من نظم
أحد من أهل القسطنطينية . ولكنها
من نظم أحد المسلمين المرتدين الذين
أسرهم الروم ونقلوهم من ديارهم إلى
القسطنطينية ، واستطاعوا أن يحملوهم
على نظم هذا الكلام . ولم يفت ابن كثير
في البداية والنهاية الانتباه إلى هذه
الحقيقة ، فذم الناظم وقال : « إنه
ممن كان قد خذله الله وأذله وختم على
سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة
وصرفه عن الإسلام وأهله . وفي الوقت
نفسه لم تفته الإشارة إلى تمكن صاحبها

من النظم فقال : « ونفس ناظمها تدل
على أنه شيطان مارد » .

ونقفور هذا هو الذى قاتل سيف
الدولة فى حلب ، وهو الذى هزمه سيف
الدولة فى سمندو سنة ٣٣٩ هـ فقال
المتنبى :

رضينا والدمستق غير راض

بما حكم القواضب والوشيج

فإن يقدم فقد زرنا سمندو

وإن يحجم فمواعدنا الخليج

وهو الذى أسر أبا فراس الحمدانى

سنة ٣٥١ هـ .

وانتهت حياة نقفور نهاية بشعة . فقد

عاد سنة ٣٥٢ هـ من حلب إلى القسطنطينية

فوجد ملكها رومانوس قد توفى عن

صبيين ، فحدثته نفسه بالاستيلاء

على الملك عن طريق الزواج من الملكة .

ولكن التاج لم يستقر على رأسه طويلا

إذ سرعان ما دبرت الملكة قتله فقتل

غيلة .

تصدى للرد على قصيدة نقفور عالمان

جليلان من علماء المسلمين ، أحدهما

شاعر معاصر لنقفور هو محمد بن على

ابن إسماعيل القفال الشاشى المتوفى سنة

٣٣٦ هـ - ٩٤٧ م ، أى قبل وفاة نقفور

بنحو ستة عشر عاما . والثانى عالم

الأندلس فى عصر على بن أحمد بن سعيد

ابن حزم الظاهرى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ -

١٠٦٤ م ، أى بعد وفاة نقفور بنحو مائة

سنة .

تقع قصيدة القفال فى أربعة وسبعين

بيتا من القافية والبحر نفسيهما ، كال

فيها الصاع صاعين ، كما يقال ، وأجاد

إجادة استرعت نظر أبحار القسطنطينية

يومذاك فسألوا عن الشيخ القفال من

هو ؟ ومن أى بلد هو ؟ وتعجبوا من

قدرته على النظم .

بدأ القفال القصيدة بقوله :

أتانى مقال لامرئ غير عالم

بطرق مجارى القول عند التخاصم

ثم برأ نقفور من طهر المسيحية فقال :

تسمى بطهر وهو أنجس مشرك

مدنسة أثوابه بالمداسم

وقال مسيحي ، وليس كذا كم

أخو . قسوة لا يحنذى فعل راحم

وليس مسيحياً جهولاً مثلنا
يقول لعيسى جلّ عن وصف آدم
وما المَلِك الطُّهْرُ المَسِيحِيُّ غادرا
ولا فاجرا ركَانَةً للمظالم

وفي هذا القول براءة ، فقد طعن
خصمه دون أن يقدح في دينه . فالمسيحية
في رأيه تبرأ مما يتصف به نقفور من غدر
وفجور . ثم يوازن بين حروب نقفور
المتسمة بالغدر وحروب المسلمين المتسمة
بالرحمة اتباعاً لوصايا الرسول عليه
السلام .

ولكن كَرُمْنَا إِذْ ظَفَرْنَا وَأَنْتُمْ
ظَفَرْتُمْ فَكُنْمْ قُدُوةً لِلْأَلَاثِمِ

ثم يحاجه في قوله إن المسلمين هزموا
لتفشي الظلم وفساد القضاة بأن ذلك
إقرار بصحة الدين .

ثم يستخف بتهديده بفتح بلاد
المسلمين ، ويتطرق إلى عقيدة التثليث
فينقدها ، ويرى المسيح عليه السلام
رسولاً كريماً ، والله تعالى خالق المسيح
وغيره من الأنبياء . ثم يلمح إلى أن
ارتداد تفر من المسلمين عن الإسلام
لا يضير الإسلام في شيء ، فقد دخل
الإسلام هند و صين وأتراك .

أما التعبير بحكم الديلمي فجوابه أن
للحق أنصاراً يذودون عنه مثل سيف
الدولة الحمداني ومنصور بن نوح :

هما أمنا الإسلام من كل هاضم
وصاننا بناء الدين عن كل هادم

ثم يتوعده بغزو الخراسانيين بخيول
مُسومة .

ويختم قصيدته بدعوته إما إلى حرب
تجر عليهم الويلات ، وإما إلى إسلام فيه
السلامة .

وإن تُسَلِّمُوا فَالسَّلْمُ فِيهِ سَلَامَةٌ
وَأَهْنَأُ عَيْشَ اللَّفْتَى عَيْشَ سَالِمٍ

أما قصيدة ابن حزم فطويلة تقع في
١٣٧ بيتاً على غرار القصيدتين السابقتين
وزناً وقافية .

يردّ ابن حزم هزيمة المسلمين إلى ضعف
الخلافة . ولو كان الخليفة في صفات
جدوده لجرع الأعداء سموم الأرقام .
يضاف إلى ذلك انشغال الخلفاء بالقضاء
على فتن الأتراك والديلم الذين كفروا
بنعم المذموم عليهم . وانتهاز الروم انشغال
الخلفاء فوثبوا على ديار المسلمين .

ثم عدد ابن خزم البلاد التي فتحها
المسلمون كالشام ومصر والقيروان
والأندلس حتى لم يبق بأيدي الروم إلا
رومة وقسطنطينية . أما ما استردوه فيما
بعد فسيعود إلى المسلمين . ولابد من أن
تسترد الخلافة نورها ، وأن تعود إلى
المسلمين أيام الظفر كما حدث في ماضي
الأيام زمن هرقل وقيصير . أما التهديد
بفتح بلاد المسلمين مثل بغداد والرملة
ودمشق والحجاز فأمانى دونها ضرب
يلقى الروم كل مذلة . ويطيل ابن خزم
في وصف قوة المسلمين وشجاعتهم
وما سبب سبب الروم من قتل ودمار وهزيمة ،
كما يطيل في ما بعده كل بلد من دفاع
واستبسال . ومن ذلك قوله :

وجسع كموج البحر ماضٍ عرمرم
حمى سرّة البطحاء ذات المحارم

ومن دون قبر المصطفى وسط طيبة
جموع كمسود من الليل فاحم

يقودهم جيش الملائكة العلاء
كفاحاً ودفعاً عن مصل وصائم

فلر قد لتقيناكم لعدتم رمائماً
بمن في أعالي نجدنا والحضارم

ثم يكرّ عاينهم ويتوعددهم بفتح بلادهم
حتى يصل المسلمون أرض الصين والهند
إلى أن يرى الإسلام قد عم حكمه

جميع البلاد بالعجوش الصوارم

ثم يصل إلى الجدل الديني ويوازن بين
العقيدتين فيركّز على التثليث وانتحال
الأناجيل والصلب ، وما يقابلها من توحيد
وصدق رسالة وقوة برهان . ويعد آرائهم
افتراء وفضلة بحق السيد المسيح عليه السلام .

ولكنه عبد نبى مكرم

ولكنه عبد نبى مكرم

من الناس مخلوق ولا قول زاعم

وبلغت أبيات هذا الجدل أكثر من
ثلاثين بيتاً . وهنا يصل إلى ختام
القصيدة وينتهي بالبيتين التاليين :

أتيتم بشعر بارد متخاذل

ضعيف مباني النظم جم البلاغم

فدونكها كالعقد فيه زمرد

زدرّ ويقرت بإحكام حاكم

ونلاحظ : أولاً أن هذه القصائد الثلاث
تكون موضوعاً جديداً في الشعر العربي ،
يمكن أن نسميه « الهجاء الدولي » .
ثانياً : أنها أقدم ما نعرف من شعر عربي في

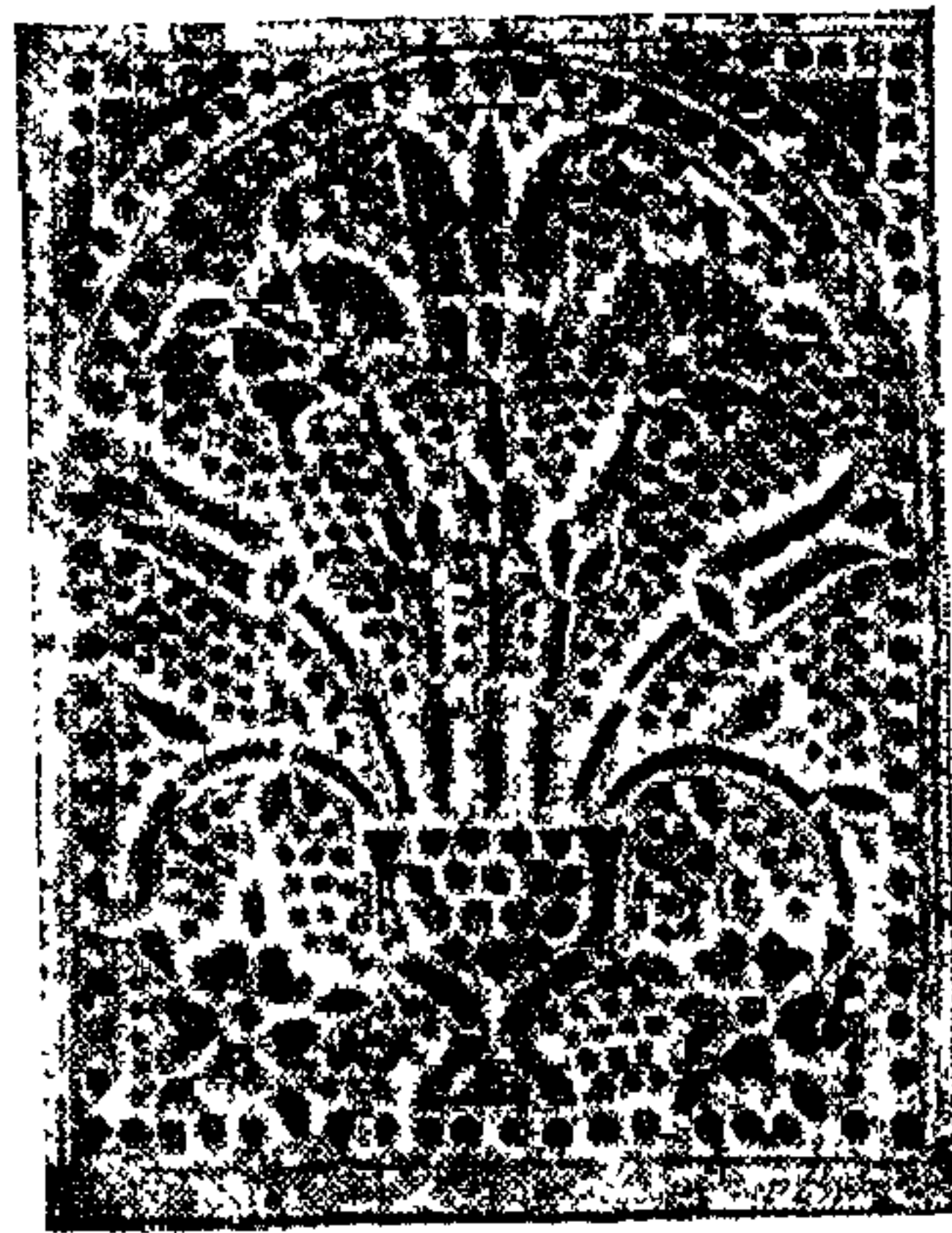
التزم البحر والتمافية فكان عليه أن يتقيد
بما فرض عليه من نظام . وحتى قدرة
لا نذكر أن أحدا من مؤرخيه نص عليها.
فقد برز الشيخ بنشره وعلمه حتى عدّ
عالم الأندلس في عصره وأحد أئمة
المسلمين .

أ وأخيرا كم في بطون المخطوطات من
آثار طواها عنا الزمن ! ولو كشفت لنا
جميعها لكان لنا أتنا عرفنا عن الحضارة
الإسلامية والأدب العربي شيئا وغابت
عنا أشياء .

اسحاق موسى الحسيني
عضو المجمع من الأردن

هذا الباب في العصر الإسلامي . ثالثا :
أن شاعر الروم أقذع في ختام قصيدته
حتى إن التاج السبكي ناشر القصائد
في طبقات الشافعية الكبرى - الجزء
الثالث ، الطبعة الأولى ١٩٦٥ ص ٢٠٩ -
لم يستجز إثبات الأبيات الثلاثة الأخيرة ،
واثبتها ابن كثير في البداية والنهاية .
وكان موقف الشاعر القفاك معتدلا
فلم يطل الجدل الديني . أما ابن حزم فقد
أخذته الحمية الدينية فأطال في هذا
الموضوع الشائك .

رابعا : إن نفس ابن حزم الطويل
يدل على قدرة في النظم لا سبعا وقد



الأصول حافلة بالشكل : وعلى هامش
النسخة دونت ملاحظات عديدة ، أكثرها
بخط الناسخ :

وليس بالمخطوطة تاريخ أو اسم الناسخ ،
وقد أرخها « ديرنبرج » في كتابه عن
المخطوطات العربية بالأسكوريال باريس
سنة ١٨٨٤ بالقرن السادس أو السابع الهجرى
(الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى) ،
وذهب « كرنكو » إلى أن المخطوطة أقدم
بكثير مما ذهب إليه « ديرنبرج » لأن قاعدة
الخط تدل على ذلك ، ففيها الحروف التي
تقرب من الكوفى وفيها تؤدى الألف الممدودة
بألفين متتابعين ، وفي الأفعال المضارعة
الواوية اللام يكتب ألف الوقاية في آخر
الفعل المفرد ، ونرى صورة الألف في الخط
تميل في أسفلها ناحية اليمين وهذا معروف
في الخط الكوفى . وفي الجملة فإن الاعتبارات
التي ذكرناها ومقابلة خط المخطوطة بالمخطوطات
غير القرآنية يجعل تاريخها في القرن الرابع
أو الخامس الهجرى (العاشر أو الحادى عشر
الميلادى) :

ملكية المخطوط :

كتب على صفحة العنوان ملكيات مختلفة
للكتاب : « لعبد الله بن يوسف بن هشام



مكتبة الأسكوريال

بأسبانيا تحت رقم

٥٧٢ بالمخطوطة الوحيدة لكتاب الجيم :
ويغلب على الظن أنه إلى أواخر القرن
الثامن عشر الميلادى كانت هناك بعض نسخ
أخرى من كتاب الجيم : وقد كان كتاب
الجيم مصدرا من مصادر مرتضى الزبيدى
(المتوفى سنة ١٧٩١ م) في معجمه « تاج
العروس » الذى ألفه في مصر :

وصف المخطوطة رقم ٥٧٢ بالأسكوريال

وتاريخها :

تضم المخطوطة ٢٨٦ ورقة ، وهى على ورق ،
وعدد الأسطر فى الصفحة يتراوح بين ٢٠ ،
٢٥ سطرأ . جرى الناسخ على الاقتصاد فى
الإعجام أو الشكل فى الألفاظ الشائعة ،
وعلى العكس من ذلك حيث نجد كلمات

الأنصاري عفي الله عنه ، ثم صار لولديه محمد عفي الله عنه » :

« ملك علي بن محمد القابوني الحنفي عامله الله بلطفه الغالي والخالفي في شهر ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثمانى مائة » .

« محمد بن أحمد خطيب داريا عفي الله عنه »

وواضح أن المخطوطة دخلت في ملكية النحوى ابن هشام (٧٠٨ - ٧٦١ هـ ١٣٠٨ - ١٣٦٠ م) الذي كان يعيش في مصر ، وورثه بعد وفاته ابنه محمد ، وتملكها أيضاً بعده اللغوى محمد بن أحمد وهو خطيب داريا (٧٤٥ - ٨١٠ هـ ١٣٤٤ - ١٤٠٧ م) ومن مؤلفاته شرح لألفيته ابن مالك ، ثم أصبحت المخطوطة ملكاً لعلي بن محمد القابوني الحنفي المتوفى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) . ولما كانت داريا وقابون من القرى القريبة من دمشق ، فن المرجح أن المخطوطة وجدت في مصر وسورية مدة قرن أى من منتصف القرن الرابع عشر حتى منتصف الخامس عشر الميلادى :

وعلى صفحة العنوان في الهامش الأيسر كتب اسم ابن فضل الله واسم محمد بن محمد العماني ولم نتوصل إلى معرفتهما والكشف عن شخصيتهما :

وفي ورقة ١٩٢ وورقة ٢٠٢ وكل من الصفحتين عنوان لجزء من الكتاب اسم محمد ابن عبد الرحمن بن أحمد العاصى وقد كتب

بالمخطوط المغربي مما يدل على أن المخطوطة كانت في أسبانيا أو في شمال إفريقيا ، ويذكر السيوطى في « بغية الدعاة في طبقات اللغويين والنحاة » عالماً نحويّاً ولغويّاً باسم محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ، وذكره ابن الأبار في التكملة لكتاب الصلة ، والصفدى في الوافى بالوفيات : ولد في فلنسيا وعاش في أواخر حياته في ألميريا Almeria ، وتوفى بعد ابن أبار الذى توفى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) ويقول السيوطى إن محمد ابن عبد الرحمن توفى بعد سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) أى لسنتين قبل ابن هشام وهو الذى تلاه في امتلاك النسخة ، ومما يستحق الذكر أن أبا عبيدى البكرى (٤٣٢ - ٤٨٧ هـ ١٠٤٠ - ١٠٩٤ م) وهو من علماء الأندلس ذكر في كتابه سمط اللآلى في شرح الأملى للقالى ، موضعاً من كتاب الجيم (في باب الحاء) : وقد عاش البكرى بعض الوقت في ألميرا ، حيث عاش بعده محمد بن عبد الرحمن بن العاصى صاحب مخطوطة الأسكوريال :

وعلى هذا نرجح أن مخطوطة الأسكوريال وجدت في ألميرا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، استخدمها البكرى في كتابه السمط ، ثم ظلت في ألميرا حيث دخلت في ملكية محمد بن عبد الرحمن بن العاصى :

وأنة من المحتمل أن المخطوطة نسخت حوالى سنة ١٥٠٠ ميلادية في العراق ، ثم وصلت الأندلس ، ونقلت في القرن الثانى عشر أو الثالث عشر الميلادى إلى شمال إفريقيا بمصر

ثم سورية ، وفي القرن السادس عشر أو السابع عشر الميلادي عادت إلى أسبانيا واستقرت في مكتبة الأسكوريال .

مقدمة المؤلف :

يذكر القفطي في « إنباه الرواة على أنباه النحاة » عبارة نتبين منها أنه كان لكتاب الجيم مقدمة « وصنف أبو عمرو كتاب الحروف في اللغة وسماه كتاب الجيم وأوله المنزلة ولم يذكر في مقدمة الكتاب لماذا أسماه الجيم » . ونسخة الأسكوريال تنقصها مقدمة الشيباني التي نتوقع أن يتحدث فيها عن مصادره ومنهجه ونقرأ في الصفحة الأولى (١١) بعد العنوان « هذا الجزء الأول من كتاب الجيم في اللغة بل الكتاب الكامل وفيه بقية الأجزاء أيضاً » مقدمة للناسخ الذي لم يذكر اسمه عن النسخة التي نقل عنها : « اقتنيت بهذه النسخة نسخة أبي موسى الحامضي فاستدركت بها أكثر شكوكي ووجدت فيها ما ذكر السكري أنه سقط عليه من ورقة ووجه ورقة ، فنقلته فكان زائداً على ما ذكر أنه سقط عليه بضعفه وقد بينت ذلك في مواضعه وعلامتي على كل ما صححته « ضاد » لأنه المشهور من لقب الحامض ، وتبقى على شكوك في الزيادات فإن أبا موسى لم يكن في كتابه شيء منها والحمد لله كثيراً .

ووجدت في حرف الفاء ورقتين زائدتين على نسخة السكري فنقلتهما وبينت موضعهما »

ومن تعليقات الناسخ يتضح لنا أنه كان تحت يده نسختان من كتاب الجيم : نسخة بخط أبي موسى الحامض (المتوفى سنة ٣٠٥ هـ) وهو تلميذ ثعلب ونسخة أخرى من نسخ السكري (٢١٢ - ٢٧٥ هـ) . وإذا نظرنا في تاريخ حياة الناسخين ، تأكد لنا أنهما لم يعرفا كتاب الجيم في حياة الشيباني .

ومن حسن الصدق أن ناسخ كتاب الجيم قابل النسختين مقابلة دقيقة ، وأشار في الهامش إلى اختلاف القراءة ، وهذا يدل على أن كتاب الجيم كان شائعاً في أكثر من نسخة .

ونسخة الأسكوريال لها قيمة لا تعوض ، لأنه أتى بقراءة السكري بالرغم من سقوط بعض المواضع في نسخة السكري ، وأهميتها تفوق نسخة الحامض :

وفي أكثر من باب كتب الناسخ ما ورد في نسخة الحامض وقابلها بنسخة السكري وفي مواضع أخرى ذكر ما جاء في نسخة السكري من زيادات :

ويخيل إلينا أن السكري أتى بزياداته من نسخة أخرى للشيباني لأن نسخة الحامض لم تذكرها . ويقول ناسخ كتاب الأسكوريال عبارة « كذا في النسختين » أو « لم أجده في النسخة الأخرى » :

ومما يذكر أن ناسخ مخطوطة الأسكوريال أشار إلى أنه وجد في نسخة الحامض المواضع

التي قال عنها السكري إنها سقطت . وقد صرح السكري في خمسة مواضع ما سقط في كتاب الجيم :

١ - في أوائل حرف الجيم قال : «سقط من هنا ورقة أو أكثر - ما وجدت شيئاً سقط » .

٢ - في نهاية حرف الجيم « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكري وذكر في آخر الجيم أنه قد بقي منه ، ولم يوجد » .

٣ - في أول حرف الفاء (ورقة) « قال أبو سعيد : سقطت الورقة الأولى » .

٤ - في أول حرف القاف (ورقتان) : ذكر السكري أنه من نسخة أبي عمرو كان قد بيض في أوله صفحتين ذهبتا » .

٥ - قبيل نهاية حرف الميم (صفحة) : « وجدت في كتاب الحامض في باب الميم شيئاً سقط على السكري من أصل كتاب أبي عمرو وذكر أنه صفح ورقة سليمان وهو الذي أثبتته وهو قريب ورقتين بعد قوله : « وكل شيء أحرقتة فقد محشته » وروى الحامض « أمحشته » .

وواضح أن الناسح نقل ما سقط من الفاء والميم في الأصل من نسخة الحامض وهي في نسخة السكري ورقة ونصف ، وفي مخطوطة الأسكوريال بلغت ورقتين أما ما سقط من نسخة السكري في بابي الجيم والقاف فقد ضاع نهائياً . وأدرك ما سقط من باب الفاء فأضافه آخر باب القاف يقول

الناسخ : « وجدت هذه الزيادات في كتاب الحامض في أول باب الفاء فكتبته حتى اتصلت بأول باب الفاء من نسخة السكري :

ومن هذا نرى أن مخطوطة الأسكوريال لا تشمل كتاب الجيم ، أضف إلى ذلك أن الأبواب تختلف طولاً وقصراً فالصناد والضاد والطاء والظاء تقع في ٢٧ صفحة ، بينما نجد العين تقع في ٧٠ صفحة . ولو قدرنا أن الأبواب يجب أن تكون متناسبة ، وهذا يدل على أن الأبواب القصيرة مختصرة ، وذلك في نسخة الشيباني الأصلية التي نسخها السكري ، وليست من تصرف السكري .

ورقات من مخطوطة اخرى :

وتضم نسخة الأسكوريال بعض ورقات (١٤٥ - ١٥٠) من نسخة أخرى لكتاب الجيم أقل حجماً وبخط مخالف ونصها يوافق نص نسخة الأسكوريال من ورقة ٣٥ إلى ١٣٨ . وعلى هامش ورقة ٤٥ نقرأ عبارة من يد متأخرة نصها : « هذه الألفاظ التي استدركت وقعت في نفس الكتاب وقد أعلمت على مكانها بالحمرة » . ونلاحظ أن الورقات من المخطوطة الثانية أقل دقة من نسخة الأسكوريال ، وأن التهميش الذي في النسخة الثانية ذكر على هامش نسخة الأسكوريال ، أما الهوامش التي على نسخة الأسكوريال فلم تدون في النسخة الثانية . ومن الملاحظ أن النسخة الثانية اتخذت قراءة واحدة في حين ذكرت نسخة الأسكوريال عدة قراءات

أحياناً للفظلة واحدة مثال ذلك ورقة ٣٦ ب « وقال المحراف الميل الذى تنقش به الشجعة » وجاء فى الهامش : حفظى : تنقش به : فى نسخة : تنقش كما فى الأصل - وقال : المحراف الميل الذى تقاس به الشجعة . وهذا يرجح أن النسخة الثانية اعتمدت على نسخة الأسكوريال أو على نسخة اعتمدت عليها نسخة الأسكوريال ، ثم ضمت النسخة الثانية إلى نسخة الأسكوريال متأخراً .

ترتيب كتاب الجيم وتسميته :

جمع الشيباني فى كتاب الجيم جميع الألفاظ التى تبدأ بفاء الفعل فى باب واحد : وفى مخطوطة الأسكوريال عشرة أجزاء متساوية تقريباً مرتبة على الأبجدية العربية : وليس بصحيح ما ذهب إليه « كرنكو » من أن كتاب الجيم انتهى عند حرف الجيم .

وبهذا الترتيب يقع كتاب الجيم فى المعاجم العربية القديمة موقعا خاصا : فهو لم يتأثر بترتيب كتاب العين ، وكان هو المثل الذى حذاه مؤلفو المعاجم الذين ألفوا على ترتيب الأبجدية للحرف الأول من الكلمة : ألف أبو حنيفة (المتوفى ٢٨٢ هـ) معجمه فى النبات على ترتيب الحرف الأول من أصول الكلمة وكذلك جمهرة ابن دريد (المتوفى ٣٢١ هـ) الجمل ومقايمس ابن فارس (المتوفى ٣٩٥ هـ) وكان الشيباني يسترسل حين يعرض المادة فى مناسبات ، مثلا يذكر فى باب الألف بينا من الطريل شاهداً على عبارة أرى بكفيه

ويشرحها ، أى أنشب كفيه فى الأرض يعنى الضب ، وبمناسبة الضب انتهاز الفرصة فترك لقلمه الاسترسال فى أمثلة وقصص عن الضب . وكان من طريقته أن يضيف أخباراً أثناء شرح المادة ويستشهد بالشعر شارحاً ومعلقاً للألفاظ الصعبة ويستشهد على الشرح بالشعر ، وقد يأتى فى الشرح بالمرادف أو الضد ؛ مثال ذلك فى مادة ب و ص : البوص ثمر الأرائين قد بوض فإذا حبيب فهو القرزح قد قرزح ، وثمر القرظ البلت ثم السنف والقلقل حبه الذى يكون فيه .

وقد تنتج عن ذلك فقرات طويلة ، ويذكرنا ذلك بكتاب الغريب المصنف لأبى عبيد ، وقد استرعى نظرى كثرة الشواهد الشعرية فى كتاب الجيم ، تعدها ٤٣٠٠ بيت أو يزيد ، حتى خيل إلى أن الشيباني إنما ألف كتاب الجيم ليكون بمثابة المعجم للألفاظ التى وردت فى دواوينه . أو عرض لمقتطفات من دواوينه .

ومن الملاحظ أن الفصول الطويلة تنقسم عادة فى كتاب الجيم إلى ثلاثة أجزاء متداخلة : فى الجزء الأول يأتى بنصوص معجمية وفيه شواهد لم يذكر قائلها ، ثم ترجع كفة الرجز فى الجزء الثانى ، وفى الجزء الأخير يأتى بشواهد شعرية يقل أو ينعدم فيها الشرح . أما الفصول القصيرة فينقصها هذا التقسيم .

وعند دراسة فصول الراء والعين والفاء والقاف ، وجدنا كثيراً من الشعر الذى

نوادير أبي مسحل الأعرابي المتداخل في
أعرضه دون تقسيم واضح :

فهل كان الشيباني ينوي أن يعيد كتابه
الجيم ويرتبه ترتيباً أبجدياً دقيقاً ، وأن ما بين
يدينا إنما هو مشروخ كتاب ؟ نحن نميل إلى أن
كتابه كان تجميعاً للمادة يؤلف منها معجماً
واضح المعالم ، ويدعونا إلى الأخذ بهذا
الرأي ما نجده من نقص واضح في مواد
الكتاب : فقد يختار من الدواوين بقوله :
وقال طفيل في التفشغ : وقد سمعت حتى
كن مخاضها - تفشغها ظلع وليست بظلع «
وواضح أنه لم يفسر المثال ، وقد لا يأتي به
ويخيل إلينا أن الشيباني إنما أراد أن يدون
الشاهد الشعري المناسب أولاً ، ويؤجل
شرحه وتكملة الكلام فيما بعد . ويعزز ما نذهب
إليه ، أن الشيباني يأتي أحياناً ببعض مشتقات
الكلمة في غير أصولها ، فنجد مثلاً في باب
الألف : أنابيب (ن ب ب) ، إحرید
(ح ر د) ، إحرنباء (ح ر ب) ، أشكلة
(ش ك ل) ، الكنى إلى فلان (ل و ك) ،
وفي باب التاء : توادي (و د ي) ، تری
(و ت ر) . ونجده أحياناً يعالج ألفاظاً في
غير أبوابها ، فهو يتكلم عن « بدح » في باب
الألف مثلاً ، ولاحظ الناسخ هذا الخلط
فكتب على الهامش في بدح : « هذا من
باب الباء » .

هذه الأمثلة التي سقناها لا تدل على أن
الشيباني لم يكن يعرف التصريف ، ولكنها
تدل على أنه انزلق في بعض الهنات وأنه كان

أتى به كشواهد من دواوين سبعة عشرة
شاعراً كان يقدم منها شواهد على الترتيب
الآتي تقريباً : كعب بن زهير ، زهير بن أبي
سلمى ، لبيد ، تأبط شرأ ، أبو النجم ،
أوس بن حجر ، عمرو بن شاس ، طفيل ،
عمرو بن معد يكرب ، عدى بن زيد ،
امرؤ القيس . النابغة الذبياني ، أبو دؤاد
الإيادي ، عبید ، أمية بن أبي الصلت ،
بشر ، أبو ذؤيب . وقد يسقط أحياناً
الاستشهاد بشاعر أو أكثر من هذا الترتيب ،
ومرجع ذلك أن الشيباني لم يجد عند الشاعر
ما يوافق المجال .

ولم يصل إلينا ما يبين كيفية التأليف عند
العلماء وبخاصة عند أصحاب المعاجم . ولا يمكن
أن نتخيل أن الشيباني دون هذه المادة الغزيرة
في كتاب الجيم من الذكرة . وأغلب الظن
كان تحت يده جزازات وكراريس وملاحظات
دونها ، ثم رتبها أبجدياً واستعان بها في تأليف
كتاب الجيم . ولعل أقدم ما ورد في الكتاب
استقاه من الرواة ثم من دواوينه .

وإذا لاحظنا أن الشيباني في كتابه أتى
باستطرادات وأقوال الرواة ومختارات من
الشعر ، يعن لنا السؤال : هل نعد كتاب
الجيم من المعاجم بالمفهوم الحقيقي للمعجم
أي عرض مرتب للألفاظ ؟ وإذا لاحظنا
مضمون الكتاب وقصر منهجه الذي اتبعه ،
نخطر على ذهننا أن كتاب الجيم يشبه كتب
النوادير الأولى وأخص بالذكر كتاب

يجمع مادته ليضبطها عند مراجعتها ويصلحها ويخرجها في شكل كتاب . ومما يؤكد لنا أن الشيباني لم يراجع كتاب الجيم ليخرجه كتابا للناس ، الحقيقة المعروفة أن الشيباني كتم كتاب الجيم عن الناس في حياته ، لأنه على ما يخيل إلينا وجدده غير ناضج أو لم يجد الفرصة لصياغته صياغة متكاملة . يقول أبو الطيب في مراتب النحويين « فأما كتاب الجيم فلا رواية له لأن أبا عمرو نخل به على الناس فلم يقرأه عليه أحد » ، وهذا يعلل ما نعرفه من أن الكتاب لم يتداول في التدريس ، لأن صاحبه لم يحزه .

ومن العسير أن نقرر الشكل النهائي لكتاب الجيم الذي أراده له الشيباني ، لأنه لم يفصح عنه :

الزمن الذي نشأ فيه كتاب الجيم :

كتب كتاب الجيم بطبيعة الحال قبل وفاة صاحبه الشيباني أي قبل سنة ٢١٣ هجرية . ولا نعرف متى بدأ الشيباني في تأليفه ، لأننا لم نجد أية إشارة إلى ذلك في كتابه ، ولم تصل إلينا أية رواية عن ذلك . ومادة الكتاب تدل على أن تدوينه حدث على مرحلتين : الأولى ما أخذه عن الرواة وهي المرحلة الأقدم ، والثانية هي المختارات الشعرية ، أي أن الزمن الذي احتاجه الشيباني في تدوين هذا الكتاب لم يكن قصيراً . ولا يمكننا القول أيضاً إذا كان البدء في جمعه حدث قبل أو بعد منقولة الليث بن المظفر (المتوفى سنة ١٨٠

هجرية) لكتاب العين للخليل : ومما يستحق الذكر أن الشيباني ورد اسمه عدة مرات في نسخة العين للمظفر (بعد صفحة ٢٦٠ من نسخة برلين) ، وربما لا يدل ذلك على شيء لأننا نعرف أن هناك زيادات أدخلها النساخ على كتاب العين . ولم يذكر الشيباني اسم الخليل في كتاب الجيم . وهناك سؤال قد يتبادر إلى الذهن : هل كان كتاب العين حافزاً مباشراً لنشأة كتاب الجيم ؟ اختلف المستشرقون في الرد على هذا السؤال فذهب « كرنكو » و « هيوود » إلى ترجيح أثر العين على الجيم ، وأنكر « ويلد » وقوع هذا التأثير : اعتمد كل من « كرنكو » و « هيوود » على المنافسة الشديدة بين مدرسة البصرة ممثلة في الخليل ومدرسة الكوفة ممثلة في الشيباني :

والواقع أن كتاب الجيم هو تطور طبيعي لكتب النوادر التي لم تتبع ترتيباً دقيقاً ، وهو مرحلة من التطور للمعاجم العربية ، بخلاف كتاب العين الذي اتبع مؤلفه ترتيباً أجنبياً (قد يكون هندياً) .

حول تسمية كتاب الجيم :

كان عنوان كتاب الجيم هدفاً لكثير من تأويلات القدماء . وقد أرجعه العلماء في الأغلب إلى الترتيب . وقد ذهب البعض أن اسم كتاب الجيم أتى قياساً على كتاب العين الذي تبدأ بالعين وأن كتاب الجيم لا بد أنه كان يبدأ بحرف الجيم . وكان ذلك قبل أن

يصل الكتاب إلى أيدي العلماء . وكتاب الجيم كما نعرفه يبدأ بالألف لا بالجيم .

وقد أشار المستشرق « ديرنبور » في كتابه المخطوطات العربية الجزء الأول (صفحة ٣٩٦) إلى أن اسم الكتاب يمكن أن يوضح من عبارة وردت في المخطوطة « هذا آخر ما وجد من حرف الجيم بخط السكرى وذكر في آخر الجيم أنه قد بقي منه ولم يوجد » . وقد فهم « ديرنبور » من هذه العبارة بخط الناسخ أن النسخة التي وقعت للسكرى تنهى بحرف الجيم ومن هذا أخذ الكتاب هذه التسمية . وهذه العبارة المكتوبة في ورقة ٣٢ ب من مخطوطة الأسكوريال ، لا تشمل الكتاب كله ولكنها تشير إلى باب الجيم الذي ضاع منه جزء عند السكرى ، وبالتالي لا يمكن الأخذ بها في تفسير سبب التسمية . وكذلك لا يمكننا أن نأخذ بمحاولة « هيوود » في تفسيره لاسم الكتاب : وهو القائل بأن الكتاب سمي في الأصل من واقع ترتيبه : ألف باء جيم ، ثم اختصر العنوان إلى جيم ، ولسنا نفهم كيف جاء هذا الاختصار ، وهو غير مألوف عند العرب .

وذهب الفيروزبادى في القاموس أن الجيم عند الخليل : الحمل المعتلم ، وعند الشيبانى : ديباج . ويقول الفيروزبادى في « بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز » : وله (أى الشيبانى) كتاب في

اللغة سماه بالجيم كأنه شبهه بالديباج لحسنه . أما معنى الديباج فيقول صاحب القاموس : جيم سمعته من بعض العلماء نقلا عن أبى عمرو الشيبانى . ولم ينص صاحب القاموس على أن الشيبانى سمي كتابه بهذا الاسم ، وإنما جاء ذلك في معنى الجيم فقط وهناك من العلماء من ألف كتابا بهذا الاسم : النضر بن شميل (توفى سنة ٢٠٣ هـ) وهو معاصر للشيبانى ، ذكره الفهرست . وشمير بن حمدويه (توفى سنة ٢٥٥ هـ) وهو من جيل لاحق للشيبانى . ولم يصل إلينا من هذين الكتابين شيء . فكتاب النضر لم نعرف عنه شيئا ، وكتاب شمير غرق في فيضان ، وكان عند الأزهرى منه بعضه من الأول ، ويصفه الأزهرى في تهذيب اللغة بقوله : على غاية الكمال . وكان شمير قد أتى بشواهد من الحديث والقرآن على الأغلب .

ونحيل إلينا أن شمير أخذ عنوان كتابه من كتاب الشيبانى وشميل لأنه تتلمذ على زملائهما كما جاء في التهذيب . وكان كتاب الجيم لشمير مرتبا ترتيباً أبجدياً ولم يبدأ بحرف الجيم .

وعلى هذا فإن تسمية كتاب الشيبانى بالجيم لا تزال معلقة للدرس والبحث ؟

مراد كامل
عضو الجمع

اللغة العربية

هل هي

لغة عصرية؟

للأستاذ محمد بن شوقي أمين

- ١ -

في الجزء الخامس والعشرين من مجلة «ديوجين - مصباح الفكر» التي تصدرها مجلة رسالة اليونسكو ومركز مطبوعاته ، وهو الجزء المؤرخ ٥ مايو سنة ١٩٧٤ - بحث الأستاذ «أنطوان مطر» مترجم بقلم الأستاذ «علي أدهم» ، عنوانه : «اللغة العربية والظروف الحاضرة ، وما ينتظر تحقيقه من آمال في مستقبل عالم المتكلمين بها» .

وقد عرض الباحث في بحثه لقضايا ومشكلات وثيقة الصلة باللغة العربية ومدى ثغايها العلمية ، مستخلصا مما عرض نتائج وأحكاما تثير الانتباه ، وتقتضى المراجعة :

وإن الغيرة الراشدة ، والحفاظ المستنير على لغتنا العزيزة ، حقيقان أن يبعث كلاهما على الترحيب بالنقد والملاحظة أكثر من الترحيب بالتنويه والإعجاب :

- ٢ -

قصارى البحث أن اللغة العربية ليست لغة حديثة ، وهي لا تستطيع بحالتها الراهنة أن تستخدم باعتبارها وسيلة صالحة لثقافة تقدمية ، إنسانية أو تقنية ، وأن الإعلام الجماهيري - مثل الإذاعة والصحافة - قد أنقذها في تردد وجزئيا من جمودها ، وذلك بأن أرغمها على قبول تطور إيجابي ، ولكنه ليس كافيا ، لأنه لا يؤثر إلا في القليل .
نظم القضاء والأدب ، مع استبعاد المجالات العلمية والتقنية .

ويقدم البحث أسبابا لعدم إمكان استعمال العربية ، وهي أن لها طابعا دينيا ، وأن ليس للعرب لغة قومية علمانية ، وأن العربية مرتبطة بالقديم ، فكأنها للتعبير عن التاريخ ، وأن التطور الاجتماعي تجاوز العالم العربي .
ويبنى على هذا أن العربية محرومة المصطلحات الفنية اللازمة لتقدمها ، ويضيف إلى ذلك أن وسائل الاتصال بالتقدمية الحديثة لا تتأتى في مجتمع يكتب لغة لا يتحدث بها ، أو يتكلم بعدة لهجات ينشأ عنها لغات قومية لا تكتب .

ويمضى البحث ناعيا على اللغة العربية أن بها إمكانيات مثل أسماء الأسد البالغة تسعين اسما ، وأسماء الله الحسنى الزائدة على هذا

العدد ، في حين أنه لا يوجد بها مساعد لغوي لتصورات ومفاهيم أولية لا يستغنى عنها ، وأن الثغرة الخطيرة المكونة من نقص المصطلحات العلمية موضع إهمال :

ويتناول البحث منطلق العربية ، فيذكر أن تطور معاني الكلمات فيها ضعيف ، وأن (نعم) و « لا » لهما قيمة تختلف عما لنظيريهما في اللغات ، وأن درجات التأكيد متعددة ، والصـور البلاغية البسيطة مفقودة ، وأن زمن الأنعال مختزل ، وأن الحروف ساكنة تتحرك أو اخرها تبعا لوظيفة الكلمة في الجملة ، ومعنى الجملة يتوقف على نطق الكلمة عليها حركتها ، وحروف الآلة الكاتبة أكثر منها في نظائرها اللاتينية ، والكلمات تكتب من اليمين إلى الشمال على عكس الأعداد:

ويقدم البحث إحصائية لليونسكو بين جدولها أن نسبة الإنتاج العلمى فى إنجلترا ٢٢١٪. وهى أعلى نسبة ، وفى فرنسا ٩٪ ، وما انخفض عنها موزع فى الإيطالية والإسبانية والصينية والاسكندنافية . فأما الإنتاج العربى فليس بشئ تقريبا ، فالعربية ليست ذات إنتاج علمى له قيمة فى كل علم نظرى وتطبيقى وعلم اجتماعى ، بسبب بطء تقدمها :

ويطالب البحث بجعل التربية ملائمة للحياة الحديثة ، ويذكر أن ما يتلقاه الطالب من اللغة قد تنحى عن حاضره الحارى ، ويشير إلى أن تجديدات الاتصال الجماهيرى فى المصطلحات لا تقل نفاسة عما تقدمه مجامع اللغة العربية الثلاثة الرسمية :

ويرى الباحث أن العربى حفظ الكلاسيكى للوراثة الثقافية ، وحماية لغة المسلمين المقدسة . وهذا لا يمنع من دراسة لغة اختيارية علمانية سهلة التداول باتخاذ خطوات ، هى فصل العربى الأساسى عن العناصر التى تعوق تقدم اللغة ، وتعاليم الطفل التعبير بالأساليب اللغوية الحديثة المتضمنة لمصطلحات العلم الحديث ، مع تحاشى التعدد اللغوى بين المتحدثين بالعربية وقيام الجماعات العلمية بإعداد معاجم تختار المصطلحات الموجودة المعبرة فكريا ومفهوما أو المنبثقة من الاشتقاق والتأليف ، أو المنقولة صوتيا من اللغات الأخرى .

— ٣ —

ولعل أول ما يلاحظ فى هذا البحث أنه بالغ الحساسة فى التصريح بتقريرات قطعية وإصدار أحكام حتمية ، لا تعبر عن حاضر ولا يشهد لها واقع . فهل العرب ليس لهم حقا لغة قومية علمانية ؟ وهل العربية ذات طابع دينى ، وصبغة مقدسة ، تعبر عن تاريخ الوراثة الثقافية ؟ وهل هى محرومة مصطلحات العلم ، فقيرة فى المساعدات اللغوية للمفاهيم العلمية الأولية ؟

لو أن هذه التقريرات والأحكام جرى بها قلم باحث عربى أو أجنبى منذ قرن أو أكثر من قرن ، لوجدت للمساغ قبولا أو شبه قبول . أما اليوم فإنها لا تمثل حقيقة اللغة العربية ونشاطها العلمى والحضارى فى بلاد العروبة :

العصرية إن لم يكن ذلك الواقع المشهود الذي
لا ترقى إليه شبهات الحدال ؟

— ٤ —

والملاحظة الثانية التي تبرز في البحث أنه
عرض لنظريات لغوية، واستخلص مشكلات
للعربية في النحو والكتابة وبعض الأوضاع
واقترح أخيراً ما اقترح من حلول وعلاجات،
وقد ساق البحث نظرياته ومشكلاته ومقترحاته
على نحو يشعر بأنه أنشأها لإنشاء، أو اكتشافها
اكتشافاً وهي لا جديد فيها، إذ أشار إليها باحثون
من قبل، من الوجهة العملية حيناً ومن الوجهة
النظرية أحياناً، ولكل منها مكانه من الدراسة
والتحليل والتعقيب، قبولاً أو رفضاً، فأجملها
البحث إجمالاً، ودفع بها لتكون قذيفة تنفجر
بها نتيجة حاسمة، هي أن العربية ليست لغة
عصرية، وأنها لا تصلح لثقافة تقدمية.

ومع أن المقدمات غير مسلمة على إطلاقها،
وبهذا لا تكون النتيجة منطقية مسلمة، فإننا
نفترض جدلاً أننا سلمنا بتلك المقدمات كل
التسليم، فرغنا تلك المشكلات فوق المناقشة
والإنكار، فهل تكون مقدمات صالحة
لا تستتاج ما يكرره البحث من عجز العربية
عن أن تكون لغة عصرية لثقافة تقدمية ؟

أثنا بقيت العربية على حالها بمشكلاتها
لا تكون لغة علمية ؟ فإذا نسمى إذن ما تجرى
به الأقلام وتنطق به الألسنة في النطاق العلمي
اليوم، وما عسى أن تجرى به وتنطق من بعد ؟

وما أحسب أن أجنبياً - بله العربي -
يستطلع من بعيد أفق الحياة الثقافية في بلاد
العروبة، يستطيع أن يجد إلى الاطمئنان بهذه
التقريرات والأحكام سبيلاً. ففي البلاد
العربية العدد الكبير من الكليات والمعاهد
والجامع والمجالس والأندية التي تمارس
الحياة العلمية الطليقة في أدق مجالاتها، وأرفع
درجاتها، وصميم اختصاصاتها. واللسان
الذي ينطق بهذه الحياة العلمية ويعبر عنها في
معظم المجالات والدرجات هو اللسان العربي،
والمطبعة العربية تخرج في كل يوم بل في كل
ساعة من الزاد العلمي والثقافي ما يتناول
ضروب المعرفة بنسب متدرجة، وفي العرب
الألوف من الدارسين العلميين المتخصصين
الذين جمعوا بين اللغات المتعددة والثقافات
المتنوعة، وقد فتحت أمامهم النوافذ على
الصعيد العالمي يحصون ويعلمون ويؤلفون
ويترجمون بالعربية، وفي المعجمات الثنائية
لمختلف اللغات ما يؤكد احتواء العربية لأمهاث
المصطلحات العلمية، وتعبيرها عن أكثرها
من مادة الفصحى، ونقلها للأقل بأصواته
الأصلية. والصحافة العربية التي تزيد نشراتها
على المئات تخرج للأمة العربية صباح مساء
مصورة أحداث الحياة وشؤون الدنيا وما
يدور فيها من وجوه الأنشطة، وذلك بلسان
عربي ينتقل إلى أذهان القراء العرب في كل
مكان. فأين خصوصية الطابع الديني وخصوصية
التعبير التاريخي في ذلك كله؟ وكيف يكون
مدلول اللغة القومية العلمية أو اللغة الحديثة

أذا خلت العربية من مشكلاتها المعروضة في البحث تصبح لغة علمية صالحة لثقافة تقدمية بمجرد هذا الخلاء المنشود ، وبسببه وحده ؟

إن المشكلات التي عرضها البحث ، كانت هي وغيرها مما لم يعرضه ، قائمة بهذه الدرجة أو أشد ، يوم خرجت العربية من عهد البداوة إلى حياة جديدة لا عهد لها بها ، فواجهت على الرغم من تلك المشكلات مستحدثات المعاني والمسميات في حكمة الهند ، وفلسفة يونان ، وحضارة فارس ، وتجلت عبقريتها وفراحتها في العواصم ، في بغداد ودمشق ، وفي القاهرة وقرطبة ، لاستيعاب المعرفة الإنسانية علما وفكرا بوجه عام ، وحفظتها حتى نقلتها أمانة مزيدة نامية إلى العالم المتعطش إليها في شرق وغرب :

- ٥ -

ومما يلاحظ في البحث أنه وصف العربية بأوصاف مشوبة لا تتنكب عن لبس وإبهام ، فهي ذات طابع ديني ، لغة كلاسيكية للوراثة الثقافية ، لغة للمسلمين مقدسة . والذي يسبغ على هذه الأوصاف اللبس والإبهام أن البحث يجعلها في مقابل : لغة الحياة ، اللغة العصرية ، اللغة العلمانية :

لقد كانت اللغة العربية ، خلال أربعة عشر قرنا ، موصولة بالدين كصالتها اليوم أو أقوى ، وبخاصة في عصور الازدهار الأولى :

ولم تكن مع ذلك إلا لغة قومية عصرية علمانية حية بالنسبة لتلك العصور الخوالي ، وبالنسبة لعصرنا الراهن :

إن الناطقين بالعربية يأبون هذه الأوصاف التي يراد بها الفصل بين لغة ولغة ، أو التمييز بين أولى وأخرى ، فهم لا يتقبلون القول بأن هناك تفرقة بين لغة كلاسيكية ولغة عصرية أو أن هناك لغة يفهم بها التراث الثقافي ولغة يفهم بها العلم الحديث ، أو أن هناك لغة ذات طابع ديني ولغة بعيدة عن المجال الروحي ، ولعل لا أغلو إذا قلت بأن هذه التفرقة والتمييز فيهما ما يحدو - بحق أو بغير حق - على التشكك وإساءة الظن بمن ياجئون إليها ، وربما أوحى إلى النفوس القول بأن ثمة خبيثة نفس عند من ينادون بها ، وأن وراء السطور من النعرات الطائفية ما وراءها :

لا يرى الناطقون بالعربية إلا أن هناك لغة عربية واحدة ، يرجع كيانها لفظا وتركيبا وأسلوبا إلى معجم واحد ، وإن اختلفت مدلولات اللفظ حقيقة ومجازا ، وتطورت معانيه في عصور متعاقبة ، وتعددت تعريفاته في مجالات متعددة ، ولكنهم إلى جانب ذلك مؤمنون بأن هنالك أساليب تتنوع بين علمية وأدبية ، وصحفية وإذاعية ، وأن بينها درجات من يسر التعبير وسهولته ، أو جودته والتأنق فيه ، طوعا لبلاغة الأداء ، وما يحتويه من عناصر الدقة المنطقية ، أو الوضوح العلمي ، أو سعة الخيال وما يستتبعه

من صور بيانية موحية . بيد أن تنوع الأساليب ، وتفاوت التراكيب ، هو عند العرب لغة عربية واحدة ، لغة للدين وللحياة ، لغة للمسلم وغير المسلم ، لغة للكتابي وغير أهل الكتاب ، لغة لمطالب العقل والجسد والروح ، لغة للعلم والفن والأدب والحضارة على السواء .

لا تفرقة في العربية بين لغة عصرية ولغة غير عصرية ، بهذا المفهوم الانفصالي القاطع ، فهي أداة ألفاظها متعددة الدلالات ، وعباراتها متفاوتة التراكيب ، وفي أساليبها تنوع بحسب مجالات التعبير ومقتضياته . لغة نفهم بها تراثنا الثقافي ، ونعبر بها عن حاضرنا العصري ، ونعمل على تنميتها وتطويرها لمقاصد الحياة في ركبها العالمي مع الأيام إلى أمام .

— ٦ —

وفيما يلاحظ أن البحث يردد ما لا كتبه الألسن من الإشارة إلى سعة اللغة في بعض موضوعات وضيقها في بعض ، ويضرب لذلك ما ضربته تلك الألسن من مثل الأسد الذي قاربت أسماؤه الأصلية أو الوصفية المائة ، ويقابل ذلك يفقد المساعد على التصورات الأولية ونقص المصطلحات العلمية . فهل يعد ذلك — على فرض وجوده — ضعفا في طبيعة اللغة وأصالتها وما لها من مرونة وقدرة على سد الحاجة إلى التصور أو الاصطلاح العلمي ؟

إن اللغة التي سميت الأسد بأوصافه عشرات الأسماء لا تعجز أن تسمى غير الأسد من التصورات أو المصطلحات . وليس أدل على قدرتها من أن المصطلح العلمي الواحد ، يجد اليوم على أقلام الباحثين والمترجمين العلميين ألفاظا شتى تدل عليه ، ومنها ما يترجم أصله ، ومنها ما يترجم معناه ، ومنها ما يتخذ فنونا من الوسائل بإحياء لفظ قديم أو اشتقاق صيغة جديدة ، ومنها ما يلمح في الوضع سمة ظاهرة ، أو وظيفة عاملة . وهذا كله برهان طواعية اللغة للتشهير ، وليانها لضروب التعبير .

ونحن حين ننوه بهذا الدليل لا نباهي به ، فما أحوجنا إلى الحرص على توحيد اللفظ العربي للمصطلح العلمي ، وإنما نقدمه في مواجهة النعنى على العربية بأنها فقيرة في هذا الجانب من المواضع والاصطلاح ، لتدل على أن غنى العربية ونخصها كفيلا أن ينفق على من يستثمر مادتها وأوضاعها في الوفاء بمصالب الحياة العصرية والحضارة الحديثة في تقدمهما العلمي والإنساني .

— ٧ —

وفيما يلاحظ أن البحث يكرر موقف العربية من الاصطلاح العلمي ، ولا يبالي أن يصرح بأن العربية محرومة المصطلحات العلمية اللازمة لتقدمها . وهذا الإطلاق يجافي ما هو قائم فعلا في الحياة العربية . فإن عصر النهضة الذي نيف على مائة سنة قد

تتابعت فيه الجهود لتنمية المصطلح العلمى ،
فترجم الطب والهندسة وغيرهما فى مطالع
العصر ، بل لقد كان تدريسها بالعربية
أول الأمر ، وأذكر أن الدكتور « فارس
نمر » الصحفى اللبنانى الأصل ، المولود فى
منتصف القرن الماضى ، كان يحدثنا أنه
درس الطبيعة والرياضة وغيرهما بمصطلحات
عربية ، وكان يذكر فى هذا الصدد اسم
« فانديك » واسم « وارتبات » من الأساتذة
والمؤلفين . وفى هذا العصر ترجمت شوامخ
العلم والفلسفة والفن والأدب ، من أمثال
أرسطو وداروين وفرويد وشكسبير ،
وألفت كتب فى الفروع العلمية كافة ،
وتولى تدريسها بالعربية علميون مختصون .
وما كان ذلك ليتسق لو كانت العربية
قد نخلت من كلمات عربية تقوم مقام
المصطلحات الأجنبية على تعدد لغاتها .

إن العربية العريقة ذات تجارب فى
الأداء العلمى أصيلة ، وقد أعانتها تلك
التجارب على أن تطاوع ما تراد عليه من
تأدية المعانى الاصطلاحية ، ولم تكن المشكلة
عندها نقل المعانى المجردة والأوصاف
والشروح ، بل نقل أسماء الجواهر والذوات
والأعيان وبعض المسميات ، وعلى الرغم
من ذلك اتسعت لها بالوضع فى الأكثر ،
وبالتعريب فى الأقل .

ولسنا نقول ذلك من فراغ ، فبين
أيدي قراء العربية ما يتابع خلال المائة سنة
الماضية من معجمات ثنائية ، حافلة بالألوف

من مصطلحات المعرفة الحديثة عامة ،
نذكر منها تمثيلا لاحصرا : معجم شرف
الطبي ، ومعجم عيسى النبائى ، ومعجم
مظهر العلمى ، ومعجم الشهابى الزراعى ،
ومعجم المعلوف الحيوانى ، ومعجم الجامعة
العربية العسكرى ، ومعجم إلياس العصرى ،
وكذلك المورد والمنهل وغيرهما من عشرات
المعجمات .

— ٨ —

ومما يلاحظ أن البحث قد شاء أن
يغفل — لاعتن غفلة — جهد الجامع اللغوية
فى القاهرة ودمشق وبغداد ، إلا حين أشار
إلى إسهام الاتصال الجماهيرى فى التطور
اللغوى وتجديداته فى المصطلحات ، فقد
ذكر أن هذه التجديدات لاتقل نفاسة عما
تقدمه تلك الجامع .

يهذا يتجاهل البحث أن هذه الجامع قد
جعلت لغة العلم أساسا لعملها ، ولم تكن جهودها
فى نشر التراث العربى أو تيسير أوضاع اللغة
وتوسيع أقيستها ووسائل الاشتقاق فيها ، أو
التخطيط لدراسة الكامات وقبولها ، لإاركائز
ودعائم لتنمية لغة العلم وتزكيتها .

إن أنظار قراء العربية ترتع فى نحو عشرين
مجادا أخرجها مجمع القاهرة ، ولا محتوى لها
إلامصطلحات العلوم والفنون والآداب ،
مقرونة بمقابلها الأجنبي ، مدروسة مخصصة
بفضل من قاموا عليها من أعضاء وخبراء تسنموا
فى كل فرع من الفروع العلمية أعلى مستويات

الاختصاص . وهذه المجالات التي هي ثمرة الكفاح في عشرات من السنين تشمل ألوفا من المواضع العلمية الحديثة ، وقد بادر إليها مؤلفو المعجمات الثنائية فتناهبوها -مشكورين- لتضمها معجماتهم التي تتوالى طبعتها ، وكذلك بادر إليها المؤلفون والمترجمون والمدرسون لتكوين سندهم في التأليف والترجمة والتلقين ، وفي سيرة صاحب البحث أنه أسهم في وضع معجم عربي فرنسي موحد ، وقد حوى من المصطلح العلمي العربي ما حوى ، واليقين أن صاحب البحث هو ومن معه من مؤلفي المعجم رجعوا إلى من سبقوهم إلى التأليف المعجمي ، وما أحسب أنهم قد زهدوا في الرجوع إلى الجهد المعجمي ؟

ولا بد لنا من أن نراجع البحث فيما عمد إليه من الفصل بين الاتصال الجماهيري أو الإعلام الجماهيري من : إذاعة وصحافة ونشر وبين المجالس اللغوية . فأى فاصل بين وجوه النشاط الإعلامي ووجود النشاط المعجمي ، وكلها أنشطة متداخلة متعاملة ، يستقى بعضها من بعض ، ويتدامج فيها بعض وبعض ، وهي تتجاوب أصداؤها فيما تقترح من الكلمات وما تشيع : ذالصحفي أو الإذاعي أو الكاتب بوجه عام إذا أراد التعبير عن المسميات العلمية والحضارية رجح إلى المتخصصين العلميين أو اللغويين يستعينهم عليها ، أو استخبر المعجمات الثنائية لتهدية إلى ما يعبر به عند الحاجة :

وليست مهمة المجالس خلق الكلمات وافتعالها ، وإنما يخلق الكلمة أو يرتضيها من يختصون

بموضوعها من العلماء والفنانين وصناع الحضارة في بيئاتهم العلمية والفنية والصناعية : وغاية ما تقوم به المجالس هو الإعداد والتنظيم وجوهر عملها المراقبة والإشراف ، فهي أداة تسجيل أو ترشيح ، وهي جهاز تنقية وتزكية وتوثيق : فعلاقتها بالإعلام الجماهيري أنها منه وإليه ، بينهما تبادل وتعامل ومؤازرة ، لا تباعد بينهما ولا انفصام .

وعلى رأس ما تعنى به المجالس العمل على توحيد المصطلح العلمي أو الحضاري ، لتعميم استعماله في العربية على ترأب أصقاع الناطقين بها ، تفاديا من التعدد والفرقة اللذين ينتهيان إلى بلبله على طريق التواصل والتفاهم الثقافي بين الكاتبين والقراء .

ولا أظني أعدو الصواب حين أعد المجالس اللغوية قبلة الذين يرجون للعربية أن تتعمق صلتها بالتعبير العلمي الحضاري ، رعيًا لما يتوافر في هذه المجالس من أدوات التحري والترجيح ، ومن عوامل التأثير الإيجابي في البيئات العلمية المختلفة .

— ٩ —

يضاف إلى ما يلاحظ أن البحث يتحدث في مشكلة الفرقة بين لغة الكتابة والتدوين ، ولغة المشافهة والحديث . وعرج من ذلك على تعدد العاميات بين المتحدثين بالعربية ، وتساءل ما هي فرص البقاء للغة مكتوبة لا يتحدث بها كاتبوها ؟

وليس منا من لا يعرف أن العاميات والفصحى في صراع موصول ، وأن لهذا الصراع وشائج

من غلبة الجهل بالقراءة والكتابة بالنسبة لمجموع أهل العربية . وليس منا من لا يلمس الجهود التي تبذل لعلاج ذلك بنشر الوعي الثقافي وتقوية وسائل الاتصال الجماهيري بين العرب لتدوين الفوارق بين العاميات من ناحية وبينها وبين الفصحى من ناحية أخرى ، وذلك إلى جانب الجهود الحادة لخفض نسبة الجهل بالقراءة والكتابة . ولكننا لا نعرف لماذا يعرض البحث لهذه المشكلة في صدد ما يندد به من فقر العربية في المصطلحات الفنية ، وحرمانها أن تكون لغة العلم العصري ، وأنها ليست لغة حديثة ؟ فهل يتوقف الخلاص من ذلك على الخلاص من تلك المشكلة المتعددة الجوانب ؟ وهل نقف مكتوفي الأيدي على مضمض الانتظار حتى تمحى العاميات وتتوحد الفصحى لكي تكون لنا لغة علم ؟ وهل يرفع توحيد اللغة نسبة قابليتها لاستيعاب الإنتاج العلمي ؟ أليس الملايين من يعلمون العربية قدرا كافيا لجعلها أداة عامية إن لم تكن ؟ إن هؤلاء الملايين لهم لغتان متقاربتان إحداهما الفصحى الموحدة والأخرى العامية الخاصة ، وهم يتبادلون الثقافة بالأولى . ومن الميسور أن نفترض البعد كل البعد بين لغة الخطاب ولغة الكتابة ، دون أن يستتبع ذلك عجز اللغة الكتابية عن الاستيعاب العلمي ، وليس بمستنكر أن تتعدد في المثقف لغاته ، ولكل لغة مجالها في حياته . فلتكن الفصحى لغة الكتابة عند العربي ، وإن كانت العامية لغته المستعملة في غير النطاق الكتابي .

ولولا مخالفة التطويل لأفضت في القول بأن الفروق بين الفصحى والعامية وبخاصة المصرية مغالى فيها ، فهما لغة واحدة في الجملة ، يفارق الإعراب وبعض الأوضاع التعبيرية في الألفاظ والتراكيب ، وفيما من سمي لغة الحديث والخطاب : العامية الفصحى .

ولئن قلنا ذلك إننا لا نقوله غافلين عن سوء أثر التعدد اللغوي ، وعن ضرورة مواصلة السعي لتدوين العاميات ومكافحة الجهل بالقراءة والكتابة . وإن كنا نرفض الذهاب إلى أن هذه المشكلة عامل أساسي في نقص المصطلحات الفنية وضعف الإنتاج العلمي ، وأنها عقبة كئود تعوق العربية عن أن تكون لغة علم حديث وحضارة تقدمية .

وإذا ألقينا نظرة على الماضي في موضوع الفصحى والعامية : أطللنا على التاريخ وهو يرينا أن العامية ليست حديث العهد ، ومن الباحثين من يرجع بنشأتها إلى العصر الجاهلي . أما الثابت الذي لا يمتثل نزاعا فهو أن العامية عاشت في أزهى عصور العربية ؛ علما وفكرا وثقافة ؛ وكان أهل العربية في تلك العصور أقل منهم الآن عددا وأوفر تأليفا وأغزر إنتاجا ، مع عسر الوسائل والملابسات وطرق المواصلات . ففي الوقت الذي كانت فيه تترجم روائع الفكر العالمي في القرن الهجري الثاني وما يليه ، كان للعامية وجودها في المجتمع العربي بين المثقفين خاصة وغير المثقفين عامة . ويخضرن الساعة ما عزاه صاحب «الأغاني» إلى «الموصلية»

من شعر ملحون هو أقرب إلى ما نعرف
باسم « الزجل » ، ومنه قوله :

أنا جيت من بلاد موصل

أسقى قتل خمريا

وكذلك بحضرتي مانقله « الجاحظ » في
بخلائه من قول « النظام » : « إن كنت
سبع » دون إعراب ، وتنبية الجاحظ « في
غير موضع إلى أن حكاية النوادر والنكات
والأفاكية يجب أن يراعى فيها لفظها ولهجتها ،
فإن ردها الحاكى إلى الفصاحة وألزمها الإعراب
خرجت باردة لا طلاوة عليها ولا تأثير لها :

ويخلص لنا من ذلك أن اللغة وتعليمها
أو تعصيرها وتحديثها ، لا يتوقف على أن
تكون لغة كتابة وحديث معا ، ويكفى في
مساقتها لركب العلم والحضارة أن يستطيع
أهلها إجراؤها على أقلامهم في سهوارة ويسر

— ١٠ —

وفيما يلاحظ أن البحث تناول موضوع
الحروف العربية وتعدد صورها وعلامات
ضبطها ، وذكر أن الفهم مطلوب لإمكان
القراءة ، وأن الخطأ في النطق يغير معنى
الجملة ، ولذلك خطره في التفاهم الجماهيري .

والبحث في هذا كله يتلقت ما أفاض
فيه الباحثون وأهل الرأي من قبيل ،
ومنه ما عولج بطريقة أو بأخرى ، ومنه
ما تبين الغلو في تقدير أثره :

فأما تعدد صور الحروف في الطباعة
العربية فقد كثرت المقترحات في حل
مشكلاته ، وانتهى العمل إلى اصطناع
مادعا إليه « مجمع اللغة العربية » في القاهرة
من اختصار الصور إلى أقل عدد ، مع
الاحتفاظ بطبيعة الخط العربي وفتح الجمانى .
وفي الصحف اليومية السائرة نماذج من
هذا الاختصار .

وأما علامات الضبط فهي مغفلة حقا في
معظم ما ينشر ، وإغفالها لا يقوم سدا في
سبيل التفاهم إلا فيما ندر من كلمة أو
كلمات : على أن الكاتب العلمي
وغير العلمي يكتب ما يكتب وإن
كان غير محسن لقواعد العربية وضوابطها ،
وما يكتبه في شهور يستطيع مراجع وراءه
أن يسد خلله ، في يوم وليلة ، والناس
يقرءون الصحف والكتب عارية عن الضبط
والإعراب ، وربما كان فيها من الخطأ
ما فيها ، فيفهمون في الأغلب الأعم لا يتعشرون .
ولقد أصبح من المبالغ فيه القول بأن
الإعراب شرط المعنى ، ففي سياق
الجملة غنية وكفاية في معظم الأحوال :
وبين اللغويين المحدثين من يتكهن بأن
العامية صائرة إلى عربية غير معربة ، وفي
القدامى من العلماء الأثبات من يرى أن
البناء وترك الإعراب لا يخل بمعانى الكلام ،
والدارسون للهجات العربية يعلمون أن
الوقف بالسكون مطلقا لغة لبعض العرب ،
وأن إسكان المنصوب لغة لبعض من العرب

آخرين ، وفي المأثور من الكلام العربي ما هو موقوف غير معرب ، لإجراء الوصل مجرى الوقف ، أو لإعطائه حكمه .

وما نبغى بما نسط من ذلك أن ندعو إلى ترك لإعراب ، أو نجنح إلى الاستخفاف به ، بل نقصد بذلك أن الأمر الواقع في ترك الضبط بالحركات لا يمثل مشكلة تباعد بين العربية وبين مواتاتها لحاجات الحياة العلمية والحضارية ، وفي ذلك رد كاف على ما يعنيه البحث من وراء ترديد تلك الظواهر في ضبط الكتابة ، للقول بأنها هي الحاجز عن أن تكون العربية لغة علم حديث .

- ١١ -

وفيما يلاحظ أن البحث تكلم في موضوع النفي والإيجاب بنعم ولا ، وفي موضوع زمن الأفعال للماضي والحاضر والمستقبل ، مقارنة بين العربية واللغات الأخرى ؟ والبحث يجرى في هذا على شاكلته من التعرض لمسائل نظرية سبق إليها بعض المستشرقين ، ودارت حولها مناقشات وردود ، فالبحث يبتغيها من مرقدتها ليتخذ منها تكأة لما يقرر من أن العربية ليست لغة علمية حديثة .

ولا أنسى أن ما تكلم فيه البحث كان مدار حوار خصيب منذ عشرين سنة أو نحوها في مجلس علمي لغوي ، حاضر فيه « عباس محمود العقاد » وناقش فيه

دارسون ذوو اختصاص بفقهاء اللغات وعلم الأصوات ، منهم الدكتور إبراهيم أنيس وتمام حسان وكمال بشر وعبد الله درويش ، وفيما قيل يومئذ أن العربية تستطيع التعبير عن الأزمنة السبعة جميعا ، وإن لم تكن بها صيغ اصطلاحية لها . وهل تعاب العربية بأنها منطقية في تحديد الزمن والتعبير عنه بأفعال معينة ، توافق ما قاله أحد النحاة الإنجليز في كتابه « أصول الأجرومية » إذ يقول : « الزمن ينقسم إلى جزئين : ماض ومستقبل ، وبينهما حد الانفصال وقت حاضر كأنه النقطة الهندسية التي لا طول لها ولا عرض ولا ارتفاع ، ولكنها على الدوام منسوبة للمستقبل » .

ومهما يكن الرأي ، فالنقاش نظري لمقارنة اللغات ، فما هو بمشكلة عملية في ترجمة أو تأليف . وفقدان الأداة في بعض مدلولات النفي والإيجاب أو بعض أزمان الأفعال لا يلزم منه فقدان القدرة على التعبير العامي المرصى . والسؤال هو : فيم الخصومة والشقاق ، والعربية تتعوض بما فيها من أفاين التعبير عما ليس فيها من أدوات تقابل ما في سواها من بعض اللغات؟ وهل في مكنة البحث إثبات أن الكاتبين أو المترجمين قد تطاعوا إلى التعبير عن معاني النفي والإيجاب أو درجات الزمن فوقفت الأداة غصة في أقلامهم فلم يستطيعوا أن يعتصروا بشيء من أساليب العربية كما يعتصر الغصان بالماء ؟

في المائة : أليست النسبة إذن نسبة جهد وعمل ونشاط ، لا نسبة يسر وسهولة ومرانة واقتدار ؟

وفي ظني - بدرجة ما - أن الإحصاء كمي عددي ، لانوعى كيني ، أعني أنه يقوم على تعداد وحساب للمؤلفات والمترجمات قلة وكثرة . فإن العربية - بين أيدينا - فيها نماذج كثيرة من أنواع المعارف والعلوم تأليفا وترجمة ، يدرسها أو يقرؤها الملايين من أهل العربية ، ولكنها في غلبة الظن لا تبلغ في العدد والحساب ما بلغت اللغات التي سماها الإحصاء إلى الصفوف الأولى .

ويسعنا فوق ما تقدم أن نرد السر في الإحصاء الذي تخلف بالعربية دون النسب العالمية للغات إلى أسباب شتى ، نشير منها هنا إلى أن ثمة اتجاهها بين العلميين العرب يتحمس له بعض منهم ، وهذا الاتجاه يرى أن الوقت لم يحن بعد للعدول عن تدريس العلوم باللغات الأجنبية ، ومن الخير العمل على تقوية المتعلمين في تلك اللغات ، لكي يتابعوا تحصيلهم للعلوم بها ، ولكي يتسنى لهم أن يلاحقوا التقدم العلمي السريع فيها ، بالاطلاع الدائب على ما يجد من البحوث والدراسات . وفيما يستند إليه أصحاب هذا الاتجاه أن الانصياع إلى التدريس بالعربية في المجال العلمي التقني يحرم المدارس العربي هذه المتابعة والملاحقة التي تحقق المشاركة الإيجابية

وفيما يلاحظ أن البحث ، حين جعل هذه المشكلات التي عرضها ذريعة للقول بأن اللغة في حاجة إلى تزويدها بأدوات التفكير العلمي ، استندن ذلك إلى حقيقة جاء بها إحصاء « اليونسكو » الذي قدم جدولاً بان منه أن العربية لم تعد بين اللغات التي لها إنتاج علمي . ونسبته في إنجلترا أعلى نسبة وهي ٢٢ م وفي فرنسا أدناها وهي ٩ . ومن اللغات التي انخفضت عن ذلك الإيطالية ، أما الإنتاج العربي فليس بشيء تقريبا .

ويبدو أن البحث قد استثارت غضبا لهذا الإحصاء الأليم ، فأثار غبار تلك المشكلات ليوجه إليها الاتهام ، وليس من شك في أن ذلك الإحصاء يكشف عن حقيقة مؤسفة ، ويدق أجراس التحذير من استمرار الحال على هذا المنوال ، وينبه القوام على الثقافة إلى ضرورة تنمية التأليف والترجمة في المجال العلمي .

ونحن إذ نلتزم جانب الأناة والروية في الفهم والتحليل لما كشف عنه الإحصاء اليونسكي ، يتضح لنا أن السر فيه لا يرجع بقدر يذكر إلى صعوبة العربية أو قصورها ، وأمامنا الإيطالية التي أخرجها الإحصاء من جدول النسب ، وما ذلك عن صعوبة أو [قصور في بنيتها اللغوية بالإضافة إلى لغة إنجلترا التي زادت النسبة فيها على العشرين

على نحو مقبول : ولكن هذا الاتجاه -
على وجاهته - لا يدعونا إلى الاستسلام له ،
دون أن نمضي قدما في تزويد العربية
بالمؤلفات والمترجمات العلمية ، حتى
نتداني إلى المستويات العليا من التقدم العلمي
العالمي :

بيد أن هذا كله لا يتصل باللغة من حيث
اقتدارها على استيعاب الفكر الحديث ، فإن
لها من الطاقة والدربة والطواعية حظا غير
منقوص ، وهي لا تعيا بالترجمة عما يدور في
العقل الإنساني العصري . وفي ميدان التعليم العربي
كليات للغات ، ومعاهد للترجمة الفورية ،
تمارس نشاطها مستعينة بالجهود الفردية
والجماعية والجمعية لإثراء اللغة بالمواضيعات
والمصطلحات : وها نحن أولاء الآن نناقش
من نافذة العربية هذا البحث الذي يصطنع
المهيج العلمي العصري ، ويأنس بالمعطيات
الحديثة من الآراء والدراسات ، وقد حرره
صاحبه بغير العربية ، فاستطاع الناقل أن
يترجمه إليها دون حائل ، والعربية على حالها
بمشكلاتها التي لم يدخر البحث جهدا في
تجميعها ، والإغراق في استعظام تأثيرها .

حقيقة المشكلة التي كشف عنها إحصاء
اليونسكو أنها مشكلة تعاميم وتقييم ؛ لا مشكلة
عجز أو صعوبة في اللغة ، مشكلة جد واجتهاد
مادى أو طباعى أو فنى ، مشكلة تنشيط وحفز
للبيئة العلمية في التأليف والترجمة والنشر .
مشكلة جزاء مضي عنه للتفرغ للعمل بأيدي
المتخصصين من ذوى الجدارة والامتياز ، في

كل فرع من فروع العلوم والفنون . وليس
من ينكر أن التأليف العلمي جهد رهباني ،
وأن الترجمة العلمية ليس لها من الجزاء المقذور
ما يفي بما يبذل فيها من كد وعنت ، وأن النشر
العلمي مغامرة سوقية لا يؤمن فيها الخسارة .
وتلك هي المشكلة الخليقة حقا بالبحث والدرس
والمواجهة ، ومتى ظفرت بالمساعي الحادة
لتدليل مصاعبها كان ذلك خطوات فاسحا
على طريق التقدمية والعصرية دون جدال :

- ١٤ -

بقي مما يلاحظ في البحث أنه يضع خطة
لترقية العربية الحديثة : ويدعو إلى اتخاذ
إحدى طرق ثلاث للتنفيذ ، وهي استعمال
اللفظ العربي إن وجد ، أو اللجوء إلى الاشتقاق
والتأليف ، أو النقل صوتيا من اللغات الأخرى .
وليطمئن صاحب البحث إلى أن هذه الطرق
الثلاث هي بأعيانها الأسس التي نادى بها
البصراء من العلماء اللغويين والمصلحين من
المفكرين منذ استهلال القرن الحاضر ، وقد
صاغها «مجمع اللغة العربية» القاهري في
قرارات محددة منذ أربعين سنة ، فإن
منهج العمل المنصوص عليه هو :

أولا - تفضيل الاصطلاح العربي القديم
على الجديد إلا إذا شاع .

ثانيا - قبول ما استعمله المولدون مما جرى
على الأقيسة من مجاز أو اشتقاق ، مع إجازة
الاشتقاق من أسماء الأعيان في لغة العلوم :

ثالثاً - إجازة استعمال بعض الألفاظ
الأعجمية للضرورة .

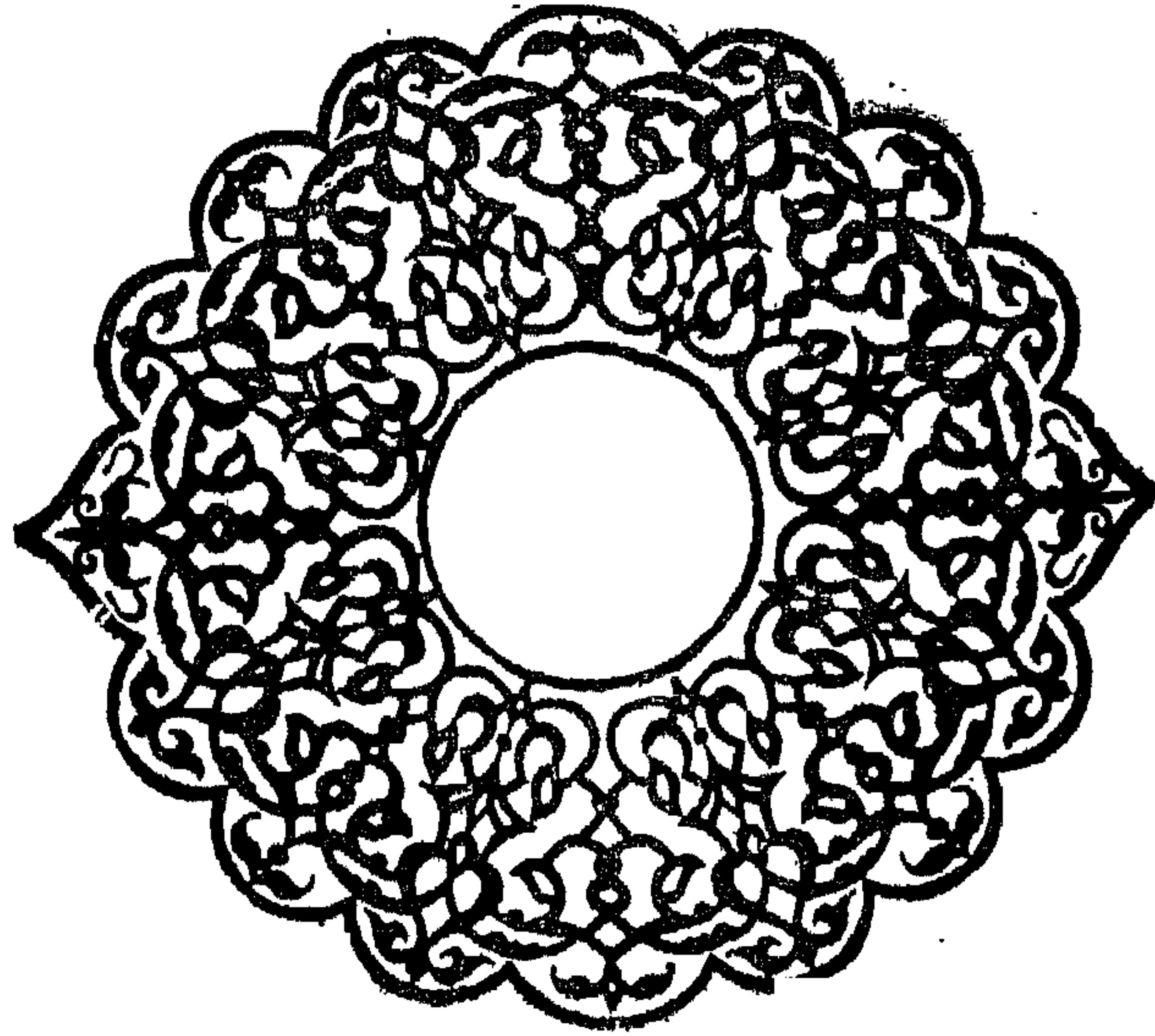
وعلى هذه الأسس جرى عمله في وضع
المصطلح العلمي على مدى تلك السنين الأربعين
وما زال :

- ١٥ -

وهكذا ينقش غبار البحث عن جو
مصنفي، تلتقي فيه النتائج التنفيذية بأراء عملية

مطبقة، وحسينا من ترديد هذه النتائج أنها
تذكير بضرورة العمل على تزكية لغة العلم
العربية ، والقصد إلى تنمية الإنتاج العلمي
فيها . وهذا فضل للبحث وصاحبه يذكر فلا
ينكر، ويشكر فلا يكفر . ومن ثم يطيب لي
أن تكون خاتمة النقد والرد تحية للكاتب وما
كتب :

محمد شوقي أمين
عضو المجمع



ثراء اللغة العربية بأصول المصطلحات الجيولوجية

للدكتور محمد يوسف حسن



في بحث سابق^(١)

كيف بزَّ العرب

في عصور النهضة^(٢)

العلمية الإسلامية من سبقوهم من

يونان ورومان، في سكِّ المصطلحات

الجيولوجية من أصول لغتهم

الزاخرة بها ، وكيف أن هذا يرجع إلى

طبيعة البيئة التي عاش فيها المجتمع

العربي قبل ظهور الإسلام وإبان ظهوره .

وقد كان العربي، بتأثير تلك البيئة ،

يعنى بابتكار الألفاظ واشتقاق المعاني

لوصف معالمها المتباينة الممتازة بالمظاهر

الطبيعية الأرضية من جبال ووهاد ،

ومن مفاصل^(٣) وتلاع ، ومن شعاب

وجُدَد بيض وحمير مختلف ألوانها ،

ومن حصي ورمال ، ومن جرويل^(٤)

وحصيم^(٥) ، ومن فهور^(٦) وجملاميد .

وكان يميز من الصخر المختلف : المرو

والأعبل^(٧) والغريب^(٨) والظَّر^(٩)

والصَّوان والمرمر والنَّبْلَنْطَ^(١٠) والرخام .

ومن المعادن والجوهر : الدرُّ والياقوت^(١١)

والطَّلِق^(١٢) . والجَزَع والعقيق .

(١) مجلة مجمع الله العربية ، الجزء (٣٢) سنة ١٩٧٣ .

(٢) المفصل : ما بين الجبلين من رمل وحصي صغار .

(٣) الأرض ذات الحجارة .

(٤) الفهر : القطعة من الحجر ملء الكف .

(٥) الشديد السواد ، توصف به خاصة الحجارة والجبال .

(٦) حجر كالرخام ، إلا أنه دونه في الهشاشة واللين والرخاوة .

(٧) سيد المعادن بعد الماس ، وهو من الألفاظ القرآنية ، ورد في سورة الرحمن : « كأنهن الياقوت والمرجان .

وقيل إنها فارسية أو يونانية معربة ، ولكن العرب تكلمت بها قبل الإسلام ، ويقول أحمد محمد شاكر في شرح

« المعرب للجواليق » : « الظاهر أنه عربي من مادة أميتت كما أميت كثير من المواد » ص ٤٠٤ ، سنة ١٩٦٩ .

(٨) حجر براق شفاف ذو أطباق يطحن فيكون مسحوقاً أبيض .

ومن الأرض : الهرشم^(١) والمرمريس^(٢)
والرواهص^(٣) والخبار^(٤) . ومن الماء : الجارى
والخرنار^(٥) والحسوى والحشرج^(٦)
ومن العيون : البارد والحثيد^(٧) . ومن
غير ذلك كثير كثير .

ولما انتشر الإسلام واتسعت رقعة
الأرض العربية من حدود الهند والصين
شرقا ، إلى أسبانيا وحدود فرنسا غربا ،
ازدادت هذه الألفاظ وتلك الاشتقاقات
تشكلا وخصبا في هذا المجال بفضل
مانغص به تلك المنطقة من العالم من
ظواهر جيولوجية شتى ، ومن جبال
وأهار وأودية ، ومن معادن بلور وخامات
وأحجار .

وغنى عن التأكيد والبيان ما قام به
مشاهير الجغرافيين والمعدنين العرب
في تلك العصور من أسفار طويلة في أرجاء

تلك الأرض الواسعة سَطَّروا من نتائجها
أسفارا ضخمة ، تعجَّ بالمصطلحات الفنية
العربية الخالصة في تقويم البلدان ،
ووصف الأماكن والمياه ، وفي البحث
عن المعادن والأحجار والجواهر .

أما الفرنجة في غرب أوروبا إبان
عصر النهضة وإحياء العلوم فإنهم لما
نهلوا من علوم الشرق ، جعلوا اللغة
اللاتينية لغة العلم عندهم . ولما بدأوا
ممارسون لغاتهم الأصلية بعد ذلك في هذا
المجال ، اضطروا إلى الإسراف في
الاستعارة من الأصول اللاتينية واليونانية
وحتى من الأصول العربية^(٨) لسك
المصطلحات العلمية ، وذلك لقصور
لغاتهم عن استيعاب المعانى العلمية
الجديدة ، وتقديم الأصول المناسبة
للمتغيرات اللانهائية فيها .

(١) الرخو النخر من الجبال .

(٢) الأرض الصلبة لا تذبث شيئا لصلابتها .

(٣) الصخور المتراسة الثابتة .

(٤) ما لان واسترخى من الأرض وساخت فيه قوائم الدواب .

(٥) الماء الجارى جريا سريعا .

(٦) الماء في الأياطح لا يفتن له فاذا حفر عنه مقدار ذراع جاش . (٧) الماء الساخن .

(٨) في الرياضة قالوا : Algebra للجبر ، وفي الفلك والمساحة قالوا Azimuth للسموت ، وفي الجيولوجيا

قالوا : Erg للمراق و Seif dunes للكشبان السيفية ، وقالوا : Gravel الجراول ، وقالوا Adobe للطوب . إلخ .

ثراءها التليد ونبعها الفياض في تزويد
الاصطلاحيين بكل ما يطلبون من أصول ،
حتى بلغ ما نقله أعضاء المجمع وخبرائه
في مجال المصطلحات الجيولوجية ما ينيف
على الخمسة آلاف من المصطلحات :
جلها من أصول واشتقاقات عربية
أصيلة .

ويهدف هذا البحث إلى التدليل على
أن بحر اللغة العربية مازال زاخرا
بالأصول البكر الصالحة للاستعمال
[والاشتقاق الجيولوجي ، والتي تفي
بكل حاجات المشتغلين بهذا العلم من
نقل مصطلحات أجنبية إلى العربية أو
ابتكار مصطلحات جيولوجية جديدة
أصلا ، وأنه سيظل يوافقنا عدد
فياض من هذه الأصول .

وقد ضربت في بحث سابق (1)
بعض الأمثلة على قدرة اللغة العربية على
الإحاطة بكثير من المتسلسلات الاصطلاحية
الجيولوجية في الموضوع الواحد . وهذا
مثال جديد من أروع الأمثلة في هذا

أما كتابات العرب في عصور النهضة
العلمية الإسلامية ، ككتابات الجاحظ
والكندي والبیرونی والقزوينی وابن سینا
والسکتي « الوطواط » وابن الأکثاني
وإخوان الصفا والتيفاشي وغيرهم ،
فتضم زائرا من المصطلحات الجيولوجية
في أوصاف الجبال والطبقات والعيون
والأحجار والمعادن والجواهر وفي نظريات
قيام الجبال وتآكلها ، وتحركات البر
والبحر ، ومن مصطلحات الصناعة
الجيولوجية والاستكشاف في تخليص
المعادن من خاماتها وقطع الجواهر والبثور
وصقلها وفي تمييز الحر والزائف منها ،
وغير ذلك مما يشهد بأن اللغة العربية
لم تقصر عن استيعاب طموحهم والإحاطة
بآفاق كشوفهم بتقديم المادة الصالحة
لكل ما ابتكروه أو نقلوه .

وفي عصر النهضة العلمية العربية
الحديثة ، وبفضل جهود مجمع اللغة ،
ودأب القائمين عليه في التشجيع على
البحث والاستنباط في نقل المصطلحات ،
مازالت اللغة العربية تثبت جدارتها
في تحقيق المهمة ، ومازلنا نلمس

(١) مجلة مجمع اللغة العربية ، (الجزء ٣٢) سنة ١٩٧٣ .

الباب : سلسلة من خمسة عشر لفظاً
 ليس بينها إلا لفظ واحد معرب ،
 غير أنه دخل معاجم العربية من
 قديم وليس عن طريق التعريب العلمي
 على أي حال . أما المقابلات الإنجليزية
 لهذه السلسلة فإنها تضم ستة ألفاظ غير
 إنجليزية ، ولكن من أصول لاتينية
 أو إغريقية ، - أي أنك إذا
 اطلعت على معجم عربي متوسط
 لوجدت فيه ضالتك في كل معاني هذه
 السلسلة من الألفاظ العربية الأصلية ،
 ولكنك تفتقد ستة منها في المعجم
 الإنجليزي ، ولا بد لك من البحث عنها
 في المعجم الإنجليزية الكبرى التي تهتم
 بالمصطلحات العلمية وتعني بذكر
 الأصول اللاتينية والإغريقية .
 وهذه هي السلسلة المشار إليها ،
 وهي في الأنواع المختلفة من المواد
 الطينية ، مرتبة حسب الترتيب الهجائي
 العربي ؟ -

المصطلح الإنجليزي	معناه	أصله	المصطلح العربي
Boulder clay	الطين العلك الجيد فيه حصى .	بصر	١ - البَصْر - البَصْرَة
Laterite *	الأرض الطيبة الحمراء	بصر	٢ - البَصْرَة
Mudstone - Slate	الطين المدور الأملس	-	٣ - الجَلَاهِق ^(١)
Saprolite *	حجارة تشبه الطين	جند	٤ - الجَنْد
Peat	الطين الأسود المنتن	حمىء	٥ - الحَمَاء
	غثاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جفّ .	خث	٦ - الخُث

(*) كلمات غير إنجليزية .

(١) فارسي معرب قديم .

تابع جدول المصطلحات

المصطلح الإنجليزي	معناه	أصله	المصطلح العربي
Ooze	الطين المبتل لا يسيل	ردغ - رزغ	٧ - الرَّدغ - الرَزغ
Clay	الطين اليابس يصلصل	صلصل	٨ - الصَّنْصَال
Shale	طين يابس فيه مادة الطُّفَل الرخص الناعم الدقيق	طَفَل	٩ - الطُّفَال
Alluvium *	ما يحمله السيل ويستقر على الأرض	طَمَا	١٠ - الطمى
Varve *	الطين الرقيق (يترسب في موسم أو في مدة قصيرة)	طمل	١١ - الطَّمْلَة
Loess *	دِقاق التراب	طاس	١٢ - الطَّيس
Mud	التراب المختلط بالماء	طان	١٣ - الطَّين
Silt	الطين يحمله السيل	غَرِن	١٤ - الغَرِين
Kaolin	الطين اللزج الأخضر الحر (ومادة الخزف عموما)	غَضْر	١٥ - الغَضَار

أو الماء أو الحركات الأرضية أو الصخور
وما تحوى من معادن وخبامات وبنيات
هندسية وغير ذلك .

ومن يراجع المعاجم العربية لا يعدم
أن يجد في كل مادة تقريبا أصلا أو
أكثر يصلح للتعبيرات الجيولوجية
أو لاشتقاق المصطلحات الخاصة بالأرض

(*) كلمات غير انجليزية

وليس من سبيل في مقال أو سلسلة قصيرة من مقالات أن يحاط بكل ما تقدمه لغة الضاد من مادة صالحة للاستعمال في مصطلحات الجيولوجيا . لكننا في هذا البحث سنقدم عينات من هذه الأصول ومشتقاتها في الأحرف السبعة الأولى فقط من المعجم على سبيل المثال لا الحصر ، لنذكر بها على ثراء هذه اللغة بأصول تلك المصطلحات .

ورب قائل يقول : هذا نبش عن الخبء في أجداث الألفاظ البائدة ، واستحاثه لما ضاع منها في رغام المعاجم القديمة .

لكن هذا قول مردود ، فما نقدمه هنا من ألفاظ تكلمت بها العرب ، وهي مدونة في معاجمهم الآن . وغرابة الكلام تنشأ من عدم استعماله ، وما زالت اللغة العربية حية والحمد لله ، بل لها مكان في الصدارة بين اللغات العالمية . وهل في استعمال المصطلحات اللاتينية والإغريقية بأحرفنا العربية ونطقنا العربي سهولة أو بعداً عن الغرابة وهي مستقاة من هاتين اللغتين البائدتين ، اللتين تشتق منهما معظم المصطلحات في اللغات الأوروبية الحية ؟ فلماذا نأثي نحن اليوم لنستعير ألفاظها كما هي أو نعربها تعريبا ، وعربيتنا أولى بإحياء أصولها العريقة ؟

وهذه مختارات من الأصول الصالحة للاستعمال الجيولوجي في الأحرف السبعة الأولى من المعجم :

حرف الهمزة :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Chron	أزمنة الحفريات وأعمار الحوادث الجيولوجية الصغيرة .	إبان الشيء : أوانه	أَبْن
Geological time	الزمن الجيولوجي كله .	الأبد : الدهر	أَبَد
Conservative Fossils	الحفريات التي لم يطرأ عليها تغير يذكر أزمانا جيولوجية طويلة .	آبدة وجمعها أوابد : بقيت زمنا طويلا .	
Trace fossils	الحفريات تذهب وتبقى آثارها في الصخور ، العلم المختص بدراساتها	الأثارة : العلامة وبقيت الشيء	أَثَر
Ichnology	(علم الأثرات ، وهو غير علم الأثار المعروف) .		
Stocks	الموارد الإقليمية القديمة للصحارة . أصول السلاسل الحفرية .	الأثلة : الأصل	أَثَل
Hypersaline	لوصف البيئة البحرية الزائدة الملوحة .	الأجاج : ماء ياندغ الفم بهمارته أو ملوحته .	أَجَج
Foeted waters Euxinic enoironment	وصف للمياه المحتبسة غير المهواة وصف للبيئة المائية غير الصالحة للحياة	ماء أجين : فسد وتغير لونه وطعمه ورائحته	أَجُن
Regolith Mantle rock	الصخور المتفككة البالية فوق صخر الأساس .	الأديم من الأرض مايلي وجهها .	أَدَم
Stoney desert Hamada	أرض صلبة بلا حجارة ، جمعها أياديم .	الإيدامة	

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Collumella Buttrusses	لوصف العمود الوسطى في المرجان والحلزونات وأعمدة التقوية في درقات بعض القنافظ البحرية .	الآسية : الدعامة والأسطوانة والبناء المحكم أساسه	أَسِي
Reverse faults Recumbent folds	لوصف الطيات والصدوع المقلوبة	المؤتفكات : الريح تختلف مهاهبها . أئتفكت الأرض : انقلبت بمن عليها .	أَفَك
Till Tillite	أكبر : لأرض المثالج بعد زوال الجليد عنها . لمصارف المناجم .	أكر الأرض حرثها ، وأرض أكيرة (قياس) . الأكرة : حفرة تعمق ليتجمع فيها الماء .	أَكَر
Badlands	لنوع من الطوبوغرافية السيئة تنشأ من فعل العوامل الطبيعية على جيولوجية غير متجانسة .	الأمث : المكان المرتفع وصغار التلال والاختلاف في المكان ارتفاعا وانخفاضا ورقة وصلابة .	أَمَت
Recent period	يصلح اسما لآخر الأزمنة الجيولوجية فهو قد انقضى وليس جزءا من الحاضر وبعضهم يسميه الزمن الحديث أو الحاضر (خطأ) .	الآنثف : الماضي القريب	أَنِف
Theca	لوصف الطبقات الخارجية من هياكل المراجين وما شابهها	الإهاب : الجلد المغلف لجسم الحيوان قبل أن يدبغ .	أَهَب

حرف الباء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتاق	الأصل
Disected land Highly faulted	للأرض المقطعة بالسيول أو التصدع الشديد أو غيره	بتكة : قطعة وهو مبتك والقطعة منه بتكة	بتك
	يصلح لوصف درجات الأنهار ومراتبها ومواقعها	البتيل : المسيل في أسفل الوادي .	بتل
	في الجيولوجيا المائية ويجوز استعماله في جيولوجيا النفط.	البائر : الماء البادي من غير حفر .	بشر
		البثنة : الأرض السهلة اللينة .	بثن
Sand sheets Sand seas	التجمعات الرملية العظمى	البججاج من الرمل ؛ المجتمع الضخم منه	بججاج
		البراض : البئر القليلة الماء .	برض
Placers Placer deposits	لرواسب الأنهار القوية القديمة البائدة وتكون أحيانا معادن للعناصر الثمينة كالذهب والألماس	البرقاء : أرض غليظة فيها حجارة ورمل وطين	برق
Ornamentation Mottled rocks	لوصف الزخارف اللونية والتركيبية في أصداف الحيوان ، ولوصف الصخور ذات المساحات المختلفة الألوان	نقش بالألوان شتى وزين .	برقش

(تابع) حرف الباء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
	يمكن أن يطلق على ماى معين من الزمن الجيولوجى (*).	البرهة. مدة من الزمان.	بَرة
Trappes	يمكن استعماله لوصف الأصقاع المكونة فى أساسها من الصخور البركانية القاعدية .	البسقة : الأرض ذات الحجارة السود .	بَسَق
Moonstone		بساقه القمر : معدن أبيض صاف يتلألأ	
Laterite	الأرض الطيبة الحمراء .	البُصر والبُصرة :	بَصر
Boulderclay	الطين العلك الجيد فيه حصى .	البُصرة :	
Semicrystalline Limestone	إلا أنه دونه فى الهشاشة واللين والرخاوة	حجر كالرخام	بَكْنَط
Crystalline Quartz	السليكا المتبلورة - بلورات المرو	بلور جوهر أبيض شفاف وقيل هو نوع من الزجاج .	بَلور
Circus	معالم جيومورفولوجية مستديرة تحدثها المثالج عند منابعها .	الباحة : الساحة	باح
Hinge area Cardinal area etc	ومساحات محددة فارغة فى أصداف بعض الرخويات ! يصالح فى علم الجيولوجيا المائية و جيولوجيا البترول .	البيون : البئر الواسعة العميقة !	بَيّن

(*) يلزم الاصطلاح فى تحديد المدى الزمنى الجيولوجى لكل من الأصول المختلفة الخاصة بالإمتدادات الزمنية فى اللغة .

حرف التاء :

المقابل الإنجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
		التَّحْبَاب: عرق الفضة وفحوها في حجر المعدن	حَبَبٌ
يصلح في الجيولوجيا الهندسية وجيولوجيا المناجم	يصلح لوصف ما ينتاب أنواع الطين بالاختلاط. بالماء .	تَخَّ العجين ونحوه : لان واسترخى لكثرة الماء فيه .	تَخَّ
Compact grains	لوصف الصخور ذات الحبيبات الشديدة الانضغاط ؛ فلا تترك بينها مسافات يمر فيها الماء .	تَرِيصٌ : محكم ومضبوط.	تَرُصَ
alluvial fans	يصلح لرواسب الطمي في السيول الشديدة الانحدار عن سفح الجبل	التلعة : ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء من أعلى إلى أسفل وماء اتسع من فم الوادي .	تَلَعَّ
Precipitous Scarps	يصلح في وصف معالم النحت في مجال الجيومورفولوجيا	التلعة : الهضبة المنيعه ينحدرى التلعت على من علاها .	تلف
		جرف الرمل .	التيهور
	لتسمية هذا المَعْلَم في علم الجيومورفولوجيا	التهامه : أرض منخفضة بين ساحل البحر وسلسلة جبلية على امتداده .	تَهَمَّ

حرف الثاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Rejuvenation	في الفيضان وتجدد شباب الأنهار بالرفع عند المنبع .	النهر امتلاً وأسرع ماؤه	ثبى
Association	يستعار للحيوان والحفريات	الثلة : الجماعة من الناس	ثل
Diastem	يستعار للمراحل الضائعة من السجل الجيولوجي .	الثلمة : والثلم : الانكسار أو الشق أو إزالة جزء من الشيء	ثلم

حرف الجيم :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Penplain		الجند : الأرض المستوية	جدد
Gold-bearing Quartz	كسارة المرو لحامل الذهب .	الجداذة : الحجرة من حجارة الذهب	جد
Breccia	الصخور الرسوبية المهشمة المكونة أصلاً من كسارة صخور سابقة .	الجذاذ : المقطع أو المكسر	
	طحين الصخر في أعمال المناجم .	الجريش : الشيء يدق ولا ينعم دقه .	جرش
Exploration	أعمال الاستكشاف الجيولوجية المختلفة .	جس الأرض : وطورها وبحثها وفحص ما فيها .	جس

(تابع) حرف الجيم :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Caldera	الحفر الواسعة الناشئة من فوهات البراكين الخامدة .	الجُفْرَة : الحفرة الواسعة المستديرة .	جفر
Mudstone-Slate?	اسم للطين المتحجر أو المتحول .	الجَنْدُ : حجارة تشبه الطين .	جند
Aquifer	في الطبقات الحاملة للماء الجوفي .	المَجْمُ : مستقر الماء	جَمَّ

حرف الحاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Water retaining	العُخْرُ الجارية للماء	وعاء حابس للماء	حبس
Pulverised rocks	الصخور المهشمة تهشياً شديداً بطرق التحول الحركي العنيف .	الحُثُّ : المدقوق من كل شيء .	حث
Gangue minerals	المعادن غير ذات القيمة الاقتصادية في الخامات والتي لا يستعمل الخام من أجلها .	العثالة : الردىء من كل شيء والنفاية .	حثل
Boundary Contacts	لوصف التكاوين والطبقات المشتركة في الحدود .	المَحَادَّة : المشاركة في الحدود .	حد
	السهل من الأرض يستنقع فيه الماء ؛ ورمل تحته صلابة يحجز الماء .	الحِمْى وجمعها أحساء	حدى

(تابع) حرف الحاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Vadose water		الحَشْرَج : الماء في أَباطح الأرض لا يفطن له فإذا حفر عنه مقدار ذراع جاش .	حَشْرَج
Ore dressing		المُحَصِّل : الذي يخرج تراب الفضة من حجارة المعدن والذي يخرج تراب المعدن - التحصيل : هذا الفن .	حصل
Grit		الحَصِيم : صغار الحصى للصخور المكونة من الحصى الدقيق	حصى
Era		الحقبة : المدة الطويلة لمصطلحات الجيولوجيا التاريخية	حقب
Epoch		من الدهر ، جمعها حَقَبٌ وأحقاب . الحقبة المدة لا وقت لها أو السنة ، جمعها حَقَبٌ وحقوب .	
Streak		الحَكَاكَة : مائساقط من الشيء عند الحك .	حك
Streak plate		في مجال اختبار المعادن والكشف عنها .	
Pumice		المحَكُّ : ما يحك به من حبيبر وغيره .	
Saprobelic Saproliite		الحَكَاكُ : حجارة رخوة بيض تحك بها الأرجل . الخفيفة الحمضية .	
		الحماء : الطين الأسود المنتن	حماء
		الصخور الطينية الناشئة في قعور المستنقعات .	

(تابع) حرف الحاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Hot spring		الحمّة : عين ماء حارة تنبع من الأرض .	حمم
Pyroclastic rocks	صفاة للصخور الرسوبية الناشئة من أصل بركاني .	حممة وجمعها حمم . كل ما احترق من النار	
Hydrothermal waters	يستعار للمياه الجوفية الحارة والصخور التي تعرضت للحرق أو الحرارة العالية فكادت أن تتحول .	الحند : الماء الساخن واللحم المشوي يقطر منه الدهن	حند
Baked rocks			
Meander		الحنو : منحرج الوادي	حنو
Prospecting	البحث بالطرق المختلفة عن مكامن الثروات المعدنية (علم الاستحاثات) .	أحاث الأرض : آثارها وطلب ما فيها .	حاث

حرف الخاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
	مادة لمصطلجات علم الجيومورفولوجيا	الخَبُّ : سهل بين حزنين . الخبار : مالان من الأرض واسترخى وساخت فيه قوائم الدواب .	خبب خبير

(تابع) حرف الحاء :

المقابل الانجليزي	الغرض الاصطلاحي	الاشتقاق	الأصل
Peat	يستعار للرواسب النباتية الأصل التي لم تتفحم بعد أو أصابها تفحم بسيط .	الخُثُّ : غطاء السيل إذا خلفه ونضب عنه حتى جف .	خُثَّ :
Insoluble residue Residual deposits	تستعمل في التحاليل الكيميائية للصخور الرسوبية وفي وصف الرواسب المتبقية من غيرها .	الخَثَارُ : فضلة الشيء وبقيته .	خَثِرَ
Crevasses	لوصف الشقوق الكبرى بالجليد وبعض الصخور الطباشيرية .	الخَادِبَةُ : الشجَّة المشددة جمعها خوادب .	خَدِبَ
Diapir structures	لوصف ما تحدثه رواسب الملح المنضغطة في الصخور الرسوبية التي تعلوها فتثقبها ؛ ولوصف اختراق طبقات اللب للطبقات المطوية الضعيفة .	الخَرْبَةُ : الثقب الواسعة المستديرة .	خَرِبَ
Rapids	يستعار لوصف مجارى الأنهار الشابة عندما تتقدم مراحل تآكل المساقط المائية .	الخَرخار : صفة للماء الجارى جريا سريعا .	خَرَّخَرَ

فيها أو استعارتها ، لتأدية معناها .
فاللغة بخير ، والعلم العربى بخير ، مع
الاجتهاد ، والتوفيق من عند الله .

محمد يوسف حسن

والبحث الدقيق المستأنى في المعاجم
العربية يمكن أن يزود الباحث الجيولوجى
بمعجم وافٍ من الأصول العربية
والأغراض الجيولوجية التي يمكن استعمالها

التطور اللغوي بين القوانين الصوتية والقياس

للدكتور رمضان عبد التواب

أى أنها لم تكن كما يتخيل بعض الناس ،
بصورتها الى رويت لنا ، منذ أن خلق
الله الأرض ومن عليها .

وإننا لنبتسم لسداجة من روى لنا
شعرا عربياً ، على لسان قحطان بن هود
عليه السلام ، يسلى به بعض ما كان
بأبيه هود - من الكآبة والعجز والغم
والحزن ، على قومه عاد ، فقال :

إني رأيت أبي هودا يؤرّقه
حزن دخيل وبلبال وإسهاد

لا يحزننك أن طاحت بداهية
عاد بن لاوى فعاد بشما عاد⁽¹⁾

بل لقدرووا لنا أن آدم عليه السلام ،
قال شعرا عربيا في رثاء ابنه « هابيل »
حين قتله « قابيل » وقالوا : إن أول



أ فى بداية حديثي ،
مضطرا إلى تأكيد

أمر ، فرغ منها المحدثون من علماء
اللغات ، منذ فترة طويلة ، وهى تعدّ
عندهم الآن من البديهيات ، على حين
يجادلنا فيها بعض الدارسين العرب ، ممن
بقي في الكهوف القديمة ، يرددون قولتهم
المشهورة : ليس في الإمكان أبدع مما كان .

وأول هذه الأمور أن اللغة كائن حى ؛
لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها ، وهم
من الأحياء ، وهى لذلك تتطور وتتغير
بفعل الزمن ، كما يتطور الكائن الحى
ويتغير . واللغة العربية الجاهلية ، ليست
بدعا بين اللغات ، فهى حلقة في سلسلة
حلقات طويلة ، من التطور والتغير ،

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام للأصمى ص ٤

من أقوى في الشعر ، هو آدم عليه السلام ،
وهو يقول في قصيدته تلك :

تغيّرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغبرٌ قبيحٌ

تغيّر كلُّ ذى حسن وطيب
وقل بشاشة الوجه المليح^(١)

والحقيقة الثانية أن مانسميه نحن
بالعربية الفصحى ، يشتمل في الكثير
من ظواهره ، على بعض حلقات التطور ،
أى أننا نلاحظ في هذه اللغة أحيانا ،
صورتين أو أكثر لظاهرة لغوية واحدة ،
وبعض هذه الصور يمثل فترة تاريخية ،
أقدم من الصور الأخرى . وسأضرب هنا
بعض الأمثلة ، لكي تتضح هذه القضية :

يظن بعض الناس أن السنين-وشوف ،
أداتان مختلفتان للدلالة على الاستقبال ،
وضعا هكذا وضعا ، منذ أن خلق الله
العربية . وقد خُدع بذلك نحاة البصرة ،
وحكّموا المنطق العقلي ، في أن زيادة
المبنى تدل على زيادة المعنى ؛ فقالوا :
إن سوف تدل على الاستقبال البعيد ،
والسين تدل على الاستقبال القريب .

(١) الدرر اللوامع على مع الهوامع ٢-٢٠٩ .

وليس في نصوص اللغة ما يشهد لتكلفهم
هذا ؛ فقوله تعالى مثلا « فسيكفّيكمهم » ،
ليس معناه تحقق هذه الكفاية في الغد ،
كما أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك
ربك فترضى » ، ليس معناه تأخر
الإعطاء عاما أو عامين .

بل إن الحقيقة أن سوف أقدم من
السين ، والسين جزء مقتطع منها . ومن
الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء
اللغات ، أن كثرة الاستعمال تبلى
الألفاظ ، وتجعلها عرضة لقص أطرافها ،
تماما كما تبلى العملات المعدنية والورقية ،
التي تقيدها أيدي البشر .

ومن الألفاظ التي تعاني هذا القصر ،
وذلك البلى ، هي الأدوات التي تدور
كثيرا في الكلام ، وكذلك كلمات
التحية التي يرددها الناس صباح
مساء . ويكفى أن نتذكر هنا عبارة
« عم صباحا » المتطورة عن : « أنعم
صباحا » و « م الله » المأخوذة من :
« أيمن الله » ، وقولنا مثلا : « سلخير »
بدلا من : « مساء الخير » ، بل إن

أو قل المرحلة الأخيرة منه ، مع الأصل الذى كان لا يزال يعيش معه جنباً إلى جنب ، كما روى لنا اللغويون صور التطور الأخرى ، التي لم يكتب لها ما كتب لغيرها من الخلود .

وهذا مثال آخر : روى لنا فى العربية الفصحى ، صيغتان من صيغ الأفعال ، بصورتين مختلفتين ، وهما : تفعل وتفاعل ، إلى جانب : اتفعل واتفاعل . والصورة الأولى هاتين الصيغتين هى الأقدم ، وعليها جمهرة الأفعال التى رويت لنا فى الفصحى ؛ مثل : تعلم ، وتكلم ، وتقاتل ، وتضارب . كما روى لنا من الصورة الثانية قوله تعالى : « حتى إذا أدركوا فيها جميعاً » ، وقوله تعالى : « اثنا قادم إلى الأرض » . وقد حدث التطور فى هاتين الصيغتين ، أول ما حدث فى المضارع ؛ إذ لنا أن نعصور أن الأصل هو : « يتثاقل » ، ثم سكنت التاء للتخفيف ؛ إذ تكره العربية تولى المتحركات - كما هو معروف - فتضير الكلمة : « يتثاقل » ، ثم انقلبت التاء ثاء ، لقربها منها فى

كلمة : « للساعة » بمعنى « للآن » ، أصبحت فى مصر : « لسه » وفى شامى إفريقيا : « لسه » وفى السودان : « للسائى » ، وعبارة : « رايح أعمل كذا » تطورت إلى « حاعمل كذا » . والناس فى نجد يقولون : « سم » بمعنى : « نعم » ، وهى مقتطعة فيما نعتقد من : « سمعا وطاعة » ، كما يقولون : « أبى كذا » وهى متطورة عن : « أبغى » . وغير ذلك من الكلمات الكثيرة .

وهذا هو ما حدث بالضبط لكلمة : « سوف » القديمة ، التى توجد فى بعض اللغات السامية الأخرى ، كالآرامية فهى فيها : (Sawpā) ، وهى اسم معناه فيها الغاية والنهاية . هذه الأداة التى أصبحت تدل فى العربية القديمة ، على الاستقبال فى الأفعال ، كانت قد بدأت تعانى قصاً لبعض أجزئها ، فى الفترة التى سبقت نزول القرآن الكريم ؛ فقد ورد أن العرب « قالوا : سويكون ، وسوف يكون ، وسايكون ، وسيكون^(١) » .

وعندما جاء القرآن الكريم ، سجل لنا إحدى صور التطور فى « سوف » ،

(١) انظر : لسان العرب . (سوف) ١١ - ٦٥ .

المخرج والصفة ، فصارت الكلمة :
« يثأقل » : وهنا يشتق من المضارع
ماض جديد ، هو : « اثأقل » .

وقد كانت هذه الظاهرة في سبيل
التطور في العربية الفصحى ، عندما جاء
الإسلام ؛ ولذلك نجد أمثلتها في القرآن
الكريم ، جنباً إلى جنب مع الصيغ
القديمة التي لم يحدث فيها تطور .
ونحن نعدّ هذا دليلاً على أن التطور
اللغوي في آية ظاهرة لغوية ، لا يحدث
فجأة ، فيقضى بين يوم وليلة على كل
أثر للتقديم ؛ ففي القرآن الكريم ، أمثلة
كثيرة للصيغ القديمة ، مثل قوله تعالى :
« وما يتذكر إلا من ينيب » ، بل إن
الآية الواحدة لتحتوي في بعض الأحيان ،
على الصورتين معاً ؛ كقوله تعالى :
« لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

وقد ظل هذا التطور سائراً في طريقه
في لهجات الخطاب ، حتى ساد وحده
وقضى على الظاهرة القديمة ؛ ففي اللهجة
العامية المصرية ، نقول مثلاً : فلان
اصدعت دماغه ، واسرّع في كلامه ،
واشهى الأكل ، واصور ، واطوع في
الجيش ، ولا أثر للصيغة القديمة في

لهجات الخطاب ؛ إذ لا يقال فيها مثلاً :
فلان تصدعت دماغه ، وتسرع في
كلامه ، وتشهى الأكل ، وتصور ،
وتطوع في الجيش . وكذلك الحال
في ؟ صيغة : « تفاعل » ؛ إذ ماتت هي
الأخرى ، وحلت ؟ محلها صيغة : « اتفاعل »
التي شاهدنا مولدها ، في عصر نزول
القرآن الكريم ، إذ نقول الآن في لهجات
الخطاب : فلان اطاول على فلان ،
واشاتم هو وهو ، واساهل معاه ،
واصالحوا سوا ، بدلاً من : تطاول عليه ،
وتشاتم ، وتساهل ، وتصالح .

والقضية الثالثة التي أريد تأكيدها
هنا ، أن العربية الفصحى لها ظرف خاص ،
لم يتوفر لأي لغة من لغات العالم . وهذا
الظرف يجعلنا نرفض ما ينادى به بعض
الغافلين - عن حسن نية أو سوء نية
أحياناً - من ترك الحبل على الغارب
للعربية الفصحى ، لكي تتفاعل مع
العاميات ، تأخذ منها وتعطي ، كما
يحدث في اللغات كلها .

حقاً إن اللغة كائن حي ، يتطور على
السنة المتكلمين بها ، فينشأ من هذا
التطور ، اختلاف بين لغة عصر والعصر

الذي سبقه ، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم ، وأنصار الشكل الجديد ، وبعد فترة يصبح قديما ما كان بالأنس جديدا ، فيتصارع مع جديد آخر ، وتضمحل لغة العصر الأسبق أو تندثر ، غير أن كل جديد لا يظهر فجأة ، ولا يقضى على القديم بين يوم وليلة ، بل يظل الصراع بينهما لفترة قد تطول أو تقصر ، غير أن الانتصار يكون في النهاية للشكل الجديد - تلك سنة الحياة ، وتاريخ اللغات جميعها يشهد بهذا ، ولا نعرف لغة على ظهر الأرض ، جمدت على شكل واحد مئات السنين .

غير أن العربية الفصحى لها - كما قلنا - ظرف لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم ؛ ذلك أنها ارتبطت بالقرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ودون بها التراث العربي الضخم ، الذي كان محوره هو القرآن الكريم في كثير من مظاهره . وقد كفل الله لها الحفظ ، مادام يحفظ دينه ، فقال عز من قائل : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولولا أن شرفها الله عز وجل ، فأنزل بها كتابه

وقيض له من خلقه من يتلوه صباح مساء ، ووعد بحفظه على تعاقب الأزمان - لولا كلُّ هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكريتية ، ولسادت اللهجات العربية المختلفة ، وازدادت على الزمان بعدا عن الأصل الذي انسلخت منه .

هذا هو السر الذي يجعلنا لانقيس العربية الفصحى ، بما يحدث في اللغات الحية المعاصرة ، فإن أقصى عمر هذه اللغات في شكلها الحاضر ، لا يتعدى قرنين من الزمان ، فهي دائمة التطور والتغير ، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة ، تأخذ منها وتعطي ، ولاتجد في ذلك حرجا ، لأنها لم ترتبط في فترة فترات حياتها بكتاب مقدس ، كما هو الحال في العربية .

وقد صدق الشيخ أحمد رضا العاملى حين قال : « وأنا لا أرتاب في أن اللغة التي حملها الفرنسيين ، أيام الحملات الصليبية ، إلى سوريا لم تكن كاللغة التي حملها أحفادهم إليها في هذه الأيام ، وأن اللغة التي نظم بها شكسبير قصائده ، لا يفهمها العامى

الإنجليزية اليوم ، أكثر مما يفهم العاصي
العربي قصائد المتنبي وأبي العلاء المعري ،
وأن لغة موليير الفرنسية - فيما أحسب -
بعيدة عن لغة إميل زولا . ولكن لغة
المتنبي لم تتغير عن لغة شوقي ، وبينهما
ألف عام ، إلا أن لغة المتنبي تخالف
[لغة الزاجل في زجله اليوم ، بل إن
لغة الزاجل في زجله اليوم تخالف
لغة الزاجل في عصر ابن خلدون ^(١) .

إن ارتباط العربية الفصحى بالقرآن
الكريم ، لهو السرّ كذلك في تمسكنا
بالعربية الفصحى القديمة ، ودعوتنا
إلى دراستها دراسة مستفيضة ، لكي
نفهم بها القرآن الكريم ، ومادار حوله
من دراسات ، وكذلك الشعر العربي
القديم ، الذي يلقي أضواء على
المعاني القرآنية ، ويفيد في توضيح
ألفاظ القرآن الكريم . ولقد صدق
الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ،
حين قال : « الشعر ديوان العرب ،
فإذا نحفنا الحرف من القرآن ، الذي
أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى
ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه » ^(٢) .

فهذه العربية الفصحى التي استمرت
حية ، أربعة عشر قرناً ، والتي ستستمر
في حياتها إلى ما شاء الله - تستمد من
ارتباطها بالقرآن الكريم عنصر الحياة
وهذه القضية كانت واضحة في أذهان
اللغويين العرب في الماضي ، فهذا هو
أبو حاتم الرازي (المتوفى سنة
٣٢٢ هـ) يقول : « ولولا ما بالناس من
الحاجة إلى معرفة لغة العرب ، والاستعانة
بالشعر على العلم بغريب القرآن ،
وأحاديث رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، والصحابة والتابعين ، والأئمة
الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض
ذكر الشعراء ، ولعفى الدهر على
آثارهم ، ونسى الناس أيامهم » ^(٣) .

لقد أطلت في إبراز هذه القضية
هنا ، حتى لا يظن بعض الناس ،
أنني حين أعالج قضايا التطور اللغوي
أكون من أنصار هذا التطور في العربية
فإنني أعالج هذه القضايا هنا من الناحية
الوصفية التاريخية ، وهناك فرق كبير
في مناهج اللغة ، بين الوصفية والمعيارية

(١) مولد اللغة للعامل ص ٧٢ . (٢) انظر : الإتيان للسيوطي ١ - ١١٩ . (٣) الزينة للرازي ١ - ١١٦

كما أن استخدام اللغويين المحدثين لكلمة « التطور » ، لايعنى تقييم هذا التطور ، والحكم عليه بالحسن أو بالقبح ، فإنه لايعنى عندهم أكثر من مرادف لكلمة : « التغيير » .

وهمنا هنا أن نشير إلى أن هذا التغيير لا يحدث على نحو مشتت غير مطرد ، بل يحدث وفتما لقواعد ثابتة ، يمكن أن نصوغها في دقة ، إذا تناولنا لغة ما ، في عصرين متتابعين من تاريخ تطورها .

والقوانين الصوتية ، تعبر عن علاقة بين حالتين متتابعتين للغة واحدة في وسط اجتماعي معين ، فهي ليست قوانين عامة شبيهة بقوانين علم الطبيعة أو الكيمياء ، ولهذا السبب ، نجد تطورا صوتيا في إحدى اللهجات ، ولانجد له أثرا في لهجة أخرى .

ومن أبرز القوانين الصوتية أثرا في التطور اللغوي ، هو قانون « المماثلة » بين الأصوات ، فإن أصوات اللغة ، تختلف فيما بينها في الشدة والرخاوة والجهر والهمس ، والتفخيم والترقيق وما إلى ذلك ، فإذا التقى في الكلام

صوتان من مخرج واحد ، أو من مخرجين متقاربين ، وكان أحدهما مجهورا والآخر مهموسا مثلا ، حدث بينهما شدّ وجذب ، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر ناحيته ويجعله يتماثل معه ، في صفاته كلها أو في بعضها ، وهناك اصطلاحات لعلماء الأصوات ، في أنواع التأثير الناتجة عن قانون المماثلة ، فإن أثر الصوت الأول في الثاني فالتأثير (مقبول) ، وإن حدث العكس ، فالتأثير (مدبر) وإن حدثت مماثلة تامة بين الصوتين ، فالتأثير (كلى) وإن كانت المماثلة في بعض خصائص الصوت ، فالتأثير (جزئى) . ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة :

فمثال التأثير المقبل الكلى ، قولنا مثلا : « ادعى » ، إذا أصلها : « ادعى » ، التقت الدال والتاء ، وهما من مخرج واحد ، هو مخرج الأسنان واللثة ، فأثرت الدال وهي متقدمة ، على التاء التي بعدها ، وقلبتها دالا مماثلة . ومثال التأثير المقبل الجزئى ، قولنا مثلا : « اضطجع » ، إذا أصلها :

أو الأسنان مثلاً ، إلى صوت من أصوات
الحلق ، وكذلك العكس ، وقد فطن إلى
هذه الحقيقة ، العلامة ابن جني فقال :
فأما قول من قال في قول تَابَطُ شِراءُ :
كأنما حشحووا حصاً قودامه

أو أمّ خِشْفُ بذي شِثْ وطَبَّاق

إنه أراد : حشَّوا ، فأبدل الثاء
الوسطى حاء ، فمردود عندنا .

وإنما ذهب إليه البغداديون وأبو بكر
ابن السراج معهم ، وسألت أبا علي عن
فساده ، فقال : العلة في فساده أن أصل
القلب في الحروف ، إنما هو فيما تقارب
منها ، وذلك : الدال والطاء والتاء ،
والذال والظاء والثاء ، والهاء والهمزة
والميم والنون ، وغير ذلك مما تدانت
مخارجهم ، فأما الحاء فبعيدة عن الثاء ،
وبينهما تفاوت يمنع قلب إحداهما إلى
أختها^(١) .

هذا هو قانون المماثلة . وهناك قانون
صوتني آخر ، يسير في عكس اتجاه قانون
المماثلة وهو ما يعرف عند علماء الأصوات
باسم قانون « المخالفة » ؛ فقد عرفنا أن

« اُضتجع » ، فقد اجتمعت الضاد والتاء
وهما من مخرج الأسنان واللثة كذلك
فأثرت الضاد على التاء ، وقلبتها إلى
صوت مماثل لها في بعض صفاتها وهو
الطاء الذي يماثل الضاد في التفخيم .

ومثال التأثير المدبر الكلي ، تأثير
النون في « إن » و « أن » و « من »
و « عن » بالميم واللام التي تليها ،
فتقلب ميماً أو لاماً ، مثل : « إمّا » و
« أمّا » و « إلّا » و « ألا » و « إمّا »
و « عمّا » وما إلى ذلك .

ومثال التأثير المدبر الجزئي ، تأثير
النون بالباء التالية لها ، إذ تقلب إلى
صوت من مخرج الباء وهو صوت
الميم إذ هو شفوي كالباء وهذا هو
ماسماه علماء القراءات العرب بالإقلاب ،
في مثل قوله تعالى : « من بعدما جاءهم »
وقوله تعالى : « عليم بذات الصدور » .

ونحب أن نشير هنا إلى شيء مهم
وهو أن الصوت لا يمكن أن ينقلب إلى
صوت آخر ، بعيد عنه في المخرج جداً
فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة

(١) سر صناعة الإعراب لابن جني ١-١٩٧ .

في : « كراسة » ، كما كانوا يطلقون
على الأسد كلمة : « عدنيس » بدلا
من « عديس^(٢) » .

وليس من اللازم أن يكون الصوتان
متجاورين ؛ فكلمة : « عنوان » تنطق
في بعض اللهجات عندنا : « علوان » ،
وكلمة : « لعل » فيها عشر لغات
مشهورة ، ومن هذه اللغات : « لعن^(٣) » ،
وهي أثر من آثار قانون المخالفة .

وقد فطن قدماء اللغويين العرب إلى
هذه الظاهرة وكانوا يعبرون عنها أحيانا
« بكراهية التضعيف » أو « كراهية
اجتماع حرفين من جنس واحد » أو
« اجتماع الأمثال مكروه » وما أشبه
ذلك .

ويرى علماء الأصوات أن السبب
في المخالفة من الناحية الصوتية ، هو
أن الصوتين المتماثلين ، يحتاجان إلى
جهد عضلي في النطق بهما في كلمة واحدة ،
ولتيسير هذا المجهود العضلي ، يقاب

قانون المماثلة ، يحاول التقريب بين
أصوات بينها بعض المخالفات . أما قانون
المخالفة ، فإنه يعتمد إلى صوتين متماثلين
تماما في كلمة من الكلمات ، فيغير
أحدهما إلى صوت آخر ، يغلب أن يكون
من أصوات العلة الطويلة ، أو من
الأصوات المتوسطة أو المائعة ، المعروفة
في اللاتينية باسم Liquida ، وهي
اللام والميم والنون والراء ؛ مثال ذلك :
« قيراط » و « دينار » بدلا من :
« قرّاط » و « دِنّار » ؛ بدليل الجمع :
« قراريط » و « دنانير » .

وكان الناس في القرن الثالث الهجري
في العراق يقولون في : « إجّاص » :
« إنجاص » وفي : « إجانة » :
« إنجانة » ؛ ولذلك قال ابن السكيت
في كتابه إصلاح المنطق : « ويقال :
هو الإجّاص ، ولا تقل : إنجاص ، وهي
الإجانة ، ولا تقل : إنجانة^(١) » .

كما كان أهل الأندلس في القرن
الرابع الهجري ، يقولون : « كرناسة »

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ١٧٦ .

(٢) لحن العوام للزبيدي ٣٥ ، ١٦١ .

(٣) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١ - ٢٧١ .

أحد الصوتين صوتاً آخر ، من تلك الأصوات التي لا تتطلب جهداً عضلياً ، كاللام والميم والنون .

وتميل العربية إلى التخلص من توالي الأمثال في أبنيتها ، عن طريق آخر ، إلى جانب طريق المخالفة الصوتية ، ذلك هو طريق الحذف . ومن أمثلة ذلك فيها : صيغ « تَفَعَّل » و « تَفَاعَلَ » و « تَفَعَّلَ » مع تاء المضارعة ؛ مثل : « تتقدم » و « تتقاتل » و « تتبختر » ، فالكثير في العربية الاكتفاء بتاء واحدة . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ؛ ففيه مثلاً : « تَذَكَّرُونَ » ١٧ مرة بالحذف ، في مقابل : « تتذكرون » ٣ مرات بلا حذف ، كما يقابلنا فيه مثلاً : « تكاد تَمَيِّزُ من الغيظ . » بدلا من : « تتمييز » و « فأنت عنه تَلَهَّى » بدلا من : « تلهي » و « نارا تَلَطَّى » بدلا من : « تلطي » وغير ذلك .

ومن أمثلة ذلك أيضاً : نون الأفعال الخمسة مع نون الوقاية ، قبل ياء المتكلم ،

أو مع ضمير المتكلمين المنصوب ، وكذلك الفعل المسند إلى نون النسوة ، قبل هاتين الحالتين ؛ كقول الأعشى :

أبالموتِ الذي لا بُدَّ أني
ملاقٍ لا أباك تُخوفيني^(١)

أي : « تخوفيني » . وكقول عمرو ابن معد يكرب :

تراه كالثغام يُعَلُّ مِسْكَاً
يسوء الفالياتِ إذا فَلَيْني^(٢)

أي : « فليني » . وكقول جميل :

أياريحَ الشمالِ أما ترينيني
أهيم وأنني بادي النُحُولِ^(٣)

أي : « ترينيني » .

وليست ضرورة الشعر هي المتسببة في هذا الحذف ، كما قد يُتوهم ؛ إذ ورد في النشر كذلك ، فقد ورد في سيرة ابن هشام : « ما الذي تهذونا به »^(٤) ، وفيها كذلك : « أفلا تعطوني »^(٥) . وفي الأغاني للأصفهاني : « فأخبراه أنهما لا يعرفاني »^(٦) . وفي عيون الأخبار لابن

(١) أمالي ابن الشجري ١-٣٦٢ والكامل للمبرد ٢-١٤٢ والمنصف لابن جني ٢-٣٧ .

(٢) كتاب سيبويه ٢-١٥٤ والمنصف لابن جني ٢-٣٣٧ .

(٣) سيرة ابن هشام ٥١ .

(٤) الأغاني ٥-١٢٦ .

(٥) الأغاني ٨-١٠٩ .

(٦) سيرة ابن هشام ٤٥٨ .

ففي الآرامية مثلاً : ('aryā) L'iš
 بمعنى : « ليث » ، أصلها الاشتقاقى :
 'aryayā وفي الألمانية مثلاً كلمة :
 der Beamte بمعنى : « الموظف » ،
 هذه الكلمة أصلها الاشتقاقى :
 der Beamtete وغير ذلك من الكلمات .

وفي العربية الفصحى من المقاطع
 الصوتية ، خمسة أنواع : الأول مقطع
 قصير مفتوح ، وهو ماتكوون من صوت
 صامت وحركة قصيرة ؛ مثل : (كَ) ،
 والثاني مقطع طويل مفتوح ، وهو ماتكوون
 من صوت صامت وحركة طويلة ؛
 مثل : (في) ، والثالث مقطع طويل
 مغلق حركته قصيرة ، وهو ماتكوون
 من صوتين صامتين بينهما حركة
 قصيرة ؛ مثل : (من) ، والرابع مقطع
 طويل مغلق حركته طويلة ؛ مثل :
 (باب) في الوقف ، والخامس مقطع
 زائد في الطول ، وهو مابدأ بصوت
 صامت ، تليه حركة قصيرة ، ثم يختم

قتيبة : « لم تُز عجوفى من جواركم ؟ »^(١)
 وفي تفسير الطبرى : « كنا نعطيهم
 في الجاهلية ستين وسقاً ونقتل منهم
 ولا يقتلوننا »^(٢) .

ومن أمثلة الحذف لكراهة توالى الأمثال
 كذلك : إنَّ وأنَّ ولكنَّ وكانَّ ، مع نون
 الوقاية قبل ياء المتكلم ، أو ضمير
 المتكلمين المنصوب . والحذف مع هذه
 الأحرف هو الشائع في القرآن الكريم ؛
 ففيه مثلاً : « إني » ١٢٤ مرة ، في
 مقابل : « إني » ٦ مرات ، كما ورد
 فيه : « وإنا » ٣٣ مرة ، في مقابل :
 « وإننا » مرة واحدة . وغير ذلك^(٣) .

ولعل المسئول عن منع كلمة : « أشياء »
 من الصرف ، وقوعها في القرآن الكريم ،
 في سياق تتوالى فيه الأمثال لو صرفت ،
 في قوله تعالى : « لاتسألوا عن أشياء إن
 تُبدل لكم تسؤوكم » سورة المائدة ١٠١/٥
 إذ لو صرفت لقييل : « عن أشياء إن »
 ولا يخفى ما فيه من تكرار المقطع : « إن » .
 وليست العربية بدعا في سلوك طريق
 الحذف ، للتخلص من توالى الأمثال ؛

(٢) تفسير الطبرى ٨ - ٥١٠ .

(١) عيون الأخبار ١ - ٢٩٣ .

(٣) انظر أمثلة أخرى في مقالتنا : كراهة توالى الأمثال ، بمجلة المجمع العلمي العراقي - المجلد الثامن . عشر .

بصوتين صامتين متتاليين ؛ مثل :
(بَنْتُ) في الوقف .

ومن القوانين الصوتية في العربية
الابتعاد عن توالي أربعة مقاطع من النوع
الأول ، وهذا هو السر في تغيير نظام
المقاطع ، في الفعل الماضي الثلاثي المتصل
بضمير الرفع المتحرك ، إلى مقطعين من
النوع الأول ، بينهما مقطع من النوع
الثالث ؛ مثل : «ضَرَبْتُ» ، بدلا من
توالي أربعة مقاطع من النوع الأول في :
«ضَرَبْتُ» .

كما تبتعد العربية عن المقطع الرابع ،
في غير الوقف ووسط الكلمة ، بشرط
أن يكون المقطع التالي له مبتدئا بصامت ،
يمثل الصامت الذي ختم به المقطع السابق .
وهذه الحالة الأخيرة ، هي ما عبر عنها
اللغويون العرب القدامى «بالتقاء الساكنين
على حدّهما» وهو أن يكون الأول حرف
لين والثاني مدغما في مثله^(١) ؛ نحو
« الضالّين » و « دابة » و « شابة » .
فإذا نشأ هذا المقطع اشتقاقيا ، في
غير هاتين الحالتين ، حولته اللغة إلى

مقطع من النوع الثالث ، بتقصير حركته
مثل : «يقومُ» التي تصير عند الجزم :
«لم يقُمُ» ، وكان الأصل فيها : «لم
يقومُ» ، غير أن المقطع : «قومُ» هو
من نوع هذا النوع الرابع الذي تفر منه
العربية .

ويذهب بعض المستشرقين^(٢) ، إلى
أن الإعراب كان في الأصل ، بالحركات
الطويلة في آخر الكلمة ؛ بدليل الوقف
بهذه الحركات الطويلة ، في لغة أزد السراة
في قولهم مثلا في الوقف : «هذا خالدو»
و « رأيت خالدا » و « مررت بخالدي »
وبدليل الوقف بالفتحة الطويلة في الفصحى
في قولنا : « رأيت خالدا » ، غير أن
دخول النون الساكنة للتنوين في الوصل ،
أدى إلى نشوء المقطع الرابع ، فتخلصت
منه العربية بتحويله إلى مقطع من النوع
الثالث ، أي أن هذا الرأي يفترض أن
الأصل في مثل : « جاء زيدُ » و « رأيت
زيداً » و « مررت بزيدٍ » هو : « جاء
زيدونُ » و « رأيت زيدانُ » و « مررت
بزيدينُ » . وهو رأى قد يمكن عن طريقه

(١) انظر شرح ابن يعيش للمفصل ٩ - ١٢٠ .

(٢) انظر : Rabin, Ancient West Arabian, p. 57 .

وهذه النون التي تسمى بنون الرفع في الأفعال الخمسة ، هي مفتوحة في : يفعلون ، وتفعلون ، وتفعلين . ولكنها مكسورة في : يفعلان ، وتفعلان ؛ بسبب هذا القانون نفسه .

بل إن نصب جمع المؤنث السالم بالكسرة ، ليُفسَّر كذلك بهذا القانون ، أي أن الأصل هو نصب هذا الجمع بالفتحة ، بدليل ما رواه الكوفيون عن العرب من قولهم : سمعت لغاتهم ، وقول الرياشي : سمعت بعض العرب يقول : أخذت إراتهم^(٣) ، غير أن أثر هذا القانون ، هو الذي أدى إلى تخالف الفتحة إلى كسرة ، فيما نعتقد .

هذه هي بعض القوانين الصوتية ، التي تحكّم التطور اللغوي في العربية ، وليس من قصدنا هنا إحصاء هذه القوانين فلذلك مجال آخر .

أما « القياس » ، فعن طريقه تتطور اللغة كذلك . وقد ثبت من تتبع حياة اللغات « أن الاختلاف في حياة اللسان ،

تفسير وجود الواو في كلمة : (عمرو) ، وقد وردت في أحد النقوش العربية القديمة ، مكتوبة بالياء في حالة الجر^(١) .

ومن القوانين الصوتية المؤثرة في العربية كذلك : المخالفة بين حركتي الفتح المتتاليتين ، إذا كانت الأولى منهما طويلة ؛ إذ تتحول الثانية منهما في هذه الحالة إلى كسرة ؛ فالأصل في نون المثني هو الفتح ، غير أنها كسرت تبعاً لهذا القانون ، بدليل أنها ما تزال مفتوحة في جمع المذكر ، وبدليل بعض الأمثلة ، التي بقيت على الأصل القديم ، وهي ما نسميه نحن « بالركام اللغوي » ؛ مثل : « شَتَان » في مثل قولهم : « شتان أخوك وأبوك » أي هما متفرقان ، فهو ثنائية « شت » والشت المتفرق^(٢) .

ومن لم يقنعه هذا المثال ، فليُنظر في نون التوكيد المشددة ، وهي مفتوحة - كما نعرف - في : « يَضْرِبَنَّ » و « تَضْرِبَنَّ » وما إلى ذلك ، غير أنها مكسورة في مثل : « يَضْرِبَانَّ » ؛ بسبب المخالفة المذكورة .

(١) انظر : نقش « أم الجمال » في كتابنا : فصول في فقه العربية ٤٢ - ٤٣

(٢) لسان العرب (شت) ٢ - ٣٥٥ .

(٣) منهج السالك لأبي حيان ص ١١ .

أقدم من الاتفاق في أكثر الحالات ^(١) .
وهنا يأتي القياس اللغوي ، ليبلغى هذه
الاختلافات ، ويقيس بعض الأمثلة على
بعض ، فتتوحد الظاهرة عن هذا الطريق .

مثال ذلك : ثبت من مقارنة اللغات
السامية ، أن الأصل في ضمير المتكلم هو
الكاف ، والأصل في ضمير الخطاب هو
التاء ؛ لأن التكلم جنس يختلف عن جنس
الخطاب . ومن الطبيعي أن يوضع لكل
جنس ، ضمير يخالف ضمير الجنس
الآخر ؛ أي أن الأصل أن يقال مثلاً :
« ضَرَبْتُكَ - ضَرَبْتُ - ضَرَبْتُ » ، غير
أن القياس أدى إلى تسوية هذا الاختلاف
فسادت الكاف وحدها في الحبشية
ففيها مثلاً : « قَتَلَكُوا - قَتَلْتُكَ - قَتَلْتُكِي »
وفي العربية والآرامية والعبرية ، سار
القياس في اتجاه آخر ، فسادت التاء ؛
إذ يقال في العربية مثلاً : « قَتَلْتُ -
قَتَلْتِ - قَتَلْتِ » .

وهذا مثال آخر لأثر القياس في التطور
اللغوي ؛ فالأصل في لام الجر الفتح ،
والأصل في باء الجر الكسر ، بدليل وجود

(١) انظر : التطور اللغوي لبرجستر اسر ص ٤٩ .

هذا الأصل في اللغات السامية الأخرى ،
وبدليل الاحتفاظ به في العربية عند
الاتصال بالضمائر ، في مثل : « له »
و « به » . أما كسر اللام في مثل :
« لِلرَّجُلِ » و « لِلنَّاسِ » في العربية ،
فإن سببه هو القياس على باء الجر .

وما النصب « بما » عند الحجازيين ،
في مثل قوله تعالى : « ما هذا بشراً » ،
إلا أثر من آثار قياس « ما » على « ليس »
إذ المعنى فيهما سواء .

غير أن للقياس أثراً آخر في منع
القانون الصوتي أحياناً ، عن أن يؤدّى
بظيفته ؛ فإن صيغ تصريف وزن معين ،
توجد في الذهن في مجموعات مترابطة ،
فلو جاء القانون الصوتي ، وأراد أن يعمل
وكان من جراء عمله الإخلال بذلك الترابط
فإن القياس يلغى القانون الصوتي ،
بسبب ما يسمى « بطرد الباب على وتيرة
واحدة » .

مثال ذلك : أن القانون الصوتي ،
يحتم أن ينطق الفعل : « عبيد » مثلاً ،
عند إسناده إلى تاء الفاعل هكذا :

« عَبَّتْ » ، بإدغام الدال في التاء ، تبعاً لقانون المماثلة ، أو التناثر المدبر الكلى ، غير أن القياس على باقى صيغ تصريف هذا الفعل ؛ مثل : « عبدوا » و « عبدا » ، يحتم الإبقاء على الدال ، لكى يطرد الباب على وتيرة واحدة ، وعندئذ نرى العرب يفصلون بين صوتى الدال والتاء هنا بحركة مخطوفة ، هى ما سماها اللغويون العرب فيما بعد ، « بقلقلة » الدال ، حتى لا تتأثر صوتياً بالتاء ، فيقولون : « عَبَّتْ » .

وقد يكمل القياس الطريق الذى بدأه القانون الصوتى ، أى أن القانون الصوتى ، يؤثر فى بعض أمثلة الظاهرة اللغوية ، ثم يطرد القياس الباب على وتيرة واحدة فى الأمثلة الباقية .

فمثلاً : مضارع وزن « أفعل » المسند إلى ضمير المتكلم ؛ مثل : « أكرم » ، الأصل فيه : « أؤكرم » ، فتوالى فيه مقطعان متماثلان . وقد عرفنا من قبل أن العربية تفر من توالى الأمثال ، فتحذف أحد المقطعين المتماثلين ؛ وبذلك يصبح الفعل : « أكرم » ، ثم تقاس باقى

صيغ المضارعة على هذه الصيغة ، طرداً للباب على وتيرة واحدة .

وقد فطن إلى هذا ابن جنى ، فقال : « قولهم : أنا أكرم ، حذفوا الهمزة التى كانت فى (أكرم) ؛ لثلاثى يلتقى همزتان لأنه كان يلزم : أنا أؤكرم ، فحذفوا الثانية ؛ كراهة اجتماع همزتين ، ثم قالوا : نكرم ، وتكرم ، ويكرم ؛ فحذفوا الهمزة ، وإن كان لو جاءوا بها لما اجتمع همزتان ، ولكنهم أرادوا المماثلة ، وكرهوا أن يختلف المضارع ، فيكون بهمزة ، وأخرى بغير همزة ، محافظة على التجنيس فى كلامهم (١) » .

وإذا كان الفعل الناقص المسند إلى الغائبة ، قد تحوّل من : (رمات) مثلاً إلى (رمت) ؛ بسبب تجنب المقطع الرابع ، الذى تحدثنا عنه من قبل ؛ فإن هذا الفعل الناقص نفسه ، إذا أسند إلى الغائبتين ، لا ينشأ فيه هذا المقطع الرابع ، وليس هناك قانون صوتى ؛ يؤدى إلى تحوّل : (رماتا) مثلاً ، إلى : (رمتاً) ، وإنما هو أثر القياس على

(١) المنصف لابن جنى ١-١٩٢ .

الفعل المسند إلى الغائبة ، وطرده للباب على وتيرة واحدة .

كما أن كراهة توالي أربعة مقاطع من النوع الأول ، هو المسئول عن تطور : « ضربت » مثلاً ، عن : « ضربتُ » - كما عرفنا من قبل . أما مثل : « استخرجت » مثلاً ، فليس فيه توالي هذه المقاطع الأربعة ، وإنما المسئول عن تسكين لام الفعل فيه ، هو القياس على باقي صيغ الأفعال ، وطرده الباب فيها على وتيرة واحدة .

ومن القوانين الصوتية ، التي طردت العربية الباب فيها عن طريق القياس ، قانون يسمى «بقانون الأصوات الحنكية» ؛ فقد وصل العلماء في مقارنتهم اللغة السنسكريتية باللغتين اليونانية واللاتينية في أواخر القرن التاسع عشر ، إلى قانون صوتي سموه : « قانون الأصوات الحنكية » ولاحظوا أن أصوات أقصى الحنك ، كالكاف والجيم الخالية من التعطيش ، كالجيم القاهرية مثلاً - تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية ، حين تليها في النطق حركة أمامية كالكسرة ؛

لأن هذه الحركة الأمامية في مثل هذه الحالة ، تجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك ، فتنتقل إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك^(١) . ويغلب أن تكون هذه الأصوات الجديدة من النوع المزدوج ، أي الجامع بين الشدة والرخاوة ، وهو المسمى باللاتينية : Affricata .

ومن الأصوات التي خضعت لهذا القانون في العربية : صوت الجيم ؛ فإن مقارنة اللغات السامية كلها ، تشير إلى أن النطق الأصلي لهذا الصوت ، كان بغير تعطيش كالجيم القاهرية تماماً ؛ فكلمة : جمل مثلاً ، هي في العبرية : gāmāl وفي الآرامية : gamlā وفي الحبشية gamal أما العربية الفصحى ، فقد تحول فيها نطق هذا الصوت من الطبق إلى الغار ، أي^(٢) من أقصى الحنك إلى أوسطه ، كما تحول من صوت بسيط إلى صوت مزدوج ، يبدأ بدال من الغار ، ثم ينتهي بشين مجهورة ، غير أن ذلك لم يحدث في^(٣) البداية في كل جيم ، وإنما كان يقتصر على الجيم المكسورة ، تبعاً لقانون الأصوات الحنكية ، الذي أشرنا إليه من قبل ، ثم

(١) انظر : في اللهجات العربية القديمة للدكتور إبراهيم أنيس ١٢٣ .

عمّ القياس هذا النطق الجديد في كل جيم ، طردا للباب على وتيرة واحدة . وقد حدث ذلك في العربية القديمة ، في العصور السابقة لظهور الإسلام ، وصار هو النطق المميز للفصحى ؛ ولذلك جاء به القرآن الكريم ، وبقى النطق البائد في بعض اللهجات العربية القديمة ، وامتداداتها في بعض اللهجات الحديثة .

أخرى مكسورة ، سوى كاف المؤنثة ؛ كقول الراجز :

إن دنوت جعلت تُنْعِشِش
وإن نأيت جعلت تُدْنِشِش
وإن تكلمت حثت في فيش
حتى تنقى كذقيق الديش^(١)
أى : تنشيك ، وتدينك ، وفيك ،
والدئيك .

وما حدث لصوت الجيم القديم في الفصحى ، حدث مثله لصوت الكاف في بعض اللهجات القديمة ، في الظاهرتين المعروفتين عند القدماء ، بظاهرتي : الكسكسة والكشكشة ، اللتين رويتا لنا عن بعض القبائل القديمة ، كبكر وهوازن وربيعه وأسد . وقد وقفت هذه الظاهرة في القديم ، عند حدود قانون الأصوات الحنكية ، أى أن الكاف لم تقلب إلى (تس) في الكسكسة ، ولا إلى (تس) في الكشكشة ، إلا إذا كانت مكسورة ؛ ندرك هذا من تقييد اللغويين القدماء لها بكاف المؤنثة ، وهى مكسورة كما نعلم ، وإن كانت أمثلتهم تحتوى على كافات

أما اللهجات العربية الحديثة ، فقد طردت هذا القلب في كل كاف عن طريق القياس ، مكسورة كانت هذه الكاف ، أو غير مكسورة ؛ ففي بلاد نجد تسمعونهم يقولون : « تسيف حالك ؟ » و « على تسم ؟ » في : « كيف حالك ؟ » . و « على كم ؟ » . كما نسمع عند أصحاب الكشكشة ، وهم كثيرون في جنوبي العراق ، وبلدان الخليج وشمال أفريقيا : « تشبير » و « تشلب » في : « كبير » و « كلب » وما إلى ذلك . وقد يؤدى القياس إلى نشوء كلمات جديدة في اللغة ؛ فإن بناء : « اتبع » من : « تبع » ، مثلا ، أدى إلى توهم أن « اتخذ » مأخوذة من « اتخذ » ، مع أنها من : « أخذ » ، وبذلك نشأت .

(١) انظر : مجالس ثعلب ١ - ١١٦ وخزانة الأدب ٤ - ٥٩٤ .

كلمة جديدة هي : « تخذ » ، واستخدمها الشعراء ؛ كقول الممزي العبدى :
وقد تَخَذْتُ رجلى إلى جنب غرزها
نسيفاً كأفحوص القطب...إة المطرق
وقد فطن إلى هذا ، الجوهري فقال :
والانخاذا افتعال من الأخذ ، إلا أنه أدغم
بعد تليين الهمزة ، وإبدان الياء تاءً ،
ثم لما كثر استعماله على لفظ الافتعال ،
توهموا أن التاء أصلية ، فبنوا منه :
فَعِلَ يَفْعَلُ ، قالوا : تَخِذُ يَتَخَذُ^(١) .

ولا شك أن هذه هو الطريق ، الذى
وصلت إلينا عنه كلمات أخرى ؛ مثل :
« التكلان » من : « وكنل » ، « التخممة »
من الطعام الوخيم ، و « التقوى » من :
« وقى » ، و « التراث » من : « ورث » ،
و « تِجَاه » من : « وجه » ، و « التكمأة »
من : « توكا » ، و « التالد » و « التلاد »
و « التليد » من : « ولد » ؛ لأن معناه
المال المولود عند أصحابه . وغير ذلك^(٢) .
وهكذا نرى أنه لا شذوذ فى اللغة ،
وأن القانون اللغوى له من الحتمية

والضرورة ، مثل ما لقانون الجاذبية فى
الطبيعة ، وقانون العرض والطلب فى
الاقتصاد ، ولكن وجود قانون ما ،
لا يمنع وجود قانون آخر يعارضه فى
العمل ؛ فإن قانون الجاذبية مثلا ،
يقضى بأن الأجسام كلها تسقط نحو
مركز الأرض فى خط عمودى ، لكن هذا
لا يمنع أن نرى ورقة تسقط فى خط
متعرج ، وأن نرى « البالون » يرتفع
إلى أعلى .

إن القانون فى اللغة ، كالقانون فى
الطبيعة ، لا يمضى دون أن يصطدم
بقوانين أخرى . والشذوذ فى قانون
صوتى ليس شذوذا ، إلا عندما لا نكون
قد اكتشفنا القانون الجديد الذى يفسره
أو القياس الذى يلوى عنقه فى اتجاه آخر .
هذا ما أردت الوقوف عنده من عوامل
التطور اللغوى ، وهى كثيرة ، غير أن
أهمها ما مثلنا له من القياس والقوانين
الصوتية . وبعض الأمثلة يغنى عن بعض
والله أعلم .

رمضان عبد التواب

(١) الصحاح للجوهري (أخذ) ٥٥٩/٢ .

(٢) انظر : القلب والإبدال لابن السكيت ٦٢ - ٦٣ والإبدال لأبي الطيب ١٤٩/١ واللسان (تق) ١١٠/١٨

(وقى) ٢٠/٢٨٣ .

ملاحظات حول أنواع الألفاظ المعرّبة

في اللغة العربية المعاصرة

للأستاذ نيقولا دوبريشان

لاحظنا أن اللغة العربية أخذت عدداً من المصطلحات التكنيكية والعلمية من اللغتين الفرنسية والإنجليزية وذلك أن العالم العربي كان في العصر الحديث على اتصال مستمر بالحضارة الأوروبية بواسطة اللغتين المذكورتين ؛ وحتى عملية التعليم جرت ولا تزال في بعض البلدان العربية باللغة الإنجليزية وباللغة الفرنسية نتيجة للسيطرة الاستعمارية الطويلة على هذه البلدان فيما مضى .

أما المجالات الإدارية والتجارية فقد دخلت في العربية عدد من الكلمات الإيطالية والتركية وخاصة في النصف الأول من قرننا هذا ، وذلك نتيجة للعلاقات السياسية والتجارية والبحرية الوثيقة القائمة بين الشعوب العربية ، وهذين الشعبين اللذين يعيشان في الحوار

أن التعريب يوجب دوراً معترفاً به عموماً في تكوين المصطلحات العلمية في



مختلف لغات العالم . إن التطورات التي طرأت على موقف مجمع اللغة العربية الموقر في القاهرة وهيئات علمية عربية أخرى والعلماء اللغويين العرب من الألفاظ المعربة معلومة جيداً ، وكذلك المناقشات والمواد التي نشرت في صفحات مجلة مجمع اللغة العربية الموقر ومؤلفات أخرى خلال السنين السابقة . وعلى هذا لا نرى من الضروري أن نلج عليها (١) . وإذ نعود إلى هذا الموضوع فذلك رغبة منا في التأكيد على بعض الظواهر - وهذا قل من كثير - التي تدل على حالة الألفاظ المعربة في اللغة العربية المعاصرة وخاصة في مجال المصطلحات الاجتماعية والسياسية .

(١) قد نشرنا في مجلة جامعة بوخارست مقالين عن المعرب من المصطلحات العربية وذلك في نطاق رسالة الدكتوراه التي نعدها والتي تتناول موضوع طرق تكوين المصطلحات الاجتماعية والسياسية في اللغة العربية المعاصرة ، وهما :

- 1) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période classique), AUB, 1973, 11 p.
- 2) Nicolae Dobrisan, L'emprunt lexical en arabe (Période mederne), AUB, 1973, 24 p.

المباشر للعالم العربي ، ونقدم على سبيل المثال هذه المصطلحات : « بورصة it. borsa « بوسطة it. posta و « فاتورة it. fattura « ديكريتو it. decreto و « باسابورط it. passaporto و « بولصة it. polizza و « كمرك (جمرك) tc. damga و « دمغة tc. gümrük الخ .

إن عددًا من أسماء الآلات والأجهزة الحديثة قد دخلت في اللغة العربية في نفس الوقت مع الحقائق المسماة بدون أن يترك وقت لإيجاد كلمات عربية للمعاني الجديدة . وهذه هي الحالة بالنسبة لمفردات كـ « تلغراف » و « تلفون » و « بطارية » و « بارومتر » وغيرها ، أو بالنسبة لكلمات دخلت اللغة العربية في فترة أقرب منا زمنًا ، مثل « سينما » و « فيلم » و « تلفزيون » و « مترو » وغيرها . كما دخل العربية عدد من وحدات القياس بشكلها الأوروبي ، مثل « متر » و « لتر » و « هكتار » و « كيلومتر » و « هكتواتر » وغيرها . وكذلك أسماء الآلات المتعلقة بالكهرباء التي تحمل أسماء مخترعيها ، مثل « أمبير » Ampère و « أوم » Ohm و « وات »^(١) Watt وغيرها .

إن هذه المصطلحات تمثل جزءًا مما يسمى بالألفاظ الدولية *vocabulaire international* حيث إنها توجد في معظم لغات العالم بشكل قريب من أصلها .

(١) بشكل (واط) أيضا .

إن أسماء عدد من العلوم المكونة في اللغات الأوروبية من كلمتين ثانيتهما الكلمة اليونانية *logia* « لوجيا » دخلت في اللغة العربية محتفظة بشكل قريب من شكلها في اللغات الأوروبية (الشكل الفرنسي في معظم الأحيان) ، مثال ذلك : « بيولوجيا » *fr. biologie* « ميترولوجيا » *fr. metrologie* و « إبستيمولوجيا » *fr. épistémologie* وغيرها . في بعض الأحيان حصلت على شكل مصدر صناعي ، أي بتحويل ألف المد في نهاية الكلمة إلى اللاحقة *suffixe* - ية « الخاصة بالمصدر الصناعي » مثل « بيولوجية » وغيرها من العلوم .

وإن الشكل الثاني هذا ليدل على درجة أكبر في اندماج اللفظة *assimilation* من الناحية الصرفية والصوتية . في الوقت الأخير نلاحظ أن الباحثين منحوا الأسبقية للاحتفاظ بالشكل المكون « أوجيا » اليونانية .

وفي حالات أخرى نجد أشكالًا متوازية « *variantes* » أي بالاضافة إلى اللفظة المعربة ، توجد ترجمات أو حتى شرحها باستعمال كلمات عربية ، مثال ذلك : « بيديا غوجية » *fr. pédagogie* « علم التربية » و « ديموغرافيا » *fr. demografie* « علم السكان » و « تيولوجيا » *fr. typologie* « علم تشكيل الإنسان » إلى آخرها .^(٢)

(٢) انظر عبد العزيز بن عبد الله ، معجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ، فرنسي - عربي ، سلسلة المعاجم عدد ٩ - ١٩٦٩ .

وفي حالة أسماء العلوم غير المنتهية *glor* في اللغة الفرنسية تم الاحتفاظ بشكل قريب من الشكل القائم في اللغة الأصلية ، مثال ذلك : « هيدروستاتيك » *fr. hydrostatique* و « ميكانيك^(١) » *fr. mécanique* و « سبرنتيك^(٢) » *fr. cybernétique* وغيرها .

أما أسماء المذاهب والتيارات الفلسفية أو الأدبية التي تقابلها في اللغة الفرنسية كلمات تنهى باللاحقة « *isme* » ، فقد تم تعريبها عن طريق تحويل هذه اللاحقة إلى اللاحقة العربية الخاصة بالمصدر الصناعي « -ية » وذلك قياسا على المصطلحات القديمة من هذا النوع، مثال ذلك : « دناميكية » *fr. dynamisme* و « ميكانيكية » *fr. mécanicisme* و « أكاديمية » *fr. academisme* و « طوطمية » *fr. totémisme* و « دغماطيقية^(٣) » *fr. dogmatisme* وغيرها^(٤) .

وفي حالات نادرة تم استعمال كلمة « مذهب » *doctrine* ، مثال ذلك : « المذهب الكلاسيكي » *fr. classicisme* و « المذهب الرومانطيسي » *fr. romanticisme* الخ . . .

ولكن في نفس الوقت هناك إمكانية استعمال الكلمة « مذهب » لتكوين اسم أي مذهب من المذاهب المذكورة سابقا وغيرها من المذاهب الفلسفية أو التيارات الأدبية والحضارية شريطة أن تتبع النسبة المشتقة من اللفظة المعربة المعنية لكلمة « مذهب » .

وانطلاقا من الأسلوب الأوروبي تم اشتقاق أسماء مذاهب وتيارات فلسفية وسياسية من أسماء الأعلام ، مثال ذلك : « الماركسية » (مصر ٦٨) *Marx* و « اللينينية » (مصر ٦٨) *Lenin* و « النروتسكية » *Trotsky* و « ديغولية » *De Gaulle* « برغسونية » *Bergson* وغيرها^(٥) .

والجدير بالذكر أن بعض الأسماء للمذاهب اشتقت من أسماء شخصيات عربية ، ومن الممكن أن هذه الظاهرة جرت تحت تأثير الأسلوب الأوروبي ، مثل « الناصرية » « جمال عبد الناصر » البورقينية « الحبيب بورقيبة » والقاسمية « عبد الكريم القاسم » وغيرها .

وبالإضافة إلى المصادر الصناعية المشتقة من أسماء الأعلام فهناك نسب مقابلة لها بمعنى

(١) إلى جانب شكل معرب وهو « الميكانيكيات » وهو جمع المصدر الصناعي .

(٢) إلى جانب الشكلين المنتهين بألف المد « ميكانيكا » و « سبرنتيكا » .

(٣) إلى جانب « الجمود العقائدي » (العراق ٦٨ و لبنان ٦٨) و « العثمانية الحامدة » (العراق ٦٨) .

(٤) لاقتصاد المكان لا نذكر المصادر أو الصحف التي اخترنا منها الأمثلة ونقتصر على ذكر البلد والسنة فقط .

(٥) وجدنا بعض هذه المصطلحات مذكورة بين « المصطلحات في العلوم الفلسفية والاجتماعية » ، مجلة مجمع

اللغة العربية ، القاهرة ، ج ٩ ، ١٩٥٧ ، ص ١٨٨ - ١٨٩

أسماء شعوب دخلت في اللغة العربية في العصور القديمة ، مثل «الروم» و «الترك» و «الرومان» و «التتار» وغيرها .

ولكن في العادة يتم اشتقاق جمع مذكر سالم من النسبة المشتقة من أسماء البلدان ، مثل «فرنسا» «فرنسي» «فرنسيون» و «رومانيا» «روماني» «رومانيون» وغيرها .

وفي نفس الوقت يمكن اشتقاق نسبة من أسماء الشعوب التي لها شكل أسماء الجنس وفي هذه الحالة يكون المشتق له قيمة اسم وصفية فمثلا : تشتق من «أمريكا» النسبة «أمريكي» وفي نفس الوقت يشتق «أمريكاني» من «أمريكان» وكذلك تشتق من اسم الجنس «ألمان» النسبة «ألماني» التي تجمع على «ألمانيين»^(٢). ففي هذه الحالة يستعمل الجمع السالم المنتهي بـ -ون -ين - لتسمية الشعوب المعنية . كما يشتق من نسبة مؤنث ينتهي بـ -ية - ويستعمل كاسم وكصفة ويشتق منه جمع مؤنث سالم ينتهي بـ «-ات» . ويستعمل لتسمية النساء المنتميات إلى قومية معينة ، فتشتق على سبيل المثال من الاسم «روس» النسبة «روسية» (اسم وصفية) ومنها تشتق «روسية» وتجمع تلك بدورها على «روسيات» (بمعنى النساء المنتميات إلى القومية الروسية) .

أنصار المذهب المعنى :- «الماركسيون» و «الناصريون» الخ ولكن اشتقاق النسب من أسماء الأعلام معروف في العربية القديمة :

وهناك ملاحظة خاصة فيما يتعلق باسم المذهب الفاشي وهي أن لاسم هذا المذهب شكلين لهما نفس الانتشار تقريبا : «الفاشية» و «الفاشستية» والنسبتان المقابلتان لهما «الفاشي» و «الفاشستي» : ويبدو أن الشكل الأول اشتق من الكلمة الفرنسية fascisme (اسم المذهب) بينما اشتق الشكل الثاني من الكلمة الإيطالية fascista . لكننا وجدنا من الناحية الإحصائية أن الشكلين «فاشستي» (اسم وصفية) و « فاشستية » (مصدر صناعي) منتشران بصفة خاصة في الصحف المصرية .

وتمثل أسماء الأمم والشعوب والقوميات نوعا خاصا من الألفاظ المعربة ، فإنها تظهر بشكل اسم جنس collectif قياسا على حالة قديمة في اللغة أو بشكل جمع سالم للنسب المشتقة من أسماء البلدان المعنية .

وفي العصر الحديث انتشرت أسماء الجنس مثل الفرنج^(١) Franc و «الألمان» Allemand و «الأمريكان» Américain و «الإنجليز» Anglais الخ . . . وذلك قياسا على

(١) استعملت الكلمة فيما يعا بمعنى «الأوروبيين» عامة .

(٢) ويستعمل هذا الجمع كصفة بوجه عام في حين يستعمل اسم الجنس كاسم .

وبالنسبة للشعب الروماني تشتق من اسم البلد « رومانيا » النسبة « رومانويون » ولكن بالإضافة إلى هذا الجمع يستعمل لتسمية الشعب اسم الجنس «الرومان» Les Romains وذلك نتيجة لبس مع الرومان القدماء الذين يمثلون أصل الشعب الروماني الحالي ولكنهم كانوا شعبا آخر عاش في إمبراطورية روما القديمة في حين نشأ الشعب الروماني من الاختلاط الذي حدث بين الشعب الروماني القديم « والداك » وهم السكان الأصليون للأراضي الرومانية الحالية وذلك خلال القرون الأولى الميلادية .

ونذكر هنا كذلك اتجاهها حديثا نسبيا وهو تعريب بعض الألقاب الأجنبية ، مثال ذلك : « لورد » angl. lord « وستر^(١) » (مصر ٧١) angl. mister و « سيناتور » angl. senator (مصر ٧١) و « بروفيسور » fr. professeur (مصر ٧١) و « سينيور » esb. senor (مصر ٧١) و « سير » angl. sir (مصر ٧١) و « ميسيو » fr. monsieur (مصر ٧١)

ويبدو طبيعيا أن تسبق هذه الألقاب أسماء أشخاص من البلدان التي تستعمل فيها هذه الألقاب ومثلها مثل الألقاب العربية التي لها معنى متشابه تظهر معرفة بأداة التعريف العربية « ال » :

ويمكن اعتبار كل هذه الأنواع من الألفاظ التي ذكرناها في الفقرات السابقة ألفاظا معربة أو في مرحلة التعريب ولكن بالإضافة إلى الألفاظ المعربة يوجد في اللغة العربية ، وهذا ما يحدث في جميع اللغات تقريبا ، نوع آخر من الكلمات الأجنبية وهي الكلمات التي تدل على أسماء منظمات ومؤسسات دولية أو وطنية أو على أسماء صحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون .

وبالنسبة للمنظمات والهيئات والمؤسسات الدولية المعروفة وبخاصة المتعلقة منها بالأمم المتحدة ، تم ترجمة أسمائها ولا تستعمل الحروف الأولى « initiales » للكلمات التي تتكون منها هذه الأسماء في اللغة الإنجليزية أو الفرنسية إلا نادرا جدا ، فمثلا اسم منظمة ONU يترجم بـ « منظمة (هيئة) الأمم المتحدة » واسم منظمة OMS يترجم بـ « المنظمة الدولية للصحة إلخ . . . أما استعمال الحروف الأولى أو مقاطع من هذه الكلمات التي يتكون منها اسم المنظمة فهو ميل حديث في اللغة العربية ، وفي هذه الحالة يتم الالتجاء إلى الأشكال المعروفة في اللغات ذات الانتشار العالمي ، مثل الإنجليزية أو الفرنسية ، وتظهر هذه الأسماء مسبوقة بأداة التعريف ولها في بعض الأحيان أكثر من شكل ، مثال ذلك : UNESCO « اليونسكو و الأونسكو » (مصر ،

(١) لاشك في أن بعض هذه الألقاب مثل « اللورد » و « المستر » لها استعمال قديم في اللغة العربية ، ولكننا لم نقصد وضع دراسة تاريخية . ولهذا السبب سجلنا سنة العثور عليها في الصحف الصادرة مؤخرا .

وفي الصحف التونسية وجدنا لفظا يدل على درجة أعلى في تعريب الكلمة الأجنبية وهو « التلفزة » (تونس ٦٩) فإن هذا اللفظ الذي له وزن المصدر تم اشتقاقه من الفعل الرباعي الأحرف « تلفز » الذي اشتق بدوره من الكلمة الفرنسية الأصل « تلفزيون » fr. télévision : إن هذا المشتق استعمل في بداية الأمر كمصدر ، كما يستعمل الآن في أغلب البلدان العربية ولكن في تونس انتقل إلى استعمال اسمي صرف .

ووجدنا الكلمة « إذاعة » مستعملة كمصطلح تكنولوجي ، كذلك مثلها مثل الكلمة المعربة « راديو » وذلك في العبارات « أجهزة الإذاعة » و « أجهزة الراديو » .

وهناك نوع آخر من الكلمات الأجنبية التي تدخل في اللغة العربية وهي أسماء الجرائد والمجلات وأسماء وكالات الأنباء . ولأحظنا بالنسبة لهذه الأسماء أن بعضها يظهر معرفا وبعضها يظهر غير معرف ، أضف إلى هذا أنه في حالات أخرى نجد الإمكانين : ويبدو أن المعرف منها كان معرفا في اللغة الأصلية ، وأن غير المعرف منها ، إما أن يكون غير معرف في اللغة الأصلية ، وإما أن يأتي من لغة لا يعرفها إلا قليل من العرب . وقد حدث بصورة خاصة في الأوقات الأخيرة حين توسعت توسعا مدهشا العلاقات بين جميع دول العالم

سوريا ، لبنان ٦٨) ، و COMITCOM الكوميكون (مصر ، المغرب ٦٨) و OPEC « الأوبك » و « الأوبك » (مصر ، سوريا ، لبنان ٧٠) .

إن أسماء المنظمات أو الهيئات الأجنبية المكونة من كلمة واحدة تظهر بهذا الشكل مشروحة أحيانا ، مثال ذلك : « السوفييت » (مصر ٧١) و Soviet « البنتاجون » (مصر ٧٠) و angl. Pentagon « الكونغرس » (مصر ٧٠) و angl. Congres الخ . ولما يرى ، فإن جميع هذه الأسماء تظهر معرفة بأداة التعريف « ال » .

أما محطات الإذاعة فنستعمل بصفة عامة لتسميتها الكلمة « راديو » ويلبها اسم العاصمة التي توجد فيها المحطة المعنية ، مثال ذلك : « راديو عمان » (مصر ٧١) و « راديو دمشق » (مصر ٧١) و « راديو هانوي » (مصر ٧٠) و « راديو موسكو » (مصر ٧٠) وغيرها . وغيرها . ولكن بالإضافة إلى كلمة « راديو » الأجنبية استعملت كلمة « إذاعة » العربية كمضاف وكاسم تتبعه نسبة ، مثل : « إذاعات الاستعمار » (سوريا ٦٩) . و « الإذاعة الأردنية » (مصر ٧١) وغيرها . ويستعمل نفس الأسلوب لتسمية محطات التلفزيون مثل : « التلفزيون الأمريكي » (مصر ٧٠) و « التلفزيون المصري » (لبنان ٧٠) الخ

France Presse و « وكالة رويتر » (مصر ٧١) Reuter ولكن « وكالة الأسوشيتد بريس » (مصر ٧١) Associated Press .

ويلاحظ أن العرب لم يأخذوا في الاعتبار بصدد حالة هذه الأسماء أن بعضها تتكون من الحروف الأولى أو من المقاطع الأولى لعدد من الكلمات في اللغات الأصلية ، ونمت معالجتها كأنها كلمات مستقلة .

وأخيرا ، نذكر هنا بعض الكلمات المركبة تركيبيا مزجيا في لغات أخرى والتي دخلت في اللغة العربية ، لكنها تغيرت شيئا ما من الناحية الصوتية ، والصرفية (٦) لما دخلت في العربية .

إن أغلب هذه الكلمات هي مصطلحات علمية وتكنيكية مثل « الصناعة البتروكيميائية fr. pétrochimique (سوريا ٦٨) ومصنع البتروكيمياويات (الأوردن ٧١) وعدد من المركبات التي تدخل فيها الكلمة « كيلو fr. kilo مثل « كيلو متر » fr. kilomètre وكيلوغرام fr.kilogramme و« كياوات » (٧) و fr. kilowatt وتجمع هذه الكلمات جمع

وتطور تبادل المعاومات والأخبار بسرعة نتيجة لإدخال أحدث الوسائل في الإذاعات اللاسلكية وعدم السماح بوقت للتعرف على موقف كلمة في لغة أو أخرى من ناحية وسائل التعريف . فإن اسم الجريدة السوفيتية Pravda (١) ، على سبيل المثال ، يستعمل في اللغة العربية إما معرفا (البرافدا) أو غير معرف (برافدا) ، رغم أن الروسية لا تعرف التعريف بأداة التعريف . وكذلك بالنسبة لاسم الجريدة الرومانية (٢) Scinteia الذي يستعمل معرفا (الاسكتيا) (٣) أو غير معرف (سكتيا) :

ولاحظنا أن أسماء الجرائد والمجلات لا تترجم بل تبقى بشكائها من اللغة الأصلية مثل : مجلة « جين أفريك » (مصر ٧٠) Jeune Afrique وصحيفة « نيويورك تايمز New York Times » (لبنان ٧١) إلخ . وإن الملاحظات المتعلقة بتعريف أو عدم تعريف أسماء الصحف الأجنبية تنطبق كذلك على أسماء وكالات الأنباء الأجنبية ، مثال ذلك : « وكالة تاس » (٤) (مصر ٧٠) TASS و« وكالة آجير بريس » (مصر ٧١) (٥) و« وكالة فرانس بريس » (مصر ٦٩) Agerpres

(١) معنى الكلمة في اللغة الروسية هي « الحقيقة » .

(٢) معنى الكلمة في اللغة الرومانية « الحرارة » .

(٣) نتج الشكل « اسكتيا » عن الطريقة التي اتبعها العربون في تعريب اسم يبتدئ بالساكن وذلك لاستحالة النطق بالمبدوء بالساكن في اللغة العربية .

(٤) وكالة الأنباء السوفيتية . (٥) وكالة الأنباء الرومانية .

(٦) لا نعني هنا الألفاظ المركبة في اللغة العربية بالطريقة المعروفة بالنعته .

(٧) والشكل (كيلواط) « اليمن ٧١ » .

كالحقوق والرياضيات والجيولوجيا والفلك
والجغرافيا إلا في حالات استثنائية، وذلك لأن
لهذه العلوم تقاليد عريقة عند العرب . هذا
من ناحية، ومن ناحية أخرى ففي هذه العلوم
لم تحدث ثورة تشبه الثورة التي جرت
في العلوم التكنيكية والتطبيقية

نيقولا دوبريشان

NICOLAE DOBRISAN

جامعة بوخارست Université de Bucarest

قسم اللغات الشرقية

Section de langues orientales Roumanie

مؤنث سالماً : كيلومترات : وكيلوغرامات»
وقد لفت أنظارنا مصطلحا من المصطلحات
الاجتماعية والسياسية وجدناه مؤخرا في
الصحف اللبنانية وهو «حكومة اكسترابارلمانية»
(لبنان ٧١) fr. extraparlamentaire .

ولأننا أخذنا في الاعتبار كثرة المصطلحات
التكنيكية والعلمية المعربة في العصر
الحديث ، وكثير منها تعتبر مصطلحات
ذات انتشار دولي ، لم نرد الخوض بهذه
العجالة في هذا الموضوع الواسع^(١) .
ولكننا نسجل فقط أنه في العصر
الحديث لم يتم تعريب مصطلحات في علوم

(١) انظر للتفاصيل شروح كتاب اللغة العربية كائن حتى « بلر جي زيدان » ، ص ١١٦ والصفحات التالية .

في القرآن والعربية:

الصراع بين القراء والنحاة

للدكتور أحمد علم الدين الجندى

مقدمة:

اندفع المسلمون كالسيل يدرسون القرآن ويحفظونه متفقهين متعبدين وكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، كما جاء في صفة أمة الرسول صلى الله عليه وسلم « أنا جيلهم ^(١) في صدورهم » لذا أحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات من القراء ^(٢) .

(١) النشر ١ - ٦ .

(٢) سموا بالقراء ، لأنهم يقرءون القرآن ويقرئونه ، وكان من سلوكهم في الصدر الأول أنهم يستعلون على المسال على حين تخضع ظهورهم وتنحني أصلابهم على أجزاء القرآن وسوره ، ويقضون ليلهم صلاة ، وصياما وبكاء .

وكان (القارئ) عبد الله بن عمر يجد القوة على أن يختم القرآن في ليلة (غاية النهاية في طبقات القراء ١ - ٤٣٩) ويفلق عابه يابه ويبكى حتى رمضت عيناه ، وشعاره « ابكوا ، فان لم تبكوا فبتباكوا ، فوالذي نفسي بيده لو يعلم العلم أحدكم اصرخ حتى ينقطع صوته ، وصلى حتى ينكسر صلبيه » . فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان وتغيرت منهم الألوان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة . . . فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبه من تحذيره (لطائف الإشارات) (فما بعدها القسطلاف) وقد لمس النبي (ص) في القراء سعة ثقافتهم وأمانتهم ، وإخلاصهم للدين فاتخذ منهم دعاة للفكر الإسلامي ، وقوادا للتحرير ، ومن أمثلة الاعاءة : : أبي بن كعب ، والمنذر بن عمر والأنصاري ، وكان (القراء) أعلم الناس بالعقيدة الجديدة ، والفكر الإسلامي الوليد . أما القواد من (القراء) فمنهم : مصعب بن عمير حامل لواء المهاجرين يوم بدر ، ولقد تأثر النبي (ص) يوم أحد لمصرعه ووقف يتلو « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » الأحزاب آية ٢٣ ومنهم معاذ بن جبل ، وسعد بن عبيد ، وعبادة بن الصامت ، ولقد بلغ من تكريم النبي (ص) لهم عند مصارعهم يوم أحد أن أمر بتقديم أكثرهم قرآنا (سيرة ابن هشام ٢ - ٩٨) ثم خاطبهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » (الإتقان ١ - ٣٥) . وعلى أطراف أسنة رماح القراء كان النصر يوم حنين ، كما استهات القراء في معارك الردة وكاتوا حملة اللواء فيها . ولما انكشف المسلمون قال واحد من =

النبي (ص) قال : لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليسمحه^(٣) « وذلك مبالغة منه في شدة الحفاظ على النص القرآني لذلك كان القرآن هو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات ، فلم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها مثنا وسندا ،^(٤) بل لم تعرف البشرية كتاباً أحيط بالعناية واكتنف بالرعاية فحفظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته وكيفية ترتيله بلهجاته . مع إتقان متناه في التلقى والتلقي ، ودقة بالغة في الأخذ والأداء مثل الكتاب العزيز^(٥) .

تجردوا له ، وبذلوا أنفسهم في سبيله وتلقوه من صاحب الرسالة حرفاً حرفاً ، لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفاً ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، فقد ثبت أن الرسول (ص) كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ علي : ففتحت سورة النساء فلما بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » رأيت عينيه تدرقان من الدمع فقال : حسبك الآن^(٦) ومن خلال هذا النص نلمح توثيق النص القرآني ، لأن النبي (ص) كان يستمع إلى قراءة أصحابه ، وهناك توثيق آخر ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن

== (القراء) بعد أن التقط الراية في ثوبة وغضب : ما هكذا كنا نعمل مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم حفر لنفسه حفرة في ساحة المعركة ومعه راحة المهاجرين وظل يضرب في صمود وبأس حتى استشهد ، أما بقية القراء فقد انسحبوا من بين بقية المسلمين وألقوا كتبيرو فدائية انتحارية وكان شعارها (يا أصحاب سورة البقرة) يقصدون القراء فصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وسحقوا الأعداء بسيوفهم المسللة ، ولولا (القراء) لكان العار والمصير الرهيب في انتظار المسلمين كما اشترك (القراء) أيضاً في الجيش العربي الإسلامي الذي فتح مصر ٢٠ هـ وكان سلوكهم الحربي : أن يقتلوا أو يقتلوا . انظر القرآن وعلومه في مصر . الدكتور عبد الله البري - في مواطن متفرقة من الكتاب .

(١) النساء ٤١ .

(٢) تاريخ القرآن للزنجاني ص ١٧ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤ هـ .

(٣) المصاحف للسجستاني ٤ ط أولى المطبعة الرحمانية بتحقيق أثر جفري .

(٤) في أصول النحو : سعيد الأفغاني ٢٥ ط الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية .

(٥) نظرة في النحو . طه الراوي ، مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ ، ١٠ ، سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٥١ م .

ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة^(١) وقراء التابعين - وهم جميعاً ممن يحتاج بكلامهم العادى بل قراءاتهم التي تحروا ضبطها - حجة في اللغة لا سيما لهجات العرب الذين أبيح لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة ، قال الإمام أبو محمد عبد الله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه (ص) أن يقرء كل قوم بلغتهم ، وماجرت عليه عاداتهم فالهزلي

يقرأ (عتي حين) يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ، والأسدى يقرأ - تعلمون - و (تعلم) (وتسود وجوه) و (ألم أعهد إليكم) والتميمي بهمز ، والقرشي لا يهمز ، والآخري يقول (وإذا قيل لهم) (وغيض الماء) بإشمام الضم الكسر ، و (بضاعتنا ردت إلينا) بإشمام الكسر مع الضم ، و (مالك لا تأمنا) بإشمام الضم مع الإدغام - وهذا ما لا يطوع به كل لسان^(١) .

(١) اشتهر من الصحابة : عثمان وعلى وأبي زيد بن ثابت وابن مسعود وحذيفة . ومن التابعين بالمدينة : ابن المسيب وعروة وعطاء . ومكة : عكرمة وابن أبي مليكة . وبالكوفة : علقمة والأسود ومسروق بن الربيع بن خيثم ووز بن حبيش . وبالبصرة : عامر بن عبد القيس وأبو العالية وقتادة . وبالشام : المفيرة الخزومي . ثم قلت هؤلاء طبقة أخرى . وكان بالمدينة : أبو جعفر يزيد بن القعقاع ثم شيبه بن فصاح ثم تافع بن أبي نعيم وإليه صارت قراءة أهل المدينة . وكان بمكة : عبد الله بن كثير ومحمد بن يحيى بن وناب وسليمان الأعمش ثم الكسائي . وكان بالبصرة : عبد الله بن أبي إسحق وعيسى بن عمر وأبو عمر بن العلاء وإليه صارت قراءة أهل البصرة ، وكان بالشام : عبد الله بن عامر . واشتهر بالآفاق الأئمة السبعة وهم : نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحزمة والكسائي وهؤلاء هم القراء السبعة الذين اختار قراءتهم ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) آخر من انتهت إليه الرياسة بمدينة السلام (إبراز المعاني ٣ ، ٥) . واقتصر حديثنا مفصلاً عن القراء وأفساهم وأساتذتهم وتلاميذهم في كتاب :

كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد . تحقيق د - شوقي ضيف دار المعارف بمصر .

* التيسير في القراءات السبع للداني تحقيق (أو توبرتزل) .

* إبراز المعاني من حرز الأمان لأبي شامة .

* نجد المقرئين ومرشد الطالبين ابن الجزري .

* لطائف الإشارات لفنون القراءات (شهاب الدين القطراني تحقيق - عبد الصبور شاهين والشيخ عامر

عثمان .

* النشر في القراءات العشر لابن الجزري .

* غاية النهايات في طبقات القراء لابن الجزري نشرة ج . برجستر امر .

* سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهى - لأبي القاسم القاسم .

* تحاف فضلاء البشر - الدمياطي .

* تاريخ القرآن - الزنجاني .

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة ١ - ٢٢٢ ط الخايجي ، النشر ١ - ٢٢ .

والقرآن المعجز وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيض في قراءاته^(١) أن يخرج على تلك اللغة النموذجية - تيسيرا على العرب ، وجمعا لكلمتهم ، وكما يسر الله على الناس في الدين حين أجاز^(٢) لهم على لسان رسوله الكريم (ص) أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضي الله عنهم في فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعتقهم وسائر أمورهم « يسر عليهم كذلك في قراءات القرآن حيث تقرأه كل قبيلة بلهجتها » قال ابن قتيبة « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئا وكهلا - لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه »^(٣) وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله (ص) قال : أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف^(٤) « وهذا الحديث مشهور في كتب القراءات والمصاحف والتفاسير كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة ، ولكنها مع ذلك متفقة في الفكرة^(٥) وهي أن الرسول (ص) أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة « فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يطاق^(٦) »

ويدل حديث رسول الله (ص) على أن هذا التيسير والتوسعة في قراءة القرآن

(١) الفرق بين القرآن وقراءاته أن القرآن « هو الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للبيان والإعجاز ، والقراءات هي :

اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كفيتهما من تخفيف وتثميل غيرها . البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٣١٨ - وانظر إتحاف فضلاء البشر ص ٥ ولطائف الإشارات ١ - ١٧١ ويقول ابن الجزري في منجد المقرئين ص ٣ (القراءات هي علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقله) . وأما المتمعن فهو العالم بالقراءات أداء ورواها مشافهة فلو حفظ التيسير مثلا فليس له أن يقرأ بما فيه إن لم يشافهه من شوفه به مسلسللا ، لأن في القراءات أشياء لا تحكم إلا بالسمع والمشافهة . منجد المقرئين ٣ . وانظر الفرق بين : المقرئ والقارئ والمنتهى وشروطهم وصفاتهم في : منجد المقرئين الباب الأول .

(٢) القرطبي لابن مطرف الكتاني ١ - ٢٢٣ ط أولى .

(٣) النشر ١ - ٢٣ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري ٩ - ١٩ لابن حجر ط البهية ١٣٤٨ هـ . وانظر النشر ١ - ١٩ لابن الجزري .

(٥) انظر جامع البيان في تفسير القرآن ١ - ١٠ ط أولى للطبري . (٦) الزور ١ - ٢٢ .

على هذه الحروف إنما كان بعد الهجرة ،
وبعد أن دخلت القبائل المختلفة الدين
الجديد فكان من التيسير عليهم قراءته
على هذه الحروف ، ومما يشهد على أن
التيسير كان في هذا الوقت أن جبريل
لقى النبي (ص) وهو عند أضواء بني غفار
فقال « إن الله يأمرك أن تقرء أممك
القرآن على حرف ^(١) »

أما أوجه الاختلاف بين القراءات
فقد بينها ابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ ، وهي
سبعة أوجه :

١- في الإعراب بما لا يزيل صورتها
في الخط ولا يغير معناها . نحو « هؤلاء
بناتي هن أطهر لكم » و « أطهر » و « هل
يجازى إلا الكفور » و « هل نجازى إلا
الكفور » ، « ويأمرون الناس بالبخل »
و « بالبخل » ، « فنظرة إلى ميسرة »
و « ميسرة » :

٢- الاختلاف في إعراب الكلمة
وحركات بنائها بما يغير معناها ولا يزيلها
عن صورتها نحو « ربنا باعد بين أسفارنا

و « ربنا باعد » و « إذتلقونه » و « تلقونه »
« وادكر بعد أمة » و « بعد أمة » .

٣- الاختلاف في حروف الكلمة دون
إعرابها بما يغير معناها ولا يزيل صورتها
نحو « وانظر إلى العظام كيف ننشزها »
و « ننشزها » حتى إذا فزع عن قلوبهم » و
« فرع » .

٤- أن يكون الاختلاف في الكلمة بما
يغير صورتها ومعناها نحو « وطلع منضود »
في موضع « وطلع » .

٥- أن يكون الاختلاف في الكلمة بما
يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها
نحو « إن كانت إلا صيحة واحدة »
و « زقية واحدة » و « كالعهن المنفوش »
و « كالصوف » .

٦- أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير
نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق »
« وجاءت سكرة الحق بالموت » .

٧- أن يكون الاختلاف بالزيادة
والنقصان نحو « وما عملت أيديهم »
و « عملته أيديهم » « فإن الله هو الغني
الحميد » « فإن الله الغني الحميد »
بنقصان « هو » « إن هذا أخى له تسع

(١) تفسير الطبري ١- ١٣ ط الأميرية فتح الباري ٩- ٢٣ .

كل وقطع بأنما كذلك أنزلت من عند الله ، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق وصواب .

٢- بيان حكم مجمع عليه كقراءة سعد بن أبي وقاص « وله أخ أو أخت من أم » فهذه القراءة تبين أن المراد بالأخوة هنا هم الأخوة للأم . وفي القراءة المشهورة « وله أخ أو أخت » .

٣- ومنها كذلك ترجيح حكم اختلاف فيه كقراءة « أو تحرير رقبة مؤمنة » بزيادة مؤمنة . وذلك في كفارة اليمين ففيها ترجيح لا شتراط الإيمان فيها كما ذهب إليه الشافعي ، ولم يشترطه أبو حنيفة .

٤- ومنها الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة « ولا تقربوا النساء حتى يطهرن » أو يطهرن . بالتشديد أو التخفيف فينبغي الجمع بينهما وهو أن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها ، وتطهر بالاغتسال .

وحكمة هذا النوع من الاختلاف أن تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لإفادة المعنيين جميعا . أما اختلاف القراءتين في اللفظ والمعنى مع تضاد المعنيين ، وتضارب الهدفين ، فلا أثر له في القرآن الكريم ومحال أن يكون فيه :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » .

اختلاف القراءات وتنوعها وحكمة ذلك :

١- التسهيل والتخفيف على الأمة كما قال الرسول (ص) لجبريل « إني أرسلت إلى أمة أمة فيهم الرجل والمرأة والغلام والجارية والشيخ الفاني الذي لم يقرأ كتابا قط . ولو كلف هؤلاء بلغة واحدة لشق عليهم ذلك ، فاقضى الدين أن تتنوع القراءات . وإلى ذلك أشار النبي (ص) حيث قال لأحد المختلفين « أحسنت » وفي الحديث الآخر « أصبت » ولثالث « هكذا أنزلت » فصوب قراءة

(١) آية ٨٢ من سورة النساء وانظر القرطبي بن مطرف ١ - ٢٢٣ : أو القراءات للشيخ القاسمي .

(٢) انظر النشر . لابن الجزري ١ - ٥١ فما بعدها ، وكتب التفسير ، والإتقان للسيوطي في قراءات القرآن .

د . عبد الحلیم النجار مجلة كلية الآداب ١٠ ج ١٠ .

٥- ومنها اختلاف حكمين شرعيين
 كقراءة « فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم »
 بالكسر أو الفتح ، فالخفض يقتضى
 فرض المسح ، والنصب يقتضى فرض
 الغسل وقد بين النبي (ص) ذلك فجعل
 المسح لمن يلبس الخف ، والغسل لغيره .
 ٦- ومنها ما فى ذلك من نهاية البلاغة
 وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار وجمال
 الإيجاز .

٧- ومنها ما فى ذلك من عظيم البرهان
 وواضح الدلالة إذ هو مع كثرة هذا
 الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إليه تضاد
 ولا تناقض بل كله يصدق بعضه بعضاً
 على نمط واحد وأسلوب واحد وما ذلك إلا
 آية بالغة ، وبرهان قاطع على صدق رسول
 الله صلى الله عليه وسلم .

٨- ومنها أنها تكشف عن فروق المعانى
 ويلمح دقائقها ورقائقها فى السياق القرآنى :
 ومن ذلك قراءة على عليه السلام ،
 وأبى رجاء وابن يعمر وثابت وغيرهم «
 قد شعفها حباً^(١) » بالعين المهملة ،

وقراءة الجماعة : بالغين المعجمة . فالأولى
 كما يرى ابن جنى^(٢) : أن حبه وصل إلى قلبها
 فكاد يحرقه لحدته . والثانية أنه فرق شغاف
 قلبها حتى وصل إليه . فالفرق كما ترى
 دقيق رقيق بينهما ، وإن كان المآل احد .

ولم يزل العلماء يستنبطون من كل
 حرف يقرأ به القارئ - معنى لا يوجد
 فى قراءة آخر ذلك المعنى . يقول شهاب
 الدين القسطلانى « فالقرائات حجة الفقهاء
 فى الاستنباط ، وسحبتهم فى الاهتداء
 إلى سواء الصراط^(٣) » .

وليست القراءة السبعية وحدها مصدراً
 من مصادر لهجات القبائل بل
 شاركتها القراءات العشرة وما فوقها
 والقراءات الشاذة كذلك يقول أبو حيان
 « والقراءات جاءت على لغة العرب
 قياسها^(٤) وشاذها » وذلك لأن لها سنداً
 من صحة الرواية وموافقتها وجهها من
 وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى
 على حق عندما وثق الشاذ واحتج له وأنه
 « نازع بالثقة إلى قرائه ، محفوف
 بالرواية من أمامه وورائه^(٥) » ثم حاول

(٢) المحتسب ١ - ٣٣٩ ط المجلس الأعلى .

(٤) البحر المحيط ٨ - ٤٩٣ .

(٥) المحتسب فى شواذ القراءات ١ - ٣ لابن جنى بخارط بمكة تيمور ٣٧٩ تفسير .

(١) سورة يوسف ٣٠

(٣) لطائف الإشارات : ١ - ١٧١ .

ابن جني مرة أخرى أن يقارن بين الشاذ وغيره بقوله « ولعله أو كثير منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه ، نعم وربما كان فيه ما تلتطف صنعته ، وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه^(١) قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ... إلى أن يقول « لكن غرضنا منه أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً ، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرائه آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه^(٢) » وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه ، وما القراءات الشاذة في نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل - ولكن هذه القبائل ، لم تنل نصيباً من المجد والعناء فحكموها بشذوذ قراءتهم التي هي صورة حية لللهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت - فهي أقوى من تراث

(١) تمده .

(٢) المجلس في شواذ القراءات ١ / ٣ لابن جني مخطوط مكتبة تيمور ٣٧٩ تفسير .

(٣) معاني القرآن للفراء ١ - ١٤٠

(٤) ذكر السجستاني المصاحف التي تملكها الصحابة وهي: مصحف عمر وعلى وأبي بن كعب وابن مسعود وابن عباس وابن الزبير وعبد الله بن عمر وعائشة وحفصة وأم سلمة « كتاب المصاحف ٥٠ - ٨٨ كما ذكر مصاحف التابعين وهي : مصحف عبيد بن عمير الليثي ، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والأسود بن يزيد النخعي ، وعلقمة بن قيس النخعي^١ ومحمد بن أبي موسى وحطان الرقاش ، وصالح بن كيسان وطلحة بن مصرف الأيامي وسليمان بن مهران الأعمش (المصاحف ٨٨ - ٩١ .

(٥) وكانت قبائل طي^٢ تقف على هاء التأنيث بالتاء وذلك يصور الاحتفاظ بالطور الأقدم لظاهرة التأنيث .

النشر والشعر على السواء ، لأن القراء كانوا يسجلون نزر الخلاف وقليله ؛ وهم في ذلك أضبط من رواة الشعر وغيرهم حين نقلوا إلينا إشارات لهجية وقع فيها التحريف تارة والتصحيح تارة أخرى ، يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى في الحجج من الشعر^(٣) » ، ولذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف في القراءات الشاذة والدفاع عنها .

وليست القراءات المختلفة وحدها في الميدان - وإنما تمدنا المصاحف القديمة^(٤) أيضاً بمدد لا ينقطع من سمات لهجات القبائل ، لأن اختلافها في الرسم والإملاء يوضح اتساع العربية إبان نزول الوحي من جهة ؛ وسن جهة أخرى يشير إلى تعدد لهجات القبائل .

١ - فحاول التاء^(٥) المفتوحة محل

المربوطة في (رحمت) في المواضع السبعة

بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم
والزخرف ، (ونعمت) في أحد عشر
موضعا من كتاب الله ، و « امرأت » في
سورة القصص والتحريم وآل عمران ،
(وقرت) بالقصص و (فطرت) بالروم ،
و (شجرت) في سورة الدخان و (لعنت)
بآل عمران والنور (وجنت نعيم) بالواقعة
و (بنت عمران) بالتحريم (ومعصيت
بالمجادلة و (كلمة ربك) بالأعراف^(١) .
يشير إلى أثر القرشية في الإملاء
القرآني .

٢ - ومن ذلك أيضا قراءة الحسن
« سَأُورِيكُمْ دَارَ^(٢) الْفَاسِقِينَ » بواو ساكنة
بعد الهمزة على ما يقتضيه رسم المصحف ،
قد نسب أبو حيان قراءة الاشباع
إلى قبائل الحجاز بل قال « وهي أيضا
في لغة أهل الأندلس كأنهم تلففوها من
لغة الحجاز ، وبقيت في لسانهم إلى الآن^(٣)
ولهذا الرسم الإملائي وجه ما ، إذ أنه
موضع وعيد وإغلاظ - فممكن الصوت
فيه .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على
حق في قوله « إن العربية يجب أن تبحث
أحوالها في ضوء القرآن أولا^(٤) » ،
إذ القرآن هو الحقل الخصيب الذي
ينطوى على تاريخ العربية وأصول منابعها
وحسب القرآن بعد هذا معجزة أن جمع
القبائل العربية الشتيتة على وحدة لغوية
بعد أن صهرت لغة القرآن كل ما كان
بينهم من خلافات^(٥) ، وهضمت خلاياه
النامية لهجاتهم المتنافرة حتى حولها إلى
عصارة نافعة غدت العربية وأمدتها بروافد
غنية - ثم بنى على هذه الوحدة اللغوية
وحدة سياسية قومية شادها على وطائد
كثير من : مبادئه السامية ومثله السمحة
وقد اشترأبت حينذاك وتناولت أعناق^(٥)
كل قبيلة تبيها وفخرا حين رأث أن
لهجتها ممثلة في كتاب العربية الخالد .

مبادئ وقضايا :

وقد استقرت عند المسلمين معالم
وضوابط يعتمد عليها في القراءة ومقاييس
وضعتها الأئمة ميزانا يرجع إليه ، ومعيارا

(١) الإتحاف ١٠٣ - المقنع للرائي ٧٧ فابعدها .

(٢) البحر ٤ - ٣٨٩ .

(٤) تاريخ اللغات السامية ٢٠٦ ط أول .

(٥) انظر مقالنا في حوليات كلية دار العلوم العدد الثاني ١٩٧١ م ص ١٨١ .

يعول إليه ، ليأمنوا الزلل والخطل ،
وقد جمعتهما من مصادر متعددة من علوم
القرآن ، شملت : تفسيره ومعانيه ،
وإعرابه وعزيبه ، ومشكله وقراءاته ،
ثم وضعتهما في تقسيم منهجي يأخذ بعضه
بحجز بعض .

وهي في جملتها قضايا على جانب كبير
من الأهمية لموضوعنا ، فهي بمثابة الجرح
والتعديل لفن القراءات ، وضحت شروط
القراءة الصحيحة والشاذة ، سبعة
وعشرية وما فوقها ؛ كما وضعت لودا
للقراءات الضعيفة والمتكورة وكشفت
المزيف والدخيل ؛ ثم أثار قضايا هي
لموضوعنا : لحمته وسداه كالفصاحة
وقياس العربية ، ورسم المصحف ، وما
استقر في مصاحف الصحابة والتابعين ،
ونظرية القراءة بالمعنى ، ومخالفة المصحف
الإمام ، ومكان كل من الأستاذ والرواية
والأثر في القراءة ، ثم استنباط الأحكام
الشرعية من القراءات وموقف النحاة
وأقيستهم ، وصلة ذلك بكل نوع من
أنواع القراءات .

أولا قراءة وافقت العربية ولوبوجه ،
ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولواحتمالا
وصح سندها . فهي القراءة الصحيحة
التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها ،
بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها
القرآن ووجب على الناس قبولها ، سواء
أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة
أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين .

ومتى اختل ركن من هذه الأركان
الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو
باطلة سواء أكانت عن السبعة أم عن
هو أكبر منهم . هذا هو الصحيح عند
أئمة التحقيق من السلف والخلف (١) .

* أئمة القراء لا تعمل في شيء من
حروف القرآن على الأفشي في اللغة والأقيس
في العربية ، بل على الأثبت في الأثر
والأصح في التقل ، والرواية إذا ثبتت
عنهم لم يردوا قياس عزبية ، ولا فشو
لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها
والمصير إليها (٢) .

ثانيا - القراءات سنة متبعة ونقل محض
فلا بد من إثباتها وصحتها ، ولا طريق

(١) النشر ١ - ٩ التجارية وانظر منجد المقرئين ١٥ . والكلمات الحسان ٤٧ .

(٢) انظر كتاب السبعة في القراءات ص ٥٠ لابن مجاهد ، وانظر منجد المقرئين ٦٥ - النشر ١ - ١٠

إلى ذلك إلا بالإسناد^(*) فلهذا توقفت عليه معرفة هذا العلم^(١) .

* ما وافق العربية والرسم ولم ينقل البتة فهذا رده أحق ، ومنعه أشد^(٢) .

* امتنعت القراءة بالقياس المطلق ، وهو الذى ليس له أصل فى القراءة يرجع إليه ولا ركن وثيق فى الأداء يعتمد عليه^(٣) .

* الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصحف والكتب^(٤) .

ثالثاً - لا نعلم أحداً من المسلمين حظّر القراءة بالثلاث الزائدة على السبع وهى قراءة يعقوب وخلف وأبى جعفر ، فالعشر متواترة^(٥) .

* كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به فى العربية سواء أكان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً ، بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه ، وإن لم يعجز القياس عليه^(٦) .

* من يزعم أن أئمة القراءة ينقلون حروف القرآن من غير تحقيق ولا بصيرة ولا توقيف فقد ظن ما هم منه مبرهنون ، وعنه منزهون^(٧) .

رابعاً - ما وافق العربية وصح سنده وأخالف الرسم فهذه القراءة تسمى اليوم شاذة لكونها شذت عن رسم المصحف

* علم الإسناد هو أعظم مدارات فن القراءات ، لأنها مسنة متبعة ونقل محصن فلا بد من إثباتها وصحتها ولا طريق إلى ذلك إلا بالإسناد وهو : خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة . وروى عن يحيى بن معين الإسناد العالى قربه إلى الله وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) وقيل له فى مرض موته : ما تشبهى ؟ فقال : بيتا خاليا وإسنادا عاليا : لطائف الإشارات ص ١٧٣ . وإذا كانت صحة السند من أركان القراءة تعيين أن يعرف حال رجال القراءات كما يعرف أحوال رجال الحديث . ولقد أوجدت المكتبة الإسلامية (لأول مرة) معاجم من نوع مختلف لضبط الأشخاص والرجال وتراجمهم وهو فن قائم بذاته يعرف به (الجرح والتعديل) لمعرفة الثقة والمزييف والدخيل والضعيف وبحث حال كل بحثا يتناول حياته : ذهنيا وسلوكيا ، هيئة وصلاحا ، عدالة وضبطا ليحددوا مكانه : قبولاً أو رفضاً . كما يحددوا النسبة بين الخبر ومصدره ، ومن السهل عليك أن تقرأ زاوية لقراءة من القراءات وأنت على مكتبك ناعم البال ، ولا تعرف المنهج الصارم والطريق الشاق والأساس التقديى النزيه فى سبيل هذا الإسناد .

(١) لطائف الاشارات لفنون القراءات ص ١٧٣ القسطلا فى .

(٢) ١ - ١٧ النشر .

(٣) ١ - ١٧ النشر وانظر التبيان لبعض المباحث

(٤) ١ - ٦ النشر .

المتعلقة بالقرآن ٨٩ ظاهر الجزائرى .

(٥) منجد المقرئين ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ . لطائف الإشارات ٧٥ .

(٦) ٢ - ٢١٤ النشر .

(٦) ص ١٥ الاقداح للسيوطى .

المجمع عليه . . . وإجماع المسلمين على أنه لا تجوز القراءة بالشاذ ، ولا يجوز أن يصلى خلف من يقرأ بها^(١) .

* القراءة الشاذة عن قراءة الحجة ، كفى بشذوذها عن قراءتهم دليلاً على بعدها من الصواب^(٥) .

* القراءة الشاذة هي ما وراء العشر ولا تجوز القراءة بها^(٢) مطلقاً وإن كان إسنادها صحيحاً ويجوز تعلمها وتدوينها وبيان وجهها من حيث اللغة والإعراب والمعنى ، واستنباط الأحكام الشرعية منها والاستدلال بها على وجه من وجوه العربية^(٣) .

* قال أبو حيان في البحر ٨٧/٤ حكى أبو عمر الزاهد في كتاب اليواقيت أن أبا العباس أحمد بن يحيى كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع . وقال : إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن . فإذا خرجت إلى كلام الناس فضلت الأقوى . قال أبو حيان : نعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالماً بالنحو واللغة ومتديناً ثقة^(٦) .

* ما وافق المعنى والرسم أو أحدهما من غير نقل لا تسمى شاذة بل مكذوبة ينكفر متعمداً^(٤) .

خامساً - ما قرئ به في السبعة لا يرد ولا يوصف بضعف ولا قلة .

(١) منجد المقرئين ص ١٦ ابن الجزرى ط الوطنية الاسلامية .

(٢) انظر التبيان ١١٩ .

(٣) وقد كان ابن شنيوذ (٣٢٨ هـ) يرى القراءة بالشاذ ، أى ما خالف الرسم . ما دامت الرواية صحيحة النقل ، فأمر الوزير بضربه سبع درر أو أكثر . . . وتوبه عن التلاوة بها غضباً ، وقيل إنه نفي من بغداد (طبقات القراء ٢ / ٥٤ فما بعدها) وكان يقرأ بقراءة ابن مسعود وأبي وأشهر من ألف في القراءات الشاذة : قطرب ٢٠٦ هـ ، وثعلب ٢٩١ هـ ، والجستاني ٣١٦ هـ ، وابن خالويه ٣٧٠ هـ ، وابن جنى ٣٩٢ هـ كما ترى هذه القراءات مشبوتة في كتب التفاسير كالكشف للزحشرى ، والبحر المحيط لأبي حيان ويمكن أن يحمل الشاذ على قلة من قرأ به في الأمصار بالقياس إلى القراءات السبع وهذا المعنى ما عناه ابن جنى في صدر كتابه (المحتسب) .

(٤) منجد المقرئين ١٧ لابن الجزرى ، وكان ابن مقسم المطارت ٢٥٤ يرى أن كل ما صح له وجه في العربية لحرف من حروف القرآن المدونة في المصحف العثماني تجوز قراءته بها في الصلاة وغيرها فكان يقرأ بما لم ينقل عن القراء مستخرجا لها وجوها من اللغة ، وهذا المذهب يؤدي إلى قراءات مكذوبة وعقد له مجلس ووقف للضرب فتشاب . طبقات القراء ٢ - ١٢٤ .

(٥) تفسير الطبرى ١١/١٩٨ تحقيق شاكر .

(٦) وانظر البحر ٢ - ٢٣١ ، ٢٦٥ ، ٥٠٦ ، ٣ - ٨٨ وانظر الاتقان ١ - ١٤٢ فما بعدها ط ٣ حجازى .

* وما جاء به المسلمون من القراءة مستفيضاً
فيهم ، فغير جائز الاعتراض بالشاذ من
القول - على ما قد ثبتت حجته بالنقل
المستفيض (١) .

* إذا اختلفت القراءات في الألفاظ
واتفقت في المعاني ، فأعجبها إلى ما كان
أظهر وأشهر (٢) .

* ما اجتمعت عليه القراءة حجة ، وما
انفرد به المنفرد عنها رأى . ولا يعترض
بالرأى على الحجة (٣) .

* يقول ابن خالويه (٤) وبعد : فإنني
تدبرت قراء الأئمة السبعة من أهل
الأمصار الخمسة (٥) المعروفين بصحة النقل ،
وإتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية
الرواية واللفظ ، فرأيت كلاً منهم قد
ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه
مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ،
وقصد من القياس وجهاً لا يمنح ، فوافق

باللفظ والحكاية ، طريق النقل والرواية
تغير موثراً للاختيار على واجب الآثار .
سادساً - أقوى القراءتين إعراباً ما عليه في
الجماعة (٦) .

* يقول ابن هشام لم يوجد في القرآن
العظيم حرف واحد إلا وله وجه صحيح
في العربية (٧) .

* الكتاب أعرب وأقوى في الحجة من
الشعر (٨)

* القراءة قد تأتي على القليل وعلى المرجوح
في الاستعمال العربي .

سابعاً - إذا ثبتت القراءة لهجة عربية
فلا ينبغي أن يخطأ بها القارئ أو يغلط (٩)
* القرآن يأتي باللغتين المختلفتين (١٠)
* توجيه تأويل القرآن إلى الأشهر من
اللغات - أولى من توجيهه إلى الأندر -
ما وجد إلى ذلك سبيلاً (١١) .

* القراءات جاءت على لغة العرب قياسها
وشاذها (١٢) .

- (١) تفسير الطبري ٢٦٤/٣ ، ٦٥/٦ تحقيق شاكر .
(٢) تفسير الطبري ٦ - ٤٤٢ .
(٣) المدينة ومكة والبصرة والكوفة والشام .
(٤) نقلاً عن المهدي في شرح الهداية وانظر (شرح شذور الذهب لابن هشام ٤٢ تحقيق محي الدين) .
(٥) مصطلح محمد يدون تاريخ .
(٦) البحر ١٥٢/١ النهر الماد ١٥٢/١
(٧) تفسير الطبري تحقيق شاكر ٤٣٧/٥
(٨) معاني القرآن للغراء ١٤/١
(٩) معاني القرآن للغراء ٧٤/٣
(١٠) البحر ٨ - ٤٩٢
(١١) تفسير الطبري تحقيق شاكر ٤٣٧/٥
(١٢) البحر ٨ - ٤٩٢

* النحاة حكموا النحو الذي وضعوه في

القرآن . قال الإمام محمد عبده^(٨) .

كان يجب أن يكون القرآن مبدأ

إصلاح في اللغة العربية .

القراءات لاتجيب^٩ على ما علمه البصريون

ونقلوه ، بل القراء من الكوفيين يكادون

يكونون مثل قراءة البصرة^(٩) .

* كم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ،

أو كثير منهم ولم يعتبر إنكارهم بل

أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف

على قبولها^(١٠) .

* لا يلزم من وجود وجه في اللغة وجود

قراءة به ؛ لأن القراءة توقيفية^(١١)

* القراءات تجري على الرواية والأثر

لا على مذهب القياس والنحو ،

وبيان ذلك :

* القرآن يختار له ولا يختار عليه^(١) .

ثامناً - فأما القرآن فيختار له أفصح

اللغات^(٢) .

* لغة القرآن أفصح اللغات^(٣) .

* لغة القرآن أفصح أساليب العربية على

الإطلاق^(٤) .

* قال ابن خالويه في شرح الفصيح « قد

أجمع الناس جميعاً أن اللغة إذا وردت في

القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن

لا خلاف في ذلك^(٥) .

* كتاب الله جل ثناؤه نزل بأفصح لغات

العرب ، وغير جوائز توجيه شيء منه إلى

الشاذ من لغاتها ، وله في الأفصح الأشهر

معنى مفهوم ووجه معروف^(٦) .

تاسعاً - ينبغي أن تصحح قواعد العربية

بالقراءة^(٧) لأن تصحح القراءة بقواعد العربية .

(٢) المحتسب ١ / ٤١ ، ٥٣ ط المجلس .

(٤) العربية يوهان فك ٤ ، ٥ .

(٦) تفسير الطبري ١٢ / ٣٢٢ .

(٨) تفسير المنار ٢ / ٢٣٦ .

(١٠) ١ / ١٠ النشر .

(١) المحتسب ١ / ٤١ ، ٥٣ ط المجلس .

(٣) سر صناعة الإعراب ١ / ٣١٨ .

(٥) الزهر ١ / ٢٥٧ ط الحلبي .

(٧) الإنتصاف بهامش الكشاف ٢ / ٤٢ .

(٩) البحر ٢ / ٣٦٢ .

(١١) أمالي ابن الحاجب ٧٣ / دار الكتب رقم ٢٦ مخطوطة .

مايتصل بالدرس النحوى :

(أ) في شواذ القرآن لابن خالويه ص ٤
« ولا تكونوا أول كافر به واشتروا^(١) »
أجازة الفراء في النعز . وهى فى المصحف
« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وما أجازة
الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به واحد
فى السبعة ولا فى العشرة ولا الأربعة الذين
بعد هؤلاء .

(ب) « فدعا ربه أن هؤلاء قوم^(٢) .
يقول الفراء : تفتح أن - ولو أضمرت
القول فكرتها لكان صوابا^(٣) . ولم يقرأ به
واحد من السبعة أو العشرة أو الأربعة
بعدها^(٤) .

(ج) « وقيل يارب^(٥) » خفضها
عاصم والسلمى ونصبها أهل المدينة
والحسن قال الفراء « ولو قال

قائل : وقيله - رفعا كان جائزا^(٦) » ولم
يقرأ بها واحد من السبعة أو العشرة
أو الأربعة بعدها^(٧) . وإنما جاءت فى قراءة
شاذة عن أبى قلابة وقتادة والحسن^(٨) .

(د) « وقل سلام فسوف تعلمون^(٩) »

« رفع سلام » بضمير عليكم وما
أشبهه ، ولو كان : وقل سلاما كان
صوابا . ولم يقرأ بما رآه الفراء أحد من
السبعة أو العشرة أو الأربعة بعدها فى
هذا الموضع^(١٠) .

فالقراءة جرت على الأثر والرواية ولم
تجر على ما يجيزه القياس ومذاهب العربية .

(هـ) « ولا تحلقوا رؤوسكم حتى^(١١) »

يبلى الهدى محله^(١١) « يقول أبو حيان : المحل
هنا المكان ولم يقرأ إلا بكسر الحاء فيما
علمنا ، ويجوز الفتح إذا كان يراد به المكان^(١٢) .

(١) البقرة ٤١ .

(٢) الدخان ٢٢ .

(٣) معانى القرآن للفراء ٣ / ٤٠ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٨ . وإنما قرأ بها عيسى بن عمر والحسن وابن أبى إسحق وهى قراءة شاذة .

(٥) الزخرف ٨٨ .

(٦) معانى القرآن للفراء ٣ / ٣٨ ، وانظر النشر ٢ / ٣٧٠ .

(٧) مختصر ابن خالويه ١٣٦ .

(٨) إتحاف فضلاء البشر ٣٨٧ .

(٩) النشر ج ٢ سورة الزخرف . الإتحاف

(١٠) الزخرف ٨٩ .

(١١) البقرة ١٩٦ . (١٢) البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

الزخرف - كتاب السبعة لا بن مجاهد ٥٨٩ .

ما يتصل بالدرس اللغوي :

أ (أ) « هذا لله بزعمهم »^(١) .

واللغة تحكيها مثلثة الزاي ثلاث لغات ، ولم يقرأ بكسر الزاي أحد نعلمه^(٢)

وأجود ذلك ما اختارته القراء الذين يؤثر عنهم القراءة^(٣) وهو الوجوه اللغوية خارجة عن الرواية لذالم يعترف بها أي قارئ. وإن كانت اللغة ترضاهما .
(ب) وفي قوله تعالى : « لمن أراد أن يتسم الرضاعة^(٤)

واللغة تحكيها بفتح الراء وكسرها ، والقراء أجمعوا على الفتح^(٥) .

عاشراً نص كثير من العلماء على أن الحروف التي وردت عن أبي وابن مسعود وغيرهما بما يخالف هذه المصاحف . منسوخة وإن كان يصح الاحتجاج بها في العربية ؛ لأنها مروية بالسند المتصل ، مع شدوذها لمخالفتها المصاحف العثمانية ، وأما من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود

كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال : « إني قد سمعت إلى القراءة فوجدتهم متقاربين » فاقروا كما علمتم نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً ، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرآنا فهم آمنون من الالتباس ، وربما كان بعضهم يكتبه معه لكن ابن مسعود رضى الله عنه كان يكره ذلك ويمنع منه فروى مسروق عنه أنه كان يكره التفسير في القرآن ، وروى غيره عنه : « جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس منه^(٦) ويؤخذ من هذا النص :

١- أن ما يخالف المصحف الإمام بالزيادة والنقصان - إنما هو من التفسير والبيان ولا يعتبر قرآنا كقراءة الحسن « وإن منكم إلا واردها - الورود الدخول » قال ابن الأنباري : قوله الورود الدخول « تفسير من الحسن لمعنى الورود ، وغلط فيه بعض الرواة فادخله

(٢) وإنما قرئ بالفتح والضم .

(٤) سورة البقرة ٢٣٣ .

(٦) النشر ٣٢ / ٢ وقارنه بما ورد في تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ١ / ٥١ .

(١) الأنعام ١٣٦ .

(٣) معاني القرآن للقراء ١ - ٣٥٦ .

(٥) معاني القرآن للقراء ١ / ١٤٩ .

في القرآن^(١) ومما يؤكد ذلك أن هذه الزيادات إنما هي من قبيل التفسير قراءة ابن عباس « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » .

وهو صلى الله تعالى عليه وسلم أب لهم بدون « وأزواجه أمهاتهم » ثم ذكر الشهاب الخفاجي أن « عمر رضى الله تعالى عنه مرّ بـغلام يقرأها فقال للغلام « حكّه من المصحف »^(٢) .

٢- أنه لا يجوز (قراءة القرآن بالمعنى) لأنها تكل تحديد النص القرآني إلى هوى كل إنسان .

ونظرية القراءة بالمعنى يراها المستشرقون من نولدكه إلى رجييس بلاشير حيث أقحم الأخير على النص القرآني بعض آيات إلى سورة النجم اعتمادا على

روايات لا سند لها رفضها النقد المنهجي سندا ومتنا مما يسمى عند علماء المسلمين بالجرح والتعديل ، وهو منهج معيارى صارم شامل في نقد الأسانيد والمتون^(٣) .

* قرأ على بن أبي طالب وهو على المنبر « وطلع منضور^(٤) » فقبل له : أفلا تغيّره في المصحف .

قال : ما ينبغي للقرآن أن يهاج أى (لا يغيّر)^(٥) .

الحادى عشر- القراءة نقل ، ما وافق منها ظاهر الخط^(٦) كان أقوى ، وليس اتباع الخط بمجرد واجبا ما لم يعضده نقل ، فإن وافق فيها ونعمت ذلك نور على نور^(٧) وذلك كما في سورة الحج

(١) الكواكب الدرية ٣٣ / ٣٤ للحداد ط ١٣٤٤ . وانظر أمثلة كثيرة في مصاحف الصحابة والتابعين في :

(ط ليدن ١٩٣٧ . Materials For The History of The Test of The Our'an)

(٢) تاريخ القرآن ١٦٠ د . عبد الصبور شاخين نقلا عن نسيم الرياض في شرح شفاء القاضى عياض ١-٣٠٣ ط أولى .

(٣) وانظر مزيداً من البيان والتفصيل عن هذا الموضوع في كتاب تاريخ القرآن ، د - عبد الصبور شاهين (٧٧-٩٧) .

(٤) الواقعة ٢٩ .

(٥) شواذ ابن خالويه ١٥١ .

(٦) وقد كتب برسم كان أدق ما وصل إليه في هذا العهد ويسمى الرسم المئاني نسبة إلى عثمان رضى الله عنه

وأصبح هذا الرسم الذى قدره عثمان باجماع الصحابة سنة لا تخالف ؛ خوفا من العبث فيه والتبديل . وقد سئل مالك : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا . إلا على الكتابة الأولى (لطائف الإشارات ١-٢٩٧)

(وقد فصل بعضهم بين كتابة ليكون أصلا يرجع إليه ، وبين كتابته للتعليم والرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها

الواية والرسم مصدره طريقة الكتابة والمسلمون ينطقون بالحرف كما روى لا كما رسم والعمدة في نقل القرآن على حفظ

الصدور لا على خط المصاحف والكتب وليس اتباع الخط وحده ملازما ما لم يؤيده نقل وأكثر رسم المصاحف موافق

لقواعد العربية إلا أنه قد خرجت أشياء عنها يجب علينا اتباع مرسومها والوقوف عند رسومها . ا . ه .

(٧) إبراز المعاني من حرز الأمانى لأبي شامة ٤٠٦ ط الحلبي رسم المصحف ٦٦ ، د - عهد الفتح شلبي .

فقال أبوه: دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال .

(ب) وأن عبد الله بن أحمد بن حنبل تقدم قوما يصلون بهم، « فقرأ: اقرأ باسم ربك الذي خلق » فقال له قائل أبوك ضرب بالسياط على أن يقول كلام الله مخلوق، وقد جعلت خالق الأشياء مخلوقاً^(٥)

(ج) كما قرأ آخر « وفرش مرفوعة » وآخر « وأخذ برأس أخيه يجره إليه »

وجميع هذه وجوه مصحفية وكلها عبث وضلال ولا تعتبر قرآنا مع أن رسم المصحف يحتملها .

على أن هناك قراءات في اللغة صحيحة ويحتملها الرسم، ولكن لم يقرأ . ومن ذلك :-

(أ) قوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »^(٦) فقد أجمع القراء على ضم الميم من مكث . مع أن اللغة تعجز فيها تثنية الميم ورسمها يحتمل الأوجه الثلاثة^(٧) .

(٢) سورة فاطر آ ٣٣

(٥) التنبيه على حدوث التصحيف . ٣ حمزة الأصمفاني

(٧) البحر ٦ / ٨٨

« آ ٢٣) يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . »

فقرأ عاصم ونافع بالنصب هنا وفي فاطر في قوله تعالى « يحلون فيها من

أساور من ذهب ولؤلؤ » والباقون بالجر فيهما . ورسم بالألف في الحج خاصة

دون فاطر ، فلو اتبعوا الخط لقرأوا ما في الحج بالألف ، وما في الملائكة

بالخفض ويقول أبو عبيد « لولا الكراهية لخلاف الناس لكان اتباع الخط أحب

إلى فيكون في هذا^(١) بالنصب والآخر^(٢) بالخفض وأبو عبيد لم يقرأ بهذا ،

وآثر النقل والرواية على الخط والرسم . * لا تأخذوا القرآن من مصحفى ولا العلم

من مصحفى^(٣) ، ولذلك عد من تحريف وتصحيف .

أهل البدع :

(أ) ما عزي إلى حمزة الزيات من أعدائه « ذلك الكتاب لا زيت

فيه^(٤) » ! وكان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ ذلك وأبوه يسمع

(١) سورة الحج .

(٣) التصحيف والتحريف - ٨ للعسكري ط ١٩٠٨

(٤) التصحيف والتحريف ٩ للعسكري .

من علماء القرن الرابع نسخة مخطوطة عن مصورة دار الكتب المصرية ٦٨١ هـ .

(٦) الإسراء ١٠٦

(ب) وفي قوله تعالى في سورة البقرة^(١) « وعلى أبصارهم غشاوة » وفي سورة الجاثية^(٢) « وجعل على بصره غشاوة » فرسم المصحف للكلمة بحذف الألف في المكانين ومع ذلك اتفق القراء بقراءتها بكسر الغين وفتح الشين وإثبات ألف بعدها في البقرة ، على حين اختلفوا في الجاثية فبعضهم يقرأ بكسر الغين مع الألف بعد الشين وبعضهم يفتح الغين وسكون الشين ، ولو قرئ موضع البقرة بفتح الغين وسكون الشين لصح لغة ومعنى ، ولكن لم يقرأ أحد بهذه القراءة في هذا الموضع .

فليس تجرد المصحف من الشكل سبباً في تنوع القراءات واختلافها وإلا لوجدنا القراءة تقرأ على ما تجيزه اللغة من الحركات ، وإنما مرد هذا التنوع

والاختلاف : الروايات الموثقة والأسانيد الثابتة الموصولة ، والنقل والتوقيف والتلقي والسماع لا الخط والرسم ، [لا سيما إذا عرفنا أن القراءات تليت ورويت قبل كتابة المصحف فهي أصل والرسم تابع لها ، وهذا يؤكد فساد مذهب بعض المستشرقين الذين يرون^(٣) أن الرسم أصل وإليه يرجع أكثر القراءات ؛ إذ كان غفلاً من النقط ومن الحركات . يلاحظ أن النحويين السابقين كانوا من المقرئين ، وكانوا بهذه الصفة (القراء النحاة) رقباء على أداء القراءات ومن ذلك أن أبا الأسود ٦٩ هـ وهو قارئ نحوي سمع رجلاً يقرأ : « إن الله برئ من المشركين ورسوله » بالجر . فاستعظم أبو الأسود وقال : عز وجه الله أن يبرأ من رسوله^(٤) ! فالمدريستان كانتا في اتجاه واحد يصعب الفصل بينهما ، وقد قامتتا بعمل واحد في إعراب النص

(١) آية ٥٧ . (٢) آية ٢٣ .

(٣) وانظر كتاب مذاهب التفسير الإسلامي د - النجار ص ٨ ، والمذاهب الإسلامية ٤ / د . على عبد القادر ، ورسم المصحف د - عبد الفتاح شلبي ، والقراءات للشيخ القاضي .

(٤) نزهة الألباء . ٨ - ٩ . يؤكد الصلة القوية بين النحاة الأول والقراء ما نراه في كتب طبقات النحاة من مثل قولهم (كان حسن الإقراء ونهاية في علم العربية) وقولهم (وكان إماماً في القراءات وعلماً . . . وأما النحو فكان فيه بحراً لا يجارى) . وقولهم (كان مقدماً في صنعة الإعراب ضابطاً للقراءات) . وقولهم (أقرأ القرآن والعربية) أنظر نزهة الألباء ، وبغية الوعاة في أماكن مختلفة . وهذا يؤكد وحدة مدرسة النحو والقراءة .

القرآني أيام أبي الأسود . ثم توجه
نفر من رجال هذه المدرسة إلى دراسة
النحو ليلائم بين القرآن والعربية فيتخذ
منهما مصدر تقعيد ، ومناطق إصلاح
وتصحيح . ومن ذلك أن أبا عمرو
بن العلاء سمع رجلاً ينشد :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره

ومن يغو لا يعلم على الغي لائماً

فقال : أقومك أم أتركك تتسكع

في طُمتك ؟ فقال : بل قومي . فقال :

قل : ومن يغو (بكسر الواو) ألا ترى

إلى قول الله عز وجل : (فغوى) .

كما كانوا معا يردون القراءات التي

لم ترد عن الرسول وإن كانت جائزة في

في العربية :

(أ) فالحجاج بن يوسف يقول

ليحيى بن يعمر ت ١٢٩ هـ :

أتجدني ألحن ؟ فقال :

الأمير أفصح من ذلك ، فقال :

عزمت عليك لتخبرني ! فقال

يحيى : نعم ! فقال له : في

أي شيء ؟ فقال في كتاب

الله تعالى ، فقال : ذلك

(١) التوبة ٢٤ .

(٢) أنظر البحر المحيط ٥ / ٢٢٠ .

أشنع ، ففي أي شيء من كتاب الله
تعالى ؟ قال ؛ قرأت : « : « قل إن
كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم
وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها
وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم^(١) .

فرفعت أحب . وهو منصوب . . فقال

الحجاج ليحيى : لا تساكني ببلد أنا

فيه ، ونفاه إلى خراسان^(٢) .

والرواية بالنصب ، والرفع مخالف:

لإجماع القراء ، وإن كان جائزاً في

في العربية^(٣) . ولم يستطع الحجاج

أن يحاج يحيى بن يعمر بما تعجزه

العربية ، على الرغم من بطشه ، وسلطانه .

(ب) وهذا أبو عمرو بن العلاء وقد

كان له مذهب خاص في النحو

ومع ذلك كان في القراءة

لا يتعدى ما نقله عن أئمة

وتلقاه عن شيوخه ، ولو خالف

مذهبه في العربية . فقد حدث

أبو عمرو قائلًا :

لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ

لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا

(٢) نزهة الألباب : ترجمة يحيى بن يعمر .

وكذا . فقد أدغم أبو عمرو وحده الراء
في اللام من (يغفر لكم) وما شاكله
في القرآن . وهو ضعيف عند البصريين^(١) .
ولا نستطيع أن نفسر ذلك إلا أن أبا
عمرو يلتزم في القراءة النقل والرواية
فقد خالف البصريين مع أنه بصري ! ،
وأخيرا اشتد الجدل بين القراء والنحاة
واندلعت نار العداوة والبغضاء ، وذلك
بعد أن انفصلت مدرسة القراءة عن
مدرسة النحو^(٢) ، فاتجه النحاة إلى
القراءات ليأخذوا منها ما يؤيد وجهة
نظرهم ، أو ليرفضوا منها ما يتخالف
مع أقيستهم ، فهم من هذا المنطق
يؤيدون أو يعارضون ،
أولا - من ذلك أن الأصمعي سأل المازني :
ما تقول في قول الله عز وجل « إنا كل

شيء خلقناه بقدر »^(٣) فقال المازني :
يذهب سيبويه إلى أن الرفع فيه أقوى
من النصب في العربية لاشتغال الفعل
بالضمير . وليس هناك شيء هو بالفعل
أولى ، ولكن أبي القراء إلا النصب^(٤) ،
والقراءة سنة متبعة .
ويقول ابن جنى في المحتسب^(٥) (الرفع
هنا أقوى من النصب) .
ثانيا - كما نرى عيسى بن عمر :
وكان عالما بالنحو وله اختيار في القراءة
على مذاهب العربية يفارق قراءة العامة
ويستنكره الناس^(٦) - يقرأ :
« هؤلاء بناني هن أطهر لكم » بنصب
أطهر^(٧) وفي المحتسب^(٨) يقول أبو الفتح :
ذكر : سيبويه هذه القراءة وضعفها

(١) الحجة لابن خالويه ٥٦ بيروت وانظر : إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه ١٢ وفيها يذكر أن سيبويه لا يميز الإدغام ، والفراء يميزه .
(٢) يقول السيوطي في البنية ٢ / ٤٨٢ تحقيق أبي الفضل في ترجمة ثابت بن محمد بن يوسف بن حيان الكلاعي « إنه لم يكن من أئمة النحويين ، بل كان من أئمة المقرئين » وانظر : ترجمة محمد بن عبد الله بن مالك صاحب الألفية ١ - ٤٨٢ في المرجع السابق .
(٣) ٤٩ من سورة القمر .
(٤) لم يقرأها بالرفع إلا أبو السمال : المحتسب ٢ / ٣٠٠ ، وله اختيار في القراءة ، شاذة عن العامة ، ولم يصحح ابن الجوزي سند قراءته . طبقات القراء ٢ / ٢٧
(٥) ٢ / ٣٠٠ ط المجلس الأعلى .
(٦) طبقات القراء ١ / ٦١٣
وكذلك كان يحيى اليزيدي ، فقد اشتهر بالنحو ، وله اختيار في القراءة ، خالف فيه أبا عمرو .
(٧) طبقات القراء ١ / ٦١٣
(٨) ١ / ٣٢٥ ط المجلس الأعلى .

وقال فيها « احتبى ابن مروان في لحنه »
وكان محمد بن مروان المدني القارىء
قد قرأ بها . ويقول ابن جنى « وأنا من
بعد أرى أن لهذه القراءة وجها صحيحا » .

ثالثا : كما يضعف سيبويه^(١) النصب
في قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئا .
أن يقول له كن فيكون »^(٢) مع أن
قراءة النصب قراءة ابن عامر ، وقراءة
الكسائي في بعض المواضع^(٣) . والقراءة
سبعية متواترة قرأ بها ابن عامر ، وإمام
الكوفيين الكسائي ويقول أبو حيان
(فالقول بأنها لحن من أفبح الخطأ
المؤثم الذى يجر قائله إلى الكفر^(٤)) .

وهذه لمحة من تعصب النحاة لفنهم
وقواعدهم لأنهم كثيرا ما يصححون
قراءة القرآن بما يوافق العربية وإن لم
تثبت الرواية ، وقد شدد علماء القراءات
النكير عليهم . ويظهر ذلك واضحا
أولا - في زمن متأخر عند أبي العباس
المبرد حين قال : لو كنت ممن يقرأ
لقرأت «ولكن البر» بفتح الباء يشير إلى

قراءة : « ليس البر أن تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن
بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب . . »
بكسر الباء فيهما . فالمبرد يرجح قراءة
الفتح ، « ومن أجل ذلك كان على
المبرد أن يتحمل سخط أهل السنة عليه
قرونا طويلة بعد وفاته ، إذ كانوا يرون
في القراءة المتلقاة بالقبول « ليس البر »
بكسر الباء تحقيقا للإعجاز البلاغى في
كلام الله^(٥) . وهو نفسه المبرد الذى
يقول (لو صليت خلف إمام يقرأ :
« ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى
إنى » بكسر الياء لأخذت نعلى ومضيت^(٦) »
فانظر كيف يقاوم المبرد قراءة سبعية
بخروجه عن جماعة المسلمين وإمامهم !
كما يتواصى النحاة على القدح فيها
والنيل منها ، وهى قراءة أحد القراء
السبعة وصحت سماعا وقياسا !

ثانيا : زمن متقدم - ومن ذلك أن ابن
أبي عمير^(٧) قرأ (اقتتلنا) وقرأ عبيد

(٢) يس ٨٢

(٤) البحر ١ / ٣٦٦

(٥) أنظر : مذاهب التفسير الإسلامى : اجنتس جولد تسهر ٤٦ تحقيق د - على عبد القادر . وانظر تحقيق

د - النجار ٦٦ فابدها . (٦) تفسير القرطبي ٥ - ٣ الاونظر درة الغواص ٩٥ للحريرى .

(٧) انظر : تفسير الكشاف ، والبحر المحيط في سورة الحجرات .

ابن عمير وزيد بن علي (اقتتلا) وذلك في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »^(١)

فقد عاد ضمير جمع المذكور على مثنى مؤنث ، والقواعد النحوية تقتضي أن يقال (اقتتلتا) أو يقال (اقتتلا) فقد روعى فيها معنى (طائفتان) إذا أريد بالطائفة : الفريق

والقراءة السبعية أصح في النقل وأثبت في الرواية والسند إذ ركيزتها التلقين والتوقيف ، والتلقى والمشافهة ، وقد جرت على أفصح الأساليب ، وتوجيهها أن الطائفة الواحدة تجمع أفراد كثيرة ، فالطائفتان في معنى الجماعة ، ولهذا أتى بواو الجمع في (اقتتلوا) باعتبار معنى (طائفتان) ، وإذا كان القرآن الكريم قد راعى المعنى فقد راعى هنا اللفظ أيضا حيث أتى بألف التثنية في قوله

عز وجل (فأصلحوا بينهما) والسر الخفي في مراعاة المعنى أولا واللفظ ثانيا أن الطائفتين في حال القتال تكون طائفة مختلطة بالأخرى بحيث لا يستطيع التمييز بينهما بخلاف حالهما في الصلح بحيث تكون كل طائفة متميزة عن الأخرى ، ولهذا جمع ضميرهما في حال القتال وثناه في حال الصلح بينهما^(٢) أما ما جاء عن ابن أبي عبيدة وعبيد بن عمرو وزيد بن علي فهمي قراءة شاذة لم ترد لافي السبعة ولا في غيرها من القراءات الصحيحة الموثقة وإنما وردت في مصاحف قديمة : لابن مسعود ، وأبي ومصحف عبيد بن عمرو^(٣) ، وابن أبي عبيدة ، له حروف في القراءات واختيار خالف فيه العامة وفي صحة إسنادها إليه^(٤) ، نظر فقراءته واهية ، كما أن القراءة الصحيحة المشهورة تقدم

(١) الحجرات ٩ .

(٢) انظر : القراءات في نظر المستشرقين : ١٩٧ للشيخ القاضي ، المذاهب الإسلامية ٤٦ جولد تسيهر ونقله إلى العربية د - علي عبد القادر .

(٣) انظر مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب ومصحف عبيد بن عمير في :
Materials For the History of the text of the Our'an, JEFRY, Brill, 1937.

(٤) طبقات القراء : ١ / ١٩ وتوفى ابن أبي عبيدة ١٥١ هـ أو ٥٢ أو ١٥٣ . وأخذ القراءة عن أم الدرداء الصغرى . وزيد بن علي ت ٣٥٨ هـ . طبقات القراء ١ / ٢٩٨ . وعبيد بن عمير بن قتادة المكي ت ٧٤ هـ . طبقات القراء ١ / ٤٩٦ .

المقياس المصحح للاستعمال العربي لا العكس^(١) .
والقواعد النحوية يجب أن تخضع
 للقراءة لا العكس . وأخيرا فإن للقرآن
طريقا في النحو ينبغي أن يقاس عليه ،
كما له لغته الخاصة به .

ولكن النحاة جعلوا من أنفسهم رقبا
على اللغة وأهلها ، ولقد كانت لهم في
هذا صولات وجولات معروفة في نقد
الشعر والنثر على السواء في العصرين
الجاهلي والإسلامي^(٢) ، وبمرور الأيام
قوى نفوذهم ، واشتدت وطأتهم ،
فأصبحوا المشرعين والمقنين في الحقل
اللغوي وحدهم ، لا يلوون على شيء
ولا يابسون ، فرفض بعضهم الاستشهاد
بالحديث النبوي ، لهجوا أن رواه
قد دخل عليهم اللحن كما لحنوا
العرب وغلطوهم في لغتهم ، حتى جائعوا
إلى قراءات القرآن الكريم فنالوا منها
ومن أصحابها وأخضعوها لقراءتهم ،
وقوانينهم ، لأنهم أصحاب معايير

ومقاييس ، واستطاعوا بسلاطنتهم وسطوتهم
أن يسيطروا على حقل الدراسات القرآنية
فضيقوا وحجروا وأولوا ، واجتروا
وتطاولوا على القراءات السبعية وما فوقها
ب- أجاز الفراء في النحو « ولاتكونوا
أول كافرين واشتروا »^(٣) وهي في
المصحف « ولاتشتروا بآياتي ثمنا قليلا »^(٤)
وما أجاز الفراء عند علماء النحو لم يقرأ به
واحد في السبعة ولا في العشرة ولا الأربعة
الذين بعد هؤلاء
ج- وأخيرا يأتى السيوطي ليؤكد موقف
المتقدمين من النحاة بقوله « وكان قوم من
النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة
وابن عامر قراءات بعيدة في العربية ،
وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون
في ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد
المتواترة الصحيحة التي لامطعن فيها ،
وثبت ذلك دليل على جوازه في العربية »^(٥)
والحق أن كثيرا من هؤلاء النحاة
قد تأثروا بمدارس علم الكلام ودعامتها :
القياس والعقل ، ومدرسة القراءة ركينتها
الرواية والنقل ، فالقراء أعدل ، لأنهم

(١) مذاهب التفسير الإسلامي ٦٨ جولد تسيهر .

(٢) شواذ القرآن لابن خالويه ٤ .

(٤) البقرة ٤١ .

(٢) الموشح للرزباني في مواطن متفرقة . ط السلفية .

(٥) اقتراح السيوطي ١٧ ط أول .

لا يعملون في شيء من حروف القرآن على
[الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية
بل على الأثبت في الأثر ، والأصح في
النقل ، والرواية إذا ثبتت عنهم لم
يردها قياس عربية ، ولا فشوغة ، لأن
القراءة سمة متبعة (١) . هذا :

ويجب أن نقرر (أولاً) أن موقف
النحاة من القراءات ورميهم كثيراً منها
باللحن والغلط ، والضرورة والشذوذ
والخطأ واتهامهم القراء بالوهم تارة ،
والغفلة وعدم الدراية تارة والغفلة وعدم
الدراية تارة أخرى ، وإخضاعهم
القراءات للمذاهب النحوية والأقيسة
العقلية ، هو الذي جرأ المستشرقين على
الطعن في كثير من القراءات والنيل منها
متسترين بلباس البحث العلمي حيناً
وبالحقد اللذين والسهام المسمومة أحياناً
وهم في هذا وذلك قد تنكبوا الطريق السوي
وضلوا وأضلوا في بعض ما كتبوا وما نقلوا .

وثانياً - أن هذه المعارك الحامية بين
الفريقين أمدتنا بشراء في النحو العربي

فتعددت مسائله ، واختلفت الآراء حول
كل جزئية منه : فتلاقت الآراء حيناً
واختلفت أحياناً ، كما رأينا من خلال
ذلك ألوانا من التأليف جديدة تعتبر من
أجل مصادر تراثنا المجيد ، وكلها تدور
في فلك القراءات والنحو - ناقدة
ومعملة ، ومحتجة ومفاضلة ، ومحصنة
ومستشهدا ، وهي في جميع هذا تكشف
عن آراء كل فريق والوجه الذي آثره
واختاره - نقلاً وعقلاً ، ورواية ، ودراية .
ومن هذه المؤلفات :

معاني القراءات لأبي زكريا الغراء
والسبعة في علل القراءات السبع لأبي
علي الحسن الفارس والمحتسب في تبين
وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها لأبي
الفتح عثمان بن جني والحجة في القراءات
السبع لابن خالويه ، والكشف عن وجوه
القراءات لمكي القيس ، وإعراب الشواذ
للعكبري .

أحمد علم الدين الجندی

(١) النشر ١ - ١٠

(٢) مع اعترافنا بأن نفراً منهم لهم في التراث العربي لا نذكر من حيث المنهج والتحقيق وعمق الدراسة .



للعماد الأصبهاني

الجزء الرابع

حقيقه وشرحه

الأستاذ محمد بهجة الأثرى



تعريف ونقد: الأستاذ محمد عبد الغني حسن

ولمصر قسم صدر من زمن غير بعيد ،
وللشام قسم بدأ صدوره في دمشق منذ
سنة ١٩٤٩ ، وللعراق قسم كبير صدر
منه الجزءان الأول والثاني منذ زمن ،
كما صدر أخيرا الجزء الرابع منه بمجلديه
الضخمين بتحقيق الأستاذ العلامة الكبير
محمد بهجة الأثرى ، أما ثالث الأجزاء
العراقية فلما يصدر بعد ، استكمالا للتحقيق
كما يصرح محققه الفاضل .

والذي صنعه العماد الأصبهاني في الخريدة
هو السدي صنعه من قبله الثعالبي في
«اليتيمة» وصنعه الباخريزي في «دمية»
القصر» والخطيري في «زينة الدهر»
ثم صنعه بعدهم الشهاب الخفاجي في
«الريحانة» والمحي في «نفحة الريحانة»
ولاتزال وزارات الثقافة في البلاد العربية

خريدة القصر
وجريدة العصر
للأديب الكاتب



السياسي المؤرخ «العماد الأصبهاني»
لوناظريفا من كتب الشعر والشعراء المؤلفة
وفق القرون ، والحاوية للشعر والشعراء
في عصر معين ، لاعلى مدار العصور
كما في كتاب « الشعر والشعراء »
لابن قتيبة . وهي بهذا اللون الطريف
والمذاق الجميل تقدم لنا نماذج الشعر
العسري في القرن السادس الهجري
وهي نماذج لاتخص قطرا عربيا معيننا
بذاته ، ولا تقتصر على بقعة عربية دون
بقعة ، بل تمتد لتشمل الوطن العربي
الفسيح كله ما بين مشرق ومغرب . وقد
نخص المؤلف كل أرض عربية بقسم من
«خريدته» فللمغرب والأندلس والشمال
الإفريقي قسم صدر منه جزءان في تونس؛

اليوم تحرص على إصدار مجموعات ومختارات من الشعر المعاصر مع تعريفات وجيزة بالشعراء المختار لهم لتكون مرآة للشعر الحديث .

ولن تسلم مجموعة ضخمة من الشعر في عصر واحد من أن يجتمع فيها الغث والسمين والجيد والردىء ، فليس من المعقول أن يجرى الشعر المختار كله على نسق واحد من السمو والارتفاع ، أو أن يكون كله موحد المستوى ، مستوى النفس ، بل لابد أن تصادفنا فيه القمم والسفوح والحب والزوان . وهذا الخلاف في المستوى وفي النفس وفي الأهداف والأغراض والمعاني هو دلالة أكيدة على اختلاف المواهب والمستويات عند الناس ، وهو يصور الحياة تصويرا صادقا ، واضحا فلا يعرض جميلا ولا يحجب قبيحا . وإنما يجمع بين الجمال والقبح كما تجمع الحياة عادة بين النقائص ، وتضم بين المتناقضات والأضداد .

ولن يكون العماد الأصبهاني أو غيره من مؤلفي المجاميع الشعرية لعصر من العصور أمناء على قضية الأدب والجمع

الشعري إذا قدموا بعضا من النماذج دون بعض : أو آثروا لونا من الشعر على لون أو أبرزوا غرضا من الأغراض دون غرض فإن الأمانة تقتضى أن يقدموا نماذج لكل ماصدر من الشعر عندهم . وقيل في عصرهم مهما كانت درجته ومهما كانت بضاعته ، لأن المفروض أنهم لا يقدمون نماذج رفيعة أو أمثلة جيادا فحسب ، ولكنهم يقدمون صورة كاملة للشعر العربي في عصرهم بما تحويه من سمو وهبوط ، ورفعة واتضاع .

ومن هنا كان حرص العماد الأصبهاني على أن يجمع في كتابه الضخم كل لون شعري ظهر في عصره ، وأن لا يحاول إبراز بعض الأغراض الشعرية على حساب البعض الآخر . وإن كان لم يمسك في يده مكيالا يكيل به ما اختاره من كل غرض ويوفق بين المكايل حتى لا يطغى اختيار على اختيار .

فالرجل كان جامعا ناقلا راويا مسجلا ، فلا يعنيه من الجمع المقدار والكم ، ولكن يعنيه الكيف ، حتى تكون أغراض الشعر في عصره ممثلة على أقرب الوجوه دقة ، وأصدقها تمثيلا .

ولا شك أن « العماد » قد وقع له من الشعر العربي في عصره شيء كثير ، بحكم طبيعته الأدبية الواضحة ، أو بحكم صلاته الاجتماعية الكثيرة التي هيأتها له نيابته عن الوزير ابن هبيرة في « واسط » وبحكم مركزه السياسي المرموق الذي جعل داره مهبط الأدباء من كل حذب ، وأخيراً بحكم ذلك الميل الخاص الغالب عليه نحو الشعر العربي ، وتعاطفه معه ، وعنايته به .

ولا شك أنه لم يكن في جمعه لذلك السيل الغامر من الشعر حاطباً ، ولا خابط ليل . لقد كان ينتقى ، ويؤثر قولاً على قول ، ويستبعد ما يراه أهلاً للاستبعاد . وقد يقرأ المجموعة من الشعر لشاعر معاصر تقع له بآى طريق من طرق الإعارة أو الإهداء أو الشراء ، فلا يخلص منها في النهاية له إلا عدد من الأبيات يؤثرها بالرواية ، ويخصها بالتسجيل .

ألم يحدثنا - وهو صادق - في خلال ترجمته الوجيزة للشريف أبي هاشم إسماعيل بن المؤمل الرشيدى الواسطى بأن أشعار هذا الشاعر التي نظمها جمعت

في مجلدة ضخمة تنيف على ستة آلاف بيت ، وأنه طالعها كلها فلم يعثر منها إلا هذه الأبيات :

مضى الود والأيام ما سمحت لنا
بشرب مدام أو بقرب نسديم

ونحن عطاش ، والموارد جمعة
يوطدها قوم لكل لئيم

على الراح والأقداح منى تحية
إلى أن أراها في بنان كريم !

والذى لا يصفو له إلا ثلاثة أبيات من ٦ آلاف بيت ليضعها في موسوعته الشعرية هو رجل لا يجمع حيناً اتفق ، ولكنه يتأنق في الجمع ، ويحسن في الاختيار .

على أنه قد تصادفنا في أشعار الخريدة أبيات ومقطعات في الإحماض والإفحاش في الهجاء كنا نرجو أو خلا منها الكتاب ، حتى لا يخذش حياة القارئ بمعان لا تحي خلقاً ، ولا تنشر فضلاً ، ولا تقيم فضيلة ، أبى هي ضرب من الفحش والمجون واللغو الآثم الذى قد يحرك غرائز الشر ، ويشير المضاحك ، ولكنه لا يعبر عن نبل أو حياة . وأى شرف في أن نلتقى في الخريدة برجل سليط اللسان ، فاحش القول ، لا يتورع

أن يهجو زوجته بأقبح هجاء ، ويهجو ولده
بأفحش قول ؟ وإذا كنا احتملنا هذا من
أمثال الحطيثة ، وجريير ، والفرزدق ،
والبعيث ، وابن حجاج ، وابن سكرة ،
أقبل القرن السادس الهجري ، فلماذا
نصاب به من جديد في هذا القرن الذي
يتميز بلقاء العرب والمسلمين ضد الصليبيين؟
ولماذا نجد في عصر الجهاد الإسلامي ضد
العرب المتعصب جماعة من الشعراء الذين
يبدون وكأنهم فرغوا من هموم الدنيا ،
ومشاغل الحياة . فيهللون حين ينبغي
أن يجد الجهد ، ويمزحون حين تدعوهم
الحياة إلى الرصانة والوقار ؟

الحق أن العماد لم يخرج عن مفاهيم
زمانه حين اضطر أن يروي في خريدته
شعرا هابطاً في الهجاء ، والمجون ، فهو
ناقل صورة يريد أن يكون أميناً على
أدائها . وقد كان الرجل معتدلاً في هذا
المجال ، فلم يسرف في عرض هذه الألوان
النايبة .

والحق أيضاً أن محقق الكتاب العلامة
الأستاذ محمد بهجة الأثرى - وهو رجل
فيه خلق ودين وحياء - قد ضاق بمثل
هذه النماذج الهابطة من شعر الهجاء في

الخريدة ، فلم يسكت عاينها ، ولم يقف
أمام إيرادها صامتا ، بل نراه حين
يطفح به الكيل ، ويسيل السيل يتفجر
كالبركان معاقماً على هذا الشعر بمثل
قوله : « وهذه القطعة من فسوة اللفظ
والمعنى والغرض في أخط منازل الكلام »
ص (٤٩١) . أو بمثل قوله في هامش
ص (٥٤٦) : « هذا البذاء امتداد لبذاء
جريير والفرزدق والأخطل ثم ابن
الرومي والمتنبي : وأضربهم مدن علموا
المروعة وضعف في نفوسهم وأزع الدين ،
و نوازع الطبع الشريف . فاستباحوا
فحش القول وأشاعوه في المجتمع
العربي الإسلامي . وقد كان يحسن
المؤلف ، وهو هو ، أن ينزد كتابه من
مثله ، ويقتصر على رواية النظيف من
هجاء الشاعر مجتزئاً بالاشارة إلى
بذائه الذي أفضى إلى اغتياله . . .) أو بمثل
قوله في هامش ص (٧٥٩) : « . . . وكان
اللائق بالمؤلف تنزيه كتابه من هذه
الأقذار) فأنت ترى أن المحقق الفاضل
هنا ساخط على اختيار هذه الأهاجي
المباحشة ، ضائق بها صدره . ويخيل إلى
أنه لو لم يكن المجال مجال تحقيق نص
قائم موجود ، لأبعد المحقق هذه النماذج

ونفهاها من السكتاب كمله ، ولسكنه
وفقا لأمانة العلم ، وتوفية الأداء ،
لا يملك هذا ، ولم يملك إلا أن ينفس
عن صدره بمثل هذه التعليقات ، ولعل
ذلك أضعف الإيمان !!

والحق أن هذا الإحماض ورواية المقذع
المفحش قد وقع فيه نفر من المصنفين
العرب والمسلمين ممن كان لا ينتظر
وقوعه منهم ، كالراغب الأصفهاني
في محاضراته ، والغزولي في مطالع بدوره ،
بل وقع فيه صاحب عيون الأخبار أحيانا ،
ووقع فيه النووي في نهاية الأرب ،
ووقع فيه صاحب كتاب « قطب
السرور » الذي صدر عن مجمع اللغة
العربية بدمشق من زمن غير بعيد .

على أنه لا بأس برواية النادر من
الهجاء إذا لم يكن فيه إقذاع ولا فحش
ولا بذاء . ولعل من ذلك ما رواه العماد
عن الشاعر « الصارم مرجى البطاحي »
حين هجا ثلاثة من الكبراء في وقته قائلا :
قوم إذا قام قوم للعلا قعدوا
وإن تشبه قوم للعلا ناموا !

ويظهر أن هذا اللون من الهجاء القاتل
غير البذئ ولا الماجن قد راق لدى العماد ،
فعقب عليه قائلا : « هذا البيت الأخير
نادر في الهجاء ، يعجز عنه فصحاء
البلغاء » .

وقد كان العماد يستعيد المعاني النادرة
الجيدة حتى في الهجاء ، ويعلق عليها
بما يكشف عن قيمتها . فقد علق على
أبيات هجاء قالها « الصارم مرجى »
في هجو شقيق له بقوله : (والمعنى في غاية
الحسن لم يسبق إليه)

ولا بأس هنا من إيراد هذه الأبيات
ما دامت لا تخل بمبدأ الشرف والعفة ،
وصيانة اللسان ، وإن كانت تخل بالمروءة
وحقوق الرحم حين يهجو أخ أخاه :

أى حرام من الحلال أخى ؟
كأنه الخمر إبنة^(١) العنب

ةاتلك الله يا أخى ، فلقد
فضحتنا في قبائل العرب

كأننا الغر من قريش سموا
وأنت ما بيننا أبو لهب !

(١) اضطر الشاعر إلى قطع همزة الوصل في كلمة : ابنة .

ولم تخل أغراض الشعر التي رواها
العماد الأصبهاني لشعراء عصره من المدح
والفخر ، والعتب ، والتهانى وهى أغراض
لم تنزل موجودة فى كل عصر ، وإن
كان آن للشعر العربى أن يتحلل منها اليوم
فى عصر يتطلع إلى التطور والتجديد .
ولقد كانت المدائح المروية يُقصد بها
الخلفاء ، والأمراء ، وعمال الولايات ،
والوزراء ، والقادة . وهى بالطبع مما يغلب
عليه المدح لغرض فى النفس ، أو لمنفعة
ذاتية . وقليل منها المدح الصادق الذى
كان نادرا فى ذلك الزمان .

على أن الشعراء الذين وفدوا على
العماد الأصبهانى وخصوه بمدائحهم التى
نشر بعضها منها فى كتابه ، لم يمدحوه -
ولا نسيء الظن - إلا قاصدين أن يهدى
إليهم صنيعاً من جاهه ، تغنى عن
صنيعه من ماله ، فلم يكن الرجل ذا مال ،
ولا صاحب ضياع ، ولا رب ثراء ،
ولكنه كان نائبا للوزير ابن هبيرة
فى واسط ، وكانت هذه النيابة عن
الوزارة تتيح له أن يكون مرجوا . ومن هنا
تسابق الشعراء إلى بابه ، وقصدوه
بالمدائح وأبيات الثناء .

وإذا كانت « الخريدة » قد اشتملت
على هجاء ، استكمالا لصورة الشعر العربى
فى العراق فى القرن السادس الهجرى ،
فإنها قد اشتملت على طائفة من شعر
الألغاز الذى يبدو أنه كان بدعة فاشية
فى ذلك العصر . وحين يظهر لون من
الأدب ، ويشغل به الناس ، ويعطونه
من اهتمامهم فوق ما يستحق ، فإنه لا يلبث
أن يشيع ، ويندفع ، ويقبل عليه الناس
إقبالا شديدا حتى يكادوا أن يستهلكوه .
ومن هنا شاعت الألغاز بين شعراء ذلك
العصر ، يصنعونها شعرا - أو إن شئت
الدقة فقل نظماً - ويقدمونها إلى أصدقائهم
ومعارفهم ، وينتظرون حلها والإجابة عنها
نظماً كذلك . وكثيرا ما كان يفتن الشاعر
فى عمل اللغز الشعرى ، والتعمية به ،
والخفاء فيه ، حتى يضطر المجيب إلى كد
الذهن وإعمال الفكر . ولعل مثالا واحدا
من هذه الألغاز الشعرية يغنيننا عن الإطالة
فى لون من الشعر لا جمال فيه ولا خيال .
فقد كتب الشاعر ابن أبى الصقر الشافعى
لغزا فى « الدينار » يقول فيه ،
وأى شيء طسبـوله عرضه .
أضحى لسهه عندك مقدار ؟

دل عليه حسن طبعه
ففيه للعالم أوطار
تمسكه الكف ، ولا تشتكى

منه احتراقا ، وبه نار
وكان للشاعر ابن أخت بعت باللغز
إلى الأمير أبي الغيث البصرى ، فقال فى
جوابه :

يا من أتانا ماغزا فكـره
للغـز يستغنى ويمتـار
ألغزت فى « الدينار » فامتر به
إن كنت من للعلم يمتـار

ويكفى أن نشير هنا إلى أن هذه الأغاز
كانت فى أشياء مادية ومعنوية مما تشتمل
عليه الحياة ، ويقع عليه البصر أو الظن ،
مما لا يدخل تحت حصر . وقد اهتم الناس
بها فى ذلك العصر ، حتى لقد جمع فيها
أبو المعالى الخطيرى الكتبى كتاباً أسماه
(كتاب الإعجاز ، فى الأحاجى والأغاز)
طالعه العماد الأصبهاني واختار بعضاً من
أغازه .

والإخوانيات كثيرة فى أشعار الخريدة ،
وهى ضرب من أغراض الشعر شاع وكثر
حين كثرت الجماعات ، وازداد الاتصال

والترابط بين الناس ، وهى وإن كانت
لا تدخل فى الأغراض السامية الرفيعة
للشعر ، فهى تعبير صادق عن علاقات
بين الشعراء ، يصور لنا كثيراً من أخلاقهم
وسلوك حياتهم .

ولم تسلم أغراض الشعر فى الخريدة
من شعر الشكوى . وهو غرض يعبر
عن مواجع الشعراء من بعض الظروف
المحيطة بهم ، وغير الملائمة لهم ، كالشكوى
من الزمان ، ومضايقات الأيام ، والشكوى
من سوء الحظ ، ونكد الطالع ، والشكوى
من حاكم ظالم ، أو بلد غير طيب ، أو
صديق جائر ، أو جو غير مناسب ، أو علة
طارئة ، أو عشرة منجسة ! ولعل من أطرف
الشكاوى الشعرية ما نظمه الشاعر « أبو
الحسن الهيتى » فى الشكاة من بلدة « هيت »
بالعراق وأهلها وذمهم . ولا بأس من
إيراد بعض أبياتها حيث يقول :

منازل « هيت » لا يوافقها العدل
إذا عدل السلطان جار بها الأهل
وما هى إلا بلدة جاهلية

أمرت على مر الزمان فما تحلوا !
تجمع أهلها على الخلف والجفا
وبينهما أخذ الحرائب والقنصل

قلوبهم من جنس..... بدل وصفائح
نُخَلِّقن وما في العالمين لهم شكل
وَأَيَّمَنَّهُمْ غَمٌّ..... دِرْ إِذَا حَلَفُوا بِهَا
وَقَوْلُهُمْ نَكَرٌ ، وَمَوْعِدُهُمْ مَطْل

وإن عوتبوا فالعتب فيهم مضيع
رِإِنْ عَدَلُوا يَوْمًا فَمَا يَنْفَعُ الْعَدْل

أَرَى شَيْمَتِي تَأْتِي بِ..... لَادِي وَأَهْلَهَا
فِيَا لَيْتَ أَنَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَصِلْ !
وَأَقْسَمُ لَوْلَا بِنْتُ عَمِّ شَفِيقَةَ.....
إِذَا غَبْتُ عَنْهَا نَالَهَا مِنْهُمْ ثَقُلْ

لَأَعِدْتُ أَسْفَارِي ، وَفَارَقْتُ مَنْزِلِي
أَلَوْلَمْ يَثْنِي كَرَمُ بَارِضِي وَلَا نَخْلٌ ..

أما الشكوى من الكبر والاضطرار إلى
استعمال العصا ، فقد عبر عنها شاعر من
شعراء الخريفة بقوله :

أَسْوَقُ نَفْسِي بَعْصًا فِي يَسْتَدِي
تُبْصِرُ قَدَّامِي وَلَا خَائِفَتِي

يا رب ! حتى الشيخ في سوقه
مخالف للعادة والعصا ^(١) !

هذا اللفظ هذه الإشارة إلى مخالفة
الشيخ لمألوف العادات ، حتى سوق العصا !!

(١) هكذا ورد : وصوابه : مخالف العادة والعرف بالإضافة لا بال التعريفية .

وتُصَوِّرُ لَنَا شَكْوَى الشَّاعِرِ مِنْ « ابْنِ
يَعِيشِ » صَاحِبِ الدِّيْوَانِ صَوْرَةً مِنَ الظُّلْمِ
الإداري في المجتمع العراقي . وهو نوع من
الظلم كان سائدا في ذلك الزمان .

ولن ندع شعر الشكوى يمر دون الإشارة
إلى الأبيات الفكهة التي نظمها العماد
الأصبهاني نفسه في الشكاة من البق والبرغوث!
وقد نظمها ارتجالا حين بات ليلة « بنهر
دقلى » وهو في طريقه إلى بلدة عسكر مكرم
فقال :

يَا لِحَا اللَّهِ لَيْلِيَّةً قَرِصَتِي
فِي دِيَا جِيرَهَا الْبِرَاغِيثُ قَرِصًا !

شَرِبْتُ بِقَهْسِنَا دِي فَتَغْنَسَتِ
وِبِرَاغِيثِهِ سَمْنَا تَوَاجِدُنْ رَقِصًا !

قَسِدُ تَعْرِيتُ مِنْ ثِيَابِي لِسَكْرِي
غَيْرَ أَنِّي لِبَسْتِ مِنْهُنْ قُمْصَا

كلما ازددتُ منعهن بحسب.....
عن فراشي شرهن فازددن حرصاً

من براغيث خلتها سناً طافرات
طائرات جناحها..... قد حُصَا

عَرَضَتْ جَيْشَهَا الْفَرِيقَةَ.....ان حولي
وهي أوفى من أن تعمد وتحم

لو غزا «سنجر» بها الغز يوماً
لم يدع منهمو على الأرض شخصاً!

وكان العماد يظن أن المعنى هنا لم يسبق
إليه ، ولم يقله قائل ، إلى أن أنشده
صديقه القاضي عبد المنعم بن مقبل الواسطي
بيتين للشاعر العدل أبي علي بن بيختيار
الواسطي في المعنى نفسه ، وهو غناء البق
لرقص البراغيث ، كما في البيت الثاني ،
فاعترف له بالسبق !

وتصادفنا في أشعار الخريدة بعض النماذج
القليلة من شعر الحنين إلى الوطن ، وما
أجمل لو كان العماد أطال فيه ، فهو لون
من الشعر الصادق النفسى المعبر عن
واجد المرء الحقيقية ، وليس مجرد
نظم أو رصف كلام . ومن نماذجه هنا
ما قاله الشاعر أبو الفرج الواسطي :

كم إذا الوقوف بنا على الإبل
أورد قلوبى ما أذى الأثل

واعدل إلى ذات اليمين بنسباً
واحطط بربيع بريكة رحلى

مغنى عفت آيات ملعبه
ومجت معالمه يسند المحل

أودعت قلبي في ربائبه
وعقلت في عرصاته عقلي

وبكيت حين رأيت ما صنعت
أيدي النوى بالربع والشمس
أكبرته فوطئت تربته
بحشاي ، لا بمناسم الإبل
وظفقت أنشد فيه حين خلت
منهم بما يغرى ولا يسلى

لا ابيض لي في الدهر بعدهم
يوم ، وهل دار بلا أهل ؟

ولعل أكثر أغراض الشعر اختياراً
وجمعاً في الخريدة هي أغراض الغزل
والنسيب ، والآداب والأخلاق ، والوصف
واختيار العماد الأصهباني للشعر الأخلاقي
الرفيع يعكس لنا صورة من أخلاقه .
فقد كان الرجل كريماً ، متواضعاً ،
ذا مروءة ونجدة . وطالما تمنى أن يحل
مشكلات الشاكين ويحجب مطالبهم قبل
أن يحلها الوزير ابن هبيرة الذي كان
نائباً له . وله في هذا الموقف المحمودة :

ومنها ما رواه عن الشاعر المعلم أبي الأزهر
الضحاك :

ما أنعم الله على عبده
بنعمة أوفى من العافية

وكل من عوفى في جسمه
فأنه في عيشة راضيه

والمال حلو حسن جيد
على الفتى لكنه عاربه

وأسعدُ العالم بالمال من
أداه للآخرة الباقيسيه

ما أحسن الدنيا ! ولكنها
مع حسنها غادرة فانيه ...

ومن مرويات العماد الأصبهاني في شعر
عزة النفس ، وعدم الرضا بدون ، ما
رواه عن الرئيس أبي سعيد بن واثق
الأنباري حيث أنشده لنفسه :

أظما ، وغدران الموارد جمّة
حولى وأسغب والمطاعم دوني
وأعاف أدوان الرجال ، فإنه

لا يرتضى بالدون غير الدون

لا الفقير يخفض من تسامى ناظري
فيغص منه ، ولا الغنى يطغيني

فحين وفد الشاعر «ابن الشريف الجليل»
على الوزير ابن هبيرة شاكيا ومتظلما ،
وأسمعه قصيدة فيها البيتان الآتيان :

أجرنى على الدهر فيما بقي

بقيت فما قد مضى قد مضى

فلاست أبالي بسخط الزمان

وأنت ترانى بعين الرضا
اهتز لها كما اهتز الوزير ابن هبيرة ،
وود لو أنه له مكنة ، أو أنه يستطيع
إجازته أو إجارته .

ومن مختاراته الأخلاقية الزهدية
ما أنشده عن أبي تراب العكبرى « من
قوله :

حالى بحمد الله حالٍ جيده
لكنه من كل حظ عاطل

ما قلت للأيام قول معاتب
فالرزق يدفع راحتي ويماطل

إلا وقالت لي مقالة واعظ :

الرزق مقسوم ، وحرصك باطل
ونماذجه في شعر القناعة والزهد ، والرضا
غير قليلة ، وهي تعاس أيضا جملة أخلاقه ،

وكذلك مارواه من شعر في الاستغناء
عن المخلوق بالخالق من شعر ابن أبي
الصقر :

كل رزق ترجوه من مرزوق
يعتريه ضربٌ من التعويق
وأنا قائل - وأستغفر الله

مفسال المجاز لا التحقيق
لست أرضى من فعل إبليس شيئاً
بغير ترك السجود للمخلوق !

أما ما رواه من شعر في صلة ذوى القربى
والرفق بهم والإحسان إليهم مهما أساءوا
والعفو عنهم إذا أخطأوا فغير قليل القدر ،
ومنه ما قاله ناصر الدولة بن حماد في ابن
خال له :

أخى : وابن خالى ! ما الذى كان بيننا
من الأمر حتى صرت تنفر من قربى ؟
ولو أنى يانصر رامت جوانحى
إساءة فعل فيك حاربها قلبى

ويدخل في شعر القرابة والرحم الذى
احتوته الخريدة ما دار بين الفقيهه
الشاعرة أم على الرشيدة ، وبين ولدهما
الإديب على العبدى ، وقد كان غائباً في

بعض أسفاره فكتب إلى أمه قصيدة يبثها
أشواقه يقول منها :

سيان إن عذروا فيكم وإن عدلوا
لأننى عن هواكم لست أنتقل
لا أكذب الله مالى - غير حبكم
والاستزادة من وجد بكم - شغل

وليس فى الناس لى - لو كان ينفعكم
أن تعلموا ذاك منى - غيركم أمل
أشتاقكم وبودى لو يواصلنى
خيالكم ، لو بنوم كنت أكتحل

وقد صحبت أناسا ، واشترطت لكم
قلبي ، ويصحبهم جسمى وقد قبلوا
وربما قلت للواشى إلى بكم
هم الأجابة إن جاروا وإن عدلوا

صلاوا وصدوا ، وجوروا ، واعدلوا ، وقفوا
عما أحب ، فعندى بعد محتمل
مهما فعلتم فمحمولٌ ومغتفر
وما أمرتم فمسموع ، وممثل
وقد ردت عليه أمه بقصيدة تقول
فيها :

لولا الأمانى والتسويف والأمل
ما كان يكنفنى سهل ولا جبل

إلى الحريري صاحب المقامات ، وفيه يقول :

يأبها الرائح تنحو به
هو جاء تنقض انقضاض العقاب^(١)
لم يرأم الفحسـل أمها في الفلا
ولا عراضا لقحت في الضراب
ولا رعت حمضا ، ولا خلد...
يوما ، ولم تجتر بهمى العذاب
ولا اعتقى الحسالب أغبارها
ولا رأت سقبا لهسا في السقاب
لا تشتكى الأين إذا ما اشتكت
من الوجى الوجناء ذات الهباب
دهماء لم تلمس لهسا أشطرا
كلبية ، قد عصبتها اعتصـبـاب
تنساب والتيسار ذو حومة
أ مثل الحباب الصل ، فوق الحباب
طالت على العود بأعوادهـنـا
والناب ، لكن ما لها قط. نـسـاب

وكلما اشتد بى نـسـابـار تعذبني

فليس إلا دموع العين تنهمن
وقد تعللت أسباباً لرويتكم
فكيف بى وبكم إن فاتت العال ؟
أهدى بكم حسب ما أحيا ، فإن حضرت
منى الوفاة وأوفى دونى الأجل
ناديت : لا تأخذوا ثأرى بهم هبة
هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا !
ولو أخذنا نعرض شعر الحكم والأخلاق
والآداب فى الخريدة لطل بنا المجال فى
معرض لا يحتمل الإطالة ، ولكننا ننتقل
إلى غرض آخر من الشعر ، وهو الوصف ،
وقد وقع للعماد منه نماذج جيدة ، ولعل
من أجودها وصف السفينة للشاعر الأمير
نجم الدولة بن أبى الجبر واسمه أحمد
ابن أبى الفتوح ، وهذا الوصف هو بضعة
من قصيدة طويلة بعث بها الشاعر الأمير

(١) أى أن هذه السفينة كالناقة السريعة ، ولكنها ليست حيوانا ، ولا رعت النبات الحامض ولا الخلو ولا نبات
السهول ، ولا تشكو تعباً إذا ما شكت الناقة النشيطة ، وهى سوداء اللون ، تنساب فوق الماء انسياب الحيات فوق الرمال ،
وقد استطالت على النوق المسنة ، ولكن ليس لها ناب كالأيل التى شبهها بها .

والقصيدة كلها مملوءة بالألفاظ الغريبة
ولعله راعى مقتضى المقام بأنه أرسل بها ،
وخص بنظمها الحريري المشهور باللغة
ووفرة الحصيلة اللغوية التي تدل عليها
المقامات .

ويبدو أن الأمير الشاعر نجم الدولة
هذا كان مغرماً بالشعر الوصفي ، فقد
بعث إلى صديق له هدية من الأقلام ،
الواسطية ، وبعث معها أبياتاً يقول فيها
في صفة الأقلام :

قد بعثنا بها رشاقاً دقاقاً
كالقنا في لدونة واستواء

قطعت عندما طلوع سهيل
إذ وجدنا طيباً لجلو الهـواء

لم تغادر حتى تجف . ولكن
قطعوها ، فيها بقية ماء

من قصار ومن طوال تضاهي
في تمام أصابع العـنداء

تركت بعضها كما خلق الله
وبعضاً علتته بالحناء

(١) النقس بالقاف هو الخبر .

فأبرها ، ثم اسقىها النقس^(١) واكتب
بسواد منه على بيضاء
وقد أتىح لهذا الشاعر الأمير يوم أن
يرى معركة قادتها قاتل اسمه « عفيف » ،
وقد خرج عليه بعض الخارجين المتطرفين
إلى واسط ، فهزمه وعبر في الماء وراءه ،
فقال الشاعر :

فبات جيش العدا في « واسط » وجلا
منه يحاذر بأساً غير مأون

فانصاع للجانب الشرقي منهزماً
من ليث غاب بشدى الحرب ملبون

تصوروا أن عبر النهر يعجزنا
عنهم ، لظن بغير الحق مظنون

هناك قام عفيف بالذي قعدت
عنه الرجال برأى غير موهون

وما همم بالكماة الغلب قد لبست
من كل زغف دلاص السرد موضحون

والخيل في العبر تتأوهم مبادرة
في كل فلك كركن الطود مشحون

كأنما قيل : ياريح ! اسكني بهم
ولا تعرض لهم يابرد كانون

ولم يعدم المجتمع العراقي في العصر الذي
عاش فيه العماد الأصبهاني وسجل شعره
أن يجد بعض الشعراء العاكفين على
الحب ، القائمين في محرابه ، المغنين
بألحانه ، كالشاعر الرئيس أبي النرج
الواسطي الذي كان المغنون يتغنون بشعره
في ذلك الزمان ، وقد سجلت له المخريدة
بعض غزله الذي يقول فيه :

تنبهي يا عذبات الرند
كم ذا الكرى ؟ هب نسيم نجد!

مر على الروض وجاءت سحرا
يسحب بردي أرج وبسرد

حتى إذا عانقت منسبه نفحة
عاد سمومها ، والغرام يُعدى

واعجبا مني ! أمتشفي الصبسا
وما تزيد النار غير وقسا

أعلل القلب ببسان رامة
وسا يتوب غصن عن قد

وأسأل الربيع ومن لي لو وعى
رجع الكلام ، أو سخا برد ؟

أأقتضى النوح حمامات اللوى ؟
هيهات ! ما عند اللوى ما عندي

وبعد ! فهذه جولة مع « خريدة القصر »
العراقية في أغراض شعرها ، وفنون قولها
وهي تلك الخزانة الثمينة التي جمعها

ألا يا حمامات تجاوبن بالضحى
كشفتن مكنوني ، فأعلنت بالشكوى

إليكن عنى يا حمامات ضارج
عدا كن أشجاني وما بي من البلوى

ترفقن بي فيما بكن من الهوى
كما بي ، لا وجد كوجدى بمن أهوى

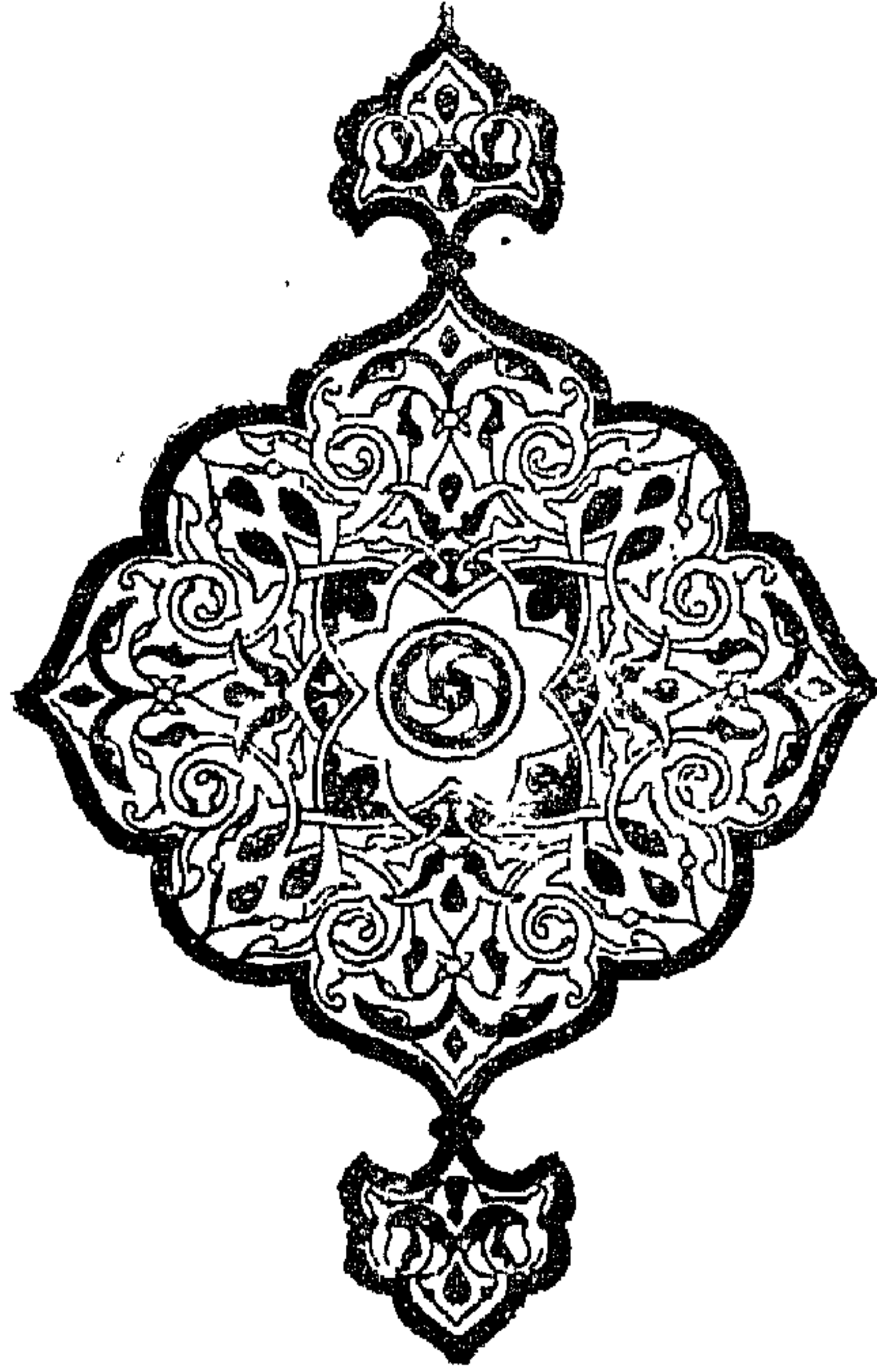
نقضت ليالينا « بليت » ، « وعلنا »
« وسوف » ، وما أحببت على المنى جدوى

فلا اليأس يسلي لو تعهدت سلوة
ولا الصبر تُلغى دونه الغاية القصوى !

وكا لشاعر أبي الغنائم بن المعلم الذي
كان له أشعار يحدوها الحداة ، ويثغني
ها أرباب الغناء في العراق ، كقصيدته

أديب شاعر مورخ منصف ، وحققتها ،
باحث عراقي شاعر ناثر جميل الخط
هو الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، الذي
يستحق أن يقال فيه ما قاله الرئيس
ابن المعلم - من شعراء الخريدة - في أبي
غانم اللؤلؤي :

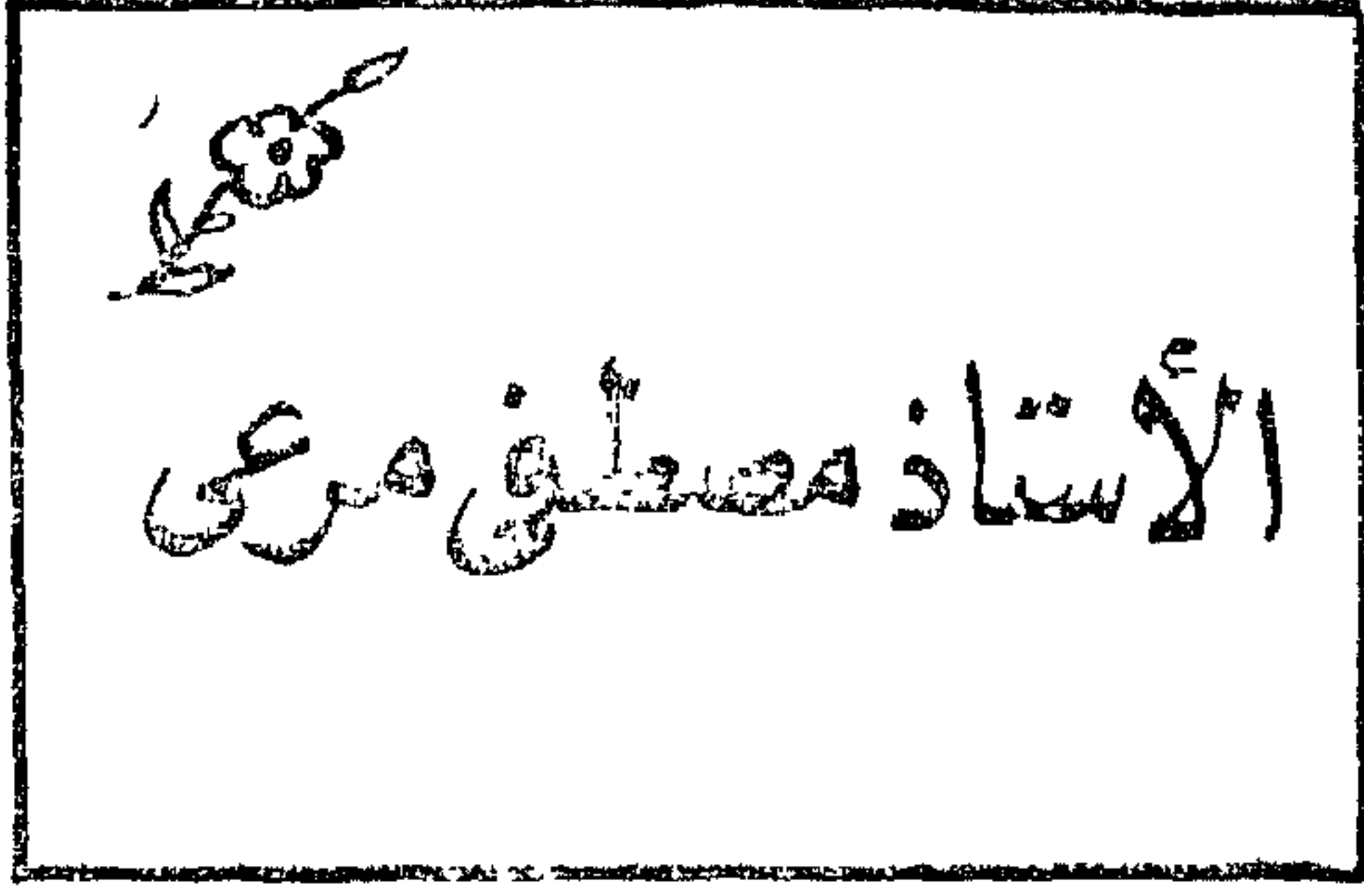
في حلبة الشعر المثقف لو جرى
معه امرؤ القيس بن حُجْرٍ قصيرا
أو لو جرى قلم « ابن مقلة » طالبا
في المخط شأو يراعِه لتعشرا ...
محمد عبد الفنى حسن





في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ١٢ من ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ
(الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره بالجيزة حفل استقبال لغضوه
الجديد الأستاذ مصطفى مرعى . وفيما يلي ما القى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكى المهندس في استقبال :



وزير يسبب استقالته من الوزارة بأسبابها
الحقيقية ، فقد ألفنا من الوزراء إذا استقالوا
من الوزارة عللوا هذه الاستقالات بتلك
العبارات التقليدية المألوفة وهي « لأسباب صحية »
ولكن الزميل مصطفى مرعى وضع النقط
فوق الحروف ، وعلل استقالته بعدم التعاون
مع رئيس الوزراء ، وإذا لم تخنى الذاكرة
فإنه قد آتهم رئيس الوزراء بالتزوير في أوراق
رسمية ، وهذا موقف شجاع لم يكن لنا
عهده :

ثم يجب ألا يغيب عنكم أيتها السيدات
والسادة أن بينى وبين الزميل مصطفى مرعى
علاقة وثيقة ، وصلة مؤسدة ؛ ليست هي صلة
المجمع ولا العلم ، ولا الزمالة ، ولكنها صلة
الطربوشية ، فكم تمنيت أن أرى في المجمع
زميلاً يشاطرنى تلك العلامة المميزة ، وما قد
تحققت أميئتي ؛ رحم الله أياماً كنت أرى فيها

سيداتي ، سادتي

إنه ليسر المجمع كل السرور أن يستقبل
اليوم زميلاً جديداً ، وعلما من أعلام القانون
هو الأستاذ مصطفى مرعى ، لقد كان من
المفروض أن يستقبل الزميل خلال الدورة
الجمعية الماضية ، ولكن لأسباب خارجة عن
إرادته وإرادتنا تأجل استقباله إلى اليوم ،
والمجمع إذ يهنئ الزميل بما نال من ثقة وتقدير
ليسعه كل السعادة أن يرى كفاية علمية
عظيمة تضاف اليوم إلى كفاياته ، وأن يرى
نشاطاً جديداً يلتقى بنشاطه ، فكذلك كان المجمع
وما زال وسيظل دائماً مثابة للثقافات العالية ،
وملتقى للكفايات الممتازة .

والزميل مصطفى مرعى ليس غريباً علينا ،
فكلنا ما يزال يذكر له تلك المواقف الوطنية
العظيمة داخل البرلمان وخارج البرلمان ، وفي
الوزارة وخارج الوزارة ؛ ولعله كان أول

الطرايبش في الجمع بقدر عدد الأعضاء ،
وبقدر عدد الموظفين ، ولكني أصبحت فإذا
الجمع ليس فيه إلا طربوش واحد يوحد الله.

فلهنأ صديقي الأستاذ مصطفى مرعى بانضمامه
إلى الأسرة الجمعية ، ومرحبا به في مجمع
الحالدين :

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى
استقبال الزميل الأستاذ الحليل عبد العزيز

محمد عضو الجمع ، ويليه الصديق الأديب
الأستاذ ثروت أباطة فيلقى كلمة كان المرحوم
الأستاذ عزيز أباطة طيب الله ثراه - قد
أعدّها لاستقبال زميله وصديقه الأستاذ مصطفى
مرعى :

ثم يليهما الزميل الحديد الأستاذ مصطفى
مرعى فيقول كلمته عن سلفه المرحوم
الدكتور محمد عوض محمد ، فليتنفصل
الزميل الأستاذ عبد العزيز محمد مشكورا.

●●● كلمة الأستاذ عبد العزيز محمد :

ولد الزميل الفاضل في ١٨ من يونية سنة
١٩٠٢ بالجزيرة الخضراء مركز فوه ، وقد
تجالت مواهبه مبكرة . . فهو دواما في مقدمة
المبرزين في الدراسة وذلك في جميع مراحل
التعليم . . . وكان هذا هو شأنه حين حصل
في سنة ١٩٢٣ على شهادة الليسانس في
الحقوق ، وقد كان تفوقه يؤهله للانتحاق
بالنيابة العامة ، ولكنه آثر مجالا أشق محفوفا
بالمخاطر والمصاعب . . مليئا بالعقبات ، وهو
مجال المحاماة وقد زاد عليه هذا الطريق وعورة
أنه لم يشأ أن يدخل هذا الميدان كما يدخله أي
حامل لإجازة المرور بل دخله بآمال كبار
دخله على أن يجد له مكانا في الصدر . .
وكان هذا يعد طموحا بعيد المثال . . ذلك أن
المحاماة إذ ذاك كانت تزخر بأعلامها الحالدين
الذين عاصروا نشأتها الأولى ، وكان لهم

السيد الرئيس - أيها السادة :

أشعر بسعادة غامرة إذ أقدم اليوم كبيرا
من أساطين رجال القانون ، جال في جميع
ميادين القانون وتسمم القمم فيها جميعا . . من
محاماة وقضاء ، وفقه ، حتى إذا بلغ في ذلك
المدى تصدى للشئون العامة فحمل أعباءها ،
وكافح في سبيلها ، وكان له في ذلك مقام
معلوم . . . وبعد ، فهو من صفوة رجال
الفكر المعاصرين . . . شخصية لا شك فذة
متعددة الجوانب - وسأحاول جاهدا في هذا
المجال المحدود ، أن ألم إلاما سريعا موجزا
ببعض هذه الجوانب العديدة وإن كنت أشعر
أنه ليس من اليسير أن أقدر ما يجب أن أذكر
وما أددع . . فأما صفحات جديرة بالنشر
كاملة ، ولكن يضيق المجال عن ذكر شيء
من التفصيل والإفاضة .

الذى كثر عليه الزحام ، ولم يستطع أن يرد قاصدا يبغي حقاً ، وهو القائل : إن المحاماة مروعة ونجدة ، فنال ذلك من صحته ، فاضطر مكرها لاعتزال العمل في المحاماة ، بعد أن ظل يمارسها نحو ربع قرن من الزمان ، خلف فيها ذكرى لازال يتحدث بها زملاؤه في ندواتهم كلما طاب لهم أن يتحدثوا عن أجداد المحاماة ، وحملة مشاعلها - كما ترك مثلاً لمن يبغي في المهنة علواً .

على أن اعتزال الزميل العمل في المحاماة في سنة ١٩٥٩ لم يكن - وما كان يمكن أن يكون - إلى فراغ ... فقد عكف على هوايته المفضلة وهى الإحاطة بشئ ألوان المعرفة ... يطلع ويدرس ويتحقق ، حتى لقد أضحي موسوعى المعارف .

ولا أنسى محاضرة قيمة ألقاها بعد اعتزاله - عن العلم والفلسفة - أحاط فيها بهذا الموضوع الدقيق إحاطة تم عن التعمق وسعة الأفق ، وتدل على أن ملقيها هو حقاً من صفوة رجال الفكر المعاصرين ..

أما في القضاء فقد أقيمت إليه أمانة الحكم في سنة ١٩٣٢ بتعيينه قاضياً بمحكمة الإسكندرية ، وقد عهد إليه رغماً عن حداثة عهده بالقضاء بتطبيق نظام قضائى جديد في المحاكم الوطنية ، وهو نظام القضاء المستعجل ، فقام بالعبء على أكمل وجه . مما أسهم في نجاح هذا النظام فظل قائماً حتى اليوم :

الفضل في رفعة مكانتها - ولكن الزميل اقتحم الطريق بنفس مطمئنة وخطى ثابتة يؤنسه عزم صادق ، وجد صارم ، وعاونته مواهب فذة . فلم تمض سنوات قليلة حتى ذلت الصعاب وأدرك مكاناً مرموقاً في مهنته ، على أن مكانته لم تبلغ شأوها الحق إلا بعد أن زاول المهنة في القاهرة في سنة ١٩٣٦ بعد أن استقال من القضاء وعاد إلى مجاله المفضل فأصبح بعد قليل على رأس الصف الأول مع شيوخ المهنة وأعلامها ، ولا غرو فقد أحب المحاماة ، وقدر بسمو رسالتها فوهبها بكل صدق وإخلاص روحه وقلبه ، فخلقت عليه مجدها ، وجازته إحساناً بإحسان ..

وقد كانت مواهبه لا تبارى ، ومثله العليا التى التزمها هى الشعلة التى أضاءت له معالم الطريق .

ولنا لى تقديره للمحاماة فيما سطره في صدر كتابه الذى ألفه ودونى القضاء إذ جعل إهداءه للمحاماة ، واصفاً إياها بأنها مهنة الكرامة والكفاح والحرية ، والواقع أن هذه الكلمة تعبر تعبيراً صادقاً عما التزمه هو في أداء رسالته من مثل تزمتم في الحرص عليها فبلغ ما بلغ ،

ثم تلت بعد ذلك فترة بعد فيها عن المحاماة من سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٨ ، كان يشغل فيها وظائف مختلفة ، إلى أن عاد للمحاماة سنة ١٩٤٩ ، وظل بها حتى سنة ١٩٥٩ حيث أثقل العمل كاهله ، فقد كان المورد العذب

الإدارة، فكان يترافع بنفسه في القضايا المهمة
، مما جعل لإدارة شأنًا لم يكن :

وقد أضاف الزميل إلى هذا السجل الحافل
في مجال القانون أثرًا جليلاً في فقه القانون المدني،
وذلك بمؤلفه القيم في « المسؤولية المدنية » الذي
تناول موضوعاً من أدق مواضيع القانون
وأشدها تعقيداً وسد بذلك فراغاً في المراجع
القانونية ، إذ أصبح الكتاب مرجعاً لكل
المشتغلين بالقانون حتى لقد أعيد طبعه مراراً.
وبعد مجالا القانون يأتي مجال كفاحه في
سبيل الشؤون العامة الذي تصدى له منذ أن وني
الوزارة في سنة ١٩٤٨ ، ثم وليها في سنة ١٩٤٩
وكان عضواً بمجلس الشيوخ في ذلك الحين
فجعله ميدان كفاحه ، كما إتصل قلمه بالصحافة
وقد حوت مضابط مجلس الشيوخ ما كان له من
جولات ، كما حوت الصحف العديد من
مقالاته - وقد وعى التاريخ كل هذا وطوى
هذه الصفحة من بين ما طوى ، وهو صاحب
القول فيها ، وقد عودنا العدل والإصاف
ولو بعد حين .

هذه المقالة موجزة كل الإيجاز عن هذه
الشخصية الكبيرة المعددة الجوانب ، أرجو أن
أكون قد وفقت في إبراز شيء من معالمها .

وقد أهله هذا النجاح للتعين عضواً في
التفتيش القضائي بوزارة العدل ليقدر جهود
رجال القضاء ويزن أعمالهم ، وذلك رغمًا عن
أنه كان إذ ذاك في أول درجات القضاء ،
وكان هذا التقدير تقديراً عظيماً لم يسبق
إليه :

ولكن رغمًا عما صادفه من نجاح فقد غلبه
الحنين إلى المحاماة التي وصفها بأنها « مهنة
الكرامة والكفاح والحرية » . فاستقال في
سنة ١٩٣٦ ، ومارس المحاماة في القاهرة حتى
عين في سنة ١٩٣٩ في النيابة العامة محامياً
عاماً ، وهي وظيفة تلى النائب العام مباشرة ،
ثم عين بعد ذلك مستشاراً بمحكمة الاستئناف.
وأخيراً بلغ ذروة المناصب القضائية بتعيينه
في سنة ١٩٤٦ مستشاراً بمحكمة النقض فأتاح
له ذلك أن يسهم في المهمة الجليلة التي تقوم
عليها المحكمة ، وهي تجلية غوامض القانون
وتقعيد القواعد القانونية ، وتقويم المعوج
من الأحكام - وكانت هذه هي آخر رسالة
له في القضاء توج بها مجهوده الكبير .

وفي سنة ١٩٤٧ عين رئيساً لإدارة قضايا
الحكومة فنهض بعينها الجسم ضارباً المثل
لكبار أعضائها ، بأن محامي الحكومة - مهما
علا مركزه - مكانه ساحة المحاكم لا مكاتب

●●● كلمة المرحوم الأستاذ عزيز أباطة * :

أيها الزميل الكريم

هناك في أحضان الريف اليانع الوارف ،
وعلى مقربة من ملتقى البحر المتوسط بالنيل
الرافد الخالد ، هناك ولدت ونشأت ، وحين
شارفت الخامسة خرجت صباح يوم ربما لم
تحمده ، خرجت إلى كتاب القرية الوادعة
من بيتك الكريم ذى الفناء القصود والورد
المورود . وقذف بك كما قذف بنا نحن
أهل الريف إلى ذممة سيدنا فقيه الكتاب .
وإلى أيدي رائدنا عريف الكتاب . وتسلمت
كما تسلمنا لوحك من الصفيح المصقول أو
غير المصقول : وطولعت بهوز قرشت .
ورأيت بعينك كما رأينا - الغلقة والعصا ،
وما أعظمهما من مؤذبات ، زاجرات أو
معاقيات . ثم بدأت بخير ما يبدأ به الإنسان
حياته ، ذلك هو حفظ قدر كريم قل أو أكثر
من كتاب الله أنزله هدى للبشر على من أرسله
رحمة للبشر : وأغلب الظن أنك حين من
الله عليك فأتممت حفظ ثلاثة الأجزاء عم ،
وتبارك ، وقد سمع ، زابت الكتاب بين
هالة من فخر الفقيه والعريف ، إلى المدرسة
الابتدائية ثم إلى المدرسة الثانوية

وأغلب الظن أنك كنت تلميذا مرموقا
أو ولدا نجيبا كما كان يقال في ذلك العهد
ولم لاتكونه فإن النجابة قد تتلامح في السن
الباكرة إرهابا لغد سعد ، ومستقبل
مشهود :

وتلاقينا في مدرسة الحقوق . وكانت
الثورة الكبرى قد اندلعت في البلاد عامة ؛
يظاهرها ويؤازرها ويحترق في أتونها المقدس
أهل البلاد أجمع . ثم اختاف زعماء البلاد ،
رضى الله عنهم جميعا وأرضاهم . اختلفوا أي
التدابير أسرع وأكفل لتحقيق آمال البلاد
وصونها . وأياها في هذه الغاية أحكم
وأهدى سبيلا .

وكان طلبة مدرسة الحقوق في طليعة الطلبة
التأثرين المجاهدين . وكانوا جميعا إلاقلة
قليلة منهم يؤمنون بأصدق الإيمان بزعامه
الزعيم الخالد سعد زغلول : تستهويهم ،
وتسحرهم كلمته . ولم أكن منهم . وكان مقهى
مدرسة الحقوق ندوة للطلبة ، يأترون فيه
ويتشاورون : وذات صباح كنت جالسا
بهذا المقهى ، وعلى قيد خطوتين مني
جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الأحاديث .
ويتناقلون في الحطط والتدابير ، وإذا بواحد

* كان المرحوم الأستاذ عزيز أباطة قد أعد هذه الكلمة ليلقيها في حفل استقبال
صديقه وزميله الأستاذ مصطفى مرعى ، ولكن رحمة الله استأثرت به قبل القاء كلمته
فألغاه الأستاذ ثروت أباطة .

منهم صحت بعد ذلك بينه وبينى الصداقة -
 رحمه الله يقول ، وهو يشير إلى بائعاً
 طرف لم يخفها : احترسوا فإن إلى جوارنا
 خصمنا لنا ، ولا اجتماعنا غير مأمون العواقب :
 ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا
 الرأي ولكن واحدا منهم اعتورت طلاقة وجهه
 مسحة من العبوس ، ثم أجال نظرات في
 إخوانه جميعاً ، ثم بدأ يتحدث في هدوء
 وخفوت . تحدث عاتبا ثم لاثماً ، ثم أخذ
 يتناول حرية الرأي وحرية التعبير ، وحرية
 الإنسان في اختيار الطريق الذي يتلاءم مع
 نفسيته واقتناعه مدافعاً عن ذلك الذي وجهت
 إليه تلك الإشارة النابية . وحين عورض
 اندفع في صوت متهدج يؤيد آراءه ويقول :
 إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة ،
 وبرهان على محاولات كريمة تنشأ الوصول
 إلى الحق . ولست أذكر ما قاله ذلك الزميل
 على وجه الدقة ، ولكنني أذكر كلمة كأنما
 سمعتها منه أمس . قال : فليؤمن كل منا بما
 آمن به وهذا خير ، أما عبادة الأشخاص ،
 والتسابق على تأليه ما يقولون وتقديس
 ما يصنعون ، فإنها علامة إسفاف متهافت
 يصيب الأمم والشعوب . ثم قام والغضب
 والأسف في وجهه ملامح .

أتعرف هذا الشاب أيها الزميل الكريم ،
 إن لم تكن تعرفه ، فاسمح لي أن أقدمه
 إليك ، إنه مصطفى مرعي . ومنذ هذا اليوم
 تألفنا ، فلم يدخل بيننا والحمد لله شيطان
 إلى الآن .

ثم قذفت بنا إلى الحياة العامة مدرسة
 الحقوق سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة
 وألف ، وكنت كعادتك في أوائل
 الحريجين . أولئك الأوائل الكرام الذين كان
 لهم في خدمة العدالة والقانون فضل ممدود ،
 وشأن مشهود . ولقد سمعت بأذني المستشار
 « كالويني » يقول لعقري القانون والعلم
 والأدب عبد الحميد بدوي ، وكانا يمتحنان
 في فرقنا في القانون المدني ، سمعته بعد أن
 امتحن واحدا منكم يقول : هذه فرقة لم تخرج
 مدرسة الحقوق فرقة تماثلها منذ أخرجت
 فرقكم عام ثمانية وتسعمائة وألف . فقد
 كان فيها إلى جانبك « محمد أحمد الوكيل »
 و « عبد المعطى الخيال » و « محمد علي رشدي »
 و « محمد أحمد غنيم . » رحمهم الله ،
 و « محمود فوزي » و « محمد نجيب أحمد »
 أطال الله في حياتها . ولقد سرنا وعزانا نحن
 الذين جاء ترتيبنا بعدكم بمدى طويل أن تكرم
 فرقنا بهذه الشهادة الكريمة من خبير كبير .

ثم اخترت الحمامة أيها الزميل الكريم ،
 فزاولتها بالإسكندرية . ثم عينت قاضيا بها
 سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وألف . وأظنك
 لم تمكث طويلا مكتفيا بعمل القاضى من دراسة
 إلى حكم ولكنك بعد أخذ ورد مع نفسك ،
 في هدأة حيناً ، وفي ثورة أحيانا ، انتقضت
 قاضيا متعباً لأنك ألزمت نفسك بمهمة غير
 مألوفة لاني وقتها ولا في نوعها . طالبت
 بإصلاح مراحل القضاء وبتحقيق الأمن مع
 الكرامة لرجال القضاء . واخترت من

رأيهم أهلا لمعاونتك ، ولما قضت الظروف على صاحبك أن يكفوا عن معاونتك ، نهضت بالعبء وحدك فكتبت التقارير والبيانات يتنافس فيها الإقدام والإحجام ، وبعثت بها لقضاة البلاد جميعا ممهورة باسمك وحدك . ألم أقل لك إنك كنت قاضياً متعباً . ولقد كان جزاء هذا القاضي المتعب بعد أن بلور نظريته ، وضرب ضربته ، أن نقل من الإسكندرية قاضيا لإطسا .

ثم رأس الحكومة . عارف لفضلك ، فعينت متخطيا زملاءك والسابقين على زملائك مفتشا في لجنة المراقبة القضائية ، ثم استقلت عام ستة وثلاثين ، فسعى إليك مكتب محاماة من أكبر مكاتب البلاد وأكثرها عملا فانضمت إليه محاميا ، ثم عينت عام تسعة وثلاثين محاميا عاما ، ثم مستشارا في محكمة الاستئناف ، ثم مستشارا في محكمة النقض . ولقد كادت سنك أن تحول بينك وبين هذا المكان الكبير . وبعد أن أمضيت مستشارا بمحكمة النقض عامين ، عينت رئيسا لإدارة قلم قضايا الحكومة لتعود بسماحتها ومكانتها إلى ما كانت عليه أيام عبد الحميد بدوى ، وبقيت بها إلى عام ثمانية وأربعين ، حيث عينت وزيرا في وزارة إبراهيم عبد الهادي . ثم عينت وزيرا مرة أخرى في وزارة « حسين سرى » . ثم مر على البلاد من حوادث وأحداث ما دفعك أن تكون وزيرا متعبا كما كنت قاضيا متعبا .

لم تكن وزيرا من الوزراء الذين يشدهم كرسى الوزارة أسفل ، وكثير من هم . ولم تكن من الوزراء الذين هم أشبه الناس بالسكرتيرين ، وأكثر من الكثير من هم بل كنت وزيرا عرف قدر نفسه ، وقدر مسؤوليته ، فكنت تقول : لا مجاملة حين يقتضيك ضميرك أن تقول : لا ، وكنت تقول نعم ، حين يقتضيك ضميرك أن تقول : نعم . غير آبه بملك قائم ، وقصر حاكم ، وتهديد جاثم . ولم تكن وزيرا يكتفى في كبرى مصالح الدولة بما يعرض عليه . بل كنت وزيرا تقرر ما يجب أن يعرض عليه ، وكنت في مجلس الوزراء محركاً ، دافعا عند ثبوت المنهج الصالح ، كما كنت قابضا مانعا عند تلامح الهدف الواضح . وكنت نورا لمن يريد أن يستنير . وكنت كفيلا لمن يعمل منهم ، فإذا انتحاه اللوم نسب إليك التوجيه والتدبير .

وكنت وزيرا متعباً ، بل ثائراً ، حين ضاقت في وجهك السبل لإصلاح الفساد الذي استشرى بهذه البلاد ، في أواخر العهد الملكي تحدثت وناقشت ثم شكوت ثم نفذت . ثم خرجت من النقد إلى لوم عاصف ، وتجريح قاصف . وحين آنست أن الطريق أمام آرائك مسدود ، وأن الوزارة التي أنت عضو فيها تخاذلت عن هدفك المنشود . وتلدت بين أعاصير الوعيد ودفاع الوعود ؛ حين آنست ذلك ألقىت باستقالة لم يعرف تاريخ الاستقالات لها مثيلا . قلت فيها بأسلوبك

الرائع القائم على إخلاص ذى غور عميق ،
واقتناع ذى أس وثيق ؛ قلت مخاطباً رئيس
الحكومة :

حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس
الوزراء :

تحية ، وبعد ، فإنك تعلم كما يعلم غيرك ،
أنى إنما اشتركت في حكومتك على أمل فيك ،
أن لك غاية هي جمع الكلمة ، وضم
الصفوف ، وأن لك هدفاً ، هو الاستعانة
بالقوى المؤتلفة على مواجهة الخطر من
مشاكلنا الخارجية والداخلية . وقد تبين لي
أنك لا تتغيا هذه الغاية ، ولا تتوسل
بوسائلها ؛ بل إنك لتبدو كما لو كنت مسلطاً
لتجعل من كل حزب حزين ، وكل فرقة
فرقتين .

وقد رأيتك بنفسى ترى الرأى للحق وتنقضه
للباطل ، وتقول الكلمة وتنكرها ، ولم يقع
ذلك مرة واحدة في تافه من الأمر ، بل
وقع مرارا وفي الخطير من شئون الدولة .

أما لفظك ، وأما عبارتك ، وأما أسلوبك
في إدارة مناقشات مجلس الوزراء ، فقد
أصبح هذا كله ، مضرب الأمثال ،
وموضع التندر في كل مكان .

لهذا أحيطك علماً باعتزالى العمل في
الوزارة ؛ والله المسئول أن يدفع عن بلادنا
السوء ، وأن يقيها غوائل الفساد .

ثم اتخذت الصحف وسيلة لإعلان
رأىك ، وتبيين خططك واشتركت في
تأسيس اللواء الجديد ، فكتبت وكتبت

متندراً بصدقك ، ملقياً بالألائك على سود
الصحف ، التى كان يضربها . على البلاد أكبر
رأس في البلاد . وكانت مقالاتك تنقض
على رؤوس الحاكمين ، فى نقد نادر ،
ولكنه ساخر . وفى أسلوب يهدى لما هو أكرم
وأصلح ؛ ولكنه على قسوته يدبى دون أن
يجرح ، ومما أذكره قولك :

«إننا لا نتجر فى السياسة ، ولا نساوم
عليها ولا نبيع أقلامنا ولا نؤجرها . إننا
لا نخشى فى الحق لومة لائم ، مهما يكن
مقامه . ولا غضبة غضوب مهما تكن
سطوته . وإننا لنعرف أن الشر راصد
للأحرار فى مصر ، فاغرفاه ، يود لو
استطاع أن يبتلعهم واحداً بعد الآخر . لكننا
نعرف ، مع ذلك ، أن الكلمة الحرة الصريحة
الجريئة ، هى ألزم ما يلزم مصر اليوم .

ولقد قال « اللواء » - ولا يزال يقول -
كلمات لها هذه السمات ، وفيها هذه الخصائص
إن لم تكن قد هزت ضمائر الطغاة ، فإنها من
غير شك ، قد قرعت منهم الأسماع ولفتت
الأنظار .

ومن يدرى . . . لعل الذى نقوله غدا ،
أو بعد غد ، يكون أبعد غورا وأشد وقعاً
من كل ما قلناه حتى الآن ، فقد يلزم أن
تتضاعف جرعة الدواء ، إذا لم تنحسر
موجة الداء ، وأن تزداد قوة المقاومة ، كلما
ازدادت قوة الاعتداء . فأدواؤنا تقوى مع
الزمن ولا تضعف ، وتدمع دائرتها ولا تضيق ،
وتشدد قبضتها ولا تراخي . وأنها - على

اختلاف أنواعها - لتساند وتماخى : كما يتساند الأشرار في ظل الشيطان ، حيث يتبادلون النفع ويتعاطون الحرام .

وها هي ذى الديكتاتورية البغيضة الطاغية ، تمكن للحكم الفاسد وتعيينه ، وتمده بأسباب البقاء : وها هو ذا الحكم الفاسد بدوره يهش للديكتاتورية الباغية ويبش ، ويتصاغراً أمامها ويتقارفاً ، وإنه ليذل لها ويخضع ويلين ثم ينحني .

ومن على ينظر الإنجليز . . بل ينظر العالم كله إلى شعبنا المسكين محصوراً بين هذين الأمرين نظرة استخفاف وازدراء .

هذه هي مصر اليوم ؛ ما أحوجها إلى الكلام الحر الحرىء ، عسى أن يهز ضمائر ساداتها فيعودوا إلى الرشد ويشوبوا إلى الصواب ، أو يهز شعور الأمة المغلوبة على أمرها ، فتثور لتسترد حقوقها المغصوبة وسلطانها الضائع :

وإن يوماً يتحقق فيه هذا الأمل ، أو ذاك . . ليكون لمصر مطلع فجر جديد " .

وداوت أيها الزميل بين مقالاتك في الصحف ومواقفك في مجلس الشيوخ ، تلك المواقف التي توجت باستجوابك عن مأساة الأسلحة الفاسدة ، مما أدى بأخيرة إلى طردك من مجلس الشيوخ مع تسعة عشر من إخوانك ، فكانت جريمة دستورية طاغية ، هبطت بالعهد إلى الهاوية ، وسهلت على الساتلين مهمة إنهائه ، والإجهاز على أشلائه .

أما أنت محامياً ، وعلى الأخص بعد تمام العدة ، واكتمال النضج ، فإشراقة تكاد تنقطع دون وصفها علائق الأقلام ، وقلائد الكلام . فأنت بالعلم الواسع ، والخاطر الحافل ، والذهن الحاضر ، والوميض المقدس تحت السطوح بصائب النظرة ، والأسلوب الحلو المستحکم المحصد والقدرة على الإبلاغ في غير تحبس ولا توقف ولا تلجلج ولا طول معاناة ومقارفة ، وبالخس السادس تتفطن به إلى مطاوى العيب . . أنت بكل هذا الذى تحريته ، وبغير هذا مما تركته ، قد بلغت فى المحاماة أعلى مشارف قيمها . ولست أود أن أطيل فى هذا الباب ، حتى لا يقال مأفون يدل على انهلال النهار فى وضوح النهار ؛ ولكن الذى يقع فى ذمتى أن أثبتته ، أن هذه البلاد قد كرمت بعدد من أقطاب المحامين وعباقرتهم . فإذا ذكر « أحمد لطفي » و « عبد العزيز فهمى » و « أحمد عبد اللطيف » و « مرقص فهمى » و « وهيب دوس » ، إذا ذكر هؤلاء العماليق ، تخلل جمعهم « مصطفى مرعى » ثابت القدم ، مرفوع الهامة . و دخل فى زمرتهم ، لا دخول الدخيل ، ولكن دخول الزميل المثل الأصيل .

وأما كتابك . ولا أقول مذكرة التى قدمتها لمجلس الدولة عام اثنين وخمسين ، فى قضية من قضايا الإحالة على المعاش لهاظروفها العجيبة ، ووطائدها المعيبة ؛ هذه المذكرة ، بل هذا الكتاب ، يرتفع إلى أعلى مشارف إقرار حق الإنسان .

وبيان الحق أو اللاحق في تصرف الدولة
قبيله . وذلك داء استشرى فأذل الناس وهدر
حقوقهم ، إذ كان وما يزال ينفث سمومه
بغير ما ضابط من عدل أو وازع من خلق ،
ويتراءى لى أن الفساد وأداة الحكم في بلادنا هذه
الكريمة ، هما توأمان عريقتا النسب ،
يسلمهما عهد إلى عهد ، وحكم إلى حكم .
حتى ليستطاع في غير تزيد ، أن تذكر
أداة الحكم فيذكر تلقائياً معها الفساد ، فيقال
متعاقبين ، الفساد وأداة الحكم ، كما يقال :
العُجْر والبُجْر ، والبر والبحر ، وزفى
وميت غمر .

ولقد جلاوت هذا الموضوع الخطير فلم تر
مزلقاً إلا كشفته ، ولا طغياناً إلا فضحته ،
فأرسيته أصوله ، وأصلته جباهه وذيله ، كل
ذلك إلى جانب الأسلوب المشرق ، والتعبير المحكم
المحصد لقانون الحق وقانون البطش بالحق .

ولقد اجتزأت من مئات مذكراتك ذات
الوعى السديد الدقيق ، والعمق البعيد السحيق ،
الى كان يتلقفها القضاة والمحامون ، بهذه
المذكورة لأنها كانت دراسة فذة لقانونيين
نعرفهما حق المعرفة : قانون الحق ، وقانون
البطش بالحق .

أما كتابك « المسؤولية المدنية في القانون
المصرى » ، الذى أصدرته في يونية من عام
سنة وثلاثين . فأول ما يبده القارئ فيه هو
شعورك أنت بالمسؤولية ومعناها ، وأبعادها ،
وأغوارها ، فتقول في مقدمة الكتاب :

ما أحسب أن مسؤولية توازى في خطرها
وجسامتها ، مسؤولية المؤلفين على وجه عام ،
ومسؤولية مؤلف القانون على وجه خاص ،
من أجل ذلك تهيبت المطبعة وترددت في طريقي
إليها .

وقد جاء كتابك أولاً من نوعه في المؤلفات
القانونية ، الدائرة حول موضوع واحد لم
يسبقه إلا أبواب متفرقة هنا وهناك :

والكتاب على قدم العهد به نوعاً ما ما زال
المرجع الرئيسى لهذا الموضوع الضخم
المتشابك ، الذى زادت المدنية انتشاراً ،
فقضت به دور المحاكم وارتكز عليه القضاة
في أحكامهم .

وسبقى هذا الكتاب الفريد ، مرجع رجال
القانون ، ما دام مقدر أن توزن بموازينها
الحقة هذه الموضوعات . وسيظل القضاة
ينظرون إليه كلما عرضوا للخطأ بأنواعه ،
وللتقصير فى شتى أشكاله ، واصلة الإرادة
والتمييز والإدراك بالخطأ والتقصير . كما سيظلون
ينظرون إليه إذا عرضوا للخطأ تحت ستار
الحقوق ، والمسؤولية عن الغير تلك التى
يحمل غبها الآباء والمعلمون وأرباب الصناعة
ومالكو الحيوان والمباني ، كما سيظل ينظر إليه
كل من تعرض عليه قضايا الحريق وحوادث
العمل وما إليها ، وسيظل هذا الكتاب عماداً من
أعمدة القانون ، ما بقيت دعاوى التعويض ،
وستبقى دعاوى التعويض ما بقي الإنسان حق
أو أثر .

أيها الزملاء الأجلاء .

معانيها . وإذا ترفع فتنفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وترديد ما له من نديد .

إن في زميلكم « مصطفي » مزايا سامقة ، قلمه التمتع متكاملة إلا للمرهوبين وتقليل من هم .

إنه يعرف أو يكاد لكل معضل حاوله ، ولكل حق دليله ؛ ولكن الذي لا يعرفه « مصطفي » كثير وكثير .

إنه يعرف الكثير ، وإنه ليجهل الكثير :

إنه لا يعرف أن يقول لمبطل آمين ، ولو كلفه ذلك قطع الوتين .

إنه يعرف دينه كما أنزله الله ، وكما سنّه له محمد بن عبد الله . ويتجاشى بعد ذلك عما تفهق فيه المتفهمون ، وغرق في لحجه المتحدلقون .

إنه لا يعرف أن يقول إلا إذا تلاحت في نفسه أواصر اليقين .

إنه يعرف في علمه الذي تخصص فيه وهو

إنه لا يعرف للرجل وجهين ، ولا للحق ميرانين ، ولا للكرامة صورتين ، ولا لقيمة الإنسان معيارين .

القانون ، يعرف أصوله وفروعه وحوادثه

وذيوله ، وما اتفق فيه عليه المتفقون ، وما

اختلف فيه المختلفون ، وله في كل ذلك

رأيه القائم على أثبت الوطائد ، وتخرجه النابع

من أسلم الموارد؛ إنه يعرف من علوم الإنسانية

وأدبها وفنها ، أدخلها إلى العقل ، وأقربها إلى

النفخ ، وأعودها على الكمال الإنساني

بالفائدة ، تسمو أقدارها ، والموعظة

تتراق أخطارها .

وإنه من القلائل الذين لا يعرفون للمال قدراً عند الخدمة العامة ، فهي عنده قيمة وخلق وضمير .

إنه لا يعرف أن يقبل قضية لم يقتنع بها ، فهو يطرد المال الساعي إليه من هذا السبيل ، بل ليخال هذا النوع من الخزاء أفاعي تسعى لا مالا يساق ، وهو لا يعرف أن يحتج بغير الصدق ، جل عنده الكلام أن يكون صبغة ، وتتره أن يكون تكلفاً ، فهو حين يقول يجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين الصدق والأصالة .

ورجل القانون عنده لا بد أن يجمع بين الأدب الرفيع والعلم العميق ، وهو من الذين يؤمنون أن رجلاً لا يحسن أن يقول ، لا يحسن أن يكون شيئاً في أي شيء .

إنه يعرف أن الكلام في موضع الصمت

فضول وهذر ، ولا يعرف أن يتصدى لما

لا يفي به ، ولا يتسع له ، ويعرف أن

السكوت في موضع الكلام لُكْنَة وحصَر :

إنه يعرف الصداقة والصديق . وإنه يعرف

البرِّ بمَن ، والفضل مِمَّن غير مَن ، كل ذلك

في رفاهة حس ، ووضاعة نفس .

ويعرف أن يستمع وأن يقول ، فإذا قال

فلا تزيد ولا تحيف ، وليس إلا الكلمة تنفذ

إلى حيث يريد لها أن تنفذ ، طباً لها عليها بكل

إن المقياس التي يقاس بها « مصطفى » تتعدد
تعدد جوانب النبوغ فيه ، وهيئات لهذه أو تلك
وهيئات أن يلم بها حديث مهما يطل هذا
الحديث .

أيها الخالدون :

لقد أضفتم عليه بالغ التقدير والتوقير ،

وآية ذلك أنكم لم تقفوه كعادتكم عند بابكم ،
وطالما وقفتموني وغيرى دورات ودورات
عند بابكم ، ولكنكم عند أول دقة دقها
عارفوا فضاه ، فتحت له مصاريع محرابكم .
وكنتم أعزكم الله عند دعوتنا الجواب . صيغ
فى بالغ التأهيل وخالص الترحاب .

الكلمة التي ارتجلها الأستاذ مصطفى مرعى :

السيد الرئيس

السادة الزملاء

سيداتى ، سادتى

المقياس الذى يقاس به حسن الكلام ، هنا قلعة
الفصحى ومنازة الضاد ، هنا أريد أن أتكلم
فلا يسعنى إلا أن أقف خاشعاً أمام أئمة اللغة
وأعلام البيان .

وقد سألت نفسى حين علمت أنكم أردتم
لى أن أكون معكم فى هذا المحراب ، سألت
نفسى هل البقية الباقية منى قادرة على أن
تحقق أمل الكرام الذين أحسنوا الظن بى ؟
هل البقية الباقية منى قادرة على أن تحملى
لألحق بركبكم المهيمون فأعانى معكم كما تعانون ،
وأضطلع بينكم ببعض ما تضطاعون ؟
وقبل أن أصل إلى جواب عن هذا السؤال ،
سمعت صوت السبعين يحذر من جهة وينذر
من جهة أخرى ، لا لأن السبعين عليها بأس
فى ذاتها ، ولكن لأن العشرين الأخيرة منها ،
كانت بالنسبة لى فترة تشدت وتمزق وضباع ،
كنت مغترباً بالحسد بين الحين والحين ،
مغترباً بالروح فى كل الأحيان ، كنت مغترباً
بالمعنى الذى أراده أبو حيان التوحيدى حين

ما تهيبت الكلمة ولا أشفقت منها ، كما تهيبتها
وأشفقت منها هذا المكان ، وأنا لست
طارثاً ولا دخيلاً على صناعة الكلام ، فقد
خاطبت المحاكم على اختلاف درجاتها حين
كنت محامياً ، خاطبت الطلبة فى حلقات
الدرس حين كنت أ حاضر فى كلية الحقوق ،
خاطبت مجلسى الشيوخ والنواب حين كان لنا
برلمان ، وكان لى أن أمثل الحكومة فى
المجلسين ؛ هناك فى المحاكم أو فى حلقات
الدرس أو فى البرلمان ، كانت الفكرة هى النجاية
لا اللغة ولا الألفاظ ، هناك كانت المعانى
لا المباني هى قصد السامع والمتكلم على حد
سواء ، هناك كان وضوح الفكرة يغطى
أخطاء اللغة ، هناك كانت طلاقة اللسان تحجب
عثرات اللسان ؛ هنا الأمر يختلف ، هنا اللغة
لا تقل أهمية عن الفكر ، هنا سلامة اللغة هى

قال: «أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه ، وأبعد البعداء من كان بعيداً في محل قربه ؛ لأن غاية المطاوب أن يساو عن الموجود ، وأن يغمض عن المشهود ، وأن يقصى عن المعهود » . كلمات التوحيدى هذه قد تبدو خائفة حذرة مبهمة غامضة ، ولكن الطبع فوق التطبع ، وكان التوحيدى جريئاً بطبعه لم يلبث أن قال :

« يا هذا الغريب من إذا ذكر الحق هجر ، وإذا دعا إلى الحق زجر ، يا رحمتا للغريب ، طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضرره من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى » ؟

والذى لا شك فيه أن التوحيدى نفسه كان مغرباً بالمعنى الذى تصوره عباراته هذه ، والذى لا شك فيه أنه إنما كان يعبر عن آلامه وآلام من كانوا على شاكلته من بنى قومه حين قال ما قال ، ذلك لأن عصره كان عصر طغيان فشا فيه ما يفسد عادة في عصور الطغيان ، من ظلم وبغى وكذب وكيد ونفاق وضلال :

وهو يقول في ذلك : « إلى متى نعبد الصنم بعد الصنم ؟ إلى متى نقول بأفواهنا ، ما ليس في قلوبنا ؟ إلى متى ندعى الصديق والكذب شعارنا . . . إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها ؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشقاء فيها ؟

من خلال هذه السطور نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يلتقى القفاز في وجه الطغيان ، ونستطيع أن نراه في الوقت نفسه وهو يضع أوراقه مكشوفة على مائدة المعرفة ليقرأها من شاء متى شاء .

ومن خلال هذه السطور أيضاً نستطيع أن نرى التوحيدى وهو يجول بجولة رائدة رائعة في علم النفس قبل أن يعرف علم النفس ، وفي علم الاجتماع قبل أن يعرف علم الاجتماع ، وفي علم نفس الجماعات قبل أن يعرف علم نفس الجماعات .

وقد أتاحت له هذه الجولة أن يكشف النقاب عن مرض اجتماعى خطير هو الاغتراب أو الانفصال الذى يفصل المواطن عن وطنه حين يسوء حال هذا الوطن وتضطرب أموره ويجرى الفساد في أنحائه وتضيع كلمة الحق فيه .

ومضى التوحيدى ومضت بعده قرون ، وجاءت في عصرنا الحاضر أجيال ساخطة على النظم التى تحكمها ، رافضة لها متمردة عليها . وأخذ علماء الغرب يبحثون في هذه الظاهرة ليصلوا إلى علتها . فإذا بفريق منهم لا يرى لها علة إلا العلة التى كشفها التوحيدى . ولا يجد لهذه العلة اسماً إلا الاسم الذى قال به التوحيدى وهو الاغتراب ، ترجموه إلى الإنجليزية فصار (alienation) وإلى الفرنسية فصار (alienation) . ولا أظن أن توافق الحواطر هو الذى أدى إلى هذا اللقاء

لتأثلف وتتراحم ، كما لم تأثلف وكما لم تتراحم
لدى أى كاتب آخر :

وإذا كان قد حلق في سماء الشعر وانتهى
فيه إلى الفحة ، فاستحق عن جدارة أن يكون
أميراً عليه بعد شوقي ، فذلك لأن الشعر
عاطفة قبل كل شيء ، وعظفة « عزيز » هي
التي فجرت ينابيع الشعر في قلبه ، ومن هنا
كان شعره المهemos الذي يعبر عن وجدانه
الذاتي شعراً لا يجارى . ومن هنا أيضاً كانت
الأنات آية من الآيات ؛ وبعد العاطفة يأتي
الخيال فيما يقضيه الشعر : و « عزيز » كان
له من حسن التخيل أو في نصيب ، أما اللفظ
الرشيق ، أما التصوير الدقيق ، أما التشبيه البديع ،
أما النغم الحلو ، فقل في ذلك كله في جانب
« عزيز » أكثر مما قيل وأكثر مما يمكن أن يقال
في جانب أى شاعر آخر من شعراء عصره ؛
السيد الرئيس ، إخواني :

يقع علي نزولا على تقاليدكم أن أستحضر
اللغة لتكون معنا بأن أعرض عليكم مسألة من
مسائلها . وقد اخترت لهذه الغاية مسألة اللغة
والحضارة ، ذلك لأنني رأيت بين المفكرين
من يقول إن اللغة مرآة تعكس حضارة
عصرها ، وتسير في ركابها . تابعة لها تسمو
بسموها ، وتهبط بهبوطها ، وهذا القول قد
يفتح الباب للظن بأن دور اللغة في بناء
الحضارة أدنى إلى السلب منه إلى الإيجاب ،
وهو قول تنقضه الحقيقة العلمية ؛ ولكي
ندرك هذه الحقيقة يكفيننا أن نعرف ماهي

بين الشرق والغرب لأعلى نوع العلة فحسب ،
بل على نوعها واسمها معاً . وإنما هي بذرة
أو حبة مباركة التقطها علماء الغرب فيما
التقطوه من التراث العربي ولا عليهم إذا أفادوا
منها متى كانوا قد سبقوا غيرهم إلى كشفها
والإحاطة بأسرارها .

أخشى أن أكون قد استطردت ، لكن
الهدف هو أن أشعركم ببعض ما أعانيه .
ولو التزمت الترتيب العاطفي لا الترتيب
المنطقي لبدأت حديثي بـ « فجميعي في أخي
وأخيكم عزيز أباطة . أقول فجميعي وأنا أعلم
أن موت عزيز قد فجع مصر كلها ، بل
فجع العالم العربي كله ، وقد لا أبالغ إذا
قلت أن موت عزيز حرى أن يفجع كل
إنسان بما هو إنسان في كل مكان .

أقول فجميعي مع ذلك ، ورغم ذلك ،
لأن عزيزاً لم يكن زميلاً فحسب ،
وإنما كان صديقاً عاشت صداقته خمسين
سنة عطرة نضرة ، لم تلحق
بها شبهة ولا شائبة شائبة وإن أنس

لا أنمي نداءه لي حين كان يلقاني فيقول :
« يا صديق العمر » . إنني لأنفجع على
« عزيز » ، وإنني لأعلم أنكم تتفجعون معي ،
لأن خسارة مجتمعنا بفقدته خسارة لا تعوض ،
فقد تعددت مزاياه ، وتنوعت مواهبه ،
كان عالماً وهو أديب ، ناثراً وهو شاعر ،
كاتباً وهو خطيب . ولقد اجتمعت له هذه
المزايا كلها لا لتختلف ولا لتتنافر ، ولكن

الحضارة ، ثم نعرف مبلغ اعتمادها على الفكر ، وأخيراً نعرف مبلغ اعتماد الفكر على اللغة .

أما الحضارة فهي كما يقول المعجم الوسيط : «مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضرة» .

أما اعتمادها على الفكر ، فأيته أن الحضارة لم تخط خطوة واحدة في تاريخها إلا كانت وراءها فكرة تحركها وتمسك بزمامها . !

وأما اعتماد الفكر على اللغة ، فإن الفكرة تظل حائرة في ذهن صاحبها ، حتى تجد اللفظ المناسب لها فتستقر وتثبت وتتحدد عندئذ ، وعندئذ فقط يمكن الاحتفاظ بها في الذاكرة كما يمكن الانتفاع بها في الفهم والتفاهم . .

إذاً كان ذلك ، وكان لا بد للحضارة من الفكر ، وكان لا بد للفكر من اللغة ، أقول إذا كان لا بد للحضارة من الفكر ، لأنه هو الذي يحركها ويمسك بزمامها ، ولا بد للفكر من اللغة لأنها هي التي تجسده ، كان مقتضى ذلك ولازمه أن تكون اللغة ركناً من أركان الحضارة ، لا مجرد مرآة تعكسها أو مجرد تابع يسير في ركابها .

واللغة المقصودة هنا ، هي الفصحى ، والفصحى وحدها دون سواها ، لأن غاية العامية وقصاراها أن تعبر عن حاجات البيت

والطريق والسوق ، أما حاجات العلوم والفنون والآداب وما إلى ذلك من وجوه المعرفة ، معرفة الإنسان فليس لها إلا الفصحى ، وحيث تتصارع اللغتان ، والصراع هنا حتم يفرضه قانون تنازع البقاء وحيث يقع هذا الصراع بين اللغتين : الفصحى والعامية ، فإن ما تكسبه الفصحى يكون كسباً للحضارة ، وما تكسبه العامية يكون عبثاً على الحضارة وقيداً يقيد خطاها .

ولما كانت الأمية هي مصدر العامية ، فقد صار نحو الأمية علامة من أبرز علامات الحضارة ، ومقياساً من أدق مقاييسها ، وإذا قسنا حضارتنا بهذا المقياس ، فإننا ننتهي مع الأسف الشديد إلى نتيجة تفدح النفس وتقهقر القلب ، لأن الأميين عندنا يمثلون ثلاثة أرباع السكان ، كانوا كذلك منذ عشرين عاماً ، وهم كذلك الآن ، ولا تسألوا أين أجهزة التعليم ؟ لأن الجواب حاضر ، تقف عاجزة العجز التام عن أن تنال من هذه النسبة منالاً .

أما شاهدي على هذه النسبة فهو بحث قيم كتبه الكاتب الأديب « الأستاذ لويس عوض » في صحيفة « الأهرام » ، في عددها الصادر في السادس والعشرين من فبراير سنة واحد وسبعين ، وقد جاء فيه ما يأتي :

« ورثنا عن مصر الملكية نسبة من الأمية قوامها ٧٥ ٪ من مجموع السكان ، وكان يقدر بنحو ٢٠ مليوناً ، ونحن الآن بعد ٢٠ عاماً ورغم ارتفاع ميزانية التعليم إلى نحو مائة وعشرين مليوناً من الخنفيات سنوياً

لا نزال نحافظ على نسبة من الأمية قوامها نحو خمسة وسبعين في المائة من مجموع السكان .

قد لا ترضينا هذه الأرقام لأنها لا تساير آمالنا ؛ ولأنها تخدش كرامتنا واخترازنا بآمتنا ، لكن الأدلة أجمعت على صحتها . فقد عهدت في كتابها الأمانة والدقة والشعور بالمسؤولية ، وهو إلى ذلك كاتب ملتزم ، وقد نشرتها صحيفة الأهرام وهي ملتزمة أيضاً . والالتزام له مفهومه الذي لا يخفى عليكم . وقد لا ذت أجهزة التعليم أمامها بصمت مطلق فلا هي أنكرتها ولا هي نازعت فيها .

وإذا كان ذلك ، وكانت هذه الأرقام صحيحة ، كان لي أن أقرر بناء عليها والأسى عملاً قلبي أننا نعيش في مجتمع أمي ؛ لأن العبرة في الأحكام على المجتمعات بالكثرة لا بالقلة ؛ نعم ، نحن نعيش في مجتمع أمي ، وهذا يعني أننا نعيش في مجتمع أطبق عليه الجهل ، وهو يعني أننا نعيش في مجتمع يغشاه الظلام في أوضاع ساعات النهار .

ومن هذه الحقيقة المؤلمة نستطيع أن نتبين العلة المسئولة عن سائر العلل التي نشكو منها في حياتنا كلها :

فالأمية هي المسئولة عن الانفجار السكاني الرهيب الذي يهددنا بأوخم العواقب . وقد ثبت أن متوسط إنجاب الزوجة الأمية في الريف تسعة أطفال ، بينما متوسط إنجاب الزوجة المتعلمة يتراوح بين أربعة وخمسة أطفال .

والأمية هي المسئولة عن هبوط مستوى الإنتاج ، لأن العامل المتعلم ، زارعاً كان أو صانعاً ينتج أضعاف العامل الأمي . ومن هنا تغيرت النظرة إلى العلم في العالم كله شرقه وغربه ، فقد أصبح العلم وجهاً من وجوه الاستثمار ، وكان من قبل خدمة من الخدمات :

والأمية هي المسئولة عن هبوط مستوى الثقافة العامة ، لأن مصانعة الكثرة الجاهلة ومجاملتها لا تكون إلا على حساب من أقدار القلة المتعلمة ومواهبها ، وفي هذا تفسير لهجرة العقول التي نراها بالبصر ولا نرى بالبصيرة ما وراءها من أسباب ، ولا ما ينبى عليها من نتائج :

والأمية هي المسئولة عن شعب لا يفقه ولا يفهم حقوقه السياسية ، فلا عجب إذا لم يشارك حكامه في تقرير مصيره ؛ ومن باب أولى لا عجب إذا عجز عن أن يحاسب حكامه أو أن يحسن الحكم عليهم .

والأمية هي المسئولة عن أمة تتحول إلى شعب ، وشعب يتحول إلى جماهير ، وجماهير تتحول إلى غوغاء :

إننا نخوض حرباً ضارية ضد عدو شرس عنيد بغيض ، وإن لهذه الحرب علينا أن نقدم لها كل ما في القلوب من إيمان ، وكل ما في الصدور من شجاعة ، وكل ما في اليد من مال ؛ ولكن ذلك كله لا يجوز أن يصرفنا لحظة عن حرب نشنها ضد الجهل والظلام :

سيدى الرئيس ، إخوانى :

يبقى أن أحدثكم عن سلفى ، وأخشى أن أكون قد تحاملت على أوقاتكم ؛ أحدثكم عن سلفى المرحوم الدكتور محمد عوض محمد ، والحق أنى لم أكن قريباً منه حال حياته ، لكننى كنت أسمع عنه وأقرأ له ، وبعد أن استأثرت به رحمة الله ، نظرت فى آثاره ، فإذا أنا أمام سيرة تنبعث منها الأضواء من عدة جهات ، فقد كان ، عليه رحمة الله ، رائداً من رواد المدرسة الوطنية التى سبقت نهضة سعد زغلول ، وكان أسلوب هذه المدرسة فى إيقاظ الوعى الوطنى أن تثير المشاعر ضد الغاصب المحتل ؛ ويبدو أن صاحبنا ، على صغر سنه ، كان نشاطه ملحوظاً فى هذا المضمار ، وبدأ خطر هذا النشاط لسلطة الاحتلال بعد أن اندلعت الحرب العالمية الأولى ، فاعتقلته وقذفت به إلى « مالمطة » ، حيث قضى أربعة أعوام ، وكانت « مالمطة » حينذاك ، محبس كبار الأحرار .

هذا وجه من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة العطرة لسلفى « عوض » .

الوجه الثانى : هو العلم ، فقد كان جغرافياً نابه الذكر ، حاضراً فى الجغرافيا ، ووضع فيها كتباً قيمة لفظاً ومعنى ، ولم يقع فيما يقع فيه بعض المتخصصين الذين سمحوا لمادة التخصص أن تستأثر بهم وأن تستنفذهم وأن تصرفهم عن غيرها من مواد المعرفة ، فضاقت آفاقهم ، وصغرت أحجامهم ؛

على النقيض من ذلك كان « عوض » صاحب ثقافة عامة ، غنية ، غزيرة ، متنوعة ؛ فهو مثلاً يكتب عن الرق ، والمسافة بعيدة جداً بين الجغرافيا والرق ، وهذه الثقافة الغنية المتنوعة هى التى أتاحت له ، عليه رحمة الله ، أن يكون واحداً من وضعوا ميثاق الأمم المتحدة ، وأن يكون واحداً ممن صاغوا بعد أن ناقشوا شرعة حقوق الإنسان . هذه الثقافة الغنية الغزيرة هى التى أتاحت «لعوض» فى خطوة أولى أن يكون عضواً فى المجلس التنفيذى لليونسكو ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثانية نائباً لرئيس هذا المجلس ، وأن يكون بعد ذلك فى خطوة ثالثة رئيساً لهذا المجلس نفسه .

الوجه الثالث من وجوه الإشعاع فى هذه السيرة ، هو الأدب بنوعيه ، الخاص والعام ، لأنه كان تارة يقدم الفكرة ، تؤيدها العاطفة ، فيكون أدبه عاماً كأدب المؤرخ وأدب الناقد ، وكان تارة يقدم العاطفة تؤيدها الفكرة فيكون أدبه خاصاً كأدب الشاعر وأدب القصة . وكان إنتاجه من النوع الأول أكثر كثيراً من إنتاجه فى النوع الثانى ، لأنه كان يميل إلى النقد قصد الإصلاح ، وكان نقده فى الغالب يدور فى مدارين : الاجتماع والسياسة ، وكان يحلولة بين الحين والحين أن يسخر ، ولكن سخريته كانت دائماً تتسم بالحياء ، وتتحدث من وراء حجاب وكان لها من الأسطورة والرمز والحوار ، فضلاً عن الكناية والاستعارة والمجاز ما أغناها فى هذا الباب .

هذه سيرة عوض كما تمثلها في آثاره ،
أما سيرته في المجمع فأنتم أعلم بها مني ،
رضي الله عنه وأرضاه :

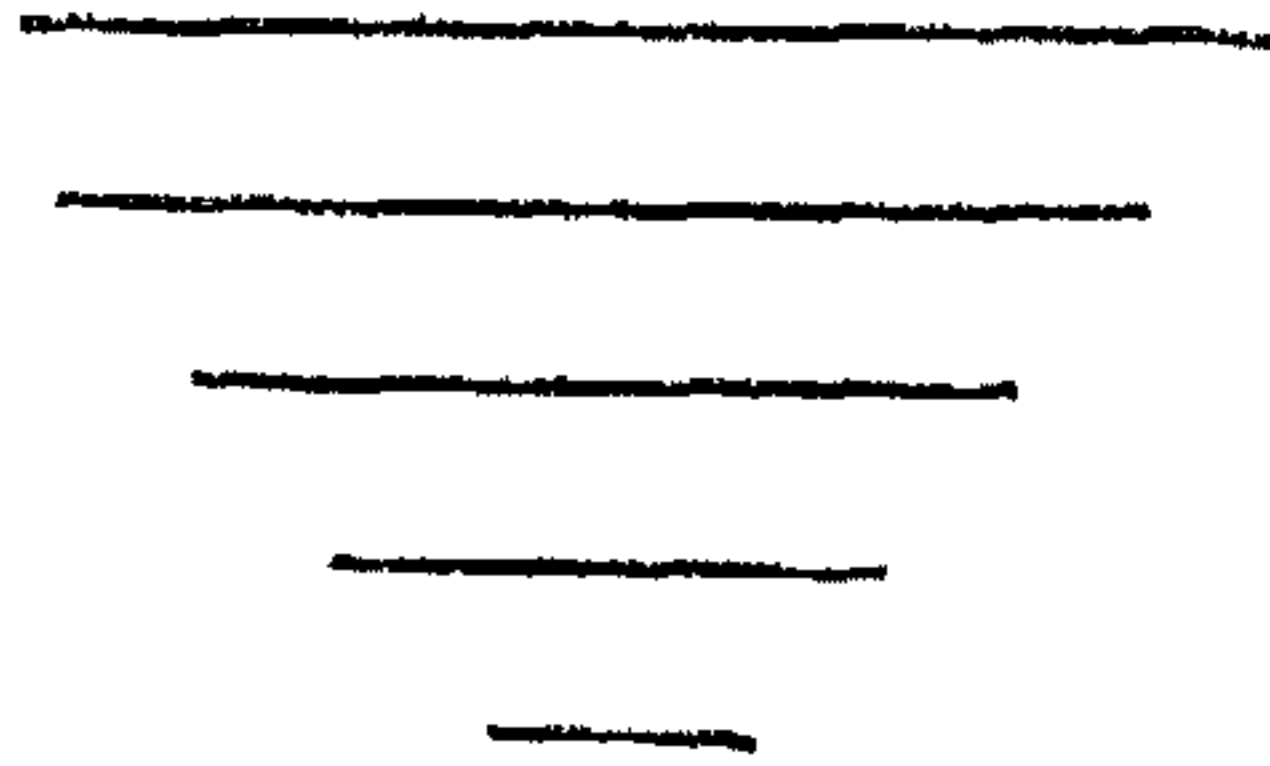
السيد الرئيس :

كان لك تقديري وإعجابي قبل أن أراك ،
وقد رأيتك فرأيت الحكمة محتمة مع القدرة ،
والخلق ، وهذه ألوان نادرة قل أن
تجتمع في علم واحد ، وإن الذي بيني
وبينك ياسيدي أكثر كثيرا وأعماق جدا من
الطربوش ؛ لأن الطربوش رمز فقط ،
وهو اليوم يرمز إلى كثير تفهمه أنت وأفهمه
أنا ، وأرجو أن يفهمه معنا كثيرون .

أما أنت «يا عبد العزيز» ، يا شيخ القضاة ،
فما عهدتك مجاملا قط في دار القضاء ،
ولكنك جاملتني اليوم من غير شك في هذه
القاعة ، ولا عليك ، فالمجاملة هنا محمولة
على معنى الوفاء ، والوفاء وجه من وجوه
البر أو وجه من وجوه العدل .

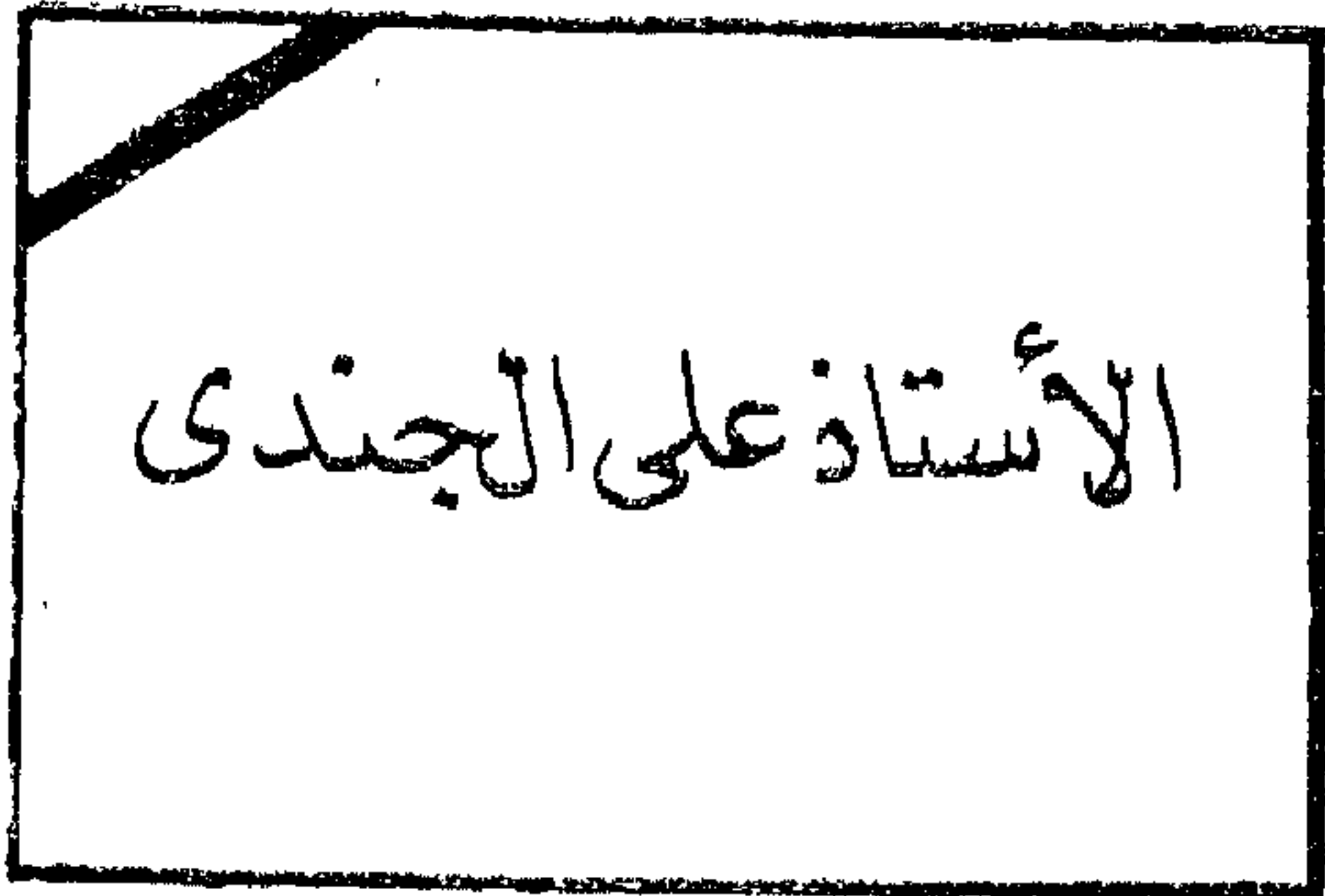
أما أنت «يا ثروت» ، فإني قسيمك في
بلواك ، شريكك في مصابك ، وإني أسأل الله
أن يهيئ لك ولدويك أسباب العزاء .

وأما أنتم أيها السادة ، فالشكر لكم ،
والسلام عليكم ورحمة الله .



في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٠ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ١٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقيم المجمع بداره بالجيزة حفل تأبين للمرحوم على الجندى عضو المجمع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكي المهندس في تأبين المرحوم :



ويبدو أننا في غمرة الحزن والأسى ننسى أنه ليس للموت مواعيد ، وليس للأجل مواعيد ، فكلم من رجل يخرج من بيته سليماً معافى ثم يدركه الموت فلا يعود إلى داره إلا محمولاً ، وكلم من رجل يمسي وفي صدره آمال كبار ، ثم يصبح فاذا هو خبر من الأخبار . هذه إرادة الله الذي لا يراد لقضائه ولا معقب لحكمه :

ويبدو أن هذه الوفيات المفاجئة قد أصبحت من سمات هذا العصر الحضاري الذي نعيش فيه ، فقد اشتد ضغط الحياة ، وتنوعت تكاليفها ، وازدادت سرعتها ، وأصبح الإنسان يطمح إلى تحقيق أهداف بعيدة لا تقوى صحته على احتمالها ، ومن أجل هذا كثرت الذبحات الصدرية ، والنوبات القلبية ،

زملائي .

سيداتى وسادتى :

إنه ليعز على المجمع أن يجتمع اليوم لتأبين زميل كريم ، وأستاذ فاضل ، وشاعر لامع هو المغفور له ، على الجندى :

لقد كانت وفاته المفاجئة صدمة هزت أعصابنا وتركت في نفوسنا أشد الحزن وأعظم الأسى : لقد كان الفقيه قبل وفاته بيومين اثنين بيننا سليماً موفوراً الصحة لم يبد عليه أقل أثر للضعف ، بل لقد كان لياقة وفاته يتحدث إلى الزميل الأستاذ عباس حسن حديثاً فيه دعاية وفيه روح ، وقد اعتزما أن يلتقيا في صبيحة تلك الليلة لقضاء بعض الشئون ، ولكن ما لبث زميلنا الأستاذ عباس أن روع - كما روعنا - بوفاته في الصباح الباكر .

والأهيارات العصبية ، والضغط العالى والواطى
وما إليها من الحالات التى لم يكن لأجدادنا
عهد بها .

هذه أيها السادة هى ضريبة الحضارة ،
ويجب أن نتقبلها راضين أو كارهين .

لوع هذا فإننا نؤمن إيماناً راسخاً عميقاً بأن

كل حى إلى فناء ، وأن كل نفس ذائقة الموت
وأن لكل إنسان أجلاً محتوماً وقدرًا مقدورا
« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة
ولا يستقدمون » صادق الله العظيم .

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وأسكنه
فسيح جناته ، وجزاه عما قدم للأدب واللغة
بخير ما يجزى به عباده الخالصين العاملين .

●●● كلمة الأستاذ عباس حسن :

زمرة من أنعم الله عليهم بالرضا وسلكهم
فى مسالك الصديقين والشهداء والصالحين .
وما عسى أن أقول فى وصف فقيدنا من
صداق القول وخالص الحق بعد أن فقدت
الألفاظ فى عصرنا - بل قبل حاضرنا - صحيح
الدلالة ، ودقيق المعنى ، وخصيصة التحديد ،
وانطلقت الألسنة تردد فى الثناء على من يستحق
ومن لا يستحق عبارات أيسرها : أنه علامة
زمانه ، وفريد عصره وأوانه ، وأنه أشجع
الأبطال ، وأذكى الرجال وأعلم العلماء وأبرع
الكتاب وأشعر الشعراء وما شئت من صيغ
التفضيل وأفاعله فى غير حذر ، ولا تحفظ
ولا تحرز ، حتى أخذ عليهم هذا بعض القدامى
فسجل أن المديح المردد قد استفاض حتى
انتهى إلى ابتذال اللفظ وموت المعنى ونفور
النفس كما سجله شاعرهم الذى يقول :
هل غادر الشعراء من متردم ؟

بسم الله نبتدى ، وبحوله نستعين ، وبحمده
للهج فى السراء والضراء ، وبحمته البالغة
نؤمن فى كل ما تجرى به المقادير ، ولأنبيائه
ورسله أكمل الصلاة وأزكى الدعاء وأصدق
الإكبار والتقديس ، ولمن اهتدى بهديهم
وترسم خطاهم أصدق مراسم الود وأخلد
آيات التقدير . تردها الألسنة فى حياتهم ،
وتجددها الذكريات البارة الخالدة بعد مماتهم
ويظل تاريخهم منارا يستضيء به السائرون
فى ظلمات الحياة ، وهدى يسترشد به الضالون
فى متاهاتها . وما نحن أولاء نتلقى اليوم
لنتذكر ونردد ما أثر علم من أعلام الهداية
ودعامة من دعائم النفع الأسمى والخير الأعم
هو الأستاذ : « على الجندى » أثابه الله على
ما قدم ، وأفاض عليه من رحمته ورضوانه
ما يفيضه على المصطفين الأخيار من أهل جنته
ودار معلوده . فما أجدر فقيدنا أن يكون فى

فما عسى أن أقول اليوم في موقف التأبين ؟
وما عسى أن أصنع ؟

لامناص من التردد ، ولى فيه شافع بل
دافع ؛ ذلك أنى أعرض مآثر فقيدنا على من
يعلم حقيقتها ويقطع بصديق القول فيها لا تشوبها
شائبة ادعاء ، ولا يدانيها من قرب أو بعد
زيف أو تضليل ، فماذا عن فقيدنا الراحل أسبغ
الله عليه رحمته ورضاه ؟

لقد زاملته في عهد الطلب ، وصاحبته بعد
التخرج سنوات التدريس في التعليم ، ثم في
كلية دار العلوم . وتلاقينا بعد ذلك عضوين
في مجتمعكم الموقر وقضيت في هذه الملازمة
والمصاحبة نصف قرن أو يزيد . وقل أن
تمهياً هذه المرافقة لكثير من الناس . وأشهد أنى
بعد طول المصاحبة في ميادينها المختلفة ومسالكتها
أو مزالقتها الوعرة الخطيرة لم أر منه إلا ما يسر
الصديق ، ويرضى الخالق الأسمى ، ويكبت
الماجن ، ويحمل الخاقد قهراً على محبته
ولا كباره . عرفته سمح الطبع مأمون البادرة بل
يُظلم أحياناً فيغتفر ، حلو الفكاهة ، حاضر
البدية وقائد القريحة يزينه في شبابه شيب
جميل على وجه أجمل ، وعقل أكمل : ورأيت
في عهد الطلب مجلياً سباقاً قلماً تخلى عن مكان
الصدارة ، يزينه أدب جم ، وحياء محبب ومنافسة
في كرائم الأمور ، وترفع عن صغائرها . يتوج
هنا كلاً حرص على الدين ،
واستمسك بأحكامه ، وانقياد كامل لكل
ما يقضى به في غير تزميت مقيت ولا تحلل
بغيره .

وزاملته مدرسا في معاهد التعليم العام فإذا
اسمه يتردد في مقدمة الأفاضل مادة وصناعة
وتأليفا وأمانة رواية . لم تتخل عنه مزاياه
الخلقية ، ولم يتخل عن الحرص عليها ،
والاستمسك بها . وهو إلى ذلك كله جم
التواضع سمح الطبع لم يتحدث يوماً عن نفسه
ولم يردد على لسانه لفظة « أنا » ولم يجبه
متحدثاً بما يسوء ولم يرد عليه بعض ما قال .

وتراه يصغى للحديث بسمعه وبقلبه ،
ولعله أدري به ، ولا تراه إلا باسم الثغر ،
متهلل الوجه ، إن فأنرك لم يغضبك ، وإن
مازحك لم يجرحك .

وإذا رأيت شقيقه وصديقه

لم تدر أيهما من الأرحام

ينطبق عليه ما قاله بعض السابقين في
صديق له وقد سئل لم تحبه ؟ فقال : إنه
الصديق الذى لا يضجرك محضره ، ولا يسوءك
كلامه ولا يستخرج ما عندك بالملق والمداهنة ،
ولا يندس لسانه بغيبة ، ولا يمشى بين
الأحباء بالسعاية ولا يتوانى في المجاهرة بالحق
ولو صدم به الحبايرة العتاة ، ديدنه : قول
القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً

على أى جنب كان فى الله مصرعى

وفى تلك الحقبة التى قضاه فى مدارس
التعليم العام أمد المعلمين والمتعلمين بمؤلفات
مدرسية متعددة نهضت بالتعليم والدراسة ،
وأعانت المعلمين والمتعلمين ورددت ألسنتهم
بعضهم مزاياها وجليل آثارها .

حتى إذا انتهى به المطاف إلى كلية دار
العلوم ووكّل إليه تدريس البلاغة والنصوص
تهلل وابتهج ، إذ وجد الميدان الأرحب
الذي يناسب مواهبه وذخائره ويتسع لطرائقه
وتجاربه في التدريس وفي التأليف . وفي
سنواته القليلة نخرج علينا بعدة كتب في
البلاغة كانت طرازاً جديداً في مجالها ،
وذخائر نفيسة في نواح بلاغية وأدبية ؛ ذلك أنه
اخط في تأليفها طريقاً جديداً ، وأحكم
الخطة فيها أما إحكام ، فكانت صوراً ممتازة
من الضوابط البلاغية القاعدية ، تساوقها
الأمثلة من الأدب الرفيع ، فقارئها ودارسها
ينتهي بها أو تنتهي به إلى تحقيق غرضين
جليلين : هما الضوابط القاعدية ، والروائع
الأدبية . ولعل الموقف يقتضيني أن أذكر
بعض الأمثلة من ذلك الفيض الهتون
الذي تموج به كتبه ، ومنها كتاب في جزأين
نخصها بفن الأسجاع وحده ، فن أمثلة الحناس
قول الفرزدق في زين العابدين :

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقى الطاهر العلم

ومن أمثله للجناس المسجوع ، وما أثقل هذا
النوع ، قول بعض الوزراء لأحد عماله : كثر
شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما اعتدلت وإما
اعتزلت . وما كتبه آخر : ترفق توفق .
وما كتبه ثالث : « للمحسن ما يُقنعه وللمسيء
من النكال ما يقمعه » . ومن أمثله للتشبيه وقد كان
من أمثله في عصرنا « زيد كالأسد » و « كأنما
الوجه قمر » ، فجاء فقيدنا فعرض عشرات
جديدة محببة منها في التشبيه المركب :

يهيجني الحمام إذا تغنى
كما سجع النوائح بالمرأى
ومن الأمثلة القديمة للكناية في عهدنا
السالف « زيد كثير الرماد ، طويل النجاد »
فاستبدل بها عشرات طريفة منها ومن التورية
كقوله :

وتنبهت ذات الجناح بسحرة

بالواديين فنبهت أشواق

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن

يعقوب والألحان عن إسحاق

وعلى هذا النمط سرى في اختيار أمثله
المختلفة في أبوابها المتعددة وقواعدها المتنوعة .
وبودي لو يتسع المجال ولكنه وأسفاه لا يتسع
هنا لاستعراض كثير من طرائف الأمثلة
ونواحي التجديد لتبين أن كتبه بحق زاد
رفق القواعد البلاغية فريداً ، وزاد لغوى ميسر
وذخيرة أدبية غالية .

كما وحسبي أن أكتفي من هذه الكتب البلاغية
بذكر ما رأيته منها وهو : (١) البلاغة
الغنية (٢) فن الأسجاع في جزأين (٣) فن
التشبيه في ثلاثة أجزاء (٤) فن الحناس .

تلك كلمة عن فقيدنا العالم ، أمان فقيدنا
الأديب فأوجز ما يقال فيه أنه إحدى الأعاجيب
حفظاً واستظهاراً وشاعرية ، فحفظه
لا يكاد يحد أو يعد إلا بآلاف الأسطر
والأبيات ، وهل أدل على ذلك من أن تذكر
أمامه أمراً فما تكاد تنتهي منه حتى ينقل إلى
سمعك ما قاله الأدباء قديمهم وحديثهم

ومطبوعها، وهي في كل ضروبها ضروب من
الفن الأمثل والنسق الأعلى، وحسبك من
عيون قصائده - وكلها عيون - قصيدته في
وصف الإسكندرية وقصيدته في العزة،
وقصيدته في اليتيم، وكان بودى أن أعرض
الساعة لخصائصه الفنية، وأتناول أدبه بالدرس
والنقد والتحليل، ولكن المجال لا يتسع لهذا
هنا، وأكتفي بعرض نماذج قليلة. قد تكون
رمزا لغيرها:

- فيه شعراً أو نثراً، حتى لتكاد تتوهم أن
الذخائر التي يحفظها رهن يمينه ووديعه راحتته
أو على أطراف أنامله، يعرضها حين يشاء
ويدعوها حين يريد فهي أسرع ما تلبي النداء
في غير توان ولا إمهال، وتلك خصيصة
بارزة من خصائصه يعرفها أصحابه ورفاقه:
وأما شعره فسل عنه دواوينه الأربعة بقصائدها
التي تفيض بالروائع والبدائع وتضرب في مناحي
الحياة المختلفة حضرها وريفها، مصنوعها

من قصيدة: بين أعمى البصر وأعمى البصيرة !!

صدقت أنا الأعمى! وإن كان لي نظراً
يكاد يرى الخبوء في باطن الحجر
وأنت بصير تلاحظ الشيء واضحاً
بعين قطأي وإن خانك البصر
وليس العمى أن تفقد العين نورها
ولكنه نور العقول إذا استتر
وكائن نرى أعمى من الناس بيننا
ومقلته لا تشكي الطول والقصر

من قصيدة: صورة تذكر بحالها !!

(الجمال الصريح ما استنطق الأفواه بالتسبيح)

ليت شعري! ما رابني من جمال
هو لله حجة بيضاء
رب حُسن هدى إلى خالق الحسن
حيارى لم يهدم أنبياء
ودعاء باسم الملائكة يُزجى
تتلقاه بالقبول السماء
ذكرينا «يا جُمُيل» بالله، فالله
جمال هامت به الأصفياء
وارجعينا إلى الحياة! فقد مُتسنا
وإن ظُنَّ أننا أحياء

* * *

(*) كان يسير في النهار المبصر شارد الفكر، فصادم إنساناً كفيف البصر: فقال له الرجل - وهو
يضحك: هل أنت أعمى؟
فأطربته هذه اللفتة! فأقبل عليه مصانحاً معتذراً: ورأى زيادة في هاملته أن يهدي إليه الكلمة.

فقد ثبتت في القلب منك محبة
كما ثبتت في الراحتين الأصابع
نم في جنة الخلد راضيا مرضيا ، وانعم
بجزاء ما قدمت يداك ، واسعد بما وعد الله به
عباده الصادقين المخلصين ، يبشرهم ربهم
برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم
مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده
أجر عظيم ؟

أى على . . .
عليك . تحيية الرحمن ترى
برحمات غواد رائحة
فغزاة للمجمع في نابغ من أعز رجالاته ،
وأظهر أعضائه ، وغزاة للأسرة في زعيمها
الأوفى وكبيرها المرجى ، وغزاة للغة والأدب
والأدباء في أوضح أعلامها .
أى على . . . سندكرك ماحيينا :

●●● قصيدة للأستاذ محمد عبد الغنى حسن :

مات الأديب الشاعر الراوية (*)

نكساد لانفُض عن راحل
غبارهُ حتى نرى تاليه
نشيعُ المسوقى ، ولا نرعوى
كأننا في سكرة لاهيه
تدفعنا الأرحامُ في لحظة
ويحتويننا القبرُ في ثانيه
ونحن ما بين بداياتنا
ومنتهانا صورُ فانيه

في كل عين دمعةٌ جارية
وكل نفس حسرةٌ باقيه
حين تنادى الجمع ما بينهم
مات الأديب ، الشاعر ، الراوية
مات ! فيا حزنى على واحد
فقدتُ فيه كلَّ أحبائيه
فقدتُ فيه ماضيها مدبرا
« والدار » ، و المجلس والعافيه
في كل عين نيباً مفرع
عن أنفُس ذاهبة ماضييه

* * *

(*) تفضل الأستاذ محمد شوقي أمين بإلقائها في حفل التأبين الذى أقيم بدار المجمع في صباح الأربعاء ١٤ من نوفمبر

مات الذي كانت رواياته
ذات أسانيد لها عاليه
تراه من كثرة محفوظه
يدهش بالحافظه السواعيه
تعيد ما قد قرأت سابقا
لاضحلة الغور ، ولا ناسيه
والنائيات الذكر إن يدعها
تصبح لديه سهله دائيه
يظل يروى . . . لا الوفاض انتهى
منه . ولا جعبته خاليه

أما الدراسات فكانت له
فيها البحوث الحرة الضافيه
في « السجع » ، في « التشبيه » آثاره
ليست على طلابها خافيه
كم وردوا من نبعها صافيا
من البيان العذب أو صافيه
أضفتي على المتن بها رقة
وأسيغ الحسن على الحاشيه . . .
فلا ترى فيهن من منطق
جاف ، ولا من لفظه جاسيه
حتى « الشدا المونس » من ورده
مزال كالنرجس في الآنيه . . .
في « المجلس الأعلى » خطانا به
رائحة للشعر ، أو غاديه
وفي لحسان الشعر كم جاجلت
منه ومنا ثورة حاميه

يفترق السراى : : : ولكننا
لم نفرق في الحب من ناحيه
يهدير باللفظ : : : ولكنيه
لم يترم يوما لفظه نابيه
في منطق عف وفي غضبيه
تعود من لحظتها راضيه : : :
إذا غضبنا فلأجنادنا
وديننا ، واللغة الراقية
وفي سبيل الله ثوراتنا
والحضر المحبوب ، والباديه

* * *

و « مهرجان الشعر » كم ذوبت
أنفاسه فيه ، وأنفاسيه !
يبثني - مستعبرا - ما به
أبشيه - مسترحما - ما به
تأسى على الشعر الذي لم يعد
فيه رواء الأعصر الخاليه
فلم يعد كأس ولا شارب
ولم يعد ساق ، ولا ساقيه !
ولم يعد هذا المذاق الذي
يلتذ طعم اللفظة الحاليه
ولم يعد تغزى شفاء به
. ولم تعد أفئدة صاغيه !
ولم تعد حتى الخيال التي
قد سنّها الشعر لنا هاديه ..
كننا البقايا فيه من حفنة
لكل أجناد لنا راعيه

لم نَسبَل التجديـد إلا على
آثار أعراقٍ لنا صافية
ولم نزل في ظلِّ أجدادنا
نعيشُ في نعمةٍ ، وفي فيه !
* * *

يا مَجْمَعاً للخُلد ! ما باله
قد دَهَمَتَه زعزعُ عاتية ؟
في كلِّ يومٍ عَمَّـمٌ ينطوى
في كلِّ حينٍ قمة هاربه
وللسردى عينٌ : . ولكنها
على السـدِّ رأً مفتوحة صاحبه
من ذا أعـدُّ اليوم من عقدكم
وكأله حباتُه غاليه ؟
ألمية أن الردى غاليه
وبعـثـرتـه ربحـه الذاريه

إن كان هذا الموتُ قد راعكم
بضربة من كفه راميه
ففيكم اليوم عزاءٌ لنا
يا حَجَّـراً الإخلاص في الزاويه
ويا أعينَ الناس في المنتدى
ويا جمالَ الحرف في القافيه !
* * *

يا تَمَّـد الفُصحى وأساسها
ويا ضياءَ الليلة الداجية
ويا تجاربَ زمانٍ ماضي !
ويا تجليَّ ساعة آتية !
لا خير إن فلَّ الردى جمعكم
وأدرتكم سنةً جاريه
كفأكمو خُلداً هنا أنكم
تمضون . . والفصحى بكم باقية . .

●●● كلمة الأسرة للأستاذ محمد الفاتح الجندی « نجل الفقيه »

المطبوع محمد عبد الغنى حسن ؛ وذلك
التكريم العلمى من قادة اللغة وسدنة الفكر
في البلاد العربية هو خير ما يواسى الأسرة
ويخفف عنها مصابها الفادح ، وسيظل فقيدنا
خالداً بسجاياه وسيرته وبآثاره الأدبية
والعلمية التي تحدث عنها الأستاذان الفاضلان .

مامات من حاز الثرى آثاره
واستولت الدنيا على آدابه
وسيبقى فقيدنا حياً بهذا التكريم من رجال
يعرفون الفضل لذويه ، ولا غرو في ذلك ،

الأستاذ الخليل رئيس مجمع اللغة العربية
بالنيابة

السادة الأجلاء أعضاء المجمع

سيداتي وسادتي :

لقد كان تكريمكم لا تأبينكم اليوم لعميد
أسرتنا زميلكم المرحوم الأستاذ على الجندی
خير شاهد على جليل وفائكم ، وأقوى دليل
على نبيل مشاعركم وفيض أحاسيسكم التي
عبر عنها زميلا الفقيه : العالم اللغوى الأستاذ
الكبير عباس حسن ، والأستاذ الشاعر

فأنتم صفوة رجال الفكر وقادة الرأي وأساتذة
الجيل وحماة تراثنا العربي ، والمدافعون عن
حياض اللغة العربية وآدابها وعلومها . . .
واسمحووا لي أيها السادة أن أبيع لنفسي
في هذه المناسبة أن أنقل إليكم أن أعز أمنية
للفقيد الراحل وهي أمنية سجلها التلفزيون
العربي قبل رحيله بأيام معدودات ، كانت
هي الابتهاج إلى الله سبحانه وتعالى بأن يوحد
الله سياسة العرب وزعمائهم وأن يكتب النصر
للأمة العربية على عدوها الصهيوني الشرس
في معركة الشرف والمصير وأن يمد في حياته
حتى يشهد يوم النصر .

ولعل في بشائر النصر التي بدت في العالم
العربي في هذه الأيام ما تفرُّ به روحه وتسمع
بها في عالمها العلوي مع الصديقين والشهداء ،
وهو ما تنبأ به الفقيد منذ عدة سنوات
وعبر عنه في هذه الأبيات :

أقسمت بالله الذي
فوق البرايا قد قهر
بالشمس بالقمر المنيـر
وبالصباح إذا سـفـر
بالذكر بالإنجيل بالـ
كتب المقدسة الأخر
بالبيت بيت الله حج
لله الموحـد واعتمـر
أنا سنقذف باليهـو
د إلى غيابات الحفر

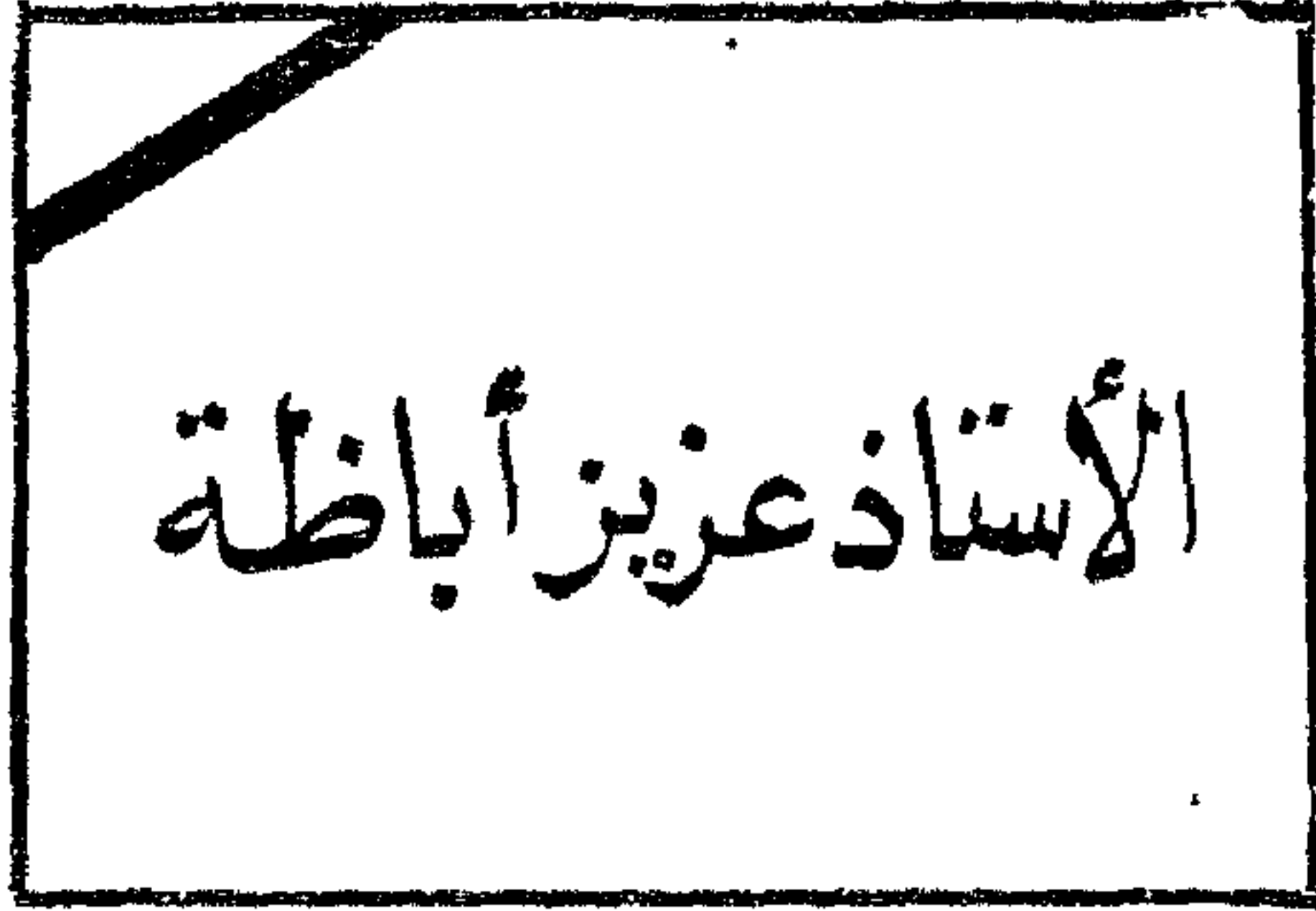
بالجيش كالمسيح الدفـا
ق وكالحضـم إذا اعنـكـر
ونعود للفردوس يحدونـا
ويقدمـنا الظفر
ويقال : حزب الله من
حزب الضلالة قد ثـأر
ويقال : صهيون تسلـاشي
وابن ديان اندحـر
ويقال : جيش العـرب
في حرب المصير قد انتصر
كما كان والدي ، رحمة الله عليه ، يأمل
أن يرى بحوثه وآثاره المخطوطة التي انتهى
من إعدادها في أيامه الأخيرة متداولة بين
الناس ، وإنني أسأل الله سبحانه وتعالى أن
يوفقنا ويعيننا على نشر تراثه الفكري
وإنتاجه الأدبي حتى ينتفع به الناطقون
بالمضاد في العالم العربي والإسلامي .

وبعد :

فإنني باسم جميع أفراد أسرة الفقيد أتقدم
إلى السادة الأساتذة ، رئيس الجمع بالنيابة
وأعضائه وجميع السادة الحاضرين بأسمى
آيات الشكر والتقدير على ما حبوا به عميد
أسرتنا من تكريم - نسأل المولى جل شأنه
أن يثيبكم عنه وأن يجزيكم بما أنتم أهل له :
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٢٧ من شوال سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢١ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) اقام المجمع في داره بالجيزة حفل تابين للمرحوم الاستاذ عزيز اباظة عضو المجمع ، وفيما يلي ما القى في الحفل :

كلمة الدكتور أحمد الحوفي في تابين المرحوم :



وبحسبي في هذا المقام أن أعرف به
وبشعره في غير تفصيل وفي غير إجمال :

١ - حياته

ولد الفقيه في ١٣ من أغسطس سنة ١٨٩٨ بقرية (الربعماية) مركز (منيا القمح) بمحافظة الشرقية ، وتعلم بالمدرسة الناصرية الابتدائية بالقاهرة ، ثم بالمدرسة التوفيقية والسعيدية الثانويتين بالقاهرة ، ونال شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩١٨ ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، وتخرج فيها سنة ١٩٢٣ واحترف بالحاماة ، ثم عين عضوا بالنيابة ، ثم عضوا في مجلس النواب .

وفي سنة ١٩٣٣ عين مديرا لتحقيق الشخصية بوزارة الداخلية ، ثم وكيل المديرية البحرية سنة ١٩٣٥ فوكيل المديرية الجيزة :

سيادة الرئيس ،

سيداتي وسادتي :

عزيز عليّ أن أقف هذا الموقف لأؤبن
عضوا بارزا من أعضاء مجمع اللغة العربية
شارك جادا مخلصا في أعمال المجمع أربعة عشر
عاما ، كان فيها أثرا عند زملائه جميعا ، أحبوه
لفنه ، وقدروه لعلمه ، وأعزوه لدمائة خلقة .

وعزيز عليّ أن أرثي شاعرا كبيرا من
شعراء البرودة أثري الأدب العربي بشعره
ومسرحياته ، ووقف صبورا جلدا مظفرا في
صد تيار العامية عن الشعر وعن الأدب كله .

لكن الأسي لا يرد قضاء ، ولا يعيد فقيدا ،
فليكن عزيز أباظة حيا بيننا بآثاره ، وإنها
لحديرة بأن تحيا وتبقى كما حييت وبقيت آثار
البلغاء منذ العصر الجاهلي إلى اليوم .

وفي سنة ١٩٣٩ عين مديراً للقبليوية
بالفيوم فالمنيا ، ثم محافظاً وحاكماً عسكرياً
لمنطقة القناة سنة ١٩٤١ ، ثم مديراً للبحيرة
ثم أسيوط .

وفي سنة ١٩٤٧ اختير عضواً بمجلس
الشيوخ ، وعمل بعد ذلك في الميدان الاقتصادي .

وفي سنة ١٩٥٩ اختير عضواً بمجمع اللغة
العربية ، وكان في الوقت نفسه عضواً
بالمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم
الاجتماعية ، وعضواً مراسلاً بالمجمع العلمي
العراقي .

وقد شارك في ثلاث لجان بالمجمع اللغوي
هي لجنة القانون والاقتصاد ، ولجنة ألفاظ
الحضارة ولجنة الأدب .

وقد منحته الدولة الجائزة التقديرية سنة
١٩٦٥ ، وجاء في تقرير لجنة الجائزة بالمجلس
الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم
الاجتماعية :

أن الأستاذ عزيز أباطة يمتاز في إنتاجه
الأدبي بما وفق إليه من الإبداع الفني في شعره
الغنائي والمسرحي .

وكانت وفاته في العاشر من يوليو
سنة ١٩٧٣ م .

٢ - مؤلفاته

(أولاً) في مجال الشعر :

١ - أنات حائرة ، ديوان كله في رثاء
زوجته .

٢ - قيس ولبنى

٣ - العباسة

٤ - الناصر

٥ - شجرة الدر

٦ - غروب الأندلس

٧ - شهر يار

٨ - أوراق الخريف

٩ - قافلة النور

١٠ - قيصر

وهذه كلها مسرحيات شعرية
(ثانياً) البحوث والكلمات والقصائد المتصلة
بالمجمع اللغوي :

١ - كلمة عن سلفه أنوليتمان ألقاها في
احفل استقباله بالمجمع . (دورة ٢٦ جزء ١١
للمجلس ، المجلة العدد ١٤) .

٢ - المسرح الشعري ، بحث ألقاه
بالمجمع . (د ٢٧ ج ٧ للمؤتمر - البحوث
والمحاضرات) .

٣ - كلمة في استقبال الدكتور محمود
توفيق حفناوي (د ٢٩ ج ١٦ للمجلس -
المجلة العدد ١٧) .

٤ - لغة الشعر - كلمة ألقاها في مؤتمر
المجمع ببغداد . (د ٣٢ ج ٦ لمؤتمر بغداد) .

٥ - الفصحى والعامية من زاوية
جديدة . (د ٣٢ ج ٩ للمؤتمر الثالث) .

عشرات القصائد والمقطعات ، وفيها ألوان شتى من الموضوعات ؛ كالوصف والحرب والحماسة والحكمة والغزل ، وفيها ضروب من التكليم والخطاب والحوار والجدل ، وبها شعر ينطق به واحد ، وشعر تنطق به جماعة ، وشعر يعبر عن فرد ، وشعر يعبر عن أفراد أو عن أمة ، وهي من أوزان شتى وقواف عدة :

ومن هنا تجيء صعوبتها على الشاعر ، وتجيء دلالتها على مقدرة الشاعر .

٢ - ولقد أثبت عزيز أباظة بمسرحياته التسع ما أثبتته شوقي من قبل بمسرحياته أن الشعر العربي قد يبر على الوفاء بما تقتضيه المسرحية من عرض للأحداث ، وتصوير للنفسيات ، وحوار على ألسنة الذكور والإناث والكبار والصغار ، وتعبير عن أخلاق الأخيار والأشرار والأقوياء والضعفاء والفرحى والحزباء والسعداء والأشقياء .

وبهذا بطل ما لا كتبه ألسنة وسطوته أقلام أن الشعر العربي كز عسر لا يطاوع الشاعر المسرحي ، وأن الخيال العربي ضحل لا يستطيع أن يخلق ولا أن يحلل ويركب ويبتدع الأحداث والأشخاص ، وأن البلاغة العربية ضيقة تعتمد على الإنجاز ولا تعرف التفصيل والتوضيح والإطناب .

٣ - وإذا كان الشعر العالمي قد أتى عليه دهر طويل وهو يصطنع الشعر وحدد لغة للمسرحية فإن الرومانتيكية حاولت أن تنزل

٦ - قصيدة في تأبين رئيس المجمع الأستاذ أحمد لطفى السيد : (د ٢٩ ج ٢٧ للمجلس - المحلّة العدد ١٨) :

٧ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الأستاذ عباس محمود العقاد . (د ٣٠ ج ٢٧ للمجلس - المحلّة العدد ١٩) :

٨ - تحية بغداد - قصيدة ألقاها في الجلّسة الافتتاحية لمؤتمر بغداد . (د ٣٢) .

٩ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الأستاذ محمد رضا الشيبى . (د ٣٢ ج ٨ لمؤتمر القاهرة) .

١٠ - قصيدة في تأبين عضو المجمع الشيخ محمد على النجار . (د ٣٢ ج ٢٣ للمجلس) .

١١ - قصيدة في تأبين الأستاذ مصطفى نظيف عضو المجمع . (نشرت بمجلة المجمع العدد ٢٨ في نوفمبر سنة ١٩٧١) .

١٢ - قصيدة تحية لرسالة العلم (المحلّة التي تصدرها جمعية خريجي كليات العلوم برياسة الدكتور عبد الحليم منتصر - مارس ١٩٧٣) .

١٣ - كلمة أعدها لاستقبال الأستاذ مصطفى مرعى بالمجمع اللغوى ، وألقاها بعد وفاته نيابة عنه الأستاذ ثروت أباظة في يوم الأربعاء ١١ من ذى القعدة سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ٥ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م .

٣ - شعره المسرحي

١ - المسرحية الشعرية لإنتاج زاخر أو بستان ناصر يضم عشرات الألوان ، ففيها

الشعر من عليائه لتحل النثر محله ، وناصرها في اتجاهها المذهب الواقعي والمذهب الطبيعي ، ولكن الشعر لم يستسلم لهذه المنافسة ، وآزره في ثباته الذين نهضوا لمقاومة الواقعية والطبيعية .

وكان من الحاملين على الشعر المسرحي نقاد دعوا إلى إيثار النثر بدعوى التزام الواقع ، وبدا في بعض الأحيان أن الغلبة لدعاة النثر وأنصار الواقع وبخاصة بعد أن راجت قصص تشيكوف وإبسن وأضرابهما ، حتى إن الشاعر الكبير إليوت -- وهو من أنصار الشعر المسرحي -- كاد يداخله اليأس من أن يسترد الشعر مجده المسرحي فقال :

« يظهر أن عالمنا المعاصر حافل بالفوضى ، وأن المجتمع الذي نعيش فيه تعوزه المقاييس الدقيقة ، فصارت وظيفة الشاعر المسرحي شاقة جدا أو مستحياة » :

وكان لهذه الدعوة أو لهذا اليأس صدى في مصر والعالم العربي ، فقال الدكتور طه حسين « إن الشعر لم يعد صالحا للمسرح » :

وسرعان ما انتأت إلى جانب تلك الدعوة دعوة أخرى أشد خطرا ، وهي الدعوة إلى اتخاذ اللغة العامية لغة للمسرح ، بدعوى الحرص على محاكاة الطبيعة ومجاراة الواقع .

٤ - وما أيسر الرد على الدعويين : دعوى تنحية الشعر عن لغة المسرح ، ودعوى إيثار العامية على الفصحى :

ومن الوفاء لذكرى شاعرنا عزيز أباظة أن أنقل هنا بعض ما رد به :

قال في مقدمة مسرحيته شهريار : « إن الشعر يحفظ الاتزان بين الواقعية والشكل الخالص وبين العرض الحرفي والتجريد ، إنه يحقق الهدف الفني الرائع ، فرسالته في كريم أعراقها توطئ لنا سبيل فهم هذه الحياة وإدراك قيمها وجمالها .

ويبدولي أن وراء الانفعالات المعروفة والدوافع الشعورية -- تلك التي تقتصر المسرحية النثرية على عرضها -- يبدولي أن وراء ذلك تنبسط آفاق لأشعورية ليست بذات حدود ، إنها الانفعالات التي لانستطيع أن نجلو عواملها إلا إذا تجردنا من أنفسنا ، وسمونا فوق أفعالنا وتجاربنا ، إنها الحقائق الخالدة التي لا يسجلها إلا الشعر بإيقاعه .

وقال أيضا : « قال أنصار الواقعية فيما قالوا : وما التراكيب الفصيحة ؟ وما الأسلوب الشريف ؟ الكلام بغيرهما أبين ، والفهم أدنى وأيسر .

ثم برزوا مسفرين مصريين مجاهرين ، فدعا فريق منهم إلى أخلاط من التعابير المتهافنة الغثة من الشعر المنشور والنثر المشعور يقيمونه باسم الحقد والعجز على أنقاض الشعر الأصيل .

ودعا فريق آخر إلى العامية يكتب بها الناس قصصهم ومسرحياتهم لتقوم باسم التقدمية أو الشعوبية على أنقاض تلك الذخيرة الربانية من النثر العربي المحكم ، وساقوها دعوة أدبية فنية ، وهي دعوة

أثيمة خبيثة تكمن وراءها مساندة مظاهرات نفوس "سقيمة عطاش لهدم كل ما هو مأثور من ترات العصور ، وكل قيم من ذخائر الحضارات التي هذبها الزمن وأغلاها العتق : من الحق لكم ومن الحق عليكم أيها الخالدون أن تجهروا بأصواتكم - وهي في هذا المقام من أصوات النبوة - مطالبين كل دولة عربية أن تطهر صحفها وإذاعتها ومسارحها الجادة من خبثين قاتلين : خبث مساندة العامية وإشاعتها باسم التخفيف والتيسير ، وخبث مجاهرة الأدب بعدوان سافر يهون من أقداس شعره ونثره باسم التجديد والتطور ، فإن فعلتم - وإنكم لفاعلون - فنحن الأعلون ، والله معنا ^(١) :

أرأيتم إلى اعتراضه بالعربية الفصحى لغة للأدب ؟

ثم أرأيتم إلى حملته على العامية وأنصار العامية ؟

وإلى دفاعه عن الشعر لغة للمسرحيات الجادة ؟

وما من شك في أنه محق فيما قال ، لأن الذين دعوا إلى العامية لغة للمسرح بدعوى مجارة الطبيعة والواقع واهمون ، فإن الواقع الذي ينبغى أن يتوخاه مؤلفو المسرحيات ليس هو واقع اللغة التي يتفاهم بها الناس في حياتهم اليومية وشئونهم المعتادة ، بل هو الواقع الفكري والعاطفي والنفسي للشخصيات ، بحيث لا تصدر الحكمة عن

أحق ، ولا تنطلق الفلسفة من جاهل ، ولا يجي الهدى على لسان ضال ، ولا يبدوجبن من بطل . . . الخ .

وعلى الذين يتحمسون للواقع أن يسألوا أنفسهم أسئلة شتى ، منها :

هل يتناسب الواقع ورقعة المسرح الصغيرة التي لا تمثل شيئاً من ميادين الحياة الفسيحة الرحبة ؟

وهل يتفق الواقع وتلك الأزياء والمناظر التي يشهدها النظارة على خشبة المسرح ؟

وهل يتشابه الواقع وهذه المشكلات والعقد والحلول التي تعرض في ساعتين أو ثلاث وقد حدثت في شهور أو أعوام ؟

على أن الترام الفصحى يتيح لأبناء الأمة العربية جميعاً أن يفهموا ويتذوقوا ما قرضه شاعر المسرحية ، لأن الفصحى لغتهم الأم التي يتوافقون عليها ويتفاهمون بها ويتواصلون بأسبابها ، أما العامية فهي أشتات وأصناف تختلف باختلاف الأقاليم ، بل تختلف في الإقليم الواحد .

فلا عجب أن اتسمت مسرحيات عزيز أباظة بالبيان المتخير الأخاذ، وبإجراء الجديث الواحد على وزن واحد ، وبالحرص على سلامة التعبير من اللحن أو الركافة ، حتى إنه قلما قصر ممدوداً أو ممد مقصوراً مع علمه أن هذا في الشعر رخصة .

(١) البحوث والمحاضرات ، ١٥٦ ، سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١

وإذا كان في مسرحية (أوراق الخريف)
قد استخدم كلمات مما يدور على ألسنة
العامّة ، فإنه قد قصد إلى تسهيل الفصحى من
ناحية ، وإلى الدلالة على صحة هذه الكلمات
من ناحية ، مثل :

حسادة ، روقى ، عجائب ، البخت ،
مبسوس الذرة ، تعكير المزاج ، من غير
كلام .

٤ - العروبة في شعره

كان عزيز أباطة شاعراً معترفاً بعروبته لغة
ودماً ووطناً ووجداناً وحضارة وآلاماً وآمالاً
وثقافة .

وللعروبة في شعره مظاهر جهر بها مرات
على لسانه ، أو أدارها على ألسنة الشخصيات
في المسرحيات .

١ - فقد زار قرطبة ، وطوف بأرجائها ،
وتلبث عند معالمها العربية ، وأطال الوقوف
في مسجدها وقبالة مثننته ، فخيل إليه أن قلبها
ما يزال يعتصره الألم ، وأن حسراتها على
عصرها العربي الذهبي نائرة لم تخمد ، وتذكر
قصر الزهراء الذي كان قطب السياسة العالمية
في عهد عبد الرحمن الناصر ، وتخيّل عظمة
قرطبة وآدابها وعلومها وحضارتها والوفود التي
كانت تهرع إليها ، لترتوى من مناهلها ،
فقال في قصيدته (وقفة على قرطبة) :

يا جارة المسجد البالى ومثننته

الله كان ينجى من مشارفها

ماذا دهاها فأمتت وهى ناهدة
في غير ما ألفتسه من معانفها ؟

وقفت في طلل الزهراء مخشعاً
والنفس نهب لعاتٍ من عواصفها

أرنو فيرتد طرفى راعشاً وجلا
كعائب اللجسة الكبرى وخائفها

طوّفت بالطلل الأسوان أسأله
أين الخلافة في حِصْنِي خلائفها ؟

أين ابن بجدتها شعّت حضارتها
سناً على سالف الدنيا وآنفها ؟

الناصر الظافر الخشى جانبها
في حيثما دب ساع في تناثفها

البازل العلم عن أعلام جامعتها
تدنى الثمار مزكّاة لقاطفها

لا ظل روما ولا أفياء قدوتها
بمجزئ العقول عن ملتف وارفها

ذكرت يوم الوفود الضخم ساعية
للقصر ترفل في ضاحى ملاحفها

فزف كل كبير من عواهلها
ونخف كل وقور من أساففها

ساقوا الهدايا وساقوا بينها خطباً
أنساهم الروع طرفاً من طرائفها

ثم تبدو الحسرة في قوله :

لم يترك الدهر من راووق أندلس
إلا شُفّافة راحٍ من عوارفها

لمنى على حسنها الداوى وزهرتها
وحاليات الخواشى من رفارفها

وقلت : أين حضارات ومعرفة
أظل هذا الوري موشى وارفاها ؟

وأين هدى تهدي من صحائفها
وأين نور تجلى من مصاحفها ؟

يا ويحها ذكريات هيجن بي حرقاً
تنساب في راسب الذكرى وطائفها

٢- ودعا إلى وحدة العرب ، وحرص
عليها ، ونفرهم من الفرقة والانقسام
والتخاذل ، ففي مسرحية (غروب الأندلس)
أدار حواراً بين محمد بن سعد الزغل شقيق
السلطان أبي الحسن وولي عهده وبين ابن
سراج وعائشة وموسى بن أبي الغسان ، فصور
أسى الزغل من الفتن المشتعلة بين العرب ،
وبغضته لتأريثها ، واستنكاره الجنوح إلى
مثيريه على الولايات العربية المحاورة ،
في الوقت الذي يجب فيه على العرب أن يتآزروا
كالبنيان المرصوص ليردوا هجمات الفرنجة ،
فيصونوا حصن العروبة ، ويفتدوا عزة
الإسلام :

عرضتم لضخم الأمر لم تتذاكروا
عواقب قد تبدو لكم وتغيب

أتأريث أضغان وإيقاظ فتنة
تدك قواننا والعدو رقوب ؟

إذا لم نقف صفاً هلكننا وأطبقت
قواطع تفرى ملكنا ونيوب

فلا تطمسوا الإسلام إن شروقه
سيغشاه مما تز معون غروب

وصور في مسرحية (العباسة) سحق
زبيدة على تفرق العرب بالشام ، وكيد
بعضهم لبعض وعجها من العصبية الحمقاء
بين اليمانية والنزارية وهم جميعاً أبناء عمومة
يستظلون براية الإسلام :

وهل كان بالشام غير الشقا
ق كل شقاق له مقطوع

عسائنة أو نزارية
وبينهما رحيم تجمع
ولو أنهم تزكوا راجعوا الـ
أناة وعن جهلهم أقلموا

٣- وأشاد بوحدة الدم ووحدة الدين
والوجدان المشترك في وثيق العلائق بين العرب
وإن تعددت أقاليمهم وتناعت ديارهم ، فصور
هذا في مسرحية (غروب الأندلس) على
لسان الأميرة عائشة زوجة السلطان أبي الحسن
في حديث بينهما وبين السلطان الغورى حينما
جاءت من الأندلس إلى مصر لتستنجده على
الفرنجة :

حييت ياملك الملوك ولم تنزل
أعلاهم وأعزهم سلطانا

وبقيت للأمم الشقيقة موثلاً
في إدها ومناصرأ معوانا

قد آن أن أمضى إلى وطني وإن
كانت دياركم لنا أوطاننا

الدين قرني والعروبة لحمه
ولعل أقوى الأصمات أسانا

تلك الوشائج وحدث ما بيننا
وأن اختلفنا رارة ومكاننا

فرد عليها الغورى مستجيباً ملياً نداء
العروبة ، معتزماً على نجدة عرب الأندلس
بجيش عربي لحب مظفر يدحر أعداء العروبة
والإسلام :

سنشورها حرباً ضروساً مهيدة
ونبعثه جيشاً كثيفاً عزمتمنا
يرد عن الإسلام كيد عدوه
ويحمي حمى دولاته أن تهدمها

٤- وإن الاعتزاز بالعروبة وإعزازها
والحرص على حمايتها التجنى في كثير من
مشاهد مسرحية (العباسية) كقوله على لسان
الرشيد للشاعر منصور النمرى :

بل قل فما فضل أمية
إذا لم يورخ مجدها شعراؤها
إذا العرب استعلت بفرن شأت به
سواها فهذا شعرها وغناؤها

وفي المسرحية تصوير لزبيدة وهي تحض
هرثمة على التنكيل بالبرامكة ، خشية على الملك
العربي أن يقوضه وعلى الإسلام أن يرتقوه ،
بعد ماتين لها وللعرب أن البرامكة أبطروهم
الحاه والسلطان والثراء ، فجعلوا يكيّدون
للعرب ، ويتطلعون إلى بعث ملك كسرى :

لاتناموا عن جعفر فله كالد
تب عين يقظى ونوم مطار
لست أطوى له سخيمة صدر
لا ولا بينه وبينى نار
غير أنى أخشى على الملك منه
وعلى عترة النبي أغار

وفما تصوير للقائد العربي الفضل بن الربيع
ناقماً من البرامكة ما تنقمه زبيدة في قوله
للأمير جعفر بن الهادي :

فقل لأهل الزيغ من فارس
من كل زنديق الهوى مشرك
لن تباغوا في العرب أوطاركم
سيمحق الله بنى برمك

وفي المسرحية صور من شكاوى الشعب
إلى الرشيد مما يقترفه البرامكة وعمالهم من
قسوة وظلم ومحاباة ، مثل قول أبي الجهم :

أمين الله أدركنا
فإننا مسنا الضمير
نعيش العيشة الدنيى
ويهننا الأجنب الغمير
وقول مخلد :

أرضى أن يجيعوننا
وأنت الوقر واليسير ؟
وأن نمسى بالارى
وأنت البحر والقطر
وقول أبي الجهم مرة ثانية في تفصيل مثير :

وذنبانا هما الهون
لسدى الظالم والفقر
فلسنا من بنى برمك
لك لا يعصى لهم أمر
نماهم للعلا كسرى
ومانى ومنو جهر

ولكننا من العرب
وخط العرب من زوا
قريش هل لها وزن
لدى الأعلاج أو قدر؟
ومثل إثارة أبي الجهم لنخوة الرشيد
في قوله :

ولكن مي زوا جنسا
من الناس على جنس
وفي الحق فأين العسر
ب من مشيخة الفرس ؟
ثم تعقب عجوز على هذا بقولها للرشيد :

أجبرنا بت أجورا
من الله ومشينكورا
فيلتهب الرشيد حنقا على البرامكة ، ويبدو
حنقه وعزمه على التنكيل بهم في قوله
لجعفر البرمكي :

وسلبتم جاه الخليفة جهرة
وتركتموه دمية في هيكل
أترقم مثل الملوك وأمتي

جوعى تدافع في الحضيض الأسفل
هـ - كانت عروبة عزيز أباظة عقيدة تجلت
فيما أسلفت من مظاهر ، وتجلت في معرض
آخر. هو المقابلة بين الشعر العربي والشعر
الغربي ، فقد كان له بحث منذ ثلاثة عشر
عاما وازن فيه موازنة سريعة بين الأدب

العربي والأدب الغربي ، ثم أعد موجز هذا
البحث للنشر في آخر أيام حياته وإن لم يظهر
إلا بعد وفاته (١) :

قال إن الشاعر العربي يؤثر الإيجاز الجامع
لأطراف الفكر أو الشعور ، وضرب أمثلة لهذا
منها أن شكسبير أطال في تصوير جنون الغيرة
في مسرحية (عطيل) حتى انتهت غيرة الزوج
بقتل زوجته البريئة ، ثم بندمه ، ولكن
الشاعر العربي ديك الحن ألم بهذا في إيجاز في
قوله :

رويت من دمها الثرى ولطالما
روى الحوى شفتي من شفتيها
حكمت سيني في مجال خيناقتها
ومسدا معي تجرى على خديها
وراسين جمع في (أتالي) أطراف الحقد
الأسود ، وعرض للانتقام والمقت على الرغم
من الود والرياء والصفاء المستحدث ، على
حين أن الشاعر العربي وجد مقنعا في قوله
المركز :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى
وتبقى جزازت النفوس كما هيسا
وموليير تحدث في سخرية عن البخل
والتقتير ، واستقصى ظواهر تلك النفس
المريضة وبواطنها ، ولكن ابن الرومي أرسل
في بيت واحد صورة ناطقة حية للبخيل

(١) مجلة قافلة الزيت - جمادى الثانية ١٣٩٣ (يوليو ١٩٧٣ م) .

لا يغض من كمالها أنها موجزة لامشاهد فيها
ولا فصول :

ولو يستطيع لتقتير سيره
تنفس من منخر واحد
ثم قال إن الأدب العربي سبق إلى الإشادة
بالحرية والديمقراطية والاشتراكية والتعاون
والسلام وضرب أمثلة لهذا ، منها قول أبي
العلاء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعبدوا مصالحها وهسم أجراؤها
وقول الشاعر :

الحسطين غنيم بفقيرهم
حتى يصير فقيرهم كالكافي
وقول معن بن أوس :

دعاني يشب الحرب بيني وبينه
فقلت له : لابل هلسم إلى السلام
ه - الإسلام في شعره

أما مظاهر الإسلام في شعره فهي كثيرة
تبدو في ضروب شتى من حالات اليسر
والعسر والفرج والضيق والقوة والضعف .
١- فالجهاد للذود عن الإسلام وحماية
المسلمين فريضة يتسابق في النهوض بها المسلمون ،
ويتنافسون عليها ، معتقدين أن الله ينصر من
ينصر دينه ، وأن قواه الخفية الغالبة تمدهم
بجنود لا يرونها .

يتجلى هذا في حوار بين القاضي سنجر
والملك وابن مطروح من مسرحية (شجرة
الدر) :

ابن مطروح للملك :

حيثك مصر فقد حميت ذنارها
والخطب فوار المراجل حلى
ودفعت عنها المعتسدين وسمتهم
عنتاً فصنت كنانة الإسلام
الملك يرد على مدح ابن مطروح :

لم أرم - شاعر مصر - حين رميتهم
بل كان ربك ذو الجلال الراي
والمجاهدون الذين افتدوا الإسلام بدمائهم
وأرواحهم ، وانتصروا على أعدائهم ،
لا ينسون وهم يباهون بانتصارهم أنهم نصروا
دينهم إذ وقوا من الغزو بلادهم ، وكفلوا
لوطنهم الحرية والقوة والعلاء ، يقول أقطاي
لقلاوون في مسرحيته (شجرة الدر) :

قل لي : أما نحن الذين تحررت
مصر بخبر سيوفهم ودمهم ؟
ذاق الصليبيون غضبتنا فما
صبروا على المسوت الذي غشاهم

ويقول قلاوون لبيبرس وأقطاي :

أقطاي نحن ثلاثة لم نختلف
فيا مضي فلنبتق متفقينا
أسيافنا لم تُعجل عن أعقادها
إلا وقت عرضا لمصر وديننا
٢- ولما ضل بعض الحكام المسلمين
سواء السبيل فحالفوا الصليبيين على مصر ،
واستعانوا بهم ، حزت الآلام في نفس شجرة
الدر وودت لو أنهم استعانوا بالخليفة وحده :
لو أنهم قصدوا الخليفة وحده
قلنا - وإن لم ينصفوا - لم يسرفوا

لكنهم ركنوا إلى أعـدائنا
مستنصرين بهم ولم يتعففوا
وعدوا الفرنجة بعض مصر فقل لهم
الله مانع مصر مهما تُرجِفوا
وإن شجرة الدر لتعجب من عدائهم لها
وتغاضيم عن تطبيقها للشورى التي أمر الله
بها ، وتعاميمهم عن دحرها للصليبيين وحماتها
للإسلام :

أفناقمون على أنى قبلت
الشورى وأحكام الكتاب أمى ؟
أم غاضبون لأنى أوقعت بسال
إفـرنج فاعتصمت عرى الإسلام
٣- وهو يصور مكانة العلماء عليه لا يصح
أن يمسه أحد ، ويحقر من يتخذ الدين منهم
أحبولة للكسب أو الجاه أو الثراء ، فإنه لما
حاول المفتى أن يخدع شهر يار فخابت
مشورته ، قال له :

انصرف يا محقر العلم شر الـ
علم ما كان نهزة للثراء
إن للمسلمين ديننا جليلا
صافى النبع من رحيق السماء
قد لصقتم (١) به اللصائق حتى
تترفوا فى جهالة الجهلاء

٤- وهو يردد فى مسرحياته إيمانه العميق
بأركان الإسلام وتعاليمه وآدابه . من ذلك
أن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ،

(١) الصواب الصقتم .

ومدبر الكون ، ومانح القوى والقدر ،
علمه سابق ، وقضاؤه واقع .
نجد هذا فى قول سنجر للأمير فى مسرحية
(شجرة الدر) :

مولاي لايزعجـك ما بُـلغت من
نبا فإن الغيب سر مضمـر
قل للمقدر للعباد حظوظهم
الله فوقك قادر ومقدر

ونجد إيمانه بالبعث فى قوله بمسرحية
(أوراق الخريف) :

قولى لها سأظل حافظ عهدا
حتى تجمعنا الحياة الثانية

وكذلك إيمانه بالقضاء والقدر فى قوله
بمسرحية (أوراق الخريف) :

مهيب : أتؤمن بالمقادير ؟

قاسم : (فى دهشة) غير شك :

مهيب : وتؤمن من أنها فرضت كتابا .

قاسم : أجل :

مهيب : وتحس أن هناك حدا لحول المرء
من عاناه خابا ؟

ويؤمن بأن الله تعالى هو الهادى اللطيف
العليم الخبير الذى يستجيب دعاء عباده ،
قال على لسان العباسة :

يارب أدركنى بلطفك واهدنى

سنن السداد فقد سألت كريما

وهو تعالى العادل المحير الناصر ، قالت عليه
لعبته في مسرحية (العباسية) :

حسبك الله لـــــــد زد
تِ لظى القلب استعمارا
إن لله لـــــــدلا
إن طغى السدهر وجارا

وكثيرا ما نجد القسم بالله أو ببيته العتيق
في مواضع شتى ، حيث يقسم الشخص صادقا
فيما يقول غير متخذ من قسمه وسيلة للتضليل
والخداع وستر الافتراء . فالعباسية تعاتب
الرشيد ، وترد على ، زبيدة إذ آتهمها
بكراهيتها فتقول :

حلفتُ بالبيت العتيق والحق يحلف
ماشفتني من فعلها حقد ولكن أسف

وجعفر يؤكد حبه للعباسية ، فيقسم
بالكعبة مثابة المسلمين ومحجهم :

أقسمت بالبيت تخــــدى
عيس له وتخبــــب
أعناقها مهطعات
لقــــده تشرئب

والحرمون عليها
ساقوا وألقوا ولبوا (١)
لأنت حلمى المرجــــى
في خاطر السدهر يخبــــو

٥ - ويقتبس من القرآن الكريم ، كقوله
في مسرحية (العباسية) على لسان العباسية
لأختها :

« ورضا الرحمن يؤتبه من الناس السعيدا »
وقوله في (قافلة النور) على لسان جابر المنذر :
وقد أقمنا صلاتنا وقضينا
ذمة الله فاقض ماأنت قاض
وقوله على لسان سلفراس :

لكم هديكم فاتبعوا هديه
ولى دين أبائى الكابرينــــا
وقوله على لسان شهر يار مناجيا ربه :

يارب رب مســــى
بغى فتمســــاب وكســــب

ماكنت موبــــق عبيــــد
وإن طغى وتجبــــب
وقواه على لسان شهر يار في نغمته من شهر زاد :

اغريت بنى الحــــير
ة كالليل إذا يســــرى

٦ - وكثيرا ما حلق في جو عال من الروحانية ،
إذ صور مواقف الحشية من الله ، والاستغفار
من الذنب ، أو صور الحنين إلى بيت الله
وإلى مثنوى الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) ساقوا الهدى وألقوا الجمار ، والصواب لبوا بفتح الباء لا بضمها .

قال على لسان (و داد) في مسرحية
(أوراق الحريف) :
يارب هل أنت راض
أو غاضب ، من مجيبي ؟
يارب إنك عدل
ورحمة من قريب
فهل ضللتُ سبيلي
وهل غوى أسلوبى
لا : لست أخشاك مهما
أضعف فأنت حييى
ما كنت رب مراء
بل أنت رب قلوب
وقال على لسان حادى القافلة المتجهة من
الحيرة إلى الحجاز في مسرحية (قافلة النور) :

يانفس إن أفضيت للمنوره
وراوحتك الروضة المنضره
حوت سنا الله وضمت منبره
وبضعة من ذاته المطهره
ألقيت يانفس غبار الأثره
وانجلى كالطيف عنك القتره
وظفت من مآثرة المآثره
وذقت من مغفرة فمغفره
من قبل أن تقدمى بمعدره
ولم تكد حسن شاه حاضنة بنت سلفراس
والى الحيرة تسمع هذا الحداء - وكانت
أسلمت - حتى أجابت على الحنين إلى مدينة
الرسول بجنين مثله فقالت :

يا حادى العيس حملن البرره
إلى عوالى يرب المزدهره

سر راوحتك الديم المستغزرة
ونخانى لأدمعى المنفجره
يثرب فى أخيلتى المصوره
إن لم تكن لؤلؤة فجوهره
السكون داغى الليل وهى القمره
المحها فى النسمة المعطره
وفى الوجوه الطلقة المستبشره
وفى هوى عصف ونفس نخيره
وفى حياء الغادة المخدره
وفى بريق النظرة المبشره
هذى المنى ، لو أنها ميسره

٦ - أسلوبه

كانت موهبته الفطرية ، ودرايته بمتن
اللغة ، وذوقه المرهف ، وغيرته على الفصحى ،
، وحفاوته بها ، وحبها لها ، هى الدعائم
الوطيدة التى قامت عليها خصائص أسلوبه :

١ - فهو حريص على التأنق فى اختيار
الكلمة ، مشغوف بالرصانة فى نظم العبارة ،
نفور من العامية ، ومن الركافة ومن
الإسفاف ، حتى إنه ليتجافى عن الكلمة
إذا ما أحس أنها فقدت رونقها لكثرة ما
لاكتها الألسنة أو تداولتها الأقلام. لهذا كان
يكتر من ترديد النظرات الفاحصة فى كتب
الأدب والمعاجم ليقتنص كلمات من الفرائد
الحسان يرددها فى شعره ليكشف عنها أстар
الإهمال أو النسيان .

وفي غير ما تعصب أو تحيز أو جنوح إلى جدال أو مكابرة أو عناد أقول: إن في شعره وفي شعر كبار الشعراء من سابقه ومعاصريه علواً عن المستوى العام للقراء، ولكن هذا لا يصح أن يتخذ ذريعة إلى لوم أو انتقاص، لأن الأدب أو الفن أو العلم على اختلاف ضروبه وتعدد ألوانه لا ينبغي أن يكون في مستوى واحد من التذاني أو التوسط أو العلاء، ذلك بأن له درجات من الأقدار والمستويات، بل إن لكل مستوى من هذه المستويات درجات متباعدات متفاوتات.

وإنه لمن الشطط أن نكلف الشاعر العملاق التزام مستوى عام واحد، لأننا بهذا الإلزام نقل حرته، ونحتجزه في نطاق ضيق لا يتعداه، ونحول بينه وبين التحليق والابتكار.

والعجب أن الذين ينكرون على الشاعر تجويده وسموه وعزوفه عن المستوى العام لا ينكرون أن الرسم والموسيقى والغناء لها بطبيعتها وبطبيعتها القائمين بها درجات متفاوتات.

وعجب آخر أنهم يجحدون المستويات في لغة الأدب ولا يجحدونها في لغة العلوم، لأن الحقائق العلمية التي تنشر على الجماهير يعمد كاتبوها إلى التبسيط ليتفهمها كثير من القراء، فإذا ما قصدوا بها طبقة أرقى كان التبسيط أقل مقدارا وأضيق نطاقا، وهكذا حتى تصير ملائمة للمختصين بهذه الدراسات. فلماذا

لا يكون من حق الشعراء كلهم أو بعضهم أن يعبروا عن أفكارهم وعواطفهم بأسلوب سام فيه غموض على العامة، لكنه واضح للمثقفين أثير عندهم، تستحليه أذواقهم وتبهش له نفوسهم؟

على أن استمساك عزيز أباطة بالفصحى وكلفه بالانتقاء ليس معناهما كلفه بالإغراب، بل معناهما اتخاذا اللغة العربية متناونحوا وصرفاً وسياسة للتعبير عن العاطفة أو الفكرة، وتنحية العامية عن الأدب الرفيع، حتى لا تقع العين في حديقة الشعر أو بستان النثر إلا على وردة متفتحة، أو جلنارة متوهجة، أو أقحوانة مشرقة، أو آذريونة نضيرة، أو شجرة ثميرة، أو دوحة وريقة أو نخلة رشيقة، أو كرمة دانية القطوف، أو عشب كالديباج.

من ذا الذي يقرأ أو يسمع هذه الأبيات ولا يشعر بانتقاء اللفظ وجزالة التركيب:

قال على لسان الرشيد في مسرحية (العباسة) وهو يريد الوقعة ببني برمك لطغيانهم السياسي لكنه يتردد مخافة مما أشيع عن قصة أخته العباسية:

وإني لأخشى قالسة السوء في غدٍ
تقاذف كالدفاع في البيد والمدن
بأني من أجل العرض أثنخت فيهم
وللعرض قراضون بالثلث والطنن

وقال على لسان عائشة في مسرحية (غروب الأندلس) :

الملك يلهو والحوادث حوله
متظاهرات والخطوب سراع
والقصر نفهق بالخنا قاعاته
ويبيت يـروى إثمها ويداع

والشعب مكدود القوى متخفر
إن الضعيف يصول حين يراع

الجور مضروب السرادق حوله
والهون والحرمان والأوجاع

قل للملوك اخشوا شعوبكم إذا
غضبوا وهم سغب البطون جيساع

وقال على لسان بشينة في مسرحية (غروب الأندلس) :

أرى الأرزاء مسرعة خطاهـا

ونحن إزاءها نمشى الهـاـوينا

إذا لم نسبق الأحداث وثبا

تصلينا لظاها فاكـتـوينـا

٢- على أنه أضاف إلى هذا التأنق كلفا

بجرس الجملة وموسيقاها ، وشغفا بتمحسس الموازنة بين الكلمة وسابقتها ولاحقتها ، وبين العبارة وما تقدمها وما تأخر عنها ، كقوله على لسان حسن شاه في مسرحية (قافلة النور) :

مشوا في سناه ولبوا نسـدها

وعبوا هداه كتـابا مسـنا

ومن ذا الذي يقرأ هذه الأبيات أو يسمعها ولا يستشعر الرنين بين الحروف المتحددة المخرج أو المتقاربة المخرج ، أولا يحس موسيقى الأسلوب الناشئة من تتابع كلمات متوائمة الجرس متلائمة الوقع ، قال في (وقفة على قرطبة) :

ماذا دهاها فأمت وهي ناهدة

في غير ما ألفته من معاطفها

طوفت بالطلل الأسوان أسأله

أين الخلافة في حضنى خلائفها

أين ابن بجدتها شعت حضارته

سنا على سالف الدنيا وآنفها

البازل العلم عن أعلام جامعة

تدنى الثمار مزكاة لقاطفها

فزف كل كبير من عواهلها

وخف كل وقور من أساقفها

وإذا كان الجرس بيننا في البيت الأول

بين (دهاها وناهدة) وبين (ألفته

ومعاطفها) وبيننا في البيت الثاني بين

(الأسوان وأسأله) و (الخلافة وخلائفها) ،

وفي البيت الثالث بين (ابن وبجدتها)

و (سناو سالف) وفي البيت الرابع بين (العلم

وأعلام وجامعة) وفي البيت الخامس بين

(زف وخف) وبين (كبير ووقور) فإن

هذا كثير في شعره مثل قوله :

يارب رب مسـى

بغـى فتـاب وكـبر

٣- وشعره حافل بالتشبيه والاستعارة
والحجاز والطباق ، في مهارة ولباقة وطواعية
، كقوله :

أرنو فيرتد طرفي راعشا وجلا
كهائب الأتجة الكبرى وخائفها
وقوله :

وأن نمسي بلا ري
وأنت البحر القطر

وقوله :

لم يترك الدهر من راوق أندلس
إلا شفاقة راح من عوارفها
وقوله :

حيثك مصرُ فقد حميت ذمارها
والخطبُ فوارُ المراجلِ حامى
وقوله :

طوّفت بالطلل الأسوان أسأله
أين الخلافة في حضني خلاتفها ؟

وبعد

فماذا نستوحى من احتفالنا بذكرى
عزيز أباظة ؟

إننا نستوحى دروسا وعبرا عظيمة .

١- فتزداد ثقنتنا باغتتنا وبشعرائنا وأدبائنا
الذين كتبوا بالفصحى منذ زمن بعيد ،
وما زالوا يكتبون ، فأثبتت الفصحى على
أقلامهم أنها ثرية مرنة طيعة قابلة للتطوير
والتجديد ، قادرة على التعبير عن أنماط
فنون الأدب وشئون الحياة .

٢- ونعلم أن الشعر العربي ليس عاجزا
عن مسايرة المسرح كما قيل ، فقد استطاع
أمير الشعر أحمد شوقي أن يبطل هذه
الدعوى بمسرحياته التي ابتكرها ومهد بها
الطريق لمن جاءوا بعده واقتفوا أثره ،
فلما قضى حمل الراية بعده بيد فتية قوية
عزيز أباظة :

٣- ومن الوفاء لعزير أباظة أن أنوه
بوفائه وبتقديره العظيم لشوقي ، في قوله :
« ثم أراد الله للشعر المسرحي أن يعرف في
العربية ويزدهر ، فهدى إليه شوقي شاعرنا
الحالد فعالج ، واستطاع قبل أن يختاره الله
لحواره ببضع سنوات أن يزف للشرق العربي
مسرحياته النفائس ، ولست هنا بسبيل تناول
مسرحية الشعر عند شوقي بالدراسة والتحليل
والنقد ، فإنه لن يرضيني - وأنا من أكثر
الناس إعجاباً به ، وإكباراً له ، واستمداً آمنه
- أن أجعل دراسة مسرحه قسماً من بحث ، أو
باباً في فصل ، ولن يواتيني الوقت حتى
إذا أنا حاولت ، ولكن ذلك لن يقف بي
أن أشهد بين أيديكم أن شوقي صاحب شعر
التمثيل كاد يرتفع إلى عليا المشارف التي
تفرعها شوقي قيم شعر الغناء .

وأشهد بين أيديكم إلى جانب ذلك أن
شوقي في مآسيه المتعددة وفي ملهاته الواحدة
استطاع أن يدرس على طريقته جوانب من
النفس الإنسانية ، وأن يعرض لمشاعرها
بالتحليل الموفق ، والعرض المنمق ، واستطاع
أن يتناول الأحاسيس والنزعات القومية ،

وأن يشيد بها في نماذج قوامها الصدق وملاكها
الجمال، واستطاع كذلك في أغلب مسرحياته
أن يفرغها في القوالب الحية من الفن
المسرحي، وأن يتحرر إلى حد كبير من سلطان
طاقته الغنائية الفارعة حتى يتسلل الحوار غير
فأصل على مقتضياته، وغير مخل بالمعنى
الذي يتدافع فيه، وغير مسمى لأسلوب
العرض، وغير معوق لتتابعه وصلاته
وتدفق حركاته.

٤ - ولست أنسى أن هذه الذكرى تلهمنا
أن نشيد بجهود شعرائنا وكتابنا في مصر وفي
الأمة العربية، وإنها لجهود عظيمة مخلصه
جديرة بالتقدير والثناء، ذلكم بأنهم منذ
مشرق هذا القرن طالما هتفوا بالقومية العربية
وبالوحدة العربية، وطالما تغنوا بما للعرب
من ماض مشرق مجيد يجب أن يتأسوا به،
وطالما برموا بما قاساه العرب من حاضر
جزين خزيان لا بد أن يتحرروا منه، وطالما
جلجلوا بما يشربون إليه من مستقبل كريم
بسام، عليهم أن يجدوا لتحقيقه، فكانت
هذه اليقظة العاملة، وكانت هذه النهضة الشاملة،

وكانت هذه الصوَى الهادية إلى طريق
الوحدة والقوة والعزة.

ومامن شك في أن للأدب فضلا في هذا
كله لا يجحد، وسبقا واضحا مشهودا
لا يستبعد. فعلى الذين يُنغِضون إلى الأدب
رؤوسهم أن يعلموا أثره العظيم في حياة الأمم
، وأن يعرفوا مكانته وأن يقدرُوا سدنته
أحياء وموتى :

سيدي الرئيس :

سيداتي وسادتي :

إذا كان عزيز أباظة فارقنا، فإنني أتخيله
بقامته الفارعة، ووجهه المشرق، وخطواته
المتشدة وصوته الجمهوري، أتخيله مازال يخطر
بيننا في الجمع، أو يناقش في كلمة، أو
يخاور في فكرة، وأتخيله هنا على هذه المنصة
نفسها يرثي زميلا ودع الحياة، فيسكب من
ذوب قلبه ومن عصارة نفسه :

ثم قضت إرادة الله أن يبعد من كان دانيا،
وأن يصمت من كان صادحا تاليا، وأن
أرثي من كان بالأمس راثيا، وعزائونا أنه حتى
بيننا بأثاره وبذكره إلى ماشاء الله :

●●● قصيدة الأستاذ العوضى الوكيل :

تهاوى دراكا كالنجوم الزواهر
صوابك ، فاصبر - إن قدرت - وصابر
خلا الدرب إلا من خطاي وبيدة
وأقف - إلا من شحوب مشاعري
وأبقيت وحدي أجمع الحزن بعدهم
وأرشف كأس الدمع رشف المعابر
وأمت تهاويل الغروب تروعي
كأن فوادي في مخالب كاسر
أنى كل يوم صاحب بعد صاحب
توسده كفاى ليل المقابر
أدفن قلبى فلذة بعد فلذة
فيالك من جسد على الدهر عائر
مضوا والصبيا ، واستبقوا الحزن طاغيا
وذكري تشب الشجو فى كل ذاكر
وكنت أظن الدمع عوناً على الأسى
فزقنى فيض الدموع البوادر

* * *

* * *

مضى الشاعر الشادى بأحلام قومه
حميدا ، وأبقى لوعة فى السوامر
مضى لم ير النصر الذى بشرت به
أناشيدته فى كل بلاد وحاضر
أيا شبيخة الفصحى ، وحراس قدسها
بتلك العقول الملهمات العباقر
تذودون عنها كل بساغ يرومها
بسوء ورميها بحقد المكابر

ولم أر كالفصحى فإن بيانها
ليبرز أخفى ما اختفى في السرائر
لعمرك ما عيت بمعنى ، وإنما
هو العمى في بعض النهى والحواطر
ورام رماها بالقصور عن المدى
وما هو إلا قاصر أى قاصر

* * *

عجبت لقوم جددوا الشعر ضلوة
فجاؤا بشعر سائب متناثر
تجافوا به عن كل معنى وفكرة
كأن المعاني حجبت بستائر
ويصغى إليهم سامع القوم سائلا
أذلك شعرا أم تعازيم ساحر
رماهم عزيز بالمقال فأجفلوا
وأعول منهم زاحر بعد زاحر

وكرر عليهم بالقصيد يصوغه
فيبدع في التصواغ لإبداع قادر
أقام عليهم حجة الفن باذخا
بشعر كسر الراح في روح ساكر
مضى الشاعر الشادى الذى طار شعره
فألهم في أفنانه كل طائر

مضى الحارس اليقظان وانتابه كرى
ينىء إليه كل غاف وسامر

* * *

صديقى ، وشيخى ، قد رحلت وإنما
أغالب فيك الحزن والحزن قاهرى
وأشهد فيك الخطب أنى حملته
وإن لم أكن - لما دهانى - بصابر

●●● كلمة الأسرة للأستاذ ثروت أباطة :

طالما بت بسواد مذنب
فاصعد اليوم إلى السوادى الأمين
عند جنات موشاة الحلى
بين أنهار وأبرار وعين
ضيف ذى العزة جلت وعلت
بارئ الأُنفس من حمأ وطين
غافر الذنب رحيم منعم
قابل التوب غياث المستعين
لم يمت من زایل الدنيا إذا
صب في مسمعها بعض الطنين

يا عشياتى التى أجزعها
سامداً أدم رأسى بيمينى
زاكى اللوعة ملتاح الجوى
وأكف الأدمع محموم الأنين
لا تقولوا : من أخو البث الذى
هاجنا ؟ من صاحب اللحن الحزين ؟
النفاثات نفاثاتى أنسا
والشئون المستهلات شئونى
يا أودائى السنين ارتحلوا
هزنى الشوق لكم فانتظرونى

رحمه الله لقد أبى أن يجشمكم عناء رثائه
فرثى نفسه إليكم في آخر قصيدة ألقاها في
مجمعكم ، رحمه الله :

او مهنته بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشرق
وكان العزاء في أحزانه

فقد كان لنا - نحن أهل بيته - عمادنا الذي
تقوم عليه خيمتنا ، وعميدنا الذي تدور حوله
مساكننا ، وعمودنا الذي يلتف حوله ندينا ،
فقد صرنا ولا خيمة لنا ولا عماد ولا مسابح
لنا ولا عميد ولا ندى لنا ولا عمود :

وكان لكم أنتم يا رجال الخلود شعركم ،
ومجمع حبكم ، كما كنتم جماع حبه ونبض
فؤاده وبعث اعترازه وإكباره .

واليوم لم تبق إلا كلمة عزاء تقولونها
وأنا أدري أنه أكبر عندكم من العزاء :
وكلمة شكر أقدمها إليكم ، ومن أنا حتى
أقدم إليكم الشكر ١٩

لنا وقد كان لمصر وكأن شوقي لم يقل أبياته
إلا ليقولها من بعده عزيز أباظة :

رب جبار تلفتت مصر تولىه

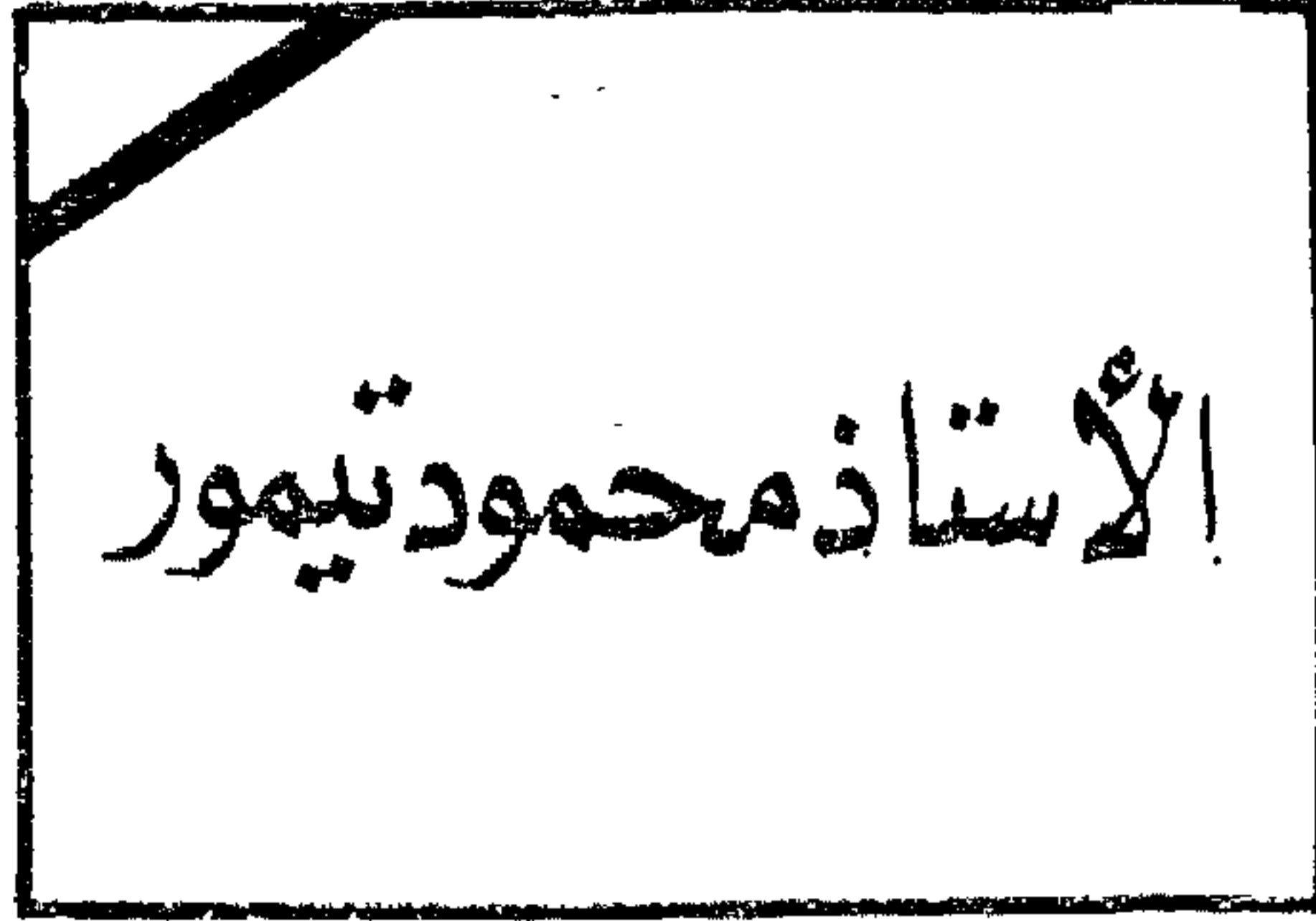
سـوال الكريم عن جـيرانه

بعثني معـزياً بمآقي وطني

فيا سدنة الأدب ويا رواد الكلمة ، ويا
عمالقة لغة القرآن لا تقولوا عزاء واستمبحكم
المغفرة ، فإني لن أقول شكرا ،

في الساعة الحادية عشرة من صباح الأربعاء ٤ من ذي القعدة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٨ من نوفمبر سنة ١٩٧٣ م) أقام المجمع بداره في الجيزة حفل تأبين للمرحوم الأستاذ محمود تيمور عضو المجمع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الافتتاح للأستاذ زكي المهندس في تأبين المرحوم :



فجميعه قاسيه أليمة. لقد فقدنا فيه ثروه أدبية لغوية ضخمة ليس من السهل أن تعوض . فقد شارك الفقيه في كثير من أعمال المجمع ولجانه ، وكان له فيها آراء ومقترحات كان لها الأثر في توجيه أعمالنا ، ولكنه في السنوات الأخيرة عكف على ناحية خاصة من نواحي النشاط اللغوي وقصر عليها جهوده الجمعية وهي تعريب ألفاظ الحضارة. كان الفقيه يؤمن بإيماناً صادقاً بأن تعريب هذه الألفاظ هي الرابطة الوحيدة التي تربط المجمع برجل الشارع أو بجمهور الشعب . وعكف الفقيه على هذه الناحية واستطاع أن يخرج هو ولجنه ألفاظ الحضارة التي كان يرأسها ، عشرات المئات من هذه الألفاظ الحضارية ، تناولت ملابس السيدات وملابس الرجال وأثاث المنازل وأدوات الزينة وأدوات بعض الصناعات ، وكذلك مصطلحات الفن من رسم وتصوير

سيادتي وسادتي :

إنه ليحز في قلوبنا نحن أعضاء المجمع أن نرى الموت يتخطف زملاءنا واحداً وراء آخر ، وفي فترات متقاربة . فما تكاد تجف دموعنا على زميل راحل حتى تعود فتنهمر على زميل آخر . ففي سنتين اثنتين فقد فقد المجمع عدداً كبيراً من أعضائه العاديين الذين كنا نعز بهم ونعتمد في تحقيق رسالة المجمع على جهودهم ونشاطهم ... مصطفى نظيف ، عبد الفتاح الصعيدى ، عبد الرزاق السنهورى ، محمد عوض محمد ، مصطفى القللى محي الدين عبد الحميد ، على الجندي ، عزيز أباطه ... وها نحن اليوم نضيف إلى هذه القائمة الحزينة اسمين من أحب الأسماء إلينا ومن أعزهم علينا : محمود تيمور ، وطه حسين .

لقد كانت فجميعه المجمع في تيمور

لقد عاصرنا الفقيه، في الجمع أكثر من أربع وعشرين سنة، فما أذكر أني رأته يوماً غاضباً من أحد، أو ساخطاً على أحد، وإنما كان محبباً للجميع محبوباً ومحترماً من الجميع .
رحمه الله وطيب ثراه وجعل الجنة مستقرة ومأواه .

أما الآن أيتها السيدات والسادة ، فسيتولى الزميل الاستاذ محمد خلف الله أحمد ، تأبين الفقيه نيابة عن الجمع ، ثم يليه الزميل الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش فيلقى كلمة الشعر، ويليهما الأستاذ أحمد فؤاد تيمور فيلقى كلمة الأسرة . وليتفضل الأستاذ خلف الله مشكوراً .

ومسرح ، لكننا إذ نبكى الفقيه اليوم ، لانبكى فيه -ضوا جمعياً نشيطاً منتجاً فحسب وإنما نبكى فيه علما من أعلام الأدب ورائداً من رواد القصة ، بل ونبكى فيه أديبا عالميا تجاوز نشاطه الأدبي حدود البلاد العربية ، فترجمت معظم قصصه إلى مختلف اللغات ، وكرم في كثير من المحافل الدولية الأدبية .
أما أخلاق الفقيه فحدثوا عنها بما شتم وكيف شتم فقد اجتمع له من الصفات والخلال والسجايا ما قل أن يجتمع لكثير من الناس . شخصية رقيقة مهذبة ، هدوء مع اتزان ، أدب جم مع عفة في اللسان ، تواضع في عزة نفس وإحساس مرهف :

●●● كلمة الأستاذ محمد خلف الله أحمد :

لقد فجعنا الموت فيك ، وفي نخبة من الأصحاب ، توالى بك وبهم الركاب ، في أشهر متتابعات ؛ فجل الخطب ، وفدح الأمر ، وكاد الأسى يغلب التأسى ، وإنما لفراقكم لمحزونون، ولكننا بقضاء الله راضون وبالصبر متواصون ، وإنما لله وإنما إليه راجعون :

أخي الأكبر تيمور :
إن كنت أرثيلك اليوم باسم مجمع اللغة العربية، الذي كنت علما من أعلامه، وأسجل ما يسمع

أى صديقنا ، وزميلنا ، وأدينا الكبير «محمود تيمور» .

سلام عليك ، وأحسن الله عزاء المجمع في فقدك .

وجزاك الله خيراً عن وطنك «مصر» بقدر ما أخلصت لها ، وأضفت إلى أمجادها بفنك العبقري وأدبك الإنساني :

وشكر الله لك ما قدمت للعروبة لغتها، وأدبها وحصارتها ونهضتها الحديثة :

أى زميلنا العظيم :

به موقف التأبين من أياديك على الأدب واللغة
وأنشر صفحات من جهودك في تحقيق رسالة
المجمع ، فإنى أبكى فيك اليوم صديقا أصفيته
وأصفانى الود ، وحظيت منه - على مدى
ثلاثين عاما - برعاية الأخ الأكبر لأخيه
وتعهده إياه بمدد متلاحق من ثمار إبداعه الأدبي
والعلمي ، كل حلقة فيه ستبقى - ما حييت -
ذكرى إخاء سمح ووداد خالص :

وسأظل أذكر - يا أخى - مجالسنا وندواتنا
في أسرة «آداب الإسكندرية» ، والهيئة المحلية
لرعاية الآداب والعلوم الإجتماعية بها ؛ فقد
وقد كنت تخصمها بمزيد من حبك وعنايتك ،
وتخفُّ لاستجابة دعوتها ، محاضراً ،
أو متحدثاً ، أو محكِّماً في مسابقة أدبية ، وكان
شبابها وكهولها يلتفون حولك ، سعداء
بمقائك ، ظمأً إلى سماع حديثك ، حراساً
على ألا يطول انقطاعك عن زيارتهم . ومنذ
جمعت القاهرة شملنا في مجمعها وهيئاتها الفكرية
والأدبية ، على مدى الخمسة عشر عاماً الأخيرة ؛
نماحبي وتقديرى لك ، وزاد رصيدي من جميل
الذكريات ، وفي الذكريات سلوى وعزاء .

رحمك الله يا صديقي ، وأكرم في الفردوس
مشواك ، والسلام عليك :

سيدى رئيس المجمع بالنيابة ، ساداتى
وساداتى ،

إن الزميل الراحل الذى اجتمعنا اليوم لتأبينه ،
ولد في السادس عشر من يونيو سنة أربع وتسعين
وثمانمائة وألف ، وانتقل إلى جوار الله في الخامس
والعشرين من شهر أغسطس الماضى من سنة

ثلاث وسبعين وتسعمائة وألف - عن تسعة وسبعين
من الأعوام ، يمثل ثلثها الأول مرحلة الإعداد
والفتح للرسالة التى اضطلع بها الفقيه على مدى
خمسین عاماً ، وورثها الفكر العربى قرابة ستين
كتاباً في مختلف ميادين اللغة والأدب .

وقد سجل لنا الفقيه في بعض كتبه ؛ مثل :
«شفاء الروح» اتجاهات الأدب العربى في
السنين المائة الأخيرة ، وفي بعض مقالاته
وأحاديثه التى نشرت في الصحف والمجلات -
معالم المرحلة ، الأولى من حياته ، والعوامل التى
وجهته إلى أدب القصة والمسرح ، والمؤثرات
التي عملت عملها في إنماء موهبته الأدبية ،
وأهم الكتب التى فتحت الآفاق الفنية أمام ذهنه
وخياله ، وأشهر الكتاب الوطنيين والعالميين ،
الذين أعجب في شبابه بأدبهم ، وحاول أن
يحدو حدوهم .

وكان من بين ما أبرزه في بيئته الخاصة : أثر
والده العالم المحقق «أحمد تيمور» ، ومكتبته
الحافلة بكل نفيس من كنوز التراث والثقافة
ومجالسه التى كانت تنتظم ببعض أكابر العلماء
والمفكرين في عصره : كالشيخ محمد عبده
و«الشنقيطى» ، و«رشيد رضا» ، ثم أثر شقيقه
«محمد» ، الذى تطلع إلى بدء عهد جديد في حياة
الأدب المصرى ، والذى مات في شبابه ، بعد
أن شارك بنصيب وافر ، في التمهيد لنهضة الفن
القصصى والمسرحى ، في الأدب العربى الحديث
كما أبرز الفقيه أثر الحياة التى أتبع له أن
يحيها في الريف ، وما كان لها بعد من صدق
- في رسم شخصياته في قصصه الأول :

وأخبرنا - فيما سجله من عناصر ثقافته وفنه - أنه كان في شبابه يستمتع بأدب «المنالوطي»^{١٧} إمام الرومانسية الأدبية في مصر، في الربع الأول من القرن الحاضر، وأن والده وجهه إلى قراءة «ألف ليلة وليلة»، فطالعه بأكمله، وكان يجمع من يرغب في الاستماع إليه من أهل المنزل ويعيد عليهم تلاوة ما قرأ، وأنه كانت له ولأخيه «محمد» محاولات ناشئة في التحرير والتمثيل في محيط الأسرة ومعارفها، وأنها حفظاً - وهما صغيران - معلقة امرئ القيس، وكان ذلك بتوجيه من والدهما.

وقد قرأ محمود - بتوجيه من أخيه - «حديث عيسى بن هشام؛ لمحمد المويلحي» ورواية «زينب» لهيكل، وأغرم بقصص الكاتب الفرنسي الشهير «موباسان»؛ الذي توفي قبل ميلاد تيمور بسنة واحدة، واتصل بالقصص الروسي وخاصة قصص «تشيكوف» «وتورجنيف» وأتيح له أن يسافر إلى أوروبا، ف قضى فيها مدة معظمها في «سويسرة»، عكف فيها على الاتصال بالأعمال القصصية، وعلى تعميق ثقافته الفنية والأدبية.

* * *

هذه أهم المعالم الأولى في تكوين فقيدهنا وإعداده لرسالته؛ ومن حسن حظ التاريخ الأدبي أن الفقيه قد سجل خطوطها الرئيسية بقلمه ويسر بذلك مهمة المؤرخ والناقد وكاتب الحياة في التصوير والتحليل والتعليل لظواهر الأدبية.

ولعلنا نستبق ما سيحكي من حد يثنا لنقول: إن هذين العنصرين البارزين من عناصر التكوين والتنمية لشخصية «تيمور» الثقافية والفنية، قد ظلا يعملان عملهما إلى آخر حياته. فقد كانت له طوال الثلاثين سنة الأخيرة أسفار إلى الخارج للاصطياف أو التماس السلوى بعد وفاة نجله محمد سعيد في شبابه أو طلباً للعلاج لنفسه أو لأسرته وزادته تلك الأسفار تنوعاً في مطالعته، واتساعاً في تجاربه وصقلا لقوة الملاحظة عنده، ورصيدياً من المشاهد والمناظر وأنماط السلوك، وأثمرت - فيما أثمرت - بضعة كتب في أدب السياحة والرحلة تعد نماذج في براعتها وصدق فنها، وتؤلف خطأ هاماً من خطوط منجزاته.

أما حرص الفقيه على تنمية ثقافته، فقد ظل ملازماً له طوال حياته وظلت الكتب القديمة والحديثة والمعاصرة من خير جلسائه. والمتتبع لسلسلة أعماله يلاحظ شواهد تلك الصحبة الدائمة، [في أسلوبه، وفي مسرحياته، وفيما يرد من إشارات ومقتبسات في بحوثه ومحاضراته التي تؤلف خطأ ثالثاً في منجزاته - ثم في صورته الأدبية الوصفية التي رسمها لبعض الشخصيات البارزة المعاصرة في عالم الفكر والأدب والفن وفي كتاباته التي كان يتابع فيها إنتاج القهّاص المحدثين والمعاصرين بنقده، أو يقدم له أو يعرف بأصحابه، وهذه الصور الوصفية والكتابات الناقدة وتؤلف مجالا رابعاً من مجالات النشاط الفني للكاتب الكبير. ويبدو أنه كانت للفقيه في تثقيف نفسه عناية خاصة بأن يكون ترتيل آيات

من القرآن الكريم أول ما يفتح به يومه حين يصبح . وآخر ما يختتمه به حين يمسي ، وقبل أن يسلم أجنانه للنوم . وكان يجد في ذلك توفير الصفاء والنقاء لروحه ، حتى تشفى وتحف وتسمو إلى الآفاق العاليا ، حيث ينباع التطهر والصفاء والسعادة . وقد كشف عن سر هذه التجربة في كتابه : « شفاء الروح » ونصح لأخيه المؤمن أن يأخذ بحظ من هذه التجربة ، وهو يحتم نصيحته هذه بقوله :

أخى المؤمن :

مزية جلية أن يكون ذلك الدخر الخالد من كلام الله تراثاً دائماً منك ، تلمس فيه علاج نفسك وشفاء روحك ، وتمتلك به ناصية السعادة بمعناها الأسمى ؛ ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن مكاره الأرض ليصل بينك وبين السماء :

إني ألمح هنا سرا من أسرار تلك الساحة الباسمة المطمئنة الوثيدة الخطو ، التي كانت تهل علينا من ساحة دار الجمع إلى قاعة المجلس ، فإذا هي « محمود تيمور » يدلف إلى مكانه المعهود في حياء وإشراق ، ليشارك في أنشطة الجمع ، وليعرض عليه صيده الثمين من ألفاظ الحضارة ، ومن البحوث الممتعة في الأدب واللغة .

وإن لغة تيمور وأسلوبه في كثير من أعماله الأدبية نضرة من أثر ذلك النبع السماوى الصافي

* * *

سادتى :

مضت مرحلة الفتوة والشباب بإرهاصاتهما الفنية ، وسار محمود تيمور في مراحل تعليمه وجاءت نقطة التحول في حياته - كما يقول حين أصيب بمرض التيفويد - وهو في التعليم العالى في سن العشرين ، وطال المرض وألزمه الفراش ثلاثة أشهر ، فلما أبل منه ، حال ضعف بنيته دون استئناف الدراسة ، وشعر باشتداد ميله للأدب ، فرسم لنفسه فيه دراسة شبه منظمة ، اتسمت بالجد والاستيعاب ، وسار في مطالعته فيه بمهذبة شقيقه . وحين كتب « محمد تيمور » أقاصيصه بعنوان « ما تراه العيون » ، ناحياً فيها نحو المذهب الواقعى ، مصوراً فيها مناظر مختلفة من البيئة المصرية وأشخاصها في أسلوب سهل رشيق ، أعجب بها « محمود » ، فكتب على غرارها باكورته في القصة « الشيخ جمعة » مرسماً في كتابته المذهب الواقعى :

وفي عام ١٩٢٥ رأى أنه قد تجمعت عنده مادة من القصص يصح إظهارها في كتاب ؛ فطبع « الشيخ جمعة » وقصص أخرى . من هنا ، وفقيدنا فوق الثلاثين بقليل ، يبدأ العمر الفنى للأديب القصصى الكبير ، ويتطور فنه ، ويتنوع إنتاجه بين أقصوصة وقصة ومسرحية ، وأدب أسفار ، ولقطات وصفية ، ودراسة لفن القصص ، ولبعض قضايا اللغة العربية ؛ وتأخذ شهرة أديبنا في الاتساع ، وتبرز في المحيط العربى : « شفاء غليظة » و « سلوى في مهب الريح » و « حواء الخالدة » و « الخبأ رقم ١٣ » و « كل عام

وأنتم بخير» و«إحسان لله» و«ابن جلا» و«اليوم نهر» و«أبوالهول يطير» و«ملاحم وغضون» و«شباب وغانيات» وغيرها مما وصل بتيemor إلى مرحلة الاعتراف الرسمي بمكانته، علماً بين أعلام الفكر، ورائداً لفن القصة في الأدب العربي الحديث. وتجاوزت شهرة «تيemor» الأدبية حدود الوطن العربي فترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية وتسامع به بعض علماء الاستشراق والمعنيين بالأدب العربية، وكتب عنه بعضهم - مثل «كراتشكوفسكى» الروسي و«عبدالكريم جرمانوس» المجرى - كتابة تؤرخ مولد القصة المبتكرة ذات الطابع العربي الصميم، وتشهد بارتفاع تيemor إلى مصاف الفلاسفة الأدباء ومعلمي الثقافات.

ومن أوائل ما يطالعنا من الاعتراف الفني والرسمي بتيemor في بلده مصر - ومن المظاهر الأولى في صلاته بالمجمع - أن اختارته وزارة المعارف والمجمع اللغوي في سنة ١٩٤٢ عضواً في لجنة مسابقة القصة التي نظمتها وزارة المعارف، ودعت فيها الأدباء إلى تأليف قصة ينتفع بها الطلاب وأمثالهم من المثقفين، ثم أحالت أمر هذه المسابقة إلى المجمع لتتولى التحكيم فيها هيئة من نديتهم الوزارة لهذه المهمة بالاشتراك مع لجنة الأدب والنصوص بالمجمع، وبلغ عدد أعضاء تلك الهيئة أحد عشر؛ بينهم لطفي السيد، وهيكمل، ومصطفى عبد الرازق، وطه حسين

والحارم، وتيemor، كلهم من قادة الفكر والأدب في تلك المرحلة (مجلة المجمع عدد ٥) وفي سنة ١٩٤٧ وافق مجلس المجمع على اقتراح لجنة الأدب فيه تتويج جميع الإنتاج القصصي باللغة العربية الفصحى لمحمود تيemor، ومنحه وحده جائزة القصة في المسابقة التي كان المجمع قد أعلن عنها من قبل في ميداني القصة والبحوث الأدبية، وفي شهر مارس من ذلك العام أقام المجمع حفلاً عاماً بقاعة الجمعية الجغرافية لإعلان تلك الجوائز (مجلة المجمع العدد ٧) وألقى «فريد أبو حديد» كلمة القصة في ذلك الحفل وفيها عرض للقصص وتاريخه وأهدافه، ونصيب الأمم القديمة في نشأته وتطوره، كما أشار إلى طائفة من أعلام القصة وانتهى إلى التعبير عن اغتباطه بصريظهور طائفة من نوابغ أدبائها الذين توفروا على الإنتاج الأدبي في شتى الفنون؛ من شعر وأدب وقصص وأعلن أن المجمع اللغوي قد اختار في هذا العام من بين المرشحين في القصة؛ الأستاذ محمود (بك) تيemor، فأهداه جائزة القصص. إشارة منه إلى هذا المعنى، واعترافاً بما للأستاذ الكبير من أثر محمود في فن القصة في أدبنا الحديث. وقد أحصى المتحدث مؤلفات تيemor إلى ذلك التاريخ فكانت خمسة وعشرين كتاباً، وبعد أن أشار في إيجاز إلى الفرق بين آثار تيemor الأولى وآثاره الأخيرة قرر أننا لسنا نبالي إذا قلنا إن تيemor أفد بلغ في بعض قصصه الأخيرة مرتبة عالية، يحق لنا أن نفاخر بها

أوأجمل « أبو حديد » ما تمتاز به طريقة تيمور
في ثلاث :

الأولى : أنه يرسم أشخاص قصته
حتى إنك لتحس أنفاسهم ، وتلمح الحياة في
سهولة حركاتهم :

والثانية : أنه يكتب في لغة سلسلة لا تحجب
شيئاً من معانيه :

والثالثة : أن فنه يشيع فيه روح ودبع
من الإنسانية لا تحس معه مرارة في وصف
حتى ليكاد يحب إليك الضعف الإنساني.

وكانما كان تتويج الجمع جميع الإنتاج
القصصي لمحمود تيمور ومنحه وحده جائزة
القصبة ، جواز مروره لعضوية الجمع بعد
ذلك بستين ، فقد ائتمر به صديقان له :
« أحمد أمين وطه حسين » فرشاه ، ولم يكادا
يعرضان هذا الترشيح حتى أجمع الجمع على
اختياره ، وإذا هو - كما يقول « طه حسين »
في استقباله - قد التهمه الجمع التهاماً ، كما
التهمته اللغة العربية الفصحى التهاماً من قبل .
كانت جلسة الانتخاب في أواخر عام تسعة
وأربعين وتسعمائة وألف ، وكان حفل الاستقبال
في جلسة علنية في السادس والعشرين من شهر يناير
سنة خمسين وتسعمائة وألف ، وناب عن الجمع
في هذا الاستقبال « طه حسين » ، وتضمنت
كلمته لمحة لتاريخ أسرة تيمور ، وحبها
للعلم والأدب ، وما كان للجد والأب والعممة
والشقيق من أثر في ميادين الفكر والشعر

والقصص والمثيل ، وامتياز « محمود تيمور »
في فن القصص على مفهومه الحديث امتيازاً
سجل به لنفسه خلوداً في تاريخ الأدب
العربي ، ووصف تيمورا بأنه كاتب حلو
النفس ، عذب الروح ، خفيف الظل
لا يثقل على قرائه مهما يطيلوا عشرته :
ويؤكد طه حسين أنه حين تلقى « سلوى في
مهب الريح » وهو في فرنسا مشغول بما
كان يعكف عليه من قراءة الأدب الفرنسي
مابداً يقرأ قصة تيمور حتى أتمها على طولها ،
ولم يقطع القراءة إلا حين لم يكن من قطعها
بداً . وأعجب طه حسين - فيما أعجب به -
من قصص تيمور « بشفاه غليظة » : وطاب
لطه حسين في فن هذه القصة أن يلاحظ أن
الذي استهوى بطل القصة وملك عليه لبه
وفؤاده كله هو شيء في إحدى الشفتين ،
تنوء ضئيل جداً في وسط الشفة ، لا ينفرج
ولا يتسع ولا يتيح لهذه الشفة أن تستوى إلا
حين تضحك الفتاة أو تبكي أو تأخذها
ثورة من ثورات العاطفة .

و« طه » إذ يكشف هذا السر بخبرة القصصي
الناقد المحنك ، يتجه إلى تيمور ، فيقول له :

هذا التنوء اليسير كان مدار قصبتك كلها ،
من أولها إلى آخرها : شيء يسير جداً في شفة
فتاة من الفتيات ، رآها محام ففتن بها وهام
بها الهيام كله وكذلك أنت
في كثير جداً من قصصك ، أو في كل
قصصك تصل أو تستكشف شيئاً يسيراً ،

وتجعله مداراً للقصة ، تعود إليه كأنه لحن من هذه الألحان اليسيرة التي يبني الموسيقى عليها قصته . فأنت تجد في قصصك فكرة أو صورة أو خاطرة دقيقة يسيرة ، تدور عليها قصتك فتستهوى وتخلب وتستلب القلوب (مجلة المجمع عدد ٨) .

هذا التأكيد للترويج الجمعي لآثار تيمور القصصية تبعه تأكيد ثان من الدولة في السنة التالية حين منحته جائزتها في الآداب على مجموعتي قصصه: «إحسان لله» و«كل عام وأنتم بخير» . وظفر تيمور في تلك السنة أيضاً بجائزة واصف غالى في باريس ، على كتابه المترجم إلى الفرنسية «عزرائيل القرية» .

ولم يكن تنويع آثار تيمور القصصية في سنتي ١٩٤٧ و ١٩٥٠ آخر عهد المجمع بتكريم تيمور حياً ، فقد رشحه بعد ذلك في سلسلة ترشيحاته السنوية لبعض أعضائه لجائزة الدولة التقديرية في الآداب، وشاركت المجمع في هذا الترشيح بعض الهيئات الأخرى ، وأقر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح تيمور تلك الجائزة في سنة ١٩٦٢ وجاء في تقرير لجنة الفحص بالمجلس : «وله نيف وخمسون كتاباً ، طبع بعضها عدة طبعات ، واستمتع بقراءتها عشرات الآلاف من قراء العربية ، واهتدى بهديها الفنى عديد من كتاب القصة والقصة القصيرة وامتد تأثيره من البيئة المصرية إلى أجزاء الوطن العربي الكبير ، وقد أحلّه النقاد منزلة

ممتازة بين رواد الأدب العربي الحديث وموجهيه وامتدت شهرته عن طريق كتبه المترجمة إلى مختلف الألسنة والبلاد ، فقد ترجم عدد كبير من أعماله إلى عدة لغات أوربية وآسيوية ؛ كالإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإندونيسية والأردية .

وهو بذلك ذو منزلة رفيعة ممتازة في حياتنا الأدبية (جوائز الدولة - المجلس الأعلى ١٩٦٢) قد أيد هذه الألوان من التكريم الفنى والعلمى شكول من التكريم الرسمى فيما منحته الدولة إياه من الأوسمة الرفيعة .

سادتى :

نستطيع أن نقول إن العمر الفنى للفقيه -- وقد اعتبرنا بدايته سنة ١٩٢٥ -- قد بلغ تمام رشده ونضجه حوالى منتصف القرن الحاضر .

وقبل أن تسلمنا هذه المرحلة إلى العشرين سنة الأخيرة من حياة فقيدها والتي تبدأ مع بداية ثورة التحرير المصرية ، نتلث قليلاً لنشير إلى معلم من معالم المرحلة الماضية ليس بالقصة ولا المسرحية ولا الدراسة العلمية ، ولكنه كتاب رجلة من أبرع ما عرفه أدبنا العربى في هذا الباب ومن أشده استحواداً على النفوس : فناً وأسلوباً ؛ وقد شاء القادر أن يقوم تيمور بتلك الرحلة إلى أمريكا بعد سنوات قليلة من فجيعة وفجيعة الأسرة بفقد نجلها «محمد سعيد» في ريعان شبابه إثر مرض وقف الطب إذ ذاك عاجزاً عن علاجه .

وكتاب الرحلة هذا - وعنوانه «أبو الهول يطير» - سجل فني سجل فيه كاتينا وصفاً ته ويريا لعظم ما رأى في طريقه وفي أثناء إقامته في نيويورك لعلاج السيدة قرينته .
وصدره بإهداء مؤثر ، يقول فيه :

«إليك . . .»

إليك يا أعز من أحببته ، ويا أعز من
فقدته .

إليك أنت ، يا من لا أسميك . فإن
اسمك لم يعد يجرى على لساني منذ أضعتك .
إليك أخط هذه الرسائل .

إني لأبعثها واحدة تلو الأخرى ، لعلني
أتنسم من توجيهها إليك برد السامى ؛ وإنها
لتطالعك في عاليتك العلوى ، لعلها تحمل
إليك خوالج القلب ونجوى الضمير !

تهتاج بين جوانحي رغبة متقدة في الكتابة
إليك ، في مخاطبتك ؛ في ذاك الإسار عن نفسي
التي تنزى في القيود والأصفاد . . .»

ت وتسير الرسالة على هذا
المنوال الحزين حتى تغول :

« تلك هي الرحلة الأولى التي تتخلف
فيها عن مرافقتي ، فلقد نعمت بصحبتك
في أسفاري جميعاً .

أنت تتخلف عني اليوم على الرغم منك ،
وأنا أرحل الساعة بدونك على غير إرادة مني ،
إنها يا بني مشيئة القدر ، ومن يرد القدر
إذا شاء . . .»

ت إني لأزعم الرحيل لا تسرية
عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل لأرافق
شخصاً عزيز المكانة في قلبينا ، يلتمس الشفاء
في تلك البلاد القاصية .»

أما كان أحرى أن تكون مكاني ترعى
هذا العزيز في غربته وتدعني مكانك أتوسد
الثرى عنك ! . . .»

ويبلغ الإهداء ذروة المأساة حين يصل
إلى ذكر المرحلة الأخيرة من مرض ابنه ،
ويهمس الأب الحزين في حسرة واستسلام :

« لقد تطايرت من بيننا يا بني كما
يتطاير العطر من قارورة رفعت سداتها فلم
نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظلمنا نشمك طيباً
يشيع فيما حولنا من أجواء .»

وتبدأ الرسالة الأولى من رسائل الرحلة
[مؤرخة ٤ من أبريل سنة ١٩٤٦ ، وتشعر وأنت
تقرأ الأسطر الأولى منها ، أن الأب الحزين
[الصابر يُصرّ على أن يتحدث إلى ابنه في كل
صغيرة وكبيرة من شؤون الرحلة ، حتى
لا يفوته منها شيء ، وكأنه على عهدته يرافق
أباد ، ويشهد المشاهد معه ، بما فيها من
جمال وتمعن ، وما فيها من غرائب ومخارقات ،
وما تشير من شجون وذكريات ، وما يتمثل
في سلوك الأشخاص الذين يتحركون على
مسرحها من بواعث الفكاهة والسخرية أحياناً ،
ومن مسببات الألم والضيق أحياناً أخرى .

تصف الرسالة ما يحيط بالمسافر ، بعد أن تحدد ميعاد سفره ، من مشاغل مزاحمة ، ومن إجراءات معقدة ، يتعلم فيها المبتلى بها كيف يكون هجماً بلوجاً ملجأً والمتاعب التي يصادفها حين يصل إلى الجمرك « تلك المؤسسة التي أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، اتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ، وضابط الجمرك الذي ترتفع يده بالخاتم العظيم ، تضرب هنا وهناك في مهارة حرية بالتقدير . . . إنه ليضرب ضرباً محكماً كأنما يسدد الطعن في ميدان القتال . أخذ الضابط الهمام يجفف ما تفرد من جبينه في زهو النصر الغلاب . . ألم يؤد عملاً بالغ الجلالة ، عظيم الخطر ! إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه العظيم كفيلاً أن تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان » .

وتحين ساعة الوداع ! ويقول كاتب الرسالة :

« وشعرت بغتة كأن قلبي تهصره يد قاسية . . . »

وثارت بي فجأة ذكريات . . . ذكريات يزحم بعضها بعضاً . . . ذكريات شتى جليلة . وتافهة . . .

في هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! وتتداعى المشاهد في مخيلتنا وتتلاحق سراعا حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور

واحد ، ولا تفتأ تدور ، وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصافحين أو مقبلين ، وتثور في النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتنهال في لحظات تلك الشجاعة التي نتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال ، أمام وداع طفل صغير ، قد تصاغرنا ، وأصبحنا في مثل حجمه وعقله وشعوره :

أى بنى !

« إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثقي أنه لا يقاس بشيء أمام وداع الراحلين » .

وتأخذك الرسالة الثانية معها على هذه الصورة حتى تصل بك إلى مطار « أثينا » ثم بعد استراحة قصيرة إلى باريس مرة فوق سويسرا ، ولا يفوتها أن تلقى معك نظرة على ما يتبيحه المرور من جلال وجمال ، حيث الجبال الشوامخ تغم قممها بناصع الجليد ، كأنها نساك من الشيوخ متعبدون ، عليهم جلالة ومهابة ، ترفعوا عن زحمة الحياة ، وضجيج الأرض فخلوا إلى أنفسهم معتكفين . . . ولا تلبث أن تلوح للأنظار باريس العظيمة ، غانية المدائن وفاتنة الحواضر ، ومحط الرحال من كل صوب وحذب ؛ ويستعد أبو الهول للهبوط ، ويتحسس صاحبنا وجهه فيصطدم بشعرات الحيته الحشنة تملأ عارضيه (وكان قد تحسس نذرها من قبل في طريقه إلى أثينا) فيقول : ويلاه من تلك اللحي الكريمة التي تطلق لنفسها حرية النمو في غير حياء

ولا تورع ! . . لقد نسيتك⁷ يا صاحبتى ؛
سأقصد توا إلى المغسل لأزيلك في طرفة
عين ! .

وتصف تلك الرسالة بعض مشاهد باريس ،
وقد تغيرت الحال ومظاهر المعيشة فيها في
أعقاب الحرب العالمية الثانية . ويسير صاحبنا -
في فوج من زملاء الرحلة مترجلين - إذ ليس
ثمة من سيارة ترى ، ويبدأون يخرقون ساحة
« الكونكورد » فإذا بها قد ران عليها فحول ؛

« وبدأت المسئلة المصرية ، وسط ذلك
التجهيم ، شائخة متطاعة في ترفع وإباء ،
كالنبييل المصفد بالأغلال . إنها هي وسط
الظلام والسكون ، كما كانت هي وسط
الأنوار السواطع والحركة الدائبة .. هي تلك
الصموت الأبيّة تنتظر في صبر وأناة ساعة
الخلاص ، ساعة الأوبة إلى الوطن » :

ولا ينسى « تيمور » - في وسط ذلك
كله - أن يرتب لك لقاء مع روح المقاومة
الفرنسية في أيام الاحتلال الألماني على لسان
نادل القهوة . وتسبح للكاتب فرصة السخرية
المنتقمة من حوذى محطم أرهقهم عسرا في
مساوماته على أجيرة الركوب في مركبته التي
لا بد أنه ابتاعها من سوق الأسقاط وباليات
السلع !

ويتهيأ الركب لعبور المحيط الأطلنطي أو كما
يسميه العرب « بحر الظلمات » ، ويستعدون
لرحلة لا تستغرق أقل من إحدى عشرة ساعة ،
ويتسامى بالمسافرين صديقهم الكبير يضرب

بهم في عرض الأفق ، وقد اتقد حمية
وحماسة ، ويرون السحب تنبسط على
صفحتي المحيط وتغدو كأنها بساط من
جليد .

وتبلغ الرحلة «نيويورك» ، وتثور بالكاتب -
كما يقول - ثورة تطلع وفضول ، فكان يبعثر
النظرات حوله في تعجل ، يخشى أن يفلت منه
شيء ، حتى تطالعه ناطحات السحاب بقوامها
الفارع تستعلى ، ولا تني تستعلى ؛ فهي
تفصح لك عن مركب النقص في النفس
الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية
الناهضة التي أصابت ثروة واقتدارا ومكانة ،
نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة :
لست إلا أمة عظيمة !

وتجد عبقرية الكاتب المصوّرة - في
أمريكا - مجالها الواسع في التسجيل والوصف
والمقارنات بين الشرق والغرب ،
والحديث عن الرجل والمرأة ، وما يسميه
الأمريكيون جمال الجاذبية الأثوية ، والفرق
بينه وبين الجمال المصري النسوي ، الذي
أنضجته شمس الصحراء ، وغذته خصوبة
الوادي ، ورواه رحيق النيل ، وشاعت
في سماته أحلام الشرق وأخيلته فأصبح
« كوكبيل » الجمال الشرقي ، وغدا سحرا
لا يفوق مستواه أي مستوى آخر للجمال
العالمي .

وتأخذ معالم « نيويورك » ثم « وشنطن »
بعدها أماكنها في كتاب الرحلة بفنادقها

ومسارحها ودور السينما فيها ، والمتاحف القديمة والحديثة ودور الكتب ، وتسبح الفرص بين حين وآخر لاهتزازة قومية تثير في نفس الكاتب الزهو والاعتزاز بوطنه ومجده القديم وحضارته أم الحضارات ، ويستيقظ بين جوانحه اغتباط حين يزور ركناً مصرياً في أحد المتاحف ، أو يطالع في إحدى دور الكتب على مخطوطات وكتب من نفائس التراث العربي الإسلامي .

ويتم علاج الشخص العزيز ويأخذ المسافران طريق الأوبة ، ومنذ أن فصلت الطائرة عن «أثينا» متجهة نحو مصر ظل صاحبنا لا يستثنى إلا جوا واحدا ونسيا واحدا ، ما أطيب شذاه ، وما أكرم رياه ، ينفذ إلى سويداء القلب ، ذلك هو نسيم «مصر» ، وعطر الوطن ، ثم لا يلبث أن يستمع إلى صوت منبعث من قرارة وجدانه يتساءل :

« مالي ، وقد رحلنا عن «أثينا» واقتحمنا سماء بحر الروم ، واتجهنا صوب وادي النيل أحسن وحشة غريبة تهب دفعة واحدة من جوف ذلك الغسق الذي نشق أستاره ، ومهيب بقلبه : أفصح أيها القلب . مما بك الساعة !» .

ويصل الغائب الوطن ويقف على قبر ولده ويظوف بمزاره ، ثم يرجع إلى داره ليخط إليه كلمات عجمالا ، هي أخرى كلماته إليه في هذه الرسائل .

ويتهى كتاب الرحلة برسالة من صفحتين إلى شريكة عمره ، ورفيقتة في السفر والحضر ، تحية محبة ورمز تقدير .

هذه الرحلة تحولت في يد تيمور إلى شبه قصة تحقق في نفس قارئها المتعة الفنية ، واللذة العقلية معاً ، وتثير عنده في الوقت ذاته مشاعر الأسي والمشاركة الوجدانية .

والخور الذي يمسك قصة الرحلة ويربط بناءها ، هو ذلك الغائب بجسمه ، الحاضر بروحه ، الذي لازم أبويه طوالها يتحدث إليهما ويتحدثان إليه ، ويشاركهما الذكريات والمشاعر التي أملت رسائلها . وهي كسائر أعمال «تيمور» نموذج في الوضوح الفكري والتعبيري ، وفي غنى الثروة اللغوية التي تهجزها الاستجابة لتصوير الأشياء والأشخاص والمشاعر والمشاهد في تنوعها ، بين شرقية وغربية ، وقديمة وحديثة :

* * *

ولتيمور فيما أخرج من سلسلة أدب الأسفار نموذج آخر ، أحدث من سابقه عنوانه : «جزيرة الحبيب ومشاهد أخرى - سياحة في إيطاليا» ، ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣ أي قبل رحيله عن دنيانا بعشر سنوات يبدوه بنبذة طريفة فاتحة لشهية القارئ عن بعض الفوارق الأساسية بين الحياة في سويسرا والحياة في إيطاليا ، يقول فيها :

« فالحياة في سويسرا كأنها لحن قوى عنيف من الألحان الموسيقية الجسام التي تتطلب الإنصات في توقر وخشوع ؛ ولكن الحياة في إيطاليا ترنمة رقيقة مرحة ، ترنح على نغمتها الأسماع في كل آن وفي كل مكان .

وإن تلك الفوارق لتبدو حتى في ألوان
الطعام . . . الصحن في سويسرا كأنما يقول
لك : ماذا تبغى أكثر من غذاء نافع يوفر
لك الشبع والعافية ؟

أما نظيره الإيطالي فيقول لك : هنيئاً
مريئاً بما تنعم به من لون شهى المذاق يواتيك
باللذة والإمتاع !

وعلى رأس المجالات التي تتجلى فيها هذه
الفوارق مجالُ الجمال . . هو في سويسرا - جمال
هندسى منطقي ، يقوم على التنسيق ، فيخاطب
العقل ، ويبعث على التقدير والإكبار ، وهو -
في إيطاليا - جمال ثوري عاطفي ، يوقظ
الفتنة ، فيناجي القلب ، ويبعث في الجوانح
حرارة الشوق والهيام :

و«جزيرة الجيب» التي استمد منها الكتاب
عنوانه هي جزيرة «كابري» ، تلك الجزيرة
الصغيرة في خليج « نابولي » والتي خلدت
جمالها كثير من الأغاني الغربية العاطفية
الراقصة ، وقد تعهدتها القوم ، فأحاولوا حظها
الوافر من جمال الطبيعة سحراً وفتنة . وهذه
الملاحظة تشير في نفس كاتبنا سواءً ملحماً .
إن مواطن من الفتنة والسحر تختبئ في أرجاء
الإقليم المصري ، فتمتدح لها أن تدخل معهد
التجميل لتخرج عرائس في زينة وزخرف
تغلي لها المهور من كل خاطب ود ؟

وانشغال الكاتب بوطنه ، وحنينه إليه ،
واعترازه بعراقة تاريخه وحضارته سمة بارزة

من سمات هذا العمل الأدبي ، فالكاتب أينما
سار ، تراءى له من جانب الوطن أطياف ،
تميز منه كوامن المشاعر ، وتشير فيه غوالى
الذكريات فيهتف من أعماقه : « رعاك الله
أيها الوطن العزيز ، ما خطونا في ديار الغربة
خطوة ، إلا آتستنا منك آثار تذكرنا بك ،
وتشدنا إليك ، وتزيدنا من ولاء لك وتمجيد ،
فأنت على البعد والقرب ملء وجداننا ، مادبت
فينا حياة » .

ويزور الكاتب حديقة روما ، وفيها مئات
من التماثيل يتجمع بعضها في بقعة ، ويتفرق
بعضها في شتى الأرجاء ، ولكل فئة من العظماء
نصيب ملحوظ بين هذا الحشد من التماثيل ،
فيهرسأحننا بما يرى من روعة وجو روحاني ،
ولكنه لا يلبث أن تغشاه سحابة من الكآبة ،
إذ لا يجد عربياً من قومه أتيج له أن يتبوأ مقعداً
بين أولئك الأفاضل الخالدين ، ولكن هذه
السحابة تنقشع عنه حين يعلم أن « شوقي »
شاعر العروبة والإسلام ، قد أخذ مكانه
الجدير به بين الأنداد والنظراء من الشعراء ،
فيقول : إنه في الحق بانتصار للشرق بأسره
قدين بالزهو والاعتزاز .

ومن سمات فن تيسور في «جزيرة الجيب»
بل في أدبه جملة - كثرة التشخيص للأشياء
المادية ، ومخاطبتها ، وإدارة حوار معها ،
كأنها أناسي تسمع وتعقل وتستجيب للهمس
والمناجاة . وينجح تيسور في هذا الكتاب
النجاح كله - يسعفه في هذا حس مرهف ، وقلم

فإذا صممتا كان صمتهما إصغاء إلى أقرص
الحاكي ، تطرب السمع بأنغام الموسيقى وألحان
الغناء :

والصوت الآخر صوت التقاليد ، ممثلاً في
شخص أمها القليلة الحظ من الثقافة والذكاء ،
والتي تريد لابنتها أن تسلك مسلكها هي في
الحياة : وتصر على أن تستبقى لنفسها حياة
السراة المترفين ، على الرغم مما وصلت إليه
الأسرة من ضيق وإفلاس :

تنقلت الحياة بالفتاة في ميادين عمل مختلفة :
مرة أمينة سر لرئيس مكتب شركة تأمين ،
ومرة محررة في القسم الإفرنجي لجريدة « الليالي
الملاح » ومنشئة لركن ناجح فيها عنوانه
« أحاديث بنت البلد » ، وقد لاقى في مختلف
أعمالها ضرورياً من سلوك الرجال نحوها ،
وأطاعهم فيها ، ومرت عليها في مختلف
الأوساط نماذج وأشكال من الشباب في
علاقاتهم ، ومناحي تفكيرهم ، ومواقفهم من
الحياة ، وأورثتها تجاربها المرة ، شعوراً بالنقمة
من هؤلاء المتوقفين الذين يحبون المرأة لقمة
سائغة تسد جوعهم الأثيم . ويمسك هيكل
القصة علاقة من الحب بدأت تعارفا وودادا
ثم نمت مع الزمن ومن خلال الأحداث حبا
فرابطة زواج :

وتبدو براعة الكاتب الكبير في هذه الرواية
وفي أخواتها في تجسيد المعاني والمشاعر ،
وفي تسيير الأحداث في حركة طبيعية ، وفي
إدارة الحوار المستمر بين الأفكار وأضدادها ،

ملهم ، وثقافة فنية عميقة واسعة ، فينقل إليك
في أعذب صورة من صور البيان ذلك الجو
الحافل بالآثار ، ومواطن الجمال ومشاهد
الذكريات ، حتى لكأنك معه تشاهد وتستمتع
وتتأمل ، وتتنقل بين جلال الماضي وجمال
الحاضر : ويرتفع نفس الكاتب في بعض
مواطن الجمال الطبيعي ، إلى أسلوب تحار
في تحديده : أهو نثر شاعري ، أم شعر
في قالب منثور ؟!

سادتي :

تحفل العشرون سنة الأخيرة من حياة
تيمور ، بأعمال أدبية متنوعة ، تبدو عليها
سمات العبقرية الفنية الناضجة والأستاذية
النقدية الهادية ، والخبرة اللغوية والأدبية
الراشدة ، والتحليل النفسي العميق ، والتصوير
الكاشف لبعض مشكلات المجتمع المعاصر :

ومن هذه الأعمال روايته القصصية « إلى
اللقاء أيها الحب » يعرض فيها مشكلات فتاة
العصر الحديد ، فيما تعاني من اضطراب في
حياتها العاطفية ، وفيما تتعرض له في حياتها
العامة ، وعملها في مختلف الأوساط ، من شبه
ومغريات ، وألوان من الصراع النفسي . تسيير
نشأة الفتاة في أسرتها في جو متناقض يتنازعه
صوتان : صوت التطور ومسيرة العصر في
شخص عمتها « تفيدة » المثقفة الذكية ، التي
تعطف على الفتاة وتنفهم مشكلاتها ، والتي
كانت لقاءات الفتاة معها متعة أي متعة ، حيث
تقضيان الوقت في مفاكهة ومطالعة وحوار ،

فاتنة الملامح غالية في زينتها وزخرفتها . كأنها
دمية من دمي المسارح تقدم نفسها باسم
« مس ميلودي » مبعوثة جمعية الصحافة
الأمريكية الحرة لدراسة مشكلات الشرق
الأوسط ! ويأنس مدير التحرير بالحديث
إلى الزائرة الجذابة المرححة ، وترتفع الكلفة ،
ويظل يتفرس فيها ، فيتخرج وجهه ، وتجمحظ
عيناه من محجريها جمحوظاً عجيباً لم تعهده
أمنية السر من قبل ، حتى خشيت عليها أن
يعروها انفجار ، وتنهض مستأذنة في الانصراف
لتخلى الجول صاحب الجريدة ومبعوثة الصحافة
الأمريكية يتبادلان الحديث في حرية وطمأنينة ،
ويتدارسان مشكلات الشرق الأوسط في جو
هادئ !

ومن هذا الصنف من قصص تيمور
مسرحية اجتماعية بالفصحى والعامية ، عنوانها :
« كذب في كذب » ، وأشخاصها يمثلون نماذج
من السلوك القائم على الكذب والخداع ،
ومن الطريف أن تيمورا يطور أحداث
المسرحية ، ويحرك أشخاصها في براعة فائقة ،
تقود البطل والبطلة في النهاية إلى مرفأ الصدق
الأمين ، بعد أن ظل كلاهما يتغفل صاحبه ،
ويحاول إنقاذ نفسه بالزواج من الآخر . وتلك
ظاهرة جديرة بالنظر في موقف « تيمور »
في قصصه من الضعف الإنساني .

ومن بين آثار فقيدنا في خلال تلك السنوات
العشرين الأخيرة مجموعات من الأقاصيص
منها « ناثرون » (كتاب الهلال ١٩٥٥ عدد ٤٦)

وفي إتاحة الفرص للمنافسات والأزمات العاطفية
في تعقدها وانفراجها ، ويحس القارئ في بعض
فصول هذه الرواية صدى لبعض اهتمامات
الكاتب في فنه القصصي ، كالنصح الذي يوجهه
« سعد مبولي » لصديقه المحررة بأن تقتحم
ميدان البيئة الشعبية ، وتزور الأحياء الوطنية ،
وتجوس خلال الأسواق وتتعرف إلى أهل
البلد ، وتختلط ببنات البلد ، لتدرس كيف
يحيين ، وما مشكلاتهن ، إن ذلك ميدان فسيح
لو طرقته لتفتحت لها دنيا جديدة زاخرة ،
ولسكان ذلك ينبوع إلهام لفن صادق ينبض
بالحياة . ويفسح تيمور في هذه الرواية مكانا
للمحاث وإشاعات ذكية ، منها طرفة في شكل
مقطوعة من الشعر الحديث ، يضعها على لسان
فتاة شاعرة ، في عامها الرابع عشر تسمى نفسها
« شاعرة المذهب الوجودي وما فوق الواقعي » ،
ويهيء لها أن تلقى في حفل في « كازين
الصقر الذهبي » ، أقيم لانتخاب ملكة
عارضات الأزياء ، ويصفق الجميع المحيطون
بالفتاة ، ويرتفع التهامس بينهم يتواصفون
نضارة الفتاة ، وما تمتاز به من رشاقة الحركة ،
ونخفة الروح ، ولكنهم مروا بقصيدتها مرور
الكرام ، فلم يذكروها بخير أو بشر .

ومن إيجاءاته الكاريكاتورية صورة يرسمها
على لسان بطلة الرواية ، لموقف مدير تحرير
الجريدة ، وهي عنده تعرض عليه بعض
الأوراق ، وكان يتودد إليها ويلوح لها برغبته
في الزواج منها ؛ تدخل عليهما فتاة أمريكية

و «ودنيا جديدة» (١٩٥٧) ، « وانتصار الحياة وقصص أخرى» (١٩٦٣) و «أنا القاتل وقصص أخرى» (١٩٦٩) و «أبوعوف وقصص أخرى» (١٩٦٩) وكل قصة في هذه المجموعات بمذاق ، وبمشكلة معينة تعرضها ، أو خيال تجسده ، أو عقدة باطنة تبرزها إلى عالم الوعي والشعور .

ويقدم المؤلف لمجموعة «ثائرون» بمقدمة يشير فيها إلى مدار بين طائفة من الكتاب من مساجلات حول الأدب . وهل هو تعبير عن النفس في محيطها الخاص ، أو هو تعبير عن الحياة في محيطها العام؟ وفي رأيه أن الأدب في ظاهره غاية ، وفي جوهره وسيلة : هو غاية ، لأن الأديب الفنان - في أغلب حالاته - يعبر عن حياة تعتلج في نفسه لا يملك إلا أن يعبر عنها في صراحة وخلوص ، وهو وسيلة إذا رمى فيه الكاتب - واعياً أو غير واع - إلى إصابة أهداف معينة ، كالتماسي بالحياة الإنسانية إلى آفاق أعمّ خيراً وأكرم مثلاً ، وكالعمل لخدمة قضية من قضايا المجتمع ، أو لعلاج مشكلة من مشكلاته . ويشير المؤلف إلى أن القصة الأولى من مجموعة «ثائرون» (منها أخذت المجموعة عنوانها) «تصوّر عصرًا من أخطر عصور تاريخنا الحديث ، عصر ما قبل الثورة، وهي تدور حول فئة من الشباب الحائر ، يحيمون في عهد فساد وانحلال ، وبين جنوحهم روح الثورة، حتى يتلقوا ذلك الضوء الوهاج ، يهدي لإقامة صرح الوطن الجديد .»

ومن القصص الممتعة في المجموعات التي أشرنا إليها: قصة «المستعين بالله الكابتن هاردي» وقصة «انتصار الحياة» وقصة «الوطواط»، و «حكاية أبوعوف» .

و«لثيمور» قصة ذات جو روحى نشرت منذ أربع سنوات ، عنوانها «معبود من طين» وهي تستمد إلهامها من الحياة الديئية في مصر القديمة ، وما كان للكهنة بها من سلطان ، وما تتطلبه العقائد والأديان من جهاد في سبيلها، وما تحتاجه النفس الإنسانية من ترويض وتهذيب ، ومن ابتهال إلى الإله الحق ، تستلهم منه طمأنينة اليقين . لتقاوم روح الشر التي تقبع جانورها في قرارة الكيان البشرى .

وإذا انتقلنا من وادي القصص إلى وادي المسرحيات التاريخية ، وجدنا لثيمور طائفة منها ، تمثل اتجاهها فنيا في عرض أشخاص التاريخ عرضاً أدبياً، يعنى بما وراء الأحداث وأنماط السلوك من عوامل نفسية وبواعث لاشعورية، منها : «صقر قريش» (١٩٥٦)، و«ابن جلا» ، «وطارق الأندلسي» ، التي نشرت في العام الحاضر (١٩٧٣) .

وفي كل هذه المسرحيات يتجلى نجاح تيمور في نقل القارئ إلى العصر الذي عاش فيه بطل المسرحية ، بأشخاصه وأحداثه ولغته ، وبراعته ، في إعطاء كل شخصية في المسرحية حقها من التحديد والتقويم، حتى لتألف منها جميعاً قطعة حية صادقة ، من حياة مجتمعها الذي عاشت فيه .

وبعد فقد شغلنا في هذه الكلمة حتى الآن
بالجانب القصصي والمسرحي ، وبأدب
الرحلات في عبقرية أديبنا الكبير . ولكن
لتيمور منجزات أخرى لها شأنها ، ولها
حسابها في تقدير عظمة هذا الكاتب الرائد .

لقد شعر «تيمور» منذ أن اكتمل فنّه ،
ونضجت تجاربه ، وذاعت قصصه ، في
مختلف الآفاق الأدبية ، أن عليه واجباً من
التعريف والتقديم والنقد البناء لأعماله زملائه
ومريديه من كتّاب القصة ، ومن الدرس
والبحث النظري ، المستنير بالخبرة العملية
في فن القصص وتطوره ، وخواصه ،
وأصول نقده ، وفي الأدب ومذاهبه ، وصلته
بالحياة . كما كان عليه - وهو الجمعي اللامع -
أن يقوم لعضوية الجمع بحقها ، فيبحث
ويحاضر في فنون الأدب ، وفي اللغة
ومشكلاتها ، والكتابة العربية وإصلاحها ،
وألفاظ الحياة اليومية وتنميتها ؛ ولأعماله
في كل هذه النواحي حظها الوافر من الإجابة
ونصيبها من التقدير .

فن جهوده في هذه الميادين كتاب بعنوان :
«مناجيات للكتب والكتّاب» ، بناه على
أقسام أربعة : الأول مع القصاص العرب ،
من أصحاب القصص المطولة ، وأصحاب
القصص القصيرة ؛ والثاني مع القصاص غير
العرب ؛ والثالث مع الشعراء ؛ والرابع مع
المؤلفين ؛ وفي هذه الأقسام نلتقي بتقديم
وتحليل واضح الفكرة والاتجاه لمجموعة
من الأعمال الأدبية لبعض كتّابنا وشعرائنا

العرب : مثل يحيى حقي ، وفتحي رضوان ،
وثروت أباظة ، وعبد الحليم عبد الله ، وبشارة
الخوري كما نلتقي بتعريف بترجمات عربية
لبعض أعمال كتّاب غير عرب ، مثل :
«مارك توين» «وهنريك إيسن» ،
«ومارغريت ميتشل» :

وفي بعض فصول هذا الكتاب يكشف
لنا تيمور عن موقفه من النقد، وعن العناصر
الأساسية التي تدخل في تقديره الفني للأعمال
القصصية ، وهو يقرر أنه لم يزاوّل النقد فيما
سلف من أيامه إلا في الندرة، إذ كانت نفسه
تعزف عنه ، وأنه رضى زمناً بموقف المنقود
لا الناقد؛ ولكنه عدل أخيراً عن هذا العزوف ،
ورحّب بما طلب إليه من تناول بعض الأعمال
القصصية بالحديث ، لا ناقداً بالمعنى
الدقيق - كما يقول - ولكن قارئاً يتحدث
عما قرأ حديثاً يعبر به عن إحساسه وحبّه فيما
يصنع أن يدعى لنفسه الصديق - فيما يحس ،
والإخلاص فيما يقول :

وتيمور في هذا الكتاب ناقد معلّم ،
سهل التناول ، سمح التوجه ، معنى بالجوهر ،
عميق في تحليله وبخاصة حين يكون العمل
الذي يعرضه عميق الأبعاد في فكرته وفي بنائه
وفي عرضه لترجمة العربية لقصة «آدم
وحواء» ، من تأليف الكاتب الأمريكي
«مارك توين» مثل مما نقول ؛ ففي بدء
حديثه يشير أعمق الأسئحة عن ألباز الوجود ،
ويشير إلى أن أهل الفكر هم رواد البشرية

في البحث عن ذلك المجهول ، وأن قصة « آدم وحواء » ظلت الهدف المنصوب لأولئك المفكرين فيما يرتادون ، وأن أظهر جوانبها اثنان :

الأول : خلق حواء من ضلع آدم - فهذه الصورة تختزل لنا فلسفة الرجل والمرأة على وجه البسيطة منذ الأزل إلى الأبد ، والآخر خطيئة آدم وحواء :

وفي النظر إلى هذه الخطيئة يستجمع « تيمور » كل شجاعته ليقول :

ولني لأجرؤ فأزعم أنها خطيئة ملائكية مقدسة : خطيئة قدرها الله لحكمة تجمع بين السمو وبعد الغور ، وما هي إلا حجر الأساس في عمران الوجود المعدود ، والدعامات الكبرى للكيان الاجتماعي الرفيع ، وبفضل تلك الخطيئة ظفرت الدنيا من الجنة بتلك البذرة الحية التي أثبتت على وجه الأرض شجرة الإنسان . . . ثم يستمر قليلاً ليزيد ذلك الرأي توضيحاً .

وله في الحديث عن قصة « ذهب مع الريح » للكاتبة الأمريكية « مارجريت ميتشل » تحليل غاية في الدقة والعمق الفنى :

وهناك لون آخر من إنتاج تيمور الأدبي ، قريب مما عرضنا له في كتابه « مناجيات للكتب والكتاب » ، ذلك هو كتابه : « ملامح وغضون ، صور خاطفة لشخصيات لامعة » ، ويتألف ذلك الكتاب من لقطات تصويرية بارعة ، لبعض الشخصيات الأدبية

والجمعية ، والفنية المعاصرة ؛ من بينها لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمي ، وطه حسين ، وهيكل ، ومنصور فهمي ، وأحمد أمين ، وإسماعيل تيمور ، وفكري أباظة ، وأنطون الجميل ، والشيخ أبو العيون ، وزكى طيلمات ، ونجيب الريحاني . . . وغيرهم .

ووجه البراعة في تلك اللقطات أو الصور الوصفية أن الكاتب الفنان ، ينوع أسلوبه فيها تنويه ماهر ، وكأنما يختار - من كل شخصية يصورها - زاوية معينة هي أبرز الزوايا فيها ، يستعين بها على تحديد الأسلوب الذي سيصطنعه في التصوير . ومن أكثر هذه الصور إمتاعاً - في نظري - صور : « لطفى السيد »

« وعبد العزيز فهمي » « وأحمد أمين » « والشيخ أبو العيون » ؛ ويبدو أن تيموراً - رحمه الله - كان يرضى هوأيته في الوصف التصويري ، حتى ولو على حساب شقيقه الأكبر « إسماعيل » الأمين الأول في القصر ، فقد رنم صورة سريعة له استجابة لمن طلب منه ذلك ، وقدمها للقراء - كما يقول - على حقيقتها ، وهو موقن بأن الحساب عليها سيكون بسببها غير يسير ، على أنه فوّض أمره إلى الله . . . ومن بدائع تيمور في هذه اللقطات أنه يعتمد أحياناً إلى أن يجمع لك صديقين ملازمين في لقطة واحدة ، فيقول - مثلاً :

[هما اثنان :

أحدهما : سامق الهامة ، باسق القامة ، عريض المنكبين ، متدفع اليدين ، تلتمع

غيناه حزما واعتزاما، ويقتلع خطاه في مسيره
اقتلاعا، وبجانبه شخص متطامن، ضئيل
الظل، قريب بعضه من بعض، تملأ منه عينيك
في لحظة، ينقل خطاه كما يتواثب القطا،
ويقلب فيما حوله نظرة يقظى، تسبر الغور،
وتخترق الحجب .

فإذا راعك مرآهما جنبنا إلى جنب في الطريق،
فأقسم - غير حانت - أنك ترى العقاد
والمازنى، ترى ذينك الصاحبين، اللذين
ترافقا في دنيا الأدب وفي عالم الثقافة منذ
عهد بعيد . . . »

وقد عاد كاتبنا الكبير إلى مثل هذه الصور
الوصفية الثنائية في مقالات نشرت في
الصحف في السنتين الأخيرتين : منها واحدة
بعنوان : « بين شوقي وعزيز » وأخرى
بعنوان : « بين الأديب المغامر والأديب العليل »
وأشار في هذا المقال الثانى إلى أنه أخذ - منذ
شهور - يعد أوراقه لهذه الصور الوصفية التى
يجمع في كل منها بين اثنين، اتسعت بينهما
دائرة المشابهات أو المقابلات.

وإذا أردنا استكمال الصورة المجملة التى
نحاول أن نرسمها هنا لجهود الراحل
الكريم - عرفانا بفضله، كان علينا أن
نشير - في إيجاز يقتضيه المقام - إلى ألوان
أخرى من أعماله الدراسية من كتب
ومحاضرات وبحوث في مختلف ميادين
الأدب واللغة .

فالفقيد كتاب بعنوان « محاضرات في
القصص في أدب : العرب ماضيه وحاضره »

يضم محاضراته التى ألقاها على طلبة قسم
الدراسات الأدبية واللغوية بمعهد الدراسات
العربية العالية (١٩٥٨) . وقد ذهب فيها إلى
أن للأمة العربية قصتها منذ أقدم العهود على
طرازها الخاص، وأن أدبنا القصصى
الحديث يحمل لقاحه وبذوره من قصصنا
العربى القديم، وأنه وليد الصلة بين الشرق
والغرب وأن « ألف ليلة وليلة » ليس إلا بعض
ماتزخر به كتبنا الثقافية من أقاصيص وأسمار .
وقد كانت معالجة الفقيد للموضوع - على
مستوى الدراسات العليا - معالجة تتسم بالعمق
والاستقصاء وسعة الأفق .

أما كتابه : « فن القصص - دراسات في
القصة والمسرح - » ويقع في ثلاثمائة من
الصفحات المتوسطة، فقد جمع فيه معظم ما
يهم الدارس والخاص من الثقافة الفنية،
موضوعا في شكل مشكلات تناقش، وظواهر
تعلل، وحقائق في دنيا الفن تبسط وتوضح،
ومقاييس وأصول، أساسها الخبرة والنظر
السليم ومعايشة الأعمال الممتازة لمشاهير الكتاب .
وقد أدمج المؤلف في هذا الكتاب مادة من
فصول له نشرت سابقا، ويتألف الكتاب من
حوالى خمسة وعشرين قسما، يرجع معظمها
إلى موضوعين رئيسيين : الفن والقصص،
وتحتهما، تندرج حقيقة الفن وجوهره،
والفن للحياة، والفنان بين الواقع والإلهام،
وشخصية الفنان والفن بين المسرح والسينما،
ونشوء القصة وتطورها، والقصص المصرى
الحديث، والقصص الإنسانى، وعوامل

النجاح في تنشئة القاص : . وغيرها من الموضوعات :

و«تيموز» - في عنايته بالناشئ القاص ، وبالرغم من نفوره من التعقيد والتقنين في عالم الفن ، يستخلص بعض القواعد والقوانين في كتابة القصة ، ويعد منها ثمانية يشرحها ويقدمها لا لتكون قواعد جامدة ، ولكن لتكون معالم على الطريق تهدي وتوجه :

ويشارك فقيدينا في دراسات الأدب العربي الحديث فينشر في سنة ١٩٧٠ كتاباً في مائتين من الصفحات المتوسطة بعنوان: « اتجاهات الأدب العربي في السنين المائة الأخيرة » ، عنى فيه - إلى جانب التاريخ الموجز لأدبنا الحديث - بالترجمة الجملة لنماذج من كتابنا وشعرائنا ، مثل نواحي من التطور ، واتجاهات من التفكير من بينها عائشة التيمورية ، وشوقي ، وحافظ ، وتوفيق الحكيم ، وعزيز اظلة ، ومحمود طاهر لاشين ، ومحمد الساعى ، وأمين الخولى ... وغيرهم :

وقد استمتع المجمع في مؤتمراته السنوية بالاستماع والمناقشة لطائفة جادة من بحوث تيموز ، من بينها في ميدان الأدب « بحث في الأدب الشعبي » ، و« الفنان بين الواقع والإلهام » ، و« مذهب الأدب الهادف ومكانه من الأدب الواقعي » .

وفي الناحية اللغوية : « لغة المجتمع » و« لغة القصص » و« وحدة الفكر العربي » و« مقومات العروبة » و« سلطان اللغة العربية »

و« رأى في الصراع بين العامية والفصحى » ، و« مواليد جديدة في لغة الحياة العامة » .

و« تيموز » في بحوثه المجمعية ، وخاصة الأدبية منها - يصدر عن ثقافة فنية وأدبية وشرقية وغربية واسعة ، وقد عدت له في أحد تلك البحوث (الفنان بين الواقع والإلهام) أربعة عشر اسماً من كتاب [العربية وشعرائها في قديمها وحديثها ، وقرابة عشرين اسماً من الغرب : بين كاتب وشاعر وموسيقى ورسام ، وكاتبة وممثلة ، وقد جلبها كلها ليوضح بها بعض آراء ودعاوى في قضية الواقع والإلهام ، محلاً عملاً لهذا ، مقتبساً رأياً لذلك ، مبرزاً المفارقات والموافقات بين حياة الفنان ومجال فنه ، مشيراً إلى أن الفنان قرين الممثل على منصة المسرح : فنه كله في استطاعته أن يندمج في الشخصيات التي يتناولها ، مبيّناً أن الفنانين يختلفون شكولاً وألواناً ، مؤكداً أن العبقرية لا تدع للفنان حداً يقف عنده ، وأن أكذب شئ في الفن هو التحديد ، وأنه لا حجر على العقول والأذهان ولا قانون للميول والاتجاهات ، وفي « صندوق الدنيا » متسع لأشتات المنازع الحافلة بالنقائض والأضداد :

وهناك جانب هام من جهود « تيموز » في خدمة اللغة العربية ، وفي تحقيق هدف من الأهداف الرئيسية للمجمع هو تنمية اللغة العربية ، وتطويرها لتفي بمطالب الحضارة في شتى مظاهرها وذلك يمثل المجال الخامس من المجالات الكبرى لمنجزات « تيموز » :

أثخذ « تيمور » من العمل في هذا الميدان رسالة خذ قص لها شطرا كبيرا من جهده ، ووقته في المرحلة الأخيرة من حياته ، وكان يحرص على ألا يمر مؤتمرا سنوي للمجمع دون أن يقدم له حصيلة من ألفاظ الحضارة والحياة العامة ، مما خذ هو ولجنة ألفاظ الحضارة - وكان مقررها - ومما استخلصه هو من قديم ما طالع ، أو ما وقع له حديثا فيما قرأ ، أو اقترحه ، أو أجراه فيما كتب ، أو ما رأى تخصيص مدلوله العام أو تعميم مدلوله الخاص ؛ وكان يصدر في هذا الجهد عن وجهة من النظر ، تمثل الآن الاتجاه العام للمجتمع في أمر ألفاظ الحضارة ، عمادها الشعور بضرورة تنقية لغة الحياة في المجتمعات العربية من العابي والدخيل ، والإيمان بأن لغة الحياة اليومية السليمة لا تفرض على الناس فرضا ، ولكن تؤخذ من أفواههم ، ومألوف كلامهم ، لترد إليهم وتوضع في متناولهم مذكاة من أهل الاختصاص أو مفضحة إن كانت في حاجه إلى تفصيح ؛ والواقع يؤيد أن الوعي اللغوي في الجماهير العربية قد استيقظ منها ونما نموًا ملحوظا ، وأن حرص الجماهير - معاملاتهما وحرفها وصناعاتها على استعمال اللفظ العربي المناسب - في سهولته ووضوح دلالاته وارتياح الذوق العام إليه ، يوشك أن يكون سمة بارزة في حياتنا اللغوية الحاضرة ؛

وقد جمع « تيمور » جملة صالحة من ثمار جهوده في هذا الميدان ، مما سبق أن قدمه للمجمع في مؤتمرات ، ونشر ذلك في سنة ١٩٦١ في مصنف قيم بعنوان : « معجم الحضارة » يضم نحو ألف من ألفاظ الحياة العامة ، بؤبت وعائق عليها واقترح لبعضها بدائل فيها مزية من إفصاح ، أو بنية سليمة ؛ سادتي :

إن فقيدنا « محمود تيمور » - كما تشهد آثاره وسيرة حياته - كان كاتباً رائدا في فن القصة ، ومجمعا مخلصا لرسالة المجمع ، ومواطناً معتزاً بوطنه ، وأديباً باحثاً حفيظاً بالفصحى وآدابها ، وإنسانا سمح الوداد ، كريم الشمائل ، يالف ويؤلف ؛

وقد ظفر في حياته بالتكريم الجدير به ، أحبه الناس ، وقدمته الدولة فنحتته جوائزها ، وأوسمتها ، وأحلمه المجمع منه في السويداء ، وترجمت طائفة من قصصه إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية والآسيوية ، وعرف فيه كثير من شباب الكتاب موجهها ومعلمها ، ونشرت عن أدبه وسيرته دراسات جادة ؛

وإن من حق هذا الرائد علينا - وقد فارق دنيانا إلى جوار ربه بعد أن أدى رسالته - أن نضع أعماله موضع البحث والدرس العميق ، وأن نجلو من سيرته ومن شخصيته مثالا به يقتدى ، ومناراً به يهتدى ، والله سبحانه يرحمنا وإياه ، ويجزيه عنا خير الجزاء ؛

●●● قصيدة الدكتور ابراهيم أدهم الدمرداش :

نجم تنوى من قمة الجوزاء
 بالرغم من عيسائه وضياء
 إن النجوم إذا علت وتألأت
 مها تسكن ، فصيرها لفناء
 لا تفرحن إذا أتتك ، بنعمة
 أو تحزنن على فوات عطاء
 إن الذين تغرّم دنياهمو
 يستبدلون النصار بالرمضاء
 لا تقبلن على الحياة تظنها
 «ريسا» فليست ، كالسراب ، بما
 رفع الأمانة بالوفاة وحملها
 عند الوليد بضحكة وبكاء
 حدباء ، هذى سوقنا ومصيرنا
 للنار أو لثوبة الشهداء
 قد تحمّين المؤمنين برهبم
 والكافرين به بدون رجاء
 عاد التراب إلى التراب كأصيلة
 والروح سر الله فى الأحياء
 الجسم يفنى عن قريب بالبلى
 والروح تحظى بعده ببقاء
 إن الحياة مفازة تجتاها
 أرواح فى حجب من الأشلاء
 هذا الرداء مطية منقادة
 للروح فرسلها بدون عناء

إن أحسنت فلنفسها قد أحسنت
 حسناتها أو ظلمها بجزاء
 حدباء ، إنك تحمّين كبيرنا
 فى حلبة الأدباء والنساء
 لو تعرفين مقامه وخلاقه
 لشرتِ دراً ناصع الأضواء
 يا تاركاً دار البلاء مزوداً
 بالصالحات مشيعاً بدعاء
 من مثله قص الحديث رواية
 وفكاهة فى حكمة الحكماء
 أو مثله ملك البيان وسحره .
 ببلاغة عزت على الفصحاء
 كل الشمائل فيه دون تكبير
 إن التواضع شيمة العظماء
 لو عد أهل الفضل كان إمامهم
 فى عفة وكرامة وإباء
 من جاء يطلب حاجة من جوده
 أعطاه ما فى بيته بسخاء
 ذرية من بعضها بعض لها
 فضل على الكتاب والقراء
 من بعد «أحمد» عقبيت «محمد»
 وتلاه «محمود» من الأبناء
 والشعر كان نصيب «عائشة» التى
 جاءت بخير قصائد الشعراء
 «تيمور» هذا الاسم يبقى درة
 بقلائد الشعراء والأدباء

●●● كلمة شكر الأسرة للأستاذ أحمد فؤاد تيمور :

أكنت له عاطفة الأبوة وفجيعتها ، فكان
من وحيه « أبو الهول يطير » وغيره من فن
وأدب وشاطرته أنا على محبة وود زمالة السن
ورفقة الدرس ، وصداقة العمر .

ويقف بي قلمي اليوم حائرا في عجزه
وأنت مانت في مجمع الخالدين . أن يمضي
بي قدما فأحس به يتناقل على أنامل لايلين
ولايبين .

أستشعر وأنا أخط تلك الكلمات العاجزات
القصار ، بأن من سبقوك إلى عالم الخلود في
برزخ الأرواح العلوي ، ليهيمون وجدا
بلقائك من أب وأم وشقيقين ، وعلى رأسهم
ابنك الأعز باسطا لك ذراعيه مرحبا بك
فتذوب روحا كما في معانقة جياشة ، فتقضي
الوقت معه تسمعه كما أسمعته وهو طفل
يرقد بين حضنيك تروى له اليوم مارويت
له بالأمس من أقاصيص وحكايات ، فهدأ
نفسه وينام متشبثا بك مطمئن القلب ،
هانيء الوجدان .

وإني آخذ بين جمع المحبين شقيق
الحبيب الذي سبقك بالرحيل عنا منذ شهور
تقضت ، ولا أدري كيف تقضت . متلهفما
لسماع أحاديثك عن الأحياء من ابن مكلموم
وإخوة لم يحف لفقده في مآقيهم الدمع بعد .
وأراك تلتفت إليه ، فتحدث عليه حديثك

سيدي كبير الخالدين
سادتي ، أيها الخالدون
سيداتي ، آنساتي ، سادتي

أحق لمثلي - أيها الخالدون - أن يقف على
متبر مجمعكم الموقر ، منبر المدافعين عن الفصحى
وحمايتها ، يسمع صوته ، فيقوم بينكم متحدثا
في بلاغة وإفصاح ، وأنتم هنا أعلام البلاغة
والإفصاح بيد أن تفضلكم بإقامة هذا الحفل
لذكرى أحدكم الذي شرفني القدر بأن أنتمى
إلى الأرومة التي أنبته ، هذا الظرف الفاجع
هو الذي حدا بي ، على الرغم من عجمة لساني
معولا على ما اتصفتم به من رحابة صدر أن
أتكلم شاكرا ، باسم أسرة الفقيد العزيز ،
ما أدبتموه إليه ، على لسان خطباء بررة
أجلاء ، من تقدير ووفاء وإخلاص . وليس
ذلك بمستغرب على الخالدين ، وهم دون
مراء موازين التقدير والوفاء والإخلاص .
أيها الخالد بين الخالدين ، عمي الأعز :

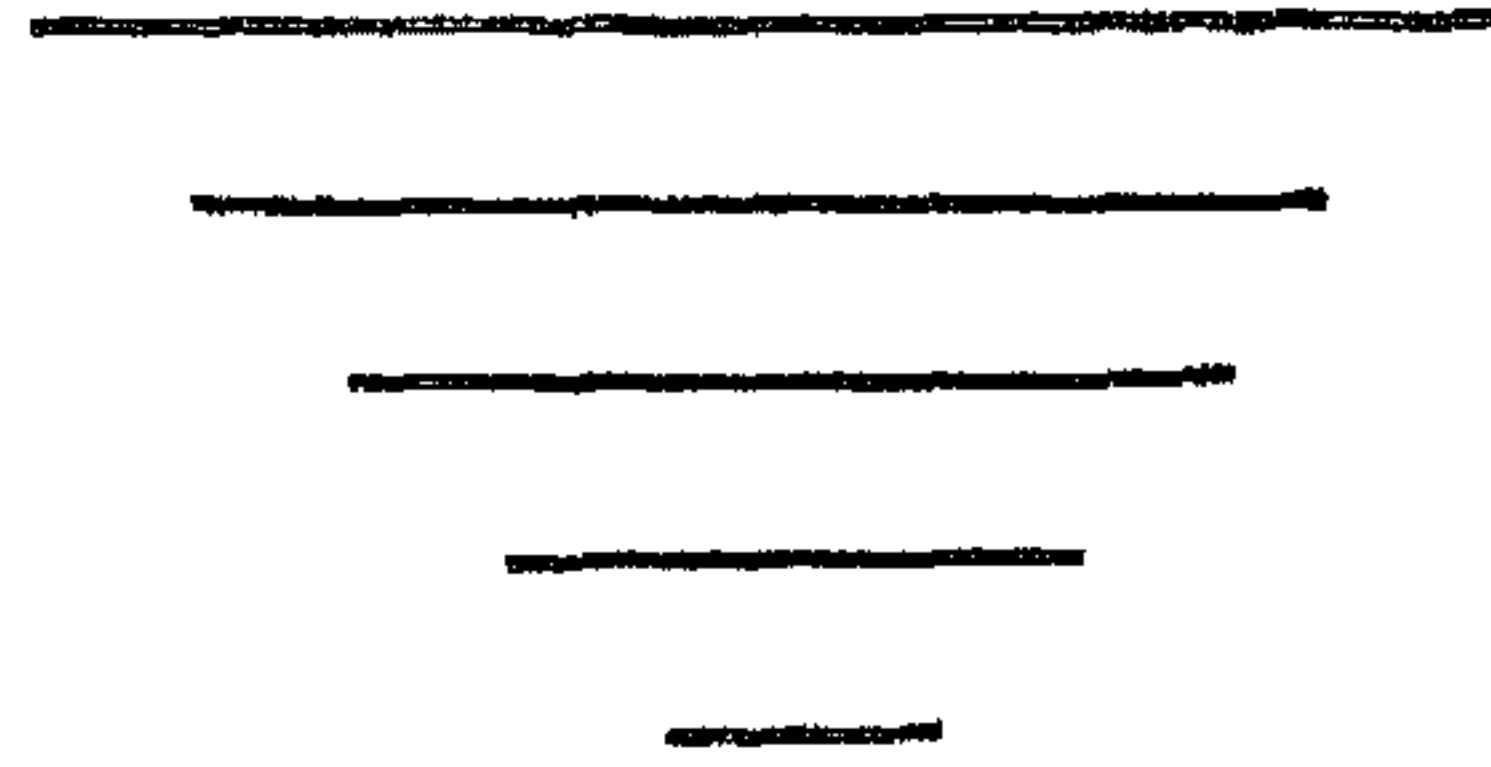
كتب القدر على قلمي منذ عشرين عاما
ونيف ، وأنا في سن الصبا الباكر ، أن نخط
بدم لا يمداد كلمات رثاء مجلة المدرسة تحت
صورة تزين الصفحة الأولى من صفحاتها
وقد جللها السواد ، لعزير علي كلينا ، فبكيناها
معا : أنت كأب ، وأنا كأبن عم وزميل .
وصديق :

علينا في دنيا الأرض ، فتأخذ في روايتك
تصوغ له وللمنصتين لك في عالم الروح
ما احترنته لهذا الاجتماع من حديث وأقاصيص
تهدي إليهم في صياغتك الرشيقمة ما أهديته إلى
الأحياء ، باقة من فنك الأنحاذ ، تعشقتة
أسماع الراحلين والأحياء ، وإن طالت بنا
المسافات .. وإن ترسل علينا صوتك
الهادئ الهاتف من علياء السماء .

هنيئالك ، يوم زاملت الخالدين ، وهنيئنا

لهم ما يسود مجتمعهم البوقر من ترابط في
إنحاء وصفاء ، وإن اختلفت حول الكلمة
المعروضة عليهم لإقرارها الآراء ، واحتدم
من أجلها الجدل ، واشتد عليها النقاش :
وحمداً لكم ، أيها الخالدون ، ماتضمرون
من تعاطف مكين ، وما تظهرون من
من تآزر وثيق ، في سبيل نصره اللغة ،
وتعريب العلم ، وتزكية الأدب .

وسلام عليكم ، ورحمة الله ، ، ،

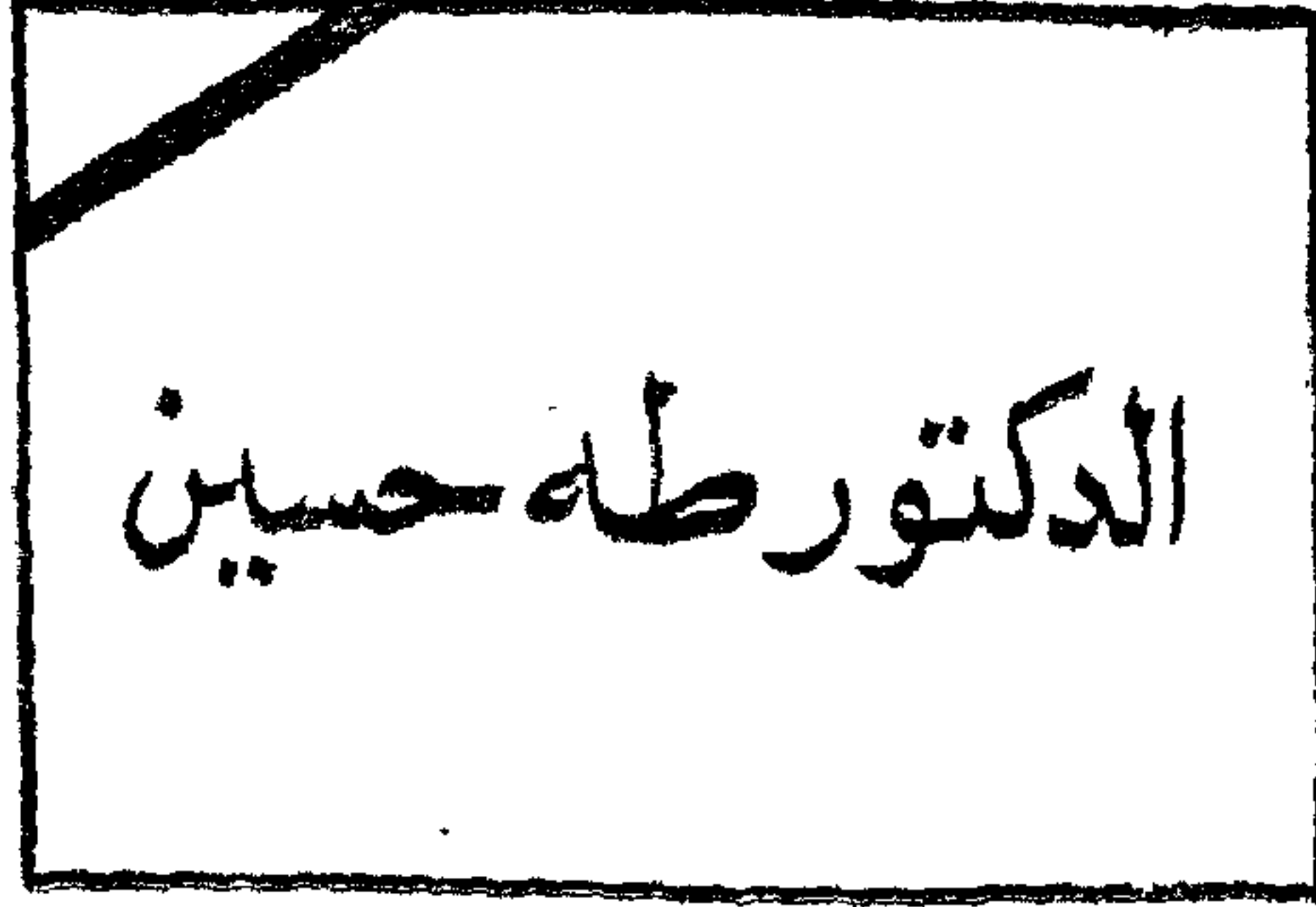


أقام الجمع حفل تأبين لرئيسه المرحوم الدكتور طه حسين ، في الساعة الخامسة من مساء الأربعاء ٢ من ذى الحجة سنة ١٣٩٣ هـ (الموافق ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٧٣ م) بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وفيما يلي ما ألقى في الحفل :

كلمة الأستاذ زكى المهندس

نائب رئيس الجمع

في تأبين المرحوم :



هذه الحياة الخصبه العملاقة تجد نفسه في حيرة
فلا يدري ماذا يأخذ منها وماذا يدع ؟
ولا يدري عن أى جانب من جوانبها يتحدث ؟
فهل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأديب
؟ الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بإنتاجه
الخصب الممتع فى الأدب ، وفى النقد ، وفى
التاريخ ، وفى التربية ، وفى القصة وفى مشاكل
الناس ، وفى المعذبين فى الأرض :

والذى استطاع أن يطور من مناهج البحث
الأدبى ، وأن يغير من مفاهيمها وأن يضع
بين أيدينا لدراسة الأدب نهجا علميا يقوم
على البحث والدرس والنقد والتحليل ، حتى
نأخذ ونرد الفاسد ، ونصحح الخطأ :

هل يتحدث الإنسان عن هذا الذى عنى
بالتراث الأدبى القديم عناية فائقة ، ولكنه لم

سيداتي وسادتي :

ما أشق على الإنسان أن يتحدث عن
طه حسين ! !

إن مجال القول فيه مجال رحب فسيح
لا يستطيع أحد أن يبلغ مداه .

إن كل ما قيل عن طه حسين وكل ما كتب
عن طه حسين لا يعبر إلا عن بعض طه حسين
ذلك أن طه حسين لم يكن كأحد من الناس ،
إنه كان تاريخ العصر ، ورمز النهضة ، إنه خلاصة
مركزة تباورت فيها كل معالم النهضة الأدبية
والفكرية الحديثة .

لهذا كانت حياته أشبه ببحر عظيم . من أى
النواحي أتيت لا تستطيع أن تدرك عمقه ، ولا تستطيع
أن تحصى ما أودعه الله فيه من خير . ولهذا
أيضا كان كل من يتصلى للحديث عن

يقف به عند تلك المسلمات القديمة التقليدية الموروثة .

ولم يقف عند منمارب الخيام والأطلال، البالية وحداة العيس في الصحراء ، ولكنه استمد منه ومن أدب الإغريق ومن أدب اللاتين القدماء ومن الأدب الغربي الحديث .

استمد من هذه كلها مادة بنى بها قصورا أدبية عربية جديدة ، بل بنى ناطحات سحاب .

لقد كان الفقيد في عمله هذا أشبه بالنحلة تقع على مختلف الزهور تمتص رحيقها ثم تخرجه للناس عسلا شهياً .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين ، الفنان المبدع الذي انفر د بأسلوب من الكتابة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه . أسلوب طبيعي يمتاز بالحرية والانطلاق والإشراق ، أسلوب تألفه كل أذن وترتاح إليه كل نفس . لقد كانت تأتيه الفكرة فيتناولها بأسلوب الفنان الأصيل ثم يعرضها ، وفي موجات متتابعة وصور متلاحقة ينبعث بعضها من بعض ، ويتولد آخرها من أولها ، وقد عيب عليه في هذا شيء من التكرار ، ولكنه في الواقع تكرر محبب إلى النفس ، يراد به تعميق الإحساس بالفكرة التي يتحدث عنها . وأساليب طه حسين في الكتابة لا يكاد يختلف عن أسلوبه في الحديث فهو يتحدث إليك وكأنك تقرأ له ، وأنت تقرأ له وكأنه يتحدث إليك .

هل يتحدث الإنسان عن طه حسين الأستاذ والمعلم الذي تخرج على يده أجيال متعاقبة من الكتاب والأدباء الذين نعتر اليوم بهم وبأدبهم ؟

أذكر أن بعض الكتاب شبه طه حسين بين تلاميذه بشجرة الزيتون تكسب التربة التي تزرع فيها قوة الحصب والنماء ، حتى لترى كل نبات حولها أخضر موعنا .

وكذلك كان طه حسين بين تلاميذه ، كان يحنو عليهم ، ويتابع حياتهم في الجامعة وخارج الجامعة ، ويجتذبهم إليه بشخصيته القوية ، وبأسلوبه الساحر الفاتن .

هل يتحدث الإنسان عن صاحب الأيام الذي وضع بين أيدينا ترجمة ذاتية تصور لنا كيف تطورت حياته الأدبية والفكرية والاجتماعية ، وكيف استطاع أن يشق طريقه بين الظلمات إلى العظمة والمجد . إن أيام طه حسين يجب أن تكون مثلاً للشباب تلهمه القوة والأمل .

وبعد فهذه أيتها السيدات والسادة لمحات خاطفة عن تلك الحياة الحرة المنتجة الحصبة حسي هنا أن أقول في رثاء طه حسين ما قاله شاعرنا القديم في رثاء قيس بن عاصم :

فما كان قيس موته موت واحد
ولكنه بنيان قوم تهدموا

سيداتي ، سادتي :

لجهود طه حسين ، فإن مصر لن تنسى كذلك
جهود السيدة (سوزان) في صنع طه
حسين .

ألهمها الله الصبر ، ورحم الفقيد العظيم
وطيب ثراه ، وجعل الجنة مستقره ومأواه .
والسلام عليكم ورحمة الله .

إن تاريخ عطاء الرجال يثبت لنا أن كل
عظيم كان وراءه امرأة عظيمة ، والسيدة الجليلة
(سوزان) حرم الفقيد ، قد ضربت لهذا
مثلا آخر ، وأضافت إليه عبرة أخرى ، وإذا
كانت مصر مدينة بنهضتها الأدبية والفكرية

●●● كلمة الدكتور ابراهيم مدكور :

الأمين العام للمجمع

((طه حسين مكافحا))

سيداتي وسادتي :

للجراحة والشجاعة : « وطه حسين » مكافح
مناضل ، وتلك ظاهرة ملحوظة في حياته كلها ،
كافح في صباه وشبابه ، كما كافح في كهولته
وشيوخه ، وبرغم مرضه في سنه الأخيرة
بقي قوله وفكره يحملان شارة الكفاح
والنضال . كافح وناضل في ميدان العلم والتعليم ،
في ميدان الأدب واللغة ، في ميدان الوطنية
والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنق
ومشقة ، وجلب عليه ما جلب من خصومة
وعداء ، ولا تخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط :
وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت
له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما
الرجل كل الرجل هو الذي تستقيم له حياته
كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره
القوى التي أن تكون ، وكما يريد عقله
الذكي أن تكون .

كان صديقنا السيد الدكتور الزيات ،
مستشار السيد رئيس الجمهورية ، حريصاً
على أن يشترك معنا في هذا التأبين ، وكانت
له كلمة ، ولكن مهمة مفاجئة اضطرت له للسفر
إلى الخارج . وهو يبعث بصادق أسفه لحرمانه
من الاشتراك معنا ، وينقل إلينا تحية زوجة
الفقيد وابنته وولده وشكرهم الخالص
ودعواتهم للمجمع والمجمعين بالتوفيق والسداد
في كل ما اضطلع الفقيد الكريم به من حرص
على اللغة وتعهدها :

* * *

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه
ويستطيون كل شيء في سبيله . يرون فيه أداء
للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجحا
للمهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ، ويكفي أن نعرض نماذج منها . كفافح في صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض . احرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود عاميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهو في حدود الثالثة عشرة من عمره وتتلماذ على كبار الشيوخ حين ذلك ، أمثال الشيخ بنيت ، ومحمد العدوي ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصني ، ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام في الرواق العباسي . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالحد والتحصيل ، وقوة الحججة والحدق في الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذي رحب به في « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكي (باشا) ، وأحمد كمال (باشا) ، وإسماعيل رأفت (بك) ، ومحمد الخضري ، ومحمد المهدي بين المصريين ، ولخويدي وليمان ، وسانتلانا من الأوربيين : ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحيانا أستاذه وصديقه « سانتلانا » إلى درس الشيخ سايم البشري في التفسير ،

ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبي الشيخ البشري في مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته في الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدي الذي رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله . ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيها عنتا كبيرا ، ولكنه لم يجودها إلا أثناء مقامه في فرنسا . ونخم مطافه في هذه الجامعة بتقديم رسالة « في ذكرى أبي العلاء » للحصول على الدكتوراه ، ونالها بتقدير « جيد جدا » ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدي الذي لم ينس حملات تلميذه السابقة . وما إن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ، ووجه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرماته من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول : وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذلك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجريء .

ولم يقف طه حسين عنده هذه الغاية ، بل تابع الكفاح ، وواصل الدرس والبحث . فأوفدته جامعته إلى فرنسا في أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى ، وقضى في مونبلييه نحو عام ، ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة . ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة في باريس نفسها ، واتصل بكبار أساتذة

« السربون » في الاجتماع والتاريخ ، أمثال « دوركايم » ، « وليفي بريل » « وسينيوبوس » . وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ في دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية ، وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك في يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها . وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسي . وفي عامين اثنين حصل على الليسانس في الآداب ، وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة في « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس : فتوافر له بذلك درجتان في الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة ، والأخرى من باريس ، ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته :

وقد عاد إلى مصر في أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة ، بعد أن اكتمل نضجه العلمي والفكري ، وبدأ نضالا طويلا واسع المدى ، متعدد الألوان ، عمّر نحو أربعين سنة ، وعود فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل ، وبداهة المنطق . كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له ما وسعه ، ويعده أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد . ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وخابهم على أعمالهم في غير هواة وتخرج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل عليها في حماس . أخذ يستمعوه بأسلوبه ،

وفتنوا بنعمة صوته ، وحاكوه في كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة . وفي عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلي » الذي لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما أن ظهر هذا الكتاب ، حتى أثار حملة شعواء اختلطت فيها الأدب بالسياسة ، فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ، ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته . وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة ، ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء ، وهو من نعرف في شخصه ومنزله ، لكان لهذا الاستجواب شأن آخر . ولم تكف تسكن العاصفة في البرلمان حتى هبت في النيابة العامة ، فحقق مع المؤلف وبحث أقواله وآراؤه ، ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه ، واكتفى بمنع تداول كتابه في الأسواق . وبرهن طه حسين في ذلك كله على صلابته ورباطة جأش بالغتين ، ونخاض معارك في جهات ولم يمسه منها سوء يذكر ، بيد أنه لم تكف تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى في الجامعة كانت أشد عنفاً :

فعرض في تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه ، ولكن دكتاتورية « إسماعيل صدقي » لم ترد

في أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعده
عن عمله ، وأحاطه على المعاش :

وكافح طه حسين أيضا في ميدان الصحافة ،
وصلته بها قدمة العهد ، ترجع إلى أوائل هذا
القرن ، نُشِئَتْ فيها على أيدي رائدين عظيمين
هما : عبد العزيز جاويش ولطفى السيد ،
فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان
إلى التطرف أميل . وقد كتب أول ما كتب في
« مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز
جاويش » الذي وكل إليه أمرها . وشجعه على
ما تتوق إليه نفسه من نقد جرى وجدل عنيف .
واضطرب رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير
انتظار ، فاجأ إلى رائده الثاني وأفاد منه كثيرا .
والحق أن الجريدة على قصر عمرها كانت
مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام
الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم في حياتنا
السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية . ونعتقد
أنه لم يكشف بعد تماماً عن أثرها في اللغة
وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت مبادئه
« رفاعة الطهطاوي » و « محمد عبده » من
التخلص من السجع والجناس والمحسنات
اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمي ،
ومنصور فهمي ، والزيات ، الذين كانوا
قدوة في الأداء الفني السائغ السهل . وقد أخذ
على طه حسين شيء من التكرار وبالغ في
ذلك خصومه ومنافسوه ، ولو كان في وسعه
أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه
هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ،
ولعله تأثر في هذه السلاسة بشيء من الأدب

الفرنسي ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب
العربية المعاصرة ، ولا يحمل أي طابع أجنبي ،
وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب
الصدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و « ابن
المقفع » ، و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيرنا من أوروبا عاد إلى
شوقه القديم ، واتصل بصحيفة « السياسة » ،
وهي إلى حد ما امتداد « للجريدة » وأسرتها
واحدة تقريبا ، وفيها التقى « طه » بزميله
القديم « هيكل » ، واشترك معه في إدارة
الصحيفة ، وناب عنه أحيانا في رئاسة
تحريرها . وكان له في « السياسة الأسبوعية »
مجال فسيح ، وكم كان قراؤه ينتظرون
في شغف « حديث الأربعاء » الذي فتح
أبوابا ثقافية متعددة ، وقاد حركة نقد حية
نشيطة ، وكم نود أن نحياها . وإذا كان
طه حسين ، قد كتب في « الجريدة »
و « السياسة » هاويا ، فإنه بعد إحاطته على المعاش
أصبح محترفا ، وطلب إليه الوفد عام ١٩٣٣
أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ،
وأصبح يؤيد حزبا سياسيا طالما حاربه في
عنف . غير أن تعاونه مع « حافظ عوض » ،
صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا
واضطرب أن ينفصل عنه ، وأن يشتري « صحيفة
الوادى » ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو
عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا
بمواصلة الكتابة للصحف هاويا مرة أخرى
في بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له
علاقات منتظمة ببعضها « كالجهورية »
و « الأهرام » في العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً في ميدان السياسة ، وما أقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذي قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبياً متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هي تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جارها يمينا تارة ، ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثيره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات مانال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى في لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه في البداية شأن كل مواطن مستنير عاش في جو الثورة العرابية ، وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطاني ، ويطالب بالاستقلال :

وفي اتصال فقيدنا « بعبدة العزيز جاويش » و« لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أن لا نلاحظ له في الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا في مصر ولا في فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفي إلى الدخول في مهاترات حزبية ما كان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ، ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عالية . وتتساءل هل اشترك فعلاً في التنظيم الداخلي لحزب الأحرار؟

وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيراً يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وحمل رأيهم ، ودافع عن مواقفهم ، وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما ، وقد وصل فيهما إلى القمة ، وأحرز مجداً يزيد على مجده كثير من السياسيين . وودوا بخاصة أن لو لم يغفل في المضممار السياسي ذلك الغلو الذي أساء أحياناً إلى مقامه في الأدب وبين الأدباء .

وفي عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية في زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم « لطفى السيد » و« عبد العزيز فهمى » ، « والشيخ المراغى » ، « وهيكى » ، « ومصطفى عبد الرازق » : دخله وقد جاوز الخمسين : وحق له أن يركن إلى شيء من الهدوء والراحة . ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال : وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم في كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه في جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله في مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية ، وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله ، ويوفر له وسائل العمل والإنتاج :

وكنم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة ،
واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها
الأدبي ولا يزال المجمع يعاني من شئون الطبع
ما يعاني إلى اليوم . وأراد «المعجم الفاظ القرآن»
أن يقوم على أساس من المنهج التاريخي ،
وأن يسلك به ما سلك في كتب العهد القديم ،
وكان له في ذلك حوار متصل مع الشيخ
المراغي : ولا يزال نذكر ما كان بينه وبين
زميله «عباس العقاد» من محاورات كانت
تبعث في جلساتنا نشاطا وحيوية ، وإذا جئنا
وطيسها تدخل فيها « لطفى السيد » فهدأت
وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا
شديدا ، ورحب بالمشروع الذي بعثت به
وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب في أن
يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه
مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن
يثس المجمع من إخراج معجم « فيشر »
التاريخي ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير ،
وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعهد التنفيذ .
وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته في
تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا في رسم منهج
هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد
قدر من مواده ، ويراجعها في أناة وروية .
واستطاع أن يخرج منها نموذجا في نحو ٥٠٠
صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين
والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعين لهم
من ملاحظات وتعليقات ، وكان هذا النموذج
أساسا سار عليه المجمع في إخراج معجمه

الكبير : تلك أمثلة من جهوده المتصلة
في مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه
بماضيه الحافل ركن ركيت من أركان المجمع ،
وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته . ولقد
كانت رحلته فيه خصيبة طويلة ، بلغت ٣٣
عاما ، وهي أطول رحلة لمصرى من الخالدين :

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظنني
أغلو في شيء وإن قلت إن حياته كانت
كفاحاً كلها ، كفاح في الإعداد والتكوين ،
وكفاح في البذل والعطاء ؛ كفاح في الأزهر ،
والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه
كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت
ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة
والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ،
والحامعات الجديدة ، ووزارة المعارف .
لحاً فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيز
المشاعر ويستلقت الأنظار ، ولا شك في أن
كتاب « الشعر الجاهلي » من أولى هذه القنابل ،
ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائي والثانوي في
خاتمة المطاف . وقد يكون من كفاحه ما
ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على
الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية
التي جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية
من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم
القيود الفكرية ، اعتمد بحرية الرأي وتحكيم
العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى
البحث والتحرر ، بل إلى الشك والمعارضة ،
وأدخل المنهج النقدي في ميادين لم يكن مسلما
من قبل أن يطبق فيها . استن في الكتابة

والتعبير لونا عذبا من الأداء الفني حاكاه فيه
كثير من الكتاب ، وأضحى عميد الأدب
غير منازع في العالم العربي جميعه :

رثاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ،
فبلى بعلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد
المجاهدين :

سيداتي ، سادتي :

ليس على طول الحياة ندم
ومن وراء المرء ما يعلم

يموت والد ويخلف مـ
لود وكـل ذى أب ييتم
تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم

لأمته ولغته خير الجزاء ما

●●● كلمة الدكتور حسنى سبح :

رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق .

بما لا عهد به للأجيال السالفة ، مازجاً مزجاً فنياً
وعلمياً وبراعة فائقة بين الثقافتين العربية
والغربية :

فطر فقيدنا على ذكاء مفرط ، وجبل
على عزيمة خارقة ، فلم تقعه إصابته بالآفة
المحتومة في أيام صباه (على حد تعبيره) لم
تقعه عن أن يبلغ ما تصبو إليه نفسه الكبيرة
وما تطمح إليه روحه الوثابة من جد وعمل ،
مستطيعاً بغيره كما عبر عن نفسه ومستبصراً
ببصيرته .

فثار ثورته على ما هو متعارف ، ولم يشأ أن
يكون مقلداً وتابعا ، فأتى بما عدّ خروجا عن
السنة المتبعة . ولم يعد هذا الثائر في عالم
الأدب من بين الكثرة المعجبة به ، من قلة
انتقدت عمله وناصبته العدا ، وما كان منه

من بلاد الشام وبخاصة من دمشق ومجموعها ،
أنقل إلى هذا الجمع الكريم مشاعر الحزن
والأسى لوفاة عميد الأدب العربي في هذا
العصر المرحوم الدكتور طه حسين . وبفقدته
خسر العالم أديبا كبيرا وعبقريا فذاً هيماته
أن يخلفه الدهر . ظل نصف قرن ونيفاً ملء
العيون ومطمع الأنظار . شغل العالم العربي
بأسره ، بما طلع عليه به من آراء من بنات
أفكاره وبما ابتدعه من أسلوب في الإنشاء
يكاد يكون نسيج وحده فهو الأسلوب
الساحر ، سحر به الألباب ، وحجب إلى
جمهرة الناس قراءة ما كان يصدره وينشره ،
وما كان يمليه ويحاضر به تلاميذه في صفوف
التدريس ، ولقد أتى بالجديد من الدراسات
في الأدب غير مكتف بالقديم المتوارث ،
وبما يلائم روح العصر من آراء في النقد الأدبي

إلا تلتقى كل ذلك بصدر رحب غير مبال بما قيل ، ومتابعا السير .

ولعل المرحوم الأستاذ « محمد كرد علي » الصحافي السوري القديم ، ومؤرخ الشام ، ومؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومن أسهموا في تأسيس مجمع فؤاد الأول في القاهرة ، لعله من أوائل الذين قدروا الفتي العالم وشجعوا من كان يعرف بالشيخ طه حسين آنذاك ، ففتح له صدر مجلته « المقتبس » والتي أصدر المجلد الأول منها في القاهرة ، ثم نقلها إلى دمشق ، نشر له مقالا في مجلته سنة ١٩٠٦ بعنوان : هل تسترد اللغة العربية مجدها ؟ عتد فيه بعض الأسباب التي أدت إلى جمود اللغة العربية وتقصيرها عن مسايرة ركب الحضارة ، راسماً منهجاً عملياً للنهوض بها . ولولتي ذلك المنهج القويم آذانا صاغية آنثذ (وقد مضى عليه ستون سنة ونيف) لكأنت لفتنا العلمية في يومنا هذا غير ماهي عليه .

ولما أصدر المجمع العلمي العربي بدمشق مجلته سنة ١٩٢١ تابع المرحوم الأستاذ « كرد علي » ما ينشره الدكتور طه حسين مقرظاً ومعلقاً ، مع شدة إعجابه بكل ما ينشره إن في الكتب المطبوعة أو في المحلات والصحف .

ويطول بي المقام في سرد كل ما كتبه في هذا الشأن فأجتزئ ببعضه :

قال عنه مرة سنة ١٩٢٤ : من أكبر كتاب العرب المتخصصين في عامة فنون الأدب ،

وقد اشهر بالأخص بطريقة في النقد الأدبي مع ولوعه باقتباس مقدمات المدنية الغربية على اختلاف ظواهرها وأساليبها : وكتب بعد سنة : إن كل من شارك في الأدب يعرف منزلته (أي الدكتور طه حسين) من النبوغ ، وكل من قرأ له مقالة ، وتدبر آيات فضله تتوق نفسه أبدأ إلى أن يستكثر من تلاوة بنات أفكاره . أنا من المعجبين بأسلوب السيد طه حسين ومن يستحلى على الأغلب تكراره للمعنى الواحد في جمل كثيرة ، وربما كان يجري في هذا النمط من الإنشاء على غير مثال يحتذيه ، وليس له من كتاب العصر بمنحاه ضريب ونظير على ما أعلم .

يبث طه حسين فيما يكتبه في الصحف ويحاضر به طابته في الجامعة المصرية ، روجاً جديداً هدته إليه الدراسة المنظمة ، وطول التأمل في حال المدنيتين الغربية والعربية .

وعقب على كتابه (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦ فقال : معظم أمالي هذا الأستاذ النابغة من الأفكار الطريفة ، أخذ بقسط عظيم من التجدد ، فيه بحث ودرس ، وكتابه هذا سيحدث تأثيراً مهماً عند أنصار القديم في الأدب . ثم انتهى إلى القول : بحبه علمي مجرد من التقاليد . . . ولا شك أن كتابه سيجد من مخالفيه مقاومة شديدة يربح العلم الحديث عقباها كتاباً آخر :

وقرظ الأستاذ « كرد علي » كتبه (في الأدب الجاهلي) و (على هامش السيرة) و (الأيام) سنة ١٩٢٦ قائلاً : لو كتب كاتب

من أهل العصر الماضي ما كتبه طه حسين في هذه الكتب ، فكتب ألوفاً من الصفحات ما أغنى غناء طه ولا أبدع إبداعه .

وآخر ما كتب الأستاذ (كرد علي) عن طه حسين : من تحصيل الحاصل الإشادة ببلاء صديقي العلامة الدكتور طه حسين في خدمة الآداب العربية وأثره المحسوس في إدخالها في طور جديد ، وبث أفكاره في جميع طبقات القراء وكان مجلياً في معظم ما خطته يمينه من بحث علمي وإبداع أدبي ، وكان عمله عدل علمه ، ظهر ظهوراً واسعاً في رئاسة الجامعة وفي وزارة المعارف . وما خلا مع هذا من حساد وأعداء ، لكنهم قلائل جدا إذا قيسوا بالمعجبين به ، والمستفيدين من نفثاته ، فهو بلا مرء حسنة من حسنات مصر في هذا العصر ، وفضله على الأفراد والجماعة لا ينكره عليه إلا مكابر .

هذا بعض ما قاله صديقه المرحوم الأستاذ « كرد علي » . أما رجال الفكر والأدب في سورية ، فلم يكن تقديرهم له وإعجابهم به بأقل من ذلك ، فإن أنس فلا أنسى أبداً يوم لقيته أول مرة في دمشق قادماً على رأس وفد مصر لمشاركة مجمع دمشق بالاحتفال بالعيد الألفي لأبي العلاء المعري سنة ١٩٤٤ ، عندما وقف بقامته النحيلة على منصة مدرج الجامعة ليحاضر في (الفصول والغايات) لأبي العلاء المعري ، لا أنسى ذلك التصفيق الحاد الذي استقبله به جمهور مشاهديه في القاعة فحسب بل العدد الكبير من الذين لم

تتح لهم رؤيته من المستمعين الواقفين في الباحات المحيطة بمبنى المدرج حيث نصبت مكبرات الصوت ، إذ لم يتالكوا عند سماعهم صوته من متابعة التصفيق عدة دقائق .

وستظل كذلك رحلة من دمشق إلى حمص وحماة فالمعرة وحلب ليزور قبر أبي العلاء في المعرة ويفتح المكتبة التي أنشئت إلى جانب ضريحه ، ستظل ذكرى لا تنسى ، فلقد لقي في كل بلد من هذه البلاد السورية التي حل بها ترحاباً لا مثيل له .

ولقد كان رحمه الله شديد الحب للبلاد العربية ، ولعله كان يخص سورية ودمشق بالمزيد من الحب وكان كل مرة يأتي فيها واحداً من طلابه فيها أوزملائه الذين يتصلون به كان في كل مرة شديد الرغبة في التعرف إلى مآظهم من أمرها وما خفي وما جل من شأنها ودق .

ولما عقد مؤتمر مجامع اللغة العربية في دمشق سنة ١٩٥٤ ، حيث المرحوم شعب سورية في حفل الافتتاح قائلاً :

« وإني ما رأيت على طول معاشرتي للسوريين في سورية وخارجها أحداً منهم ينسى العروبة وكرامة العروبة ومستقبلها . ما رأيت كالسوريين يذكرون هذا ويفكرون فيه كما يفكرون بأنفسهم ، كان الذي أوحى إلينا التفكير في هذا المؤتمر ، رجلاً من رجال سورية ، من دمشق عاصمة العروبة العظمى الصافية التي صنعت فيها العروبة من كل شائبة

وخلصت العروبة للعرب خالية من أى أجنبي ودخيل، لم يكن بدمن أن يعود الحق إلى أهله ومن أن يكون تفكيرنا متجها إلى مكان انعقاد هذا المؤتمر وأن تكون دمشق الحبيبة أول مانفكر به . »

هذا هو فقيد العربية وكاتبها المبدع ومفكرها الكبير، أثار أدها القديم وطور أدها الحديث. طوَّع أسلوبها ودأب دوماً على الترام الطرفين المتباعدين الراميين إلى ترسيخ حيويتها : إغنائها في ذاتها من نحو ، ثم رعايتها وحياتها من نحو آخر. وأنكر واستنكر — رحمه الله — كل الاستنكار ترويج اللهجات والعامية وتشجيعها واستعمالها، لأن في الدعوة إلى العامية فك أو اصر الصلة بين أفكار العروبة ، بل والعالم الإسلامى أيضا .

وحرى بنا نحن أولاء ، وقد اجتمعنا لتأبين الفقيد ، أن نسعى إلى تخليد حياته المليئة بالحد والكد وبالعمل المثمر ، بكتاب يروى للأجيال القادمة قصة هذا النابغة الفذ ، شحداً للهيم ، إذ مع أنه حرم من نعمة البصر وهو طفل ، لم يقعه ذلك عن تحقيق ماتتوق إليه نفسه من طموح ، وما يريد له للعربية من خير : إني آمل أن نسارع إلى إعداد هذا الكتاب ونشره ، ثم إلى طبعه في طبقات شعبية مبسطة ، لتأسى خطاه والنسج على منواله :

وبعد، فما كان للجسم النحيل الذى حمل تلك النفس الكبيرة الحادة آناء الليل وأطراف النهار ، ما كان لجسمه إلا أن ينوء دون تحمل

مأحمله. فتأثرت صحة أستاذنا لتسوء يوماً بعد يوم، ومع هذا كله كان حريصاً على أن لا ينجيب أمل كل سائل ومستفيد، كما حرص الحرص كله على ترأس مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية في داره عندما أقعده المرض واشتدت وطأته عليه، ليشرف على شؤون الاتحاد ويوجهه بتوصياته .

وما أشبه حال الفقيد بالشمعة المضيئة التي تبدد الظلمة وهي تحترق وتذوب مستنفدة كل ما فيها من وقود، فيد المنون لم تحتطف الفقيد طه حسين ، كما يقال في مناسبة كهذه، بل ظل يعمل مستنفداً كل ما ادخره جسمه من طاقة حتى انطقت جندوة ذلك المصباح المنير وانتقلت روحه إلى بارئها .

رحم الله الفقيد وبوأه أرفع الدرجات وحفظ العربية وكتابها وآدابها خالدة إلى يوم الدين .

إني لأتوجه بهذا العزاء إلى مصر خاصة ، فالدكتور طه حسين ثروة العرب جميعاً ، وكلنا في هذا المقام يصح أن يكون معزياً ومعزى .

وإني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بأخلص مشاعر المواساة والعزاء إلى أسرة فقيدنا الكبير ، آملاً أن يكون في هذه المشاركة من أقطار الوطن العربى كله ما يساعد هذه الأسرة الغالية على الصبر والسلوان .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

●●● قصيدة الدكتور عبدالرازق محيي الدين

رئيس المجمع العلمي العراقي :

يقيقك هذا الذي أحييت من أدب
عفاه من عرفوا منه ومن نشروا
بما استراحوا له من قائم درجت
على سيادته الأوهام والعصر
مرجمين رروا عن رروا صعبا
للغيب، ما استمطروا وحيا، ولا سطورا
مخلقات وأمشاجا لو التحمت
ببعضها ، لتعايبا الطول والقصر
حتى انبريت لها بالشك تقتلها
علما فتحيا بها موعودة قبروا
يد صناع لو امتدت إلى يابس
لأورق العود واحلولى له ثمر
ولو مشيت لظلام الليل تقبسه
تنفس الصبح لم يأذن له سحر
سبحانك الله توأتى النور فاقدته
وتحجب النور عن قوم بهم بصر
يا أيها العيالم الهدار ما ركبت
رياحه ، أو سجت أمواجه الغزر
أتوا سواحلك الدنيا فخامرهم
أن يركبوا اليم فاجتازوا وما عبروا
مغررين رأوا نشزا فأطمعهم
ومادروا أنه موج وينحسر

السادة الأعلام :

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد، فنحن في المصيبة شرع سواء ،
والرزية لفقيد عميد لأدب العربي، رزية الأمة
العربية جمعا. ومع ذلك فإن من واجبي أن
أقدم لمجمع اللغة العربية بالقاهرة تعزية المجمع
العلمي العراقي في بغداد ، وأن أنقل مشاعر
المثقفين في العراق إلى مسامع المثقفين في مصر
وأن أرفع إلى الأسرة المفجوعة تعزية الأسر
العراقية جميعا. ولقد كان بإمكانى بل لم يكن
إلا بإمكانى أن أقف عند جنود الكلمة النائرة
، لأن الشعر مدين لطفه حسين دينا لا ينسى
. ومع أنى تركت نظم الشعر من سنين عديدة
ل ، فقد استشعرت أن لا بد لي أن أقول شيئا
من ذلك .

ولذلك فإنى أستميحكم عذرا لو جاءت
القصيدة على غير ما ترجون .

حتى مع الناس أحياء بما شعروا
لا الرأي يبلى ولا ذو الرأي يندثر
يأبى الفناء كتاب أنت آسورته
تنلى ، وألواحه آراؤك الغرر
وأنت آية هذا العصر مبصرة
ما تخطى العين أو ما يجحد النظر

وأن غائرة في القاع فاعرة
تهوى بهم للأولى من قبلهم غمروا
وأن من يركب الشيطان عارية
غير الذي هو بالأمواج يأتزر
أنت ابن عشرين ما تلوى فتنتصر
وابن الثمانين ما تطوى فتتكسر
صلب قناتك لم تخمز فإن عجمت
كعبها إيمان من غيظ بها شرر
ذودا عن الرأي أو نشر لرايته
بالقول يفلج والأقلام تشتجر
في حين للرأي أجناد وأسلحة
وفي الأساليب مهزوم ومنتصر
وللبيان على الأبواب هيمنة
لم يرج إلا لمعقودها ظفر
وفي القصائد أبحار محصنة
وللأعاريض فحل شاعر ذكر
فليت مستجلبات الشعر قد عقت
وليت من فرطوا في عقدها عقر
ياثاني اثنين للعلياء دونهم
تقعى الدهارير مما آدهما السفر
ألف مضت وهي وحمى فيك مثقاة
حتى ولدت ؛ فهل ألف بها أضر
عهدان من عمر الآداب قد نوما
بالمبصرين هما الأوضاح والخر
وغير ذينك أصدقاء وتسليسة
يزجي بها الوقت أو يخلو بها السمر
ويسألونك ما طه ؟ ولو خبروا
ما عندهم منه ، لاستغنوا بما خبروا

والغيث يشربه الظمان من قلال
وربما سأل الأنواء ما المطر ؟
هذا الذي أنا ألقيه وتسمعه
له ، فلا العود من عندي ولا الوتر
والجامعات التي تعارك شاهقة
مما ينى ، أو على آثاره عمروا
فالعلم زاد مشاع ليس يطعمه
من أترفوا ويمناه من افتقروا
والرأي صوت مصون ليس يمنحه
من زمروا ويقاضى فيه من جأروا
الرأي بالرأي لا سوط يهدده
ولا زبانية تشلى فتأتمر
والدين محض قناعات متى أخذت
بالكره آمن من دانوا بمن كفروا
من جردوا الناس من رأى بأن حُجروا
عاشوا الحياة بلا رأى بأن حَجَرُوا
طه تحدث حديث الخلد من كذب
فالآن أنت بحيث الخبير لا الخبير
الذي ظن ظنا أو تخيل
شيخ المعرة من صدق الروى أثر ؟
أم حكمة الخلق أن نلهم بمفترض
فإن شهدنا يقينا نابنا نخصر ؟
طه ، تحدث فهذا الحفل محتشد
كالعهد يشخص إكبارا ويتتظر
عاشت جيلك أصفى ما تكون له
نبتعا ، وإن ساء وردا بعض من صدروا
للجامعين أبناء ، أب حليست
به الرقاب ، وإن شبوا وإن كبروا

وللمجمعيين إخوانا أخ كرمت
به الأواصر واعتزت به الأسر
تخال من هيبة في الحفل يحضره
أن الملائك في وادي طوى حضروا
لا يرفع الصوت إلا ريث يسمعه
فإن أشاح فبهور ومبتسـر
تغضى اللحاظ على علم ببغيتها
: عنه فلم يوث إلا خلة نظـر
أقصى الأمانى ممن أغدقوا رتبا
في الفضل إطراة من فيه تبتدر
عاشت على فضله من زاده زمر
وأفضلت ، وأتت من بعدها زمر
من ناقدين على منهاجه نهجوا
وباحثين على أضوائه سفروا

حتى الذين أتوا نهجا يخالفه
عاشوا بأنهم في خلفه اتجسروا
نبت عميم تغشاه من احتطسوا
فألحبوا وسقوا خرا من اعتصروا
مما يهون من خطب ألم بنسا
أنا على خلة يسعى بها قدر
وأن مصر على ما عاهدت ووفت
تبنى الشوامخ ما قلوا وما تزروا
يا مصر لى بك قبل اليوم واحدة
أسرى بها النجم واستهدى بها القمر
غنت بمطران فاستهوت قصائده
بأن يعود لها من وصله وطـر
سلمت ولتذهب الدنيا ، وهل ذهبت
دنيا بها مصر والفصحى لها وزر؟!

●●● كلمة الأستاذ محمد رفعت :

عضوالمجمع

((طه حسين وزيرا))

المحزونون جميعا إلى صبر جميل ، وذكرى
عطرة تفيض بمآثر الفقيه وحسناته ؛
واليوم يعز على أيها السادة ويعزى أيضا أن
أحاول أن أحيط بطرف ولو يسير من سيرة
الفقيه العزيز وزيرا للمعارف ، وقد كان لى
شرف مرافقته في هذا الدور من حياته ومن
قبله ومن بعده . وطه حسين وزيرا ، لا يقتضينا

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :
إن لفقد الصديق الحميم لحرقة ولذعة يحس
بها الصديق المكلم عند وقوع النازلة ، ثم
لا يزال فقد العزيز يورقه ويقض مضجعه ،
حتى تدور عجلة الزمن ويتعاقب الليل عليه
والنهار وتنقضى الأربعون أو نحوها ، وبعدها
يستكين الصديق المفجوع ويستكين معه

ألبتة أن نرسم له صورة جديدة مكبرة، فهو هو طه حسين قبل الوزارة وبعدها - طه حسين رب القلم، وعميد الأدب وإمام الأحرار المستقلين، وصاحب المعذبين في الأرض، ورائد من رواد الإنسانية جمعاء.

والناس من قديم دأبوا على أن يربطوا بين الوزارة والسياسة واعتبرواهما صنوين متلازمين في حين أن الوزراء إذا اجتمعت كلمتهم، وتضامنوا سوياً، من أجل حكم البلاد، لم تعد لهم سياسة خاصة، وإنما عليهم جميعاً أن يخضعوا برودة السياسة التي كانوا يتسربلون بها عادة، وأن يتركوها على عتبة باب الوزارة عند «حافظ الأمانات» قبل ظهورهم على مسرح الوزارة، وذلك لأن عليهم جميعاً أن يلتزموا السياسة العليا للدولة التي هم فيها وزراؤها.

ويقول عالمنا الاجتماعي الأول ابن خلدون في هذا الشأن: إن العلماء من بين البشر أبعده عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك كما يقول ابن خلدون - أنهم معتادو النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن لتصبح أمورا كلية عامة.

وإذا كان فقيدنا في مسلكه السياسي قد ساير هذا الرأي في مجموعه، فإنه مما لاشك فيه، أن طه حسين أيضاً كان في الطليعة من الكتاب العالمين المرموقين الذين تجاوزت

رسالتهم الفكرية حدود الحيز الإقليمي الضيق، إلى مجالات المد العالمي الكلي؛ فقد كانت السمة الإنسانية هي الغالبة في إنتاجه، كما كانت معظم مؤلفاته مزاجاً قويا من ذوب حضارتين عربية وغربية، قد يراها بعض الناس حضارتين مختلفتين مولداً ومنهجاً ومادة، ولكنهما كانتا في تقدير فقيدنا فرعين أو شعبتين لنهر واحد تكمل إحداها الأخرى، وكلتاها ترجع إلى نبع واحد هو الإنسانية والمعرفة.

ولست أجد مثالا أدل على ما امتاز به فقيدنا من تصعيد بآرائه إلى قمة النفع الإنساني من قولته المشهورة أمام أحد المؤتمرات العربية المنعقدة بالإسكندرية:

«التعليم للفرد كالشمس والماء والهواء لا حياة له إلا بها».

والشمس والماء والهواء كما يعرف الناس جميعاً عناصر طبيعية متوافرة بنسب متفاوتة في جميع أرجاء العالم، وإن المجتمع أيا كان نوعه ومهما بلغ به العسف لا يستطيع منع هذه العناصر عن أي فرد يسعى إليها. وقد نشر كاتب أمريكي مرموق اسمه «دونالد روبنسون» كتاباً في الخمسينات تحدث فيه عن مائة من أبرز الشخصيات في عالم ذلك الوقت، واختار من بين المائة عشرة من العمالقة ذكر في مقدمتهم «ونستون تشرشل» مثلاً للبطولة «ثم ألبرت أينشتاين» مثلاً للعبقريّة العلمية، واختار أخيراً فقيدنا «طه حسين» رمزاً للكفاح والشجاعة.

ولست أعرف على وجه اليقين كنه الظروف التي أحاطت فقيدنا عند إسناد وزارة المعارف إليه في يناير عام ١٩٥٠ ، ولكنني أعلم علماً لا يساوره الشك أن الدكتور طه حسين كان قد نشر كتابه عن مستقبل الثقافة في مصر عام ١٩٣٨ ، وقد عالج فيه جميع نواحي التعليم العام والجامعي العالى والدينى والرياضى ووصف لذلك كله مختلف الأدوية الناجعة للبرء من العلال التي سادت محيط التعليم ماظهر منها ومابطن :

فكان كتابه أشبه بالكرة البلورية في يد الساحر ، رأى فيها المؤلف ملامح المستقبل الماضى الذى كان ينتظره ، والخطوط العريضة لحركة إصلاح جذرية يتولى هو بنفسه رسمها وتوجيهها. وما عاينه إلا أن يلوذ بالصبر الجميل حتى تدق الساعة المرتقبة قريباً أو بعيداً. لذلك فإننى أقول إنه حين رشح فقيدنا وزيراً للمعارف ، كان كتابه عن مستقبل الثقافة بيمينه تحت إبطه سائر مؤلفاته الأخرى الأدبية والعلمية والاجتماعية ، وهى جميعاً التي رسمت بأن يكون طه حسين وزيراً للمعارف وكأنه المعنى بقول الشاعر :

أنته الوزارة منقـــــادة
إليه تجرجر أذيالها
فلم تك تصلح إلاله
ولم يك يصلح إلالها

ومهما يكن من أمر الذى قيل فيه هذا الشعر ، فإننى أرى فى الشطرة الأخيرة من البيت الثانى إجحافاً بحق فقيدنا

وانتقاصاً صارخاً لمواهبه . فقد اضطلع - رحمه الله - قبل الوزارة بمسؤوليات جسام ليست أقل خطراً من الوزارة ، فقد كان عميداً للأدب العربى غير منازع ، وكان مؤسساً ومديراً لجامعة الإسكندرية ، ورئيساً للتحرير فى أكثر من صحيفة ومجلة ، وعليها جميعاً أفاض من حماسه وواسع علمه ، ونافذ بصيرته ، مما جعلها منارات يهتدى بها ، وأمثلة تحتذى .

وعلى كرسى الوزارة وجد فقيدنا نفسه لأول مرة يعتلى المركز الأعلى للثقافة فى البلاد ، وأراد أن يتفرغ لمعالجة المسائل الكبرى ، فلم يرهق نفسه كثيراً فى الشئون الإدارية ،

وهى بطبيعتها أمور مكتبية ميسرة ، قضى فيها فقيدنا وفق مزاجه الخاص غير عابئ بلائحة أو قرار ، ولا خاضع لقانون أو مرسوم . وكانت كلمة الوزير فيها هى العليا . ثم اتجه - رحمه الله - بكامل عزمه ، وماضى عزمته نحو إنجازاته الكبرى :

وكان أولها قرار الحماينة بالمدارس الثانوية ، ، والحماينة فى التعليم أياً السادة ، لم تأت طفرة ولا فجأة ، . وذلك أن الحكومات المصرية ، أيا كان لونها ، قديمها وحديثها ، درجت فى أحيان كثيرة على التأنى والتريث فيما تعتزم تحقيقه من مشروعات . ولست أدرى إذا كان هذا التباطؤ مصدره التأكيد أو التردد بالخوف أو دقة الحال ، فليكن مصدره إحدى هذه الحصائل أو جميعها وإنما :

أن توزع على الناس أقواتهم وتشبع فيهم اللذة والنعيم وهم هادئون مطمئنون . فهذا شيء لن يتاح لنظام إنساني ، وإنما موعده الناس به اللجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين : أما الذي يطلب إلى الديمقراطية ويفرض عليها [فرضاً ، وهو أن تمنح أفراد الشعب وسائل الكسب ، وأوطاناً هو التعليم الذي يمكن الفرد من أن يعرف نفسه وبيئته والوطنية والإنسانية] .

وكان طبيعياً بعد تقرير المجانية في مدارس التعليم العام أن يزداد الطلب على هذه المدارس زيادة غير معهودة مما جعل بعض الناس يتناولون هذه المجانية بالذم والنقد اللاذع ، لأنها فتحت أبواب المدارس الأميرية على مصراعها لكل (من هب ودب) كما يقولون دون تشييد للمباني اللازمة وإعداد للمدرسين نوعاً وعدداً . وقد واجه فقيدنا المشكلة بما عرف عنه من الحزم ومضاء العزيمة فقرر أن يرصد في الميزانية بند خاص لبناء المدارس ، كما أمر بأن يكلف فوراً ملاك المباني أن يقيموا في أبنية المدارس فصولاً دراسية جديدة تتسع للمستجدين من التلاميذ ، وأن يعين خريجو كليات الجامعات في وظائف التدريس رأساً ، أي دون أن يمروا بمعاهد التربية . وكان رأيه في اكتظاظ وما يتبع ذلك عادة من هبوط في المستوى العام للتعليم ، وكان رأيه في ذلك كله أن مدارس التعليم العام يجب أن تكون كالمصفاة لاتبقى إلا على الصحيح السليم :

أذكر أن أول من أشار بقبول عدد محدود جداً من طلاب التعليم العام غير المقتدرين مجاناً ، هو الزعيم الوطني الخالد «سعد زغلول» حين كان وزيراً للمعارف في أوائل هذا القرن ، هذا على كره من مستشاره الإنجليزي « دنلوب » ، ثم سار الوزراء اللاحقون من بعده على هذا المبدأ وبنسب متفاوتة ، إلى أن تولى وزارة المعارف المرحوم « أحمد نجيب الهلالي » في عام ١٩٤٢ ، فهاله أن وجد ، بعد الدرس والاستقراء ، دخل الدولة من رسوم التعليم في المدارس الابتدائية الأميرية في ذلك الوقت لم يزد على أربعائة ألف من الجنيحات ، فقرر على الفور مجانية التعليم الابتدائي ، ثم تولى فقيدنا وزارة المعارف عام ١٩٥٠ ، وقد جاء في خطاب افتتاح البرلمان حينئذ أن الحكومة ستقرر مجانية التعليم بالمدارس الثانوية وباقي مستواها ، ومع أن الدكتور طه كان قطعاً صاحب الفكرة والداعي إليها ، فإنه أبي إلا أن يقول في خطاب له ألقاه بنادي المعلمين في الشهور الأولى من وزارته ، قال رحمه الله : وإن كل ما قاتموه ، وكل ما قيل اليوم ، وكل ما سيقال غداً وبعد غد ، عن المجانية لا ينبغي أن يساق إلى ، وإنما ينبغي أن يساق إلى غيري وإلى الوزراء الذين شجعوني على أن أحتمل هذه المحنة (هذه بطبيعة الحال كانت مجرد تحية ومجاملة لزملائه في الوزارة) : أما الحقيقة فقد عبر عنها قبل توليه الوزارة باثنتي عشرة سنة ، قال :

« ليس ينبغي أن نطلب إلى الديمقراطية

ثم يأتي موضوع الامتحانات ، وكان فقيدنا يرى فيها ظلماً كبيراً لأطفالنا الذين لا يكادون يحسنون أن يمسكوا بأقلامهم ليكتبوا ، فكيف بهم إذا نحن طالبناهم بقراءة أوراق أسئلة الامتحان وفهم معانيها ثم يكتبون الإجابة عليها . وقد قال فقيدنا في موضوع الامتحانات وضرورة قصرها على أقل القليل :

« أنا أعلم أن الامتحان شر لا بد منه ، ولكن الغريب أننا لانتخفف من هذا الشر ولا نكتفي منه بأقل قدر ممكن ، وإنما نتزيد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين فنضطرهم إلى الشر ما وسعنا ذلك » . وقد ترجم فقيدنا آراءه في هذا وغيره عندما كنا نجتمع في أمسيات نعقدتها في داره لإعداد قانون جديد للتعليم العام . فكان من أهم مواده ما استقر عليه الرأي في إلغاء امتحانات الانتقال بالمدارس الابتدائية من فرقة إلى فرقة أعلى ، ولا يفوتني أن أشهد برأي فقيدنا في وجوب الاهتمام بتعليم اللغات الأوروبية الحديثة ، فقد أعاد إنشاء مدرسة الألسن ، وجعل الالتحاق بها نتيجة مسابقة في اللغة التي يريد الطالب أن يتخصص فيها . وقال في شأن مسابقة الحضارة الحديثة : « ليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة ، ولست أدري لم تضيع شخصية المصريين إذا ساروا سيرة الأوروبيين ولا تضيع شخصية اليابانيين مع أن لمصر من المجد والسليقة ما ليس لليابان مثله ؟ »

وأخيراً ترك طه حسين كرسي الوزارة الذي شرف اعتلاءه فقيدنا مـعدة عامين أو أكثر . وكان هذا في أوائل عام ١٩٥٢ — تركه لالزهد فيه أو لضيق في صدره منه أو لخلاف بينه وبين أحد المقامات السامية ؛ وإنما تركه نتيجة لحادث سياسي داخلي أودى بالوزراء والوزارة جميعها . وهنا أراني مسوقاً إلى مناقشة الرأي الذي قال به العلامة ابن خلدون من أن العلماء هم أبعد البشر عن السياسة ومذاهبها . وهو رأي صواب وسديد في جماعه ، ولكن علينا أن ندرك أن ابن خلدون قد عاش في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي— أي في أواخر العصور الوسطى حين كان العلم كالدين له قداسته وحمته وكان رجاله يعيشون غالباً في بروج مشيدة بمنأى عن السياسة ومذاهبها :

أما في الأزمنة الحديثة حين ظهر في العالم أهم المحترقات التي رفعت من شأن الإنسانية إلى آفاق جديدة بعيدة المدى من العلم والمعرفة تلك هي المطبعة الحديثة ذات الأحرف المعدنية المتحركة التي أنجزها « جوتنبرج » الألماني في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فإنه بفضل هذا الاختراع استطاع الناس أن يقرأوا كثيراً وأن يكتبوا كثيراً وأن يتناقشوا ويجادلوا طويلاً ، وأن يتبادلوا الآراء في الصحف والرسائل والكتب في يسر وشغف . وعند ذلك خرجت السياسة من أبراجها وتلقاها الناس كما يتلقون خبرهم اليوم وشراهم

الحاضر شأن كبير . وعرفت عبد الحميد بدوى فكان الذكاء الوهاج والعلم الواسع العميق ، ويكفينى أن رجلا مثل ظفر الله خان رئيس محكمة العدل الدولية أخبرنى شخصياً أنه كان يعد عبد الحميد بدوى الأب الروحى له ، ثم عرفت طه حسين فوجدته جمع إلى فضائل صديقيه هذين قوة فى العزيمة لا تزيدها المقاومة لإلشدة ، وصلابة فى الرأى حين تتحول المقاومة إلى مناوأة ، حتى إذا صرح الشر وأصبحت المناوأة عداً سافراً وجدت له قوة خارقة .

كانت فى أعماله مثل المفكرين وكانت فى تفكيره صلابة العمليين ، فاستطاع أن ينجز أعمالاً كنا نحسبها أماني عزيزة بعيدة المنال فأصبحت بفضل جهوده حقائق واقعة .

وأظهر صفاته العقلية صفاء الفكر لا يحجبه كدر ولا اضطراب ، و صفاء الفكر عندنا نحن المشتغلين بالعلوم الطبيعية أكسب الصفات وأعظمها وأدعاها إلى النجاح ، وأذكر أنى كنت أقول لطلبتى فى كلية الطب «خير لكم أن تكون فكرتكم واضحة وإن تكن خطأ من أن تكون غامضة تحتل الصواب» . وأذكر أن عالماً باكستانيا اسمه عبد السلام هو الآن من أكبر علماء الذرة ، سئل عن نظرية بعينها فقال : لأظنها صحيحة لأن الطبيعة تحل مشاكلها حلولا رشيقة . هذا ما يجب أن يصدق على الإنسانى والآداب كما يصدق على العلوم . فقد مضى العهد الذى كان فيه الغموض دليلاً على عمق الفكرة ، والغموض ليس دليلاً على عمق الفكرة ، لأنه لا يلتوى على القارى وحده ، وإنما يلتوى

على المؤلف أيضاً ، فيخرج من غموض إلى غموض ، ولا أحسب أن أحداً قرأ للدكتور طه حسين ثم سأل نفسه بعد ذلك ماذا يريد أن يقول . وليست المسألة مسألة نصاعة الأسلوب ، فهذا مستطاع ، ولكنها نصاعة الفكرة التى تجذب إليه الناس :

وكان تفكيره حاسماً ، تجده حينما يحتاج الحدل فى أمر من الأمور ، ينصت ثم يدلى برأيه فإذا هو القول الفصل يصعب دحضه أو التعقيب عليه حتى من مخالفيه . وكان تفكيره نفاذاً تحيط به الصعاب من كل جهة وتعترضه أمور كثيرة متناقضة ، وآراء مضطربة فيستطيع أن ينفذ منها إلى نتائجها حتى إذا جاءت هذه النتائج وجدتها كما ظن كأن قد رأى وقد سمعاً ، ونحلاً تفكيره من العيب الذى أود أن أسميه التفكير الهش أو التفكير المنفوش كالعهن ، على حد التعبير الإنجليزى ، وهو التذكير الذى تراه من بعيد فتحسبه شيئاً عظيماً حتى إذا جئته وضغطت عليه وجدته هزياً ضعيفاً ، ولم تجد له صلابة ولا عزماً . هذه الصفات فى تفكيره جعلته شخصاً يختلف عن كثير غيره من المفكرين وأعتقد أن الدكتور طه يصح أن نقول عنه إنه اخترق حاجز الصوت فى المجال الفكرى فبلغ فيه آفاقاً أوسع ، وأصبح بينه وبين الفكر الوسط فرق لانتبينه بسهولة ، مع أنه فرق واضح بين المفكر الأصيل والمفكر الوسط ، وإن ظن بعض الناس أن أعمالها متشابهة إلى حد بعيد ، ولكن أحد التفكيرين خصيب والآخر يجذب :

حاولت أن أتبين المحور الذي دار عليه تفكير طه حسين وأعماله ، فإذا هو إباؤه أن يدعن للنظم المستقرة ، هذه أكبر صفاته . والنظم المستقرة هي النظم التي يحرص أهلها على إبقائها لما يتمتعون به في ظلها من ميزات لا تؤهلهاهم كفايتهم ولا الجهد الذي يبذلونه أطلق الغربيون على هذه النظم كلمة «establishment» هذا النظام المستتب كان يكرهه طه حسين بطبيعته ، يرى فيه خولا عقلياً ويرى أنه مخالف لطبيعة الأشياء ولطبيعته بصفة خاصة وكثير من الناس يحبون أن يتخلصوا من النظم المستتبة ، ويسمون أنفسهم المجددين ، والواقع أن كثيراً من هؤلاء المجددين ليسوا إلا محافظين على الحديد ، وليسوا مجددين بالمعنى الحق ، فتراهم إذا وصلوا إلى أولى خطوات التجديد قنعوا بها وسكنوا إليها . على أن التجديد يجب أن يكون حركة مستمرة ولا أرى فرقاً بين الذين يتهافتون على العلماء الأجانب وينمسكون بهم وينقلون عنهم ، وبين من ينقل عن ابن قتيبة وأبي هلال ، فيقال هؤلاء متأخرون ، ومحافظون ، وأولئك مجددون ، والواقع أن عقليتهم واحدة ، وأنه لأفضل للذي همه النقل عن المؤلفين الأجانب المحدثين ، والذي ينقل عن القدماء . هؤلاء ليسوا مجددين ، وإنما هم محافظون على الحديد لحديثه ، وليس لهم أن يعيبوا على آخرين أنهم يتمسكون بالقديم لقدمه ، أما طه حسين ، فكان مجدداً دائماً ، والتجديد يجب أن يكون مستمرا ، وإلا فقد أهم خصائصه . وكثير من المحافظين يرون أن الاستقرار شيء لا بد منه

لحياة الناس السوية ولحياة الأمم ، ولكن الاستقرار نوعان : نوع قديم ، الثبات فيه كثبات الأهرام ، ونوع جديد ، الثبات فيه كثبات الطائرة ، ثباتها في حركتها فإذا وقفت سقطت ، وهذا هو التجديد الحقيقي الذي حرص عليه الدكتور طه حسين ، لأنه كان من طبيعته .

والذين يسهون أنفسهم مجددين وليس من طبيعتهم التجديد يجدون أنفسهم بعد قليل لا يستحون هذا الاسم أبداً .

بدأ الدكتور طه حياته الفكرية في أوائل هذا القرن حين كانت الحياة الفكرية في مصر مضطربة حقاً كنا لاندرى ما نفعل . كان منا المحافظون الذين يريدون أن يبقوا على القديم ولهم الحق في ذلك . كانوا يريدون أن يحافظوا على قوميتنا وشخصيتنا وهذا شعور نبيل ، ولكن تبين لنا بعد قليل أن هذه طريق مغلقة ، ثم كان منا من أخذ المدنية الغربية عن أهلها اختصاراً للطريق ولكنهم تبينوا أنها لن يكون لها بذور في نفوسهم ، فعادوا إلى اللغة العربية وإلى الثقافة العربية ، ولم يكونوا قد عرفوا قبل ذلك مداها وقوتها ، فلما عادوا إليها لم يستطيعوا استيعابها تماماً ، فكانوا سطحيين في كلا الثقافتين وكان شأنهم والثقافة العربية شأن الفرسان الذين قيل فيهم : «لم يركبوا الخيل إلا بعدما كبروا» ومن حسن حظ الدكتور طه حسين أنه أخذ الحضارة العربية أخذاً متيناً ، ألتقنها وأغرم بها ، وظل طول حياته مفكراً عربياً ، ثم خرج من هذا النطاق ولا أقول أنه خرج عن الثقافة العربية !

ولا يخرج منها ولا يخرج عنها، وإنما يخرج بها إلى آفاق أخرى كما كان يجب أن يخرج أولاً السبات الذي أصابنا، وهو السبات الشتوي الذي امتد عدة قرون، والسبات الشتوي ظاهرة في الكائنات حين تكون البيئة غير مواتية للحياة الطبيعية.

على كل حال تكونت حولنا أسوار كان يجب أن نخرقها قبل أن نصل إلى الآفاق لا أقول العربية وإنما الآفاق التي كان يجب أن نصل إليها أولاً هذا السبات الطارىء.

فالدكتور طه امتد بتفكيره إلى الآفاق الحديدية، وكان عليه أن يهدم بعض هذه الأسوار فكان أن فعل فعلته الكبرى التي هي كتاب الشعر الجاهلي، وهو عندى نقطة تحول، لا لما فيه من آراء قد تكون صواباً وقد تكون خطأ.

كل نهضة فكرية في العلوم أو الآداب يسبقها هذا الهجوم لعل الثقافة القديمة ولكن على الأسوار التي أقيمت حول هذه الثقافة فنعمتها أن تنمو نموها الطبيعي.

شهدت الدكتور طه حسين مع كثير من المفكرين الغربيين ولا أقول المستعربين، فهو لاء كانوا يحجون إليه جميعاً حين يحضرون إلى مصر، ولكنني أتحدث عن المفكرين غير المستعربين وكان له منهم أصدقاء كثيرون منهم هريو (Periot)، ودو هاميل (Duhamel) وكوكتو (Cocteau) وغيرهم، وتوطدت صداقته باندرية جيد (Andr'Gide)، وكنت

أظن أن صداقتهما ترجع إلى حبهما للحقيقة السافرة مهما يكن من غضاضة أو مهما يكن فيها من خروج على العرف، وكلاهما كان يحب الأسلوب الناصع السهل الذي يؤدي إلى غاياته بغير تعسف أو عناء.

كنت أرى الدكتور طه لا يحاول أن يبهز هؤلاء العلماء والمفكرين بما يقوله لهم عن ثقافتهم هم، فذلك يكون «كبضع التمر إلى هجر» وليس من المعقول أن يفخر عربي حين يلقي الأجنبي بأنه يعرف ثقافتهم كما يعرفونها هذا ليس طبيعياً، ولكن الدكتور طه كان يبهزهم من حيث هو مفكر عربي أصيل استطاع أن يمتد بتفكيره إلى أن يوازي التفكير الغربي من غير أن يفنى فيه.

والدكتور طه - على كثرة ما علم من الثقافة الغربية - لم يدع تفكيره يفنى فيها أبداً، ولو فنى فيها ما حفل به أحد من هؤلاء العلماء، ولكنه ظل عربياً صحيحاً يختار من الثقافة الغربية ما يوافق طبعه، يرتوى منها كما تروى النباتات: فتنبت على أحسن وجه، ولم يقتبس من العلماء الغربيين آراءهم كما هي.

ولا يعجبني أبداً بعد أن يبين لنا طه حسين طريق الجمع بين الثقافتين العربية والغربية أن أرى قوماً منا ومن كبار مفكرينا من بهرتهم المذاهب الأدبية كالوجودية والرمزية، فعكفوا على كتابات من هذا النوع أو ذلك.

وأذكر أن «الطفي السيد» قال لي إنه كتب إلى طه حسين - حين كان يدرس في باريس - يحذره هذه المذاهب ويقول له: «احذر من

كل شيء آخره (ism) ، ولم يكن الدكتور طه في حاجة إلى هذا التحذير ، لأنه بطبيعته ، يأتي أن يتقيد بمثل هذه القيود .
وكان يجب على الكتاب المصريين أن يأخذوا من الحضارة الغربية لا مادتها ، ولكن أسلوبها . وأرجو أن يتعظوا بهذا المثل الذي ضربه طه حسين للجمع بين الثقافتين ويسبروا في الطريق الصحيح :

عاهدتكم أن أتكلم عن تفكيره إلا أني سأعرض لإحدى نواحي حياته ، وهي التي تكلم عنها الدكتور المذكور ، وهي الكفاح ، ولأزيد عليها كثيرا ، وإنما أقول إنني قلت للدكتور طه يوما من الأيام : الناس منك فريقان ، فريق يحبك جدا ، وفريق لا يطيق أن يسمع اسمك ، وإن أحد هؤلاء يرى أنك تعد الأذهان لثورة كالثورة الفرنسية ، وأنتك تعمل ما عمله (فولتير) (روسو) والانسىكلوبيديين ؛ فدهش الدكتور طه لهذا ، وقال إنني لأغضب أن يوصف عملي بمثل هذا الوصف .

لم تكن هذه الدعوة إلى الحرية لترضى أولى الأمر ، وكان الملك (فؤاد) له حنكة سياسية فأدرك أن مثل هذه الأرية وخاصة إذا كانت في الجامعات تؤذى النظام المستتب الذي هو رأسه وعماده وعنوانه ، فعزم على ألا يترك الدكتور طه حسين يقوم بهذه الدعوة . وذكر لي الدكتور (مايرهوف) أنه قال للملك فؤاد : إنني لا أتصوّر مجعاً للغة العربية أيس فيه طه حسين ، ومع ذلك رفض الملك أن يجعل طه حسين من بين مؤسسي مجعنا هذا .
ثم كانت محنة خروجه من الجامعة

وانضمت الأمة كلها للدكتور طه حسين ولكن المسئولين انقسموا قسمين : فريق على رأسه لطفى السيد يدعو إلى حرية الفكر ، وفريق له رأى عجيب جدا يسه عنى أن أردده هنا ، كانوا يقولون الأيباح للملك أن يغضب على مدرس نحو وصرف . إلى هذا الحد بلغ الجهل ببعض المسئولين الذين لم يقدرُوا ما في هذه المحنة من أثر على الحياة الفكرية في مصر :
آل ثم جاء الملك فاروق ، ولم يرث عن أبيه الحنكة السياسية ، ولكنه ورث عنه كره الدكتور طه حسين ، كرها يكاد يكون (حساسية) ، وأظهر ذلك في مواقف عديدة وكنت أعلم من خبرة شخصية أن حظ الملك فاروق من الآداب الملكية غير موفور ، ولكني لم أكن أظن أن يعلن الملك ذلك في صراحة غير لائقة .

ثم دارت الأيام ، وأصبح طه حسين وزيرا للتعليم ، ووجد في ذلك فرصة لعميل الإصلاحات التي حدثتكم عنها الأستاذ محمد رفعت ، ولكن الملك قابله بمقابلة جافة جدا عندما ذهب لحلف اليمين ، فكان أحد زملائه يقول : لو قابلني الملك هذه المقابلة لاستقلت في اليوم التالي . وهذا يدل على أن هذا الزميل لم يعرف ولم يكن له أن يعرف حقيقة الأمر ، لأن الدكتور طه فرح جدا بهذا اللقاء الجاف ؛ لأنه أقنعه أن الملك همزيم ، وأنه أحسن بالهزيمة .

ثم جاءت حفلات الجامعة المصرية ورفض الملك أن يعطى طه حسين (الباشوية) ، وأكد لكم وأنا صادق في هذا - أن الدكتور طه لم

بثأره قولاً بعد أن أخذ بثأره عملاً ، فلم يكن
الدكتور طه في مدحه المشرق للملك إلا صعيدياً
بأحسن معاني هذه الكلمة .

وفي ختام كلمتي أود أن أشير إلى أن من
الناس أعماله جيدة ، فإذا نظرت إليها في مجموعها
وجدتها أقل من أجزائها ، فإذا نظرت إلى
حياته كلها وجدتها شيئاً لا يؤبه له ، كذلك الشعراء
يعجبك البيت والبيتان في القصيدة ، وتكون
القصيدة مع ذلك ضعيفة ، فإذا نظرت إلى
الديوان كله لم تجد شيئاً يندكره :

أما الدكتور طه حسين فكان على العكس
من ذلك تماماً ، أعماله جيدة من غير شك
، ولكن مجموعة أعماله أضخم وأعظم من
أجزائها ، حتى إذا نظرت إلى حياته كلها ،
وجدتها حقاً ملحمة رائعة ، أسطورية
لانظير لها .

يكن يحرص على هذا اللقب بالمرّة ، ولكن
رئيس الوزارة قال : إن رفض الملك إعطاء
هذا اللقب للدكتور طه حسين يعدُّ عدم ثقة
بالوزارة ، فمخضع الملك في المرة الثانية وأعطاه
اللقب .^١

وقد عيب على الدكتور طه ، أنه أسرف
في مدح "فاروق" ، والواقع أنه مدحه بعد أن
أخذ منه عنوة كل ما يمكن أن يعطيه الملك إياه
زولم يكن له شيء يرجوه بعد ذلك من الملك .^٢

وتفسير ذلك عندي أنها «شنشنة» نعرفها
من إخواننا أهل الصعيد ، وأرجو أن يغفروا
لي ذلك ، [لأنني لا أقوله ذماً ، وأهل الصعيد
حين يتغلب ضعيفهم على قويهم ، يحرص
على أن يذهب إليه ويمدحه مدحاً مسرفاً
يدرك كل الناس أنه نوع من التشفي ، وأنه أخذ

●●● كلمة الأسرة للمهندس الأستاذ عبد المجيد حسين

شقيق الفقيد

ماذا أقول في شكركم ؟ فأنتم تحتفلون
بذكرى فقيد لكم عزيز عليكم ، كان
بمجموعكم الموقر حفيماً كما كان للغة التي
تمثلونها نصيراً وفتياً ، ولئن كانت صلة
الأسرة بالفقيد صلة رحم وقرابة ونسب ،

السيد نائب الرئيس ،

سادتي أعضاء الجمع ،

سيداتي ، سادتي

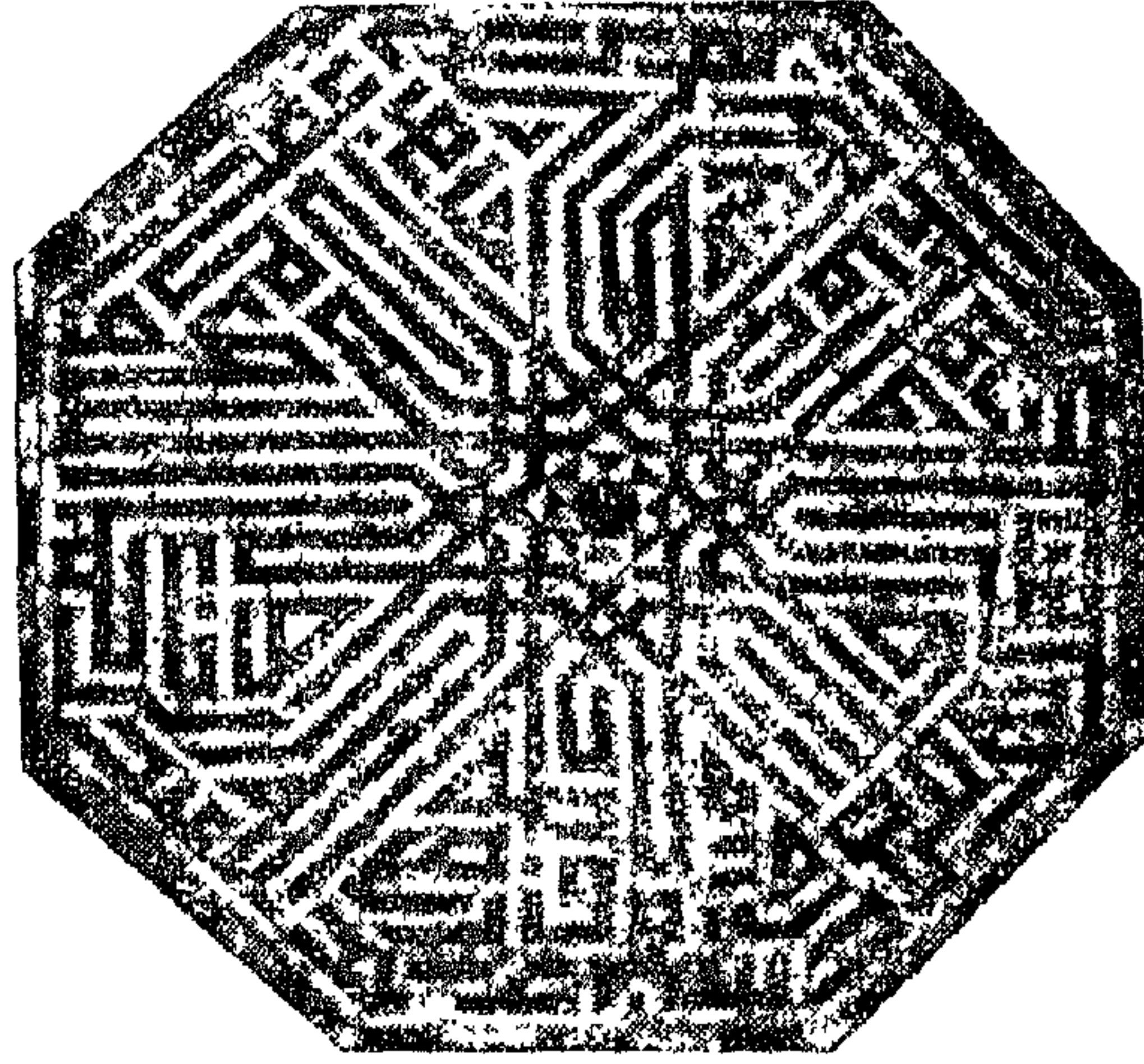
ليس بالشرف القليل أن تتاح لي فرصة
الوقوف بينكم لأتحدث إليكم .

حفلكم هذا الجامع الكريم، خطباء وسامعين
واقدين ومقيمين .

إن روح الفقيد اتر فرفرف عليكم من علياها
لتهدى إليكم على الرضى والعرفان ، ولتلهبنا
جميعا جميل الصبر والسلوان :
والسلام عليكم ورحمة الله

فإن صلتكم به أكثر عمقا وأبقى أثرا ، إذ أنها
صلة فكر وروح :

وإن لم يكن بد من أن تكون للأسرة كالمدة
فكلمتنا هي تحية إكبار وإجلال لهذا الوفاء
الرائع ، الذى ضربتم له المثل الأعلى في





رئيس جديد للمجمع :

انتخب مجلس المجمع الدكتور ابراهيم مذكور رئيسا للمجمع ،
خلفا للمغفور له الدكتور طه حسين . وقد صدر باعتماد انتخابه القرار
الجمهورى التالى :

قرار رئيس جمهورية مصر العربية رقم ٧١٩ لسنة ١٩٧٤

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور ،
وعلى قرار رئيس الجمهورية رقم ١١٤٤ لسنة ١٩٦٠ بإنشاء مجمع
اللغة العربية ،

قرر :

(المادة الاولى)

اعتماد انتخاب السيد الدكتور ابراهيم بيومى مذكور رئيسا لمجمع
اللغة العربية لمدة اربع سنوات .

(المادة الثانية)

ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية .
صدر برئاسة الجمهورية فى ٢٦ ربيع الثانى سنة ١٣٩٤ (١٨ مايو
سنة ١٩٧٤) .

(انور السادات)

امين عام مجلس الوزراء

توقيع

(احمد صلاح الدين عفيفى)

اعضاء جدد :

- انتخب مجلس المجمع اربعة أعضاء جدد ، وهم السادة :
- ١ - الأستاذ على النجدي ناصف أستاذ النحو السابق بكلية
دار العلوم بجامعة القاهرة .
 - ٢ - الأستاذ محمد شوقى أمين الخبير بالمجمع ورئيس التحرير
السابق به .
 - ٣ - الدكتور أحمد عز الدين عبد الله أستاذ القانون الدولى والعميد
السابق لكلية الحقوق بجامعة القاهرة .

٤- الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة السابق بكلية الآداب
بجامعة القاهرة .

وقد صدر باعتماد عضويتهم قرار جمهورى هذا نصه :-

قرار رئيس جمهورية مصر العربية

رقم ٢٤٣ لسنة ١٩٧٤

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور ،

وعلى قرار رئيس الجمهورية رقم ١١٤٤ لسنة ١٩٦٠ بإنشاء مجمع
اللغة العربية ،

قرر :

(المادة الأولى)

اعتماد عضوية السادة الموضحة أسماؤهم فيما بعد بمجمع اللغة
العربية وهم :

- ١ - الأستاذ على النجدى ناصف .
- ٢ - الأستاذ محمد شوقى أمين .
- ٣ - الأستاذ الدكتور أحمد عز الدين عبد الله .
- ٤ - الأستاذ الدكتور عثمان محمد أمين .

(المادة الثانية)

على وزير الثقافة تنفيذ هذا القرار .

صدر برباسة الجمهورية فى ٦ صفر سنة ١٣٩٤ (٢٨ فبراير
سنة ١٩٧٤) .

صورة مرسلة الى السيد وزير الثقافة .

(انور السادات)

أمين عام مجلس الوزراء

توقيع

(أحمد صلاح الدين عفيفى)

فقيدان راحلان :

استأثرت رحمة الله تعالى بروح المغفور لهما : الأستاذ على السباعى
عضو المجمع الذى توفى فى ٢/٤/١٩٧٤ والدكتور عبد الحكيم الرفاعى
عضو المجمع الذى توفى فى ١٩/٤/١٩٧٤

صلات المجمع الثقافية :

●● تلقى المجمع طائفة من مصطلحات الجيولوجيا من المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ، وقرر المجلس بجلسته المنعقدة في ١٩٧٣/١٢/٣ احوالها على لجنة الجيولوجيا ، لنظرها وايداء الراى فيها .

●● تلقى المجمع من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تقريراً عن أعمال مؤتمر التعريب ، الذى عقد بالجزائر فى المدة من ١٢ الى ١٩٧٣/١٢/٢٠ ، وأشار المجلس بجلسته المنعقدة فى ١٩٧٤/١/١٦ . بأن يضم التقرير الى محضر هذه الجلسة (وهو منشور فى محاضر جلسات المجلس فى الدورة الأربعين) .

●● قام بتمثيل المجمع الدكتور أحمد بدوى عضو المجمع فى الندوة التى عقدها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية عن المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى ، فى مناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على وفاته .

●● أهدى المستشرق الألمانى الأستاذ زلهام رئيس قسم الدراسات العربية بجامعة فرانكفورت بألمانيا الغربية ، ورئيس تحرير مجلة ORIENS مجموعة أعداد هذه المجلة ، وهى واحد وعشرون عدداً ، وقد بعث اليه المجمع بمجموعة من أعداد مجلة المجمع .

مؤتمر المجمع

عقد المجمع مؤتمره السنوى للدورة الأربعين لمدة استمرت خمسة عشر يوماً (من الاثنين ١٩٧٤/٢/٢٥ إلى الاثنين ١٩٧٤/٣/١١) . وستنشر محاضر المؤتمر ، وما ألقى فيه من بحوث ، فى المجموعة الخاصة به :

● المهندس الشاعر الدكتور الدهرداش :

ومن طريف ما يؤثر عن هذا المؤتمر ما حدث عقب إحدى الجلسات ، التى احتدم فيها النقاش حول بحث ألقاه أحد الأعضاء .. فقد انتحى الدكتور المهندس الشاعر « إبراهيم أدهم الدهرداش » عضو المجمع ببعض الأعضاء جانباً ، وأخذ ينشدهم طرفاً من أشعاره ، على تخفيف من حرارة المناقشة بشعره الرقيق العذب ، الذى « هندس » عباراته وصوره فى عناية ودقة ومهارة :

وسرعان ما تكاثر الأعضاء من حوله ، وهم يستمعون ويستمتعون :

وكان مما قال :

أمر . . . ونهى

إِنَّ الْكَلَامَ شَفِيعٌ عِنْدَ سَامِعِهِ لِمَن تَكَلَّمَ . . . اخْتَذَ زَلَّةَ الْكَلِمِ
وَالخَطُّ فِي رَسْمِهِ عَشْوَانُ صَاحِبِهِ فَاحْرَضَ عَلَى حُسْنِهِ يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ
كَبَّرَ اللهُ !

سَرَّحَ الطَّرْفَ يَمِينَةً وَيَسَارًا آتَى لَيْلٍ أَنْ يَصِدَّ نَهَارًا
وَاسْتَمَعَ لِلنِّدَاءِ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ يَخْرِقُ الْحُجُبَ لِلسَّمَاءِ جَهَارًا
كَبَّرَ اللهُ بِكُرَّةٍ . . . وَتَذَكَّرَ أَنْ لِلخَلْقِ وَاحِدًا قَهَارًا



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

وكيل أول
رئيس مجلس الإدارة
على سلطان على

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٢٠٢

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
٤٠٠٢-١٩٧٥٣٩٨٢٤

